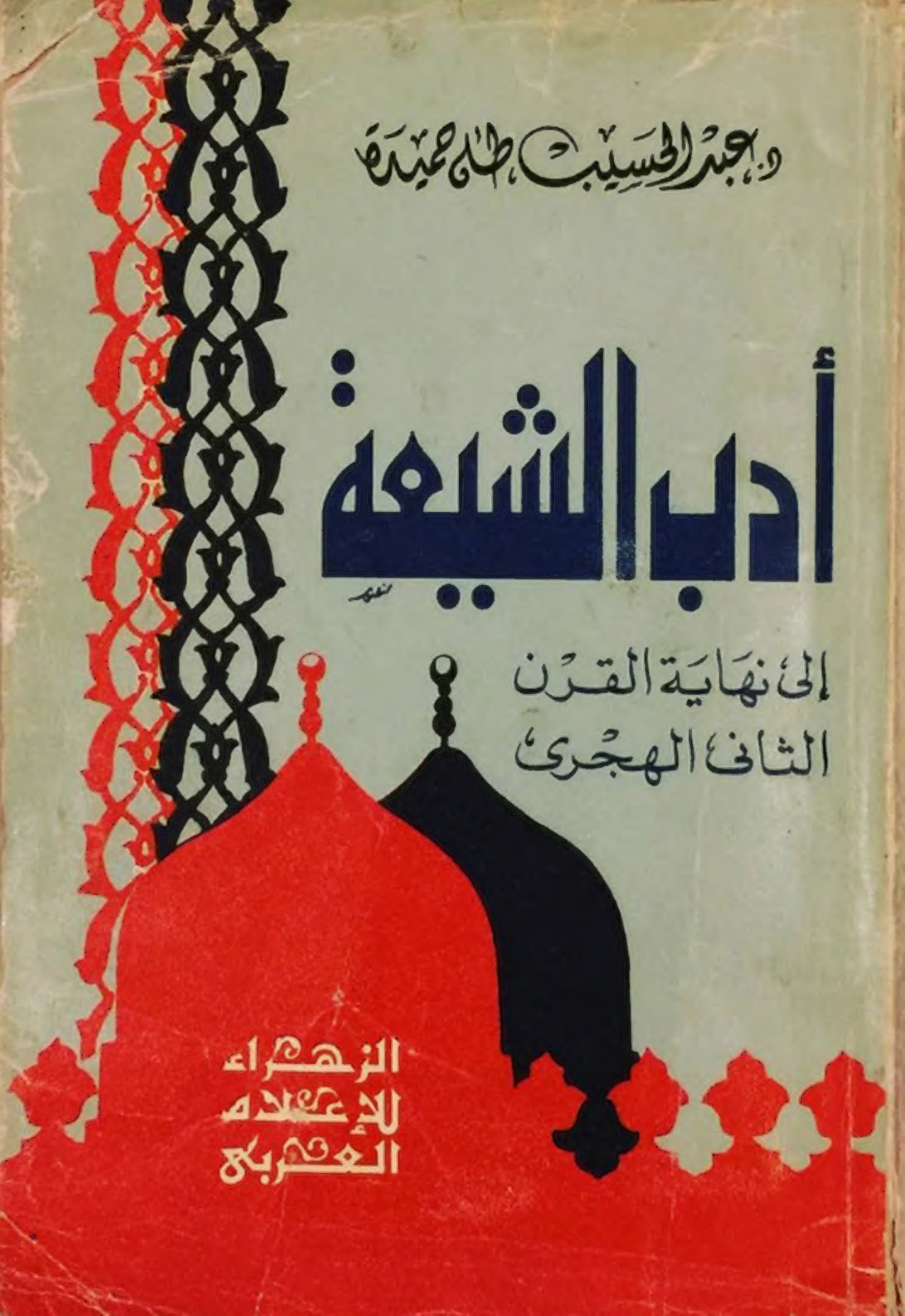

د. عبد الحسيب طه حميدة
أدب الشيعة
إلى نهاية القرن
الثاني الهجري
الزهراء
للإعلام
العربي



أدب الشيعة

إلى نهاية القرن الثاني الهجري

بقلم

الدكتور عبد الحسيب طه حميده
وكيل كلية اللغة العربية

الطبعة الثانية

١٣٨٨ هـ — ١٩٦٨ م

مطبعة السعادة بمصر

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ * مٰلِكِ يَوْمِ الدِّينِ *
إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ * اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ
أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ *

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الأولى

رب أنعمت فزد

يرجع إلفى لهذا النوع من الأدب السياسى إلى السنة الثانية من سنى دراستى فى كلية اللغة العربية . . حينما كنت مكلفاً دراسة الأدب الأموى ، والوقوف على قديمه وجديده ؛ فإذا أنا أمام ثروة مشرقة من آدابنا الحزبية ، تظاهرت على إنضاجها عقول صقلها الإسلام ، وهذبها كتابه ، وأقامتها حياة اجتماعية وسياسية ؛ فإذا هى جديدة فى كل شىء ، جديدة فى تفكيرها وحجاجها ، جديدة فيما تعتمده من دفاعٍ قوى ، وحوارٍ ممتع ، وأدب خليق بالبحث المستقل والدرس المفصل .

* * *

ثم كانت دعوة كريمة ناشدت أبناء الأزهر وعلماءه ، أن يدرسوا الأحزاب الإسلامية ، ويقفوا على طرائق الجدل والحجاج فيها ، وناشدتهم — بوجه خاص — أن تكون دراساتهم لنشدان الحق ، ووجه العلم ، بعيدة عن التعصب والهوى . . فطمحت نفسى إلى النهوض بنصيبى من هذه الرغبة ، ولست أملك — بحكم ما تخصصت فيه — إلا الناحية الأدبية ، فحثثت السير ، وضاعفت العمل ، وأخذنى جمال البحث ، بل جمال الأدب وقوته ، وإشراق العقل العربى وحريته ، فكان أدب الشيعة بعض ما بحثت .

أما لماذا اخترت أدب الشيعة موضوعاً لرسالتى ؛ فلأنه — أولا — أدب يمجد سلالة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وينتصر لحقهم ، ويبكى مصارع قتلاهم ؛ ولأنه — ثانياً — أدب يصور العاطفة المتأججة ، والحب الصادق . . والأدب إذا تظاهرت على إبرازه : عاطفة حيـة ، وإحساس قوى ، وعقيدة راسخة . . كان فى عرف المتأدبين جديراً بالبحث ، وحقيقاً بالحياة .

وإذا كان فى الأدب الشيعى شىء ؛ فعذره أنه أدب حزبى ، ينافح عن فـكرة آمن بصوابها ، ويدافع عن عقيدة أشرب قلبه حبها ، على أن دارس الأدب ينبغى أن يدرس الأدب لنفسه ، يبحث جيده ورديئه ، ويتقن غثه وسمينه ، من غير تفاوت ولا تفريق ، بل يعرض ما درس فى حيدة الناقد البصير ، مستلهما اتجاهات النقد ومدارسه .

* * *

ومنهجى فى البحث واضح جلىّ : بدأت أدرس التاريخ السياسى للشيعة والأحزاب الأخرى ، لغرض واحد ؛ هو الوقوف على أثر هذا التاريخ فى الحياة الشيعية ، والعقليـة الشيعية ، ثم الأدب الشيعى . . فاستقامت لى نظريتى ، وارتسمت فصولها . . فسجلت فى الفصل الأول التاريخ السياسى للشيعة ، وأجملت فى الفصل الثانى بقية الأحزاب المناوئة ، وخصصت فصلا ثالثاً للعقائد الشيعية ، وأثرها فى الأدب .

وهنا غلبتنى أزهريتى ، فوقفت قليلا عند جمهرة من هذه العقائد ، أعرضها فى صدق وأمانة كما عرضها علماؤنا ، ثم أناقشها ، وأستدل لها ، وعليها ، وهنـا كذلك وضحت الفـكرة الشيعية ، واستبانت أطوارها ، فأوجزتهـا فى كلمات ، قدمت بها موضوع بحثى

أما قسم الأدب ؛ فله منهج فى البحث ، وسبيل جديد ، عمدت إلى أدب الشيعة ؛ فنثرته بين يدى ، متوخياً عصوره ، مستقصياً مناهجه وأصوله ، فإذا أنا أمام أدب يتدرج فى حجاجه ومناحيـــه ، تدرج الفكرة الشيعية فى سذاجتها وعمقها ؛ فهو عربى صريح أيام أن كانت الفكرة الشيعية عربية صريحة ، وهو عنيف ، ثائر ، حزين ، فى الوقت الذى تغلغلت فيه الفكرة الشيعية ، وأبرزتها الفواجع العلوية فى صور من العقائد ، فاستقل لتبيان ذلك الفصل الرابع .

* * *

وفى دراستى لأدباء الشيعة وقفت أمام مشكلة لم يستطع التاريخ الأدبى أن يضع عليها المنار ، ويقيم فى طريقها الأنوار . . تلك هى الحياة الخاصة لهؤلاء الأدباء . . مع إيمانى بأن معرفة هذه الحياة تمكن الدارس من الحكم على الأديب ، وتبصره مصادر إلهامه ، لذلك ـ وأمام هذه الظاهرة الشائعة فى تاريخنا الأدبى ـ سرت فى بعض خطبائهم سير المجمل أعياه التفصيل ، فاكتفى بالتعريف . . وفصلت ما استطعت التفصيل فيه ، فكان المختار الثقفى أوفقهم حظا ، وترجمت لشاعرين من شعراء هذه الفـترة ، يمثل كل منهما ناحية شيعية : « الكميت بن زيد » رجل الإمامية ، و « السيد الحميرى » أستاذ « الكيسانية » .

ثم سجلت ذلك فى الفصل الخامس .

أما الفصل الأخير : أثر التشيع فى الأدب العربى ؛ فقد جمعت لَبِنَاته من رسالتى ، وما احتفظت به أثناء دراستى .

* * *

وبعد : فهذا منهجى فى البحث ، وهذه رسالتى ، أخرجتها على شرط التزمته : بروز الفكرة ، والإفاضة فى الأدلة .

وأنا سعيد أن أضعها — فى أدب الباحث — بين يدى قرائى الأجلاء ، فليس من شك فى أنها أثر من آثارهم ؛ لأن صاحبها أثر من آثارهم ، وغصن من دوحتهم الظليلة .

والإقرار بالجميل كفاء الواجب ؟

عبد الحسيب طه

القاهرة فى { ربيع الأول سنة ١٣٦٢ هـ
فبراير سنة ١٩٤٣ م }

مقدمة الطبعة الثانية

هذا كتاب أدب الشيعة .

أدب العاطفة المتأججة والحب الصادق .

أدب تظاهر على إنضاجه عقول صقلها الإسلام وهذبها كتابه .

وقامت دعائمه على حياة اجتماعية وسياسية ، فإذا هو جديد فى كل شىء .

جديد فى تفكيره ، وحجاجه ، وفهمه لقضاياه ، جديد فيما يعتمده من دفاع قوى ، وحوار ممتع ، وعاطفة مرهفة ، وإحساس صادق .

والأدب إذا تظاهر على إبرازه عاطفة وإحساس وعقيدة ، كان فى عرف المتأدبين جديراً بالبحث ، وحقيقاً بالحياة .

وإذا كان فى الأدب الشيعى شىء فعذره أنه أدب حزبى ، ينافح عن فكرة آمن بصوابها ، ويدافع عن عقيدة أُشرب قلبه حبها .

ثم أبرز ذلك فى صراحة العربى ووثوق المؤمن ، يرى فى رسول الله وآله قدوته الصالحة ، ومثله الأعلى :

أُناس إذا وردتْ بَحرهم ... صوَادِى الغَرائِبِ لم تغرب

وليس التفحش من شأنهم ... ولا طيرة الغضب المغضِب

ولا الطعن فى أعين المقبلين ... ولا فى قفا المدْبر المذنب

نجوم الأمور إذا أدلست ... بظلماء ديجورها الغَيْهب

وأهل القديم ، وأهل الحديث ... إذا عُقِدَت حبوة المحتبى

فلا غرو أن انطلق — بعاطفته وإحساسه — ينتصر لحقهم ويَسْتدل لقضيتهم ، ويبكى مصارع قتلاهم ، ويصور ما أصابهم من بنى الأمويين ،

ثم العباسيين ، تصـــويراً عاطفياً ، صادق الأداء ، ناصع الأسلوب ، متدفق الحجة :

فآل رسول الله نحف جسومهم وآل زياد حفل القصرات
بنات زياد فى القصور مصونة وآل رسول الله فى الفلوات
إذا وتروا مدوا إلى أهل وترهم أكفاً عن الأوتار منقبضات

أو يقول :

تبيت سكارى من أُميّة نوما وبالطف قتلى ما ينام حميمها
وما أفسد الإسلام إلا عصابة تأمّر نوكاها ، ودام نعيمها
فصارت قناة الدين فى كف ظالم إذا اعوج منها جانب لا يقيمها

* * *

هذا هو أدب الشيعة أقدمه على شرط التزمته ، وضوح الفكر ، والإفاضة فى الأدلة .

وأنا سعيد فى أن أضعه — فى أدب الباحث — بين يدى قرائى الأجلاء راجياً أن يجدوا فى طبعته الثانية ما وجدوه فى طبعته الأولى من دراسة وتحقيق ؟

دكتور
عبد الحسيب طه حميده
أستاذ الأدب العربى ، ووكيل كلية اللغة العربية — جامعة الأزهر

القاهرة فى { ربيع الأول ١٣٨٨ هـ
يونيه ١٩٦٨ م

مقدمة

الفكرة الشيعية : نشأتها وأطوارها

الطور الأول :

نشأت الفكرة الشيعية يوم وفاة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فطرية ساذجة ، تقوم أسسها على القرابة من الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ والسبق في الإسلام ، والجهاد في سبيل الله ، وتتلخص دعوتها : في أنه إذا مات الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأولى الناس أن يخلفه آل بيته .

يقول على بن أبى طالب ـ رضى الله عنه ـ وقد بايع[1] الناس أبا بكر الصديق

---

(١) كانت الخلافة أول مسألة اشتد فيها النزاع بين المسلمين وتشعبت آراؤهم . . . فمنذ اللحظة الأولى لوفاة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ شعر المسلمون بالحاجة إلى من يخلفه ، فاجتمعوا فى سقيفة بنى ساعدة : أنصار يدلون بالإيواء والنصرة ، ومهاجرون يعتزون بالعشيرة والهجرة ، كل يرى الأمر له ؛ فتشعب الرأى ، وطال الحوار ، وبدت الفتنة ، ثم أدركها عمر رضى الله عنه ـ وكم لعمر من إلهامات ! ـ فبايع أبا بكر ، فبايع الناس ، وكانت فلتة ، وقى الله شرها ، ونجى المسلمين من أرهب ساعة فى تاريخ الإسلام ، بل فى تاريخ الوجود .

والتاريخ مضطرب فى موقف على من هذه البيعة التى لم يحضرها لاشتغاله واشتغال الهاشميين بتجهيز الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ودفنه ، ففى بعض الروايات ، أنه ذهب عجلا إلى أبى بكر فبايع ، مع اعتقاده أنه أحق الناس بهذا الأمر . وفى بعضها ، أنه امتنع حتى توفيت زوجه فاطمة بنت الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثم ذهب فبايع .

وما أظن ذلك يكون موقف على بن أبى طالب من أخطر قضية إسلامية مهما =

ـ رضى الله عنه ـ : يا معشر المهاجرين ، الله الله ، لا تخرجوا سلطان محمد عن داره وبيته إلى بيوتكم ودوركم ، ولا تدفعوا أهله عن مقامه فى الناس وحقه ، فوالله يا معشر المهاجرين لنحن ـ أهل البيت ـ أحق بهذا الأمر منكم ؛ أما كان منا القارىء لكتاب الله ، الفقيه فى دين الله ، العالم بالسنة ، المضطلع بأعباء الرعية ، والله إنه لفينا فلا تتبعوا الهوى ، فتزدادوا من الحق بعداً[١] .

***

دعوة فطرية تقوم على نظرة العربى ـ الذى هذبه الإسلام ـ للرياسة ، وبيت الرياسة ، وقد جمع على بن أبى طالب ـ رضى الله عنه ـ أسسها ، كان كما يقول عدى بن حاتم : « سيد المسلمين ، أفضلها سابقة ، وأحسنها فى الإسلام أثراً »[٢] .

= كانت نظرته للخلافة وحقه فيها. ولعلى من مواقف التضحية لصالح الدعوة الإسلامية ماسجله له التاريخ بمداد من نور .. وقد روى الطبرى وغيره لابن أبى طالب عديدا من الخطب ذكر فيها من سبقه فأثنى ومدح يقول: فيذكر إنعام الله على هذه الأمة بالجماعة ؛ بالخليفة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم الذى يليه ثم الذى يليه . طبرى ج٥ص ١٩٤ .

ومن قول على ـ رضى الله عنه وفى ذلك: أما بعد فإن الله جل ثناؤه بعث محمدا صلى الله عليه وسلم بالحق فأنقذ به من الضلالة . وانتاش به من الهلكة . وجمع به من الفرقة . ثم قبضه الله إليه . وقد أدى ماعليه ، صلى الله عليه وسلم ، ثم استخلف الناس أبا بكر رضى الله عنه . واستخلف أبو بكر عمر رضى الله عنه . فأحسنا السيرة . وعدلا فى الأمة ؛ وقد وجدنا عليهما أن توليا علينا ، ونحن آل رسول الله صلى الله عليه وسلم فغفرنا ذلك لهما . وولى الناس عثمان رضى الله عنه فعمل بأشياء عابها الناس عليه فساروا إلى قتله فقتلوه . طبرى ج ٦ ص ٤ .

فهذا يدل على موقف على ممن سبقه من الخلفاء . . ومهما يكن من شىء فقد بدأت الفكرة الشيعية من هذا الوقت .

(١) ابن أبى الحديد ج ٦ ص ٥ .

(٢) طبرى ج ٥ ص ٢٤٢ وابن الأثير ج ٣ ص ٢٥ .

وورث ـ بحكم مولده ومرباه ـ مناقب النبوة ، ومواهب الرسالة ، وبلاغة الوحى ، وصراحة المؤمن ، وبسالة المجاهد ، وشرف النجار ، فأجمع الناس على إجلاله ، وكادوا يطبقون على حبه ، وأهلته هذه الخلال ، وما حبى به من سبق فى الإسلام ، وبلاء فى نصرة الدين ، وشرف القرابة القريبة من نبى الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ والصهر ، والأبوة الكريمة للسبطين : الحسن ، والحسين رضى الله عنهما

أهله ذلك كله لأن يرى نفسه ، وتراه جماعة من الصحابة أحق من يخلف الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى قومه ، ويرثه سلطانه . . فتكونّ حول هذه الشخصية النبيلة « جماعة الشيعة »[1] .

ظهرت الفكرة الشيعية يوم وفاة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ كما قلنا ، وكانت جماعتها الأولى الهاشميين ونفراً من الصحابة ؛ فلما بايع الناس أبا بكر ـ رضى الله عنه ـ وقام بعهده عمر ـ رضى الله عنه ـ كبتت فى نفس أصحابها طيلة خلافة الشيخين ، وساعد على خمودها عدل أبى بكر وعمر ، وانتصافهما ، حتى من أنفسهما ، ومحاربتهما العصبية القبلية ، واشتغال الناس بالحروب والفتوح ونشر الدعوة الإسلامية ، فلم تجد هذه الفكرة مجالا للظهور .

***

(١) فى اللغة شيعة الرجل : أتباعه ، وأنصاره ، والفرقة على حدة ، ويقع على الواحد والجمع ، والاثنين ، وللذكر والمؤنث ، وقد غلب هذا الاسم على كل من يتولى عليا وأهل بيته ، حتى صار اسما خاصا لهم ، والجمع : أشياع ، وشيع ، ولم تستطع المصادر أن تحدد بالضبط الوقت الذى صار فيه هذا الاسم علما على هذه الفرقة ، وأقدم نص عثرنا عليه مانقلناه فى هذه الرسالة . . عن ابن الأثير عن عمرو بن الأصم فى حديثنا عن الرجعة .

وتولى عثمان بن عفان ـ رضى الله عنه ـ بخلقه اللين ، وقلبه الرحيم ، وشيخوخته الهادئة الوديعة ؛ فوهنت اليد المصرفة ، فسندتها يد أخرى[١] ، وتشتت الأمر ، فلم يصدر عن الخليفة وحده ، بل حكم آله الناس بعصبيتهم الأموية ، لا بقوميتهم العربية ؛ فاستيقظت الفتنة ، وتحرك ما كان كامناً فى نفوس القوم ، من العداوة القديمة الجاهلية ، وخاصة بين بنى هاشم وبنى أمية ، وتبرم الناس من عثمان وأنصاره ، فانتشرت الجمعيات السرية ، تدعو إلى خلع الخليفة ، وتولية غيره . . وهنا وجدت الدعوة العلوية فى هذا الجو المضطرب ، والفتن المتأججة ، مرتعاً خصيباً تحيا فيه وتزدهر ، ودعاة تختلف أغراضهم فى التشيع : فمنهم المخلص لمبادئه ، المخلص لدينه ، يدعو لعلى ؛ لإيمانه بحقيته ونفعه ، ومنهم من اتخذه ستاراً لأغراض خبيثة ، ونيات أثيمة ، يسرون محاربة الإسلام ، وهدم سلطانه ، وتشويه عقائده . . . وأصبح التشيع ـ كأى حزب ـ فيه المخلص والمدلس ، ومن يعتقده ديناً ، ومن يراه جلباً لمصلحة ، وتحقيقاً لغاية ، واختلطت الدعوة ؛ فإذا هى مزيج من أفكار مختلفة ، وديانات متعددة ، عرفها الإسلام بالفتح ، وتشربها التشيع بالبيئة . . . فرأينا القول بالرجعة ، وسمعنا مذهب الوصاية ، واستحق على بها ـ وبما ورث من دم هاشمى ـ الخلافة ، والإمرة . .

وهكذا عرف الإسلام عقائد لم يكن يعرفها من قبل ؛ قبل أن يرث المسلمون مدائن كسرى وقيصر ، وترث عقولهم حضارات الفرس والروم .

***

لكن هذه الأفكار الشيعية الجديدة ـ وإن نجحت فى الأمصار ، فأحدثت الفتنة وولدت الفرقة ، وقتلت الخليفة ـ لم تصادف نجاحاً فى الأفق العربى إلا بعد

---

(١) يد مروان بن الحكم ، وقد استوزره عثمان بن عفان ـ رضى الله عنه .

حين ، فظلت مقصورة على أصحابها ، محصورة فى هذه الطائفة السبئية[١] محاربة من على وآله ، مبغضة إليهم ، ومضى التشيع على أذلاله : عربياً صريحاً قائماً على الفضائل ، والقرابة ، والسبق ، لم يتأثر بتلك الأفكار الدخيلة من يهودية ، ونصرانية ، وفارسية . . . فعلىٌ يحتج على معاوية بالقدم السابق ، والشرف الباسق[٢] ، ويقول لمن سأله : كيف دفعكم قومكم عن هذا المقام وأنتم أحق به ؟ : « أما الاستبداد علينا بهذا المقام ـ ونحن الأعلون نسباً والأشدون برسول الله صلى الله عليه وسلم ـ نوطا ؛ فإنها كانت أثرة ، شحت عليها نفوس قوم ، وسخت عنها نفوس آخرين »[٣] .

ويخطب عدىّ بن حاتم فى « صفين » فيذكر خلال علىّ التى بها استحق الخلافة فيقول :

« والله لئن كان إلى العلم بالكتاب والسنة : إنه لأعلم الناس بهما ، ولئن كان إلى الإسلام : إنه لأخو نبى الله والرأس فى الإسلام ، ولئن كان إلى الزهد والعبادة : إنه لأظهر الناس زهداً ، وأنهكهم عبادة ، ولئن كان إلى العقول والنحائز : إنه لأشد الناس عقلا ، وأكرمهم نحيزة ، ولئن كان إلى الشرف والنجدة : إنه لأعظم الناس شرفاً ونجدة ، ولئن كان إلى الرضا : لقد رضى عنه المهاجرون والأنصار فى شورى عمر ـ رضى الله عنه ـ وبايعوه بعد عثمان ،

---

(١) نسبة إلى عبد الله بن سبأ ، يهودى أسلم فى خلافة عثمان ـ رضى الله عنه ـ انظر الفرق بين الفرق ص ٢٢٣ ، وانظر الطبرى ج ٥ ص ٩٨ ، والملل والنحل ج ١ ص ٣٦٥ ـ مطبعة الأزهر .

(٢) نهج البلاغة ج ٣ ص ١٢ ، تحقيق أستاذنا الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد ، والغالب فى القدم التأنيث ؛ فالوصف السابقة ولكن نطق الإمام حجة .

(٣) نهج البلاغة ج ٢ ص ٧٩ ، والنوط ـ بالفتح ـ التعلق .

ونصروه على أصحاب الجمل وأهل الشام »[١] .

وتقول أمُّ سنان بنت خَيْثَمَةَ المَذْحجية :

يا آلَ مَذْحِجَ لا مُقامُ فَشَمِّروا إن العَدُوَّ لآلِ أحمد يَقْصِدُ
هـذا عليٌّ كالهِلاَل تحُفُّهُ وسْط السماءِ من الكواكبِ أَسْعُدُ
خَيْرُ الخلاَئِقِ وَابن عمِّ محمـد إن يَهْدِكُمْ بالنُّور منه تهْتَدُوا
مَا زَالَ مُذْ شَهِدَ الحُرُوبَ مَظَفَّرا والنَّصْرُ فَوْقَ لِوَائِهِ مَا يُفْقَدْ[٢]

وتقوم سودة بنت عمارة بن الأشتر الهَمْدَانية ، فتقول ـ تخاطب أخاها وتحضه ـ :

وانْصُر عَلِيّاً والحسينَ وَرَهْطهُ واقْصِدْ لِهَنْدٍ وابنها بهوان
إن الإمام أخو النبيِّ محمـد عَلَمُ الهدى ومنارةُ الإيمانِ[٣]

ويرثى « أبو الأسود الدؤلى » « علىّ بن أبى طالب » ؛ فيقول :

قَتَلْتُم خيرَ مَنْ رَكِبَ المَطَايَا ورحَّلها ، وَمَنْ رَكِبَ السَّفِينا
وَمَنْ لَبِسَ النِّعَالَ ، وَمَنْ حَذَاهَا وَمَنْ قَرَأَ المثـانِيَ والمثينا
إذا اسْتَقْبَلْتَ وَجْهَ أبى حُسَيْنٍ رَأيتَ البَدْرَ زَانَ النَّاظِرِينا[٤]

---

(١) جمهرة خطب العرب ج ١ ص ٢٠٢ والنهك : المبالغة فى كل شىء ، والنحيزة: الطبيعة .

(٢) العقد الفريد جـ ١ ص ٢١٤ ، وبلاغات النسـاء ص ٦٧ ، وصبح الأعشى ج ١ ص ٢٥٨ .

(٣) المصدر نفسه .

(٤) مروج الذهب ج ٢ ص ٣٥ والطبرى ج ٦ ص ٨٧ ، والأغانى ج =

وكل أولئك نظرات عربية صريحة ، وعقائد فطرية صافية ، تمثل العقلية العربية فى صفائها ، وفطرتها ، ومدح بما يمدح به شيخ القبيلة ، من الإشراق والضياء ، والأدب الجاهلى حافل بتشبيه الممدوح بالبدر والشمس ، فالخليفة عندهم ـ عند الشيعة الأولين ـ كشيخ القبيلة سواء ، رجل منهم ، أهلته خلاله وكريم محتده ، لأن يختار رئيساً ، والفرق أن فضائل الرئيس فى الجاهلية : كرم وسؤدد ، وشجاعة ، وعقل ، وهى كذلك فى الإسلام ، مضافا إليها السبق فى الإسلام ، وحسن البلاء فى نصرته ، والقرابة الوثيقة من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولن يرفعه هذا عن أن يكون رجلا كـكل الناس : يأكل كما يأكلون ، ويشرب كما يشربون ، ويخطىء ، ويصيب ؛ فيقال له : أخطأت ، كما يقال له : أصبت . . . وهكذا كانت الفـكرة الشيعية فى دورها الأول .

الدور الثانى :

ويقتل الحسين بن على ـ رضى الله عنه ـ فى العاشر من المحرم سنة إحدى وستين من الهجرة ، فتشاهد الشيعة أول انقسام حول الإمام ، كيسانية :

= ص ١٢٢ ، وابن الأثير ج ٣ ص ١٧١ والبدء والتاريخ ج ٥ ص ٢٣٣ والخطاب للخوارج (الاستيعاب فى معرفة الأصحاب) وأول الرثاء :

ألا قل للخوارج حيث كانوا فلا قرت عيون الشامتينا

وأبو الأسود : ظالم بن عمرو من مضر بن نزار . شاعر شيعى مقدم ، معدود فى طبقات الناس ، مأثور عنه الفضل فى جميعها ، كان معدودا فى التابعين ، والفقهاء ، والشعراء ، والمحدثين ، والأشراف ، والفرسان ، والأمراء والدهاة ، والنحويين ، والحاضرى الجواب ، والبخلاء ، مات قبل قتل الحسين رضى الله عنه ، انظر ترجمته فى الأغانى ج ١١ ص ١٠١ .

تنقل الأمر إلى ابن الحنفية[1] ـ محمد بن على بن أبى طالب ـ وإمامية : تتولى على ابن الحسين . . ويظهر فى مكة والمدينة صوت جديد من أصوات الفرقة يدعو لعبد الله بن الزبير ، وتغدو الجزيرة العربية منبعاً للأهواء والفتن ، ومسرحاً للتحزب والحروب . . فإذا سموم ابن سبأ تنتشر هنا وهناك ، وتجد فى العقلية العراقية ـ الفارسية أصلا ـ مجالا فسيحاً ، وتتخذ من حادثة الحسين واضطهاد بنى هاشم ـ على يد ابن الزبير بمكة ، وبنى أمية بالشام ـ وقودها ومطيتها ، وإذا هذه العقائد السبئية من رجعة ، ووصاية ، وتناسخ ، وبداء ، هى أسس التشيع ، وقواعده ، وإذا الفكرة الشيعية تتحور إلى شيء جديد على العقلية العربية كل الجدة ، غريب عن تعاليم الإسلام كل الغرابة ، فعلىٌّ ليس ولىّ الأمر بالفضائل والسبق فقط ؛ بل بهما ، وبالوراثة ، وبالنص . . « لأن الإمامة ليست من المصالح العامة التى تفوض إلى نظر الأمة ، ويتعين القائم فيها بتعيينهم ، بل هى ركن الدين ، وقاعدة الإسلام ، لا يجوز لنبى إغفاله ، ولا تفويضه إلى الأمة ، بل يجب عليه تعيين الإمام »[2] . . وقد عين الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ علياً ، وأوصى له بالأمر بعده ، وأمر الصحابة أن يبايعوه ؛ فهو الوصى ، وهو ولى الأمر بعد محمد ، ووارثه ؛ وقد أوصى على بالأمر لابنه الحسن ، وأوصى الحسن للحسين ، وورث ابن الحنفية هذا الميراث الضخم عند الكيسانية ، أو ورثه على بن الحسين عند الإمامية .

وبالنص والفضائل تولى زيد بن على عند بعض الإمامية ـ وهم الزيدية ـ

---

(١) نسبة إلى أمه خولة بنت إياس ، من بنى حنيفة ، أو أمة لهم ، وهو إمام الفرقة الكيسانية كما سيأتى ، ولى الأمر بالنص عن الحسين عند بعض الكيسانية ، أو عن أبيه على عند بعض آخر ولد سنة ١٦ هـ ، وتوفى بأيلة أو بالطائف س ٨١ هـ .

(٢) مقدمة ابن خلدون ص ١٥٥ .

أو تولى أخوه محمد الباقر عند بقية الإمامية . . وهكذا كل إمام كان يتولى الأمر بوصاية من قبله ؛ فالصحابة إذ بايعوا غير على خالفوا أمر الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وغصبوا الحق من صاحبه ، وعلى إنما بايع هؤلاء « تقية » ، إذ لم يجد من ينهض بحقه ، فضن بأصحابه عن المنية ، وبجماعة الإسلام عن الفرقة ، والتقية جائزة ، بل هى تسعة أعشار الدين ، فلا دين لمن لا تقية له . . .

ومن هذا الوقت تظهر « التقية » فى الجو الشيعى ، فتأخذ مكانها فى سياستهم وعقيدتهم ، وتظهر عقيدة أخرى تنتج عن غيبة الإمام ، ورجعته ، وتنتج بوجه خاص عن أمانى الشيعة فى عودة الأمر إليهم ، ووجود من ينتقم لهم ، فكان حديث المهدى المنتظر ، الذى اتخذ أجل مكان من عقائد الشيعة ، وأدبهم ـ وبخاصة الأدب الكيسانى ـ ولعب ـ ولا يزال يلعب ـ دوراً خطيراً فى التاريخ الإسلامى .

***

وهذه الدعاوى لا بد لها من حجج تعضدها ، وتقويها ؛ فالتمسوها فى القرآن : يؤولون آياته ، والحديث : يفسرون نصوصه ، وكذلك كان موقف خصومهم ، وليس من سبيل إلى اختراع قرآن يتفق مع مذهبهم ، ويسد حاجة نفوسهم ، فعصم الله قرآنه منهم ، ولكن السبيل سهل ميسور إلى اختراع الأحاديث والكذب على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ والتقول على علىّ وأبنائه فوضع الشيعة الأحاديث فى فضل علىّ ، وولاية علىّ ، والنص على علىّ ، والتبغيض لأعداء علىّ ، ووضعوا الأحاديث كذلك فى إثبات عقائدهم ، وشرح قضيتهم ، ومدح مذهبهم ، والنيل من أعدائهم .

وقابلهم الخصوم بمثله ؛ فوضع الأمويون فى فضائل عثمان ومساوىء علىّ ،

ووضع آخرون فى أبى بكر وعمر ، وبهذا فتح الشيعة ـ أو غلاة الشيعة ـ باباً من الشر ، حملوا وزره إلى يوم الدين ؛ يقول ابن أبى الحديد الشيعى المعتزلى : « واعلم أن أصل الأكاذيب فى أحاديث الفضائل كان من الشيعة »[1] ، وعنده أن ما روى عن علىّ ـ عليه السلام ـ أكثره مكذوب عليه ، وولدت العصبية أحاديث لا أصل لها[2] . . فما لعلى والمهدى المنتظر ، وما لعلى والتحدث عن الدولة المستقبلة ، وموقعة كربلاء ، وولاية الحجاج ، والإخبار عما كان ، وما سيكون ؟ ؟ ! !

ولكن غلاة الشيعة تريد أن تدعى لعلى من الفضائل ما لا يتحمله بشر ، وتضعه فى منزلة تساوى ـ إن لم تكن تفوق ـ مقام الرسالة قال الأعمش[3] : دخلت على المغيرة بن سعد فسألته عن فضائل علىّ ، فقال : إنك لا تتحملها ، قلت : بلى ، فذكر آدم صلوات الله عليه ، فقال : على خيرمنه ، ثم ذكر من دونه من الأنبياء ، فقال : على خير منه ، حتى انتهى إلى محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ

---

(١) شرح نهج البلاغة ج ١١ ص ٧ .

(٢) ج ٢٠ ص ٤٦٢ .

(٣) سليمان بن مهران مولى بنى كاهل . كوفى ، عالم ثقة ، فاضل ؛ وهو الذى كتب إليه هشام بن عبد الملك : اكتب لى مناقب عثمان . ومساوىء على ؛ فأخذ الأعمش القرطاس ، وأدخلها فى فم شاة ، فلاكتها ، وقال لرسوله : هذا جوابك . فقال له الرسول : إنه قد آلى أن يقتلنى إن لم آته بجوابك ـ فكتب : « بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد : يا أمير المؤمنين : فلو كانت لعثمان ـ رضى الله عنه ـ مناقب أهل الأرض ما نفعتك ، ولو كانت لعلى ـ رضى الله عنه ـ مساوىء أهل الأرض ما ضرتك . فعليك بخويصة نفسك » توفى سنة ١٤٨ هـ « وفيات الأعيان ج ١ ص ٣٠١ » .

فقال : على مثله ، فقلت : كذبت ، عليك لعنة الله ؛ فقال : قد أعلمتك أنك لا تحتملها[1] .

* * *

ومهما يكن من شيء ، فلم يكد ينتهي القرن الأول من الهجرة ، إلا وقد أثمرت العقائد السبئية ثمرها الكريه خصوصاً في العقلية الإسلامية والعواصم الفارسية ، فأصبحت الوصاية ، والرجعة ، والمهدية ، والتقية ، ونظرية الوراثة ، ومبدأ النيل من الصحابة : هي أسس التشيع ، ودعائم حججه ، والميدان الفسيح لشعراء الشيعة ، وخطبائهم ، على اختلاف الفرق الشيعية في تفهم هذه العقائد وتفسيرها ، فالإمامية ، والكيسانية ، والسبئية على أن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ نص على عليّ بالاسم ، وأمر الصحابة أن يبايعوه ، ولكنهم تناسوا حقه ، فبايعوا أبا بكر ، ثم عمر ، ثم عثمان متخطين علياً ؛ فهم كفار ، وإمامة هؤلاء باطلة . . فلما ظهرت الزيدية ـ أتباع زيد بن علي بن الحسين ـ صاغت هذا النص في أسلوب مخفف ، فزعم جمهورهم أن الرسول نص على عليّ بالوصف ـ لا بالاسم ـ فأخطأ الصحابة تطبيق الوصف واختاروا أبا بكر ـ أخطئوا ، ولم يكفروا ـ لخلافة أبي بكر صحيحة ، وإن كان علي أفضل ؛ لأنه يجوز إمامة المفضول مع وجود الأفضل . . وبهذا قال شيوخهم المعتزلة . . وهذا القول مهما تحور : قول بالنص ، وإن كان من طريق الوصف .

---

(١) العقد الفريد ج ١ ص ٣٥٠ ، والأغاني ج ٧ ص ٢٥٦ ، وإلى المغيرة تنسب فرقة المغيرية من الروافض السبئية ، وقد كان المغيرة يقول : لو شاء علي لأحيا عادا وثمود والقرون بينهما . قتله خالد بن عبدالله القسري والي الكوفة من قبل هشام بن عبدالملك وصلبه . أنظر المعارف ص١٦٧ ، وتاريخ ابن عساكر ج ٥ ص٦٩ ، والبدء والتاريخ ج ٥ ص ١٣٠ .

الطور الثالث :

على أن الإمام فى نظر هؤلاء ـ إذا استثنينا الغلاة من السبئية ـ لا يزال خلقاً من خلق الله ـ بشراً خلقه الله كما يخلق الناس ، وولد وتعلم ، كما يولد الناس ، وكما يتعلم الناس ، لا فضل له ، إلا أنه من تلك السلالة الطاهرة : سلالة النبوة ، اصطفاه الله لدينه ، واختاره لإمامته ، فخصه بالفضل ، وفقهه فى الدين ، وعرفه حلاله وحرامه ، ورباه تربية خاصة ، تؤهله لهذه الرسالة : الدينية ، والدنيوية . .

ولكن انظر إلى الإمام فى الطور الشيعى الثالث ، وقد تغلغلت الفكرة فى أصل العقيدة ، كيف خلق ؟ وكيف ولد ؟ وكيف ارتفع به النظر الشيعى فصار يتلقى الوحى كما يتلقى الرسول ؟ ويفسر الشريعة كما يفسرها الرسول . . والفرق أن الإمام لا يرى الملاك ، ويراه الرسول .

اقرأ إن شئت فى أوثق كتبهم ، وأصحها عندهم ، لترى كيف أصبح التشيع قبيل القرن الثانى عقيدة تشل الفكر وتميت العقل ، كما أصبحت خطراً على الإسلام والمسلمين ، وشراً مستطيراً على الدين .

فى كتاب الكافى[1] : إذا أراد الله أن يخلق الإمام من الإمام بعث ملكا فأخذ شربة من تحت العرش . ودفعها إلى الإمام ؛ فشربها . فيمكث فى الرحم أربعين يوما لا يسمع الكلام . فإذا وضعته أمه بعث الله إليه ذلك الملك الذى

---

(١) الكافى : لمحمد بن يعقوب الكلينى المتوفى سنة ٣٢٨ هـ وهو عند الشيعة كالبخارى عند أهل السنة . ألفه فى ثلاثة أجزاء الأول فى الأصول والثانى والثالث فى الفروع وأخباره منسوبة إلى الأئمة العلويين كجعفر الصادق ومحمد الباقر وغيرهما ، طبع بفارس سنة ١٢٨١ ، ضحى الإسلام ج ٣ ص ٢١٣ .

أخذ الشربة فكتب على عضده الأيمن : « وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا لا مبدل لكلماته » ، فإذا قام بهذا الأمر رفع الله له فى كل بلدة مناراً ، ينظر به إلى أعمال العباد ، فأعمال العباد تعرض على الإمام ، وتأتيه الملائكة بأخبار الناس . . وهو يعلم ما كان ، وما سيكون ، يعلمه الله بوحى يسمعه ، ولا يراه ، كما أن الرسول أمر أن يعلم علياً كل ما عرف . . وأورث على بنيه ذلك العلم ، ومع الإمام الروح الأعظم ، فهو معصوم ، موفق ، مسدد ، قد أمن الزلل والخطأ والعثار ، يخصه الله بذلك ليكون حجته على عباده ، وشاهده على خلقه (وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم) والإمام وحده هو الذى يعلم القرآن كله ، وعنده الجفر[1] ومصحف فاطمة ـ ثلاثة أضعاف هذا القرآن ـ وهو مخصوص بالفضل كله ، من غير طلب منه ولا اكتساب ، بل اختصاص من المفضِّل الوهاب . . . وهو شجرة النبوة ، وبيت الرحمة ، ومفاتيح الحكمة ، وموضع الرسالة ، ومختلف الملائكة ، وموضع سر الله ، وديعة الله فى عباده . وحرم الله الأكبر . وذمته . وعهده . . . هو ظل الله فى الأرض ونوره ، والوسيلة الوحيدة لمعرفة الحق من الباطل ، والحلال من الحرام ، هو فوق أن يحكم عليه . طاعته واجبة ، ومعصيته كبيرة . ومعرفته جزء من الإيمان ، والخروج عليه كفر . قد أخبر الله بذلك فى قرآنه . فقال : (وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون) ، قال أبو عبد الله : المؤمنون هم الأئمة . وقال تعالى : (وأطيعوا الله ، وأطيعوا الرسول ، وأولى الأمر منكم) وقد نزلت هذه فى على والحسن والحسين . . . والأئمة هم الهداة . قال تعالى فيهم : (ولكل قوم هاد) وهم النور يؤتم به ، قال تعالى : (وجعلنا له نوراً يمشى به فى الناس) ، (فآمنوا بالله

---

(١) وعاء من جلد فيه علم النبيين ، والوصيين ، وعلماء بنى إسرائيل ، وأخبار ما سيكون ، مروى عن جعفر الصادق .

ورسوله والنور الذى أنزلنا) ونور الإمام فى قلوب المؤمنين أنور من الشمس المضيئة فى النهار ، ويحجب الله نورهم عمن يشاء فتظلم قلوبهم ، ويقول الله تعالى : (من جاء بالحسنة فله خير منها ، وهم من فزع يومئذ آمنون ، ومن جاء بالسيئة فكبت وجوههم فى النار) فيقول الشيعة : الحسنة معرفة الولاية ، وحبنا أهل البيت ، والسيئة إنكار الولاية ، وبغضنا أهل البيت .

والإمام غيبة ؛ قال تعالى : (فلا أقسمُ بالخنس ، الجوارى الكنس) . . والخنس عند الشيعة إمام يخنس فى زمانه ، ثم يبدو كالشهاب الواقد فى ظلمة الليل .

وهكذا تدرج النظر إلى الإمام والأئمة ، كما تدرجت العقائد الشيعية حتى صارت فى أواخر القرن الأول إلى ما ترى من إسراف وغلو ، فأصبحت معولا من معاول الهدم فى الدين ، وسبيلا لمن شاء التفصى منه ، والكيد له ، وأساساً لدرجات الدعوة الشيعية فى عهد الفاطميين[1] .

* * *

وبعد ؛ فقد كان التشيع فيما مضى عنوان حب الله ورسوله ، ومودة كريمة لمن أنقذ الناس من الضلال ، وبصرهم سواء السبيل ، كان خلة من خلال الفضل ، والإقرار بالجميل ، يتمدح بها صاحبها ، ويعلنها فخوراً ؛ لأنها دليل حب الرسول — صلى الله عليه وسلم — وهل ترى أفضل من حب الرسول — صلى الله عليه وسلم ؟ ؟ ! ! — كان عقيدة لاصقة بالقلب ، يراها صاحبها دليل السعادة وسبيل رضا الله ، وامتثالا لقوله تعالى : (قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة فى القربى) . .

---

(١) خطط المقريزى ج ١ ص ٣٦٢ وانظر ضحى الإسلام ج ٣ ص ٢١٣ ومابعدها.

أستمع إلى أبى الأسود وقد لامه بنو قشير على تشيعه :

يَقُولُ الأرذَلُون بَنُو قُشَيْر ... طَوَالَ الدَّهرِ لا تنسى عَلِيًّا ! ! ؟

فَقُلْتُ لهم :وكيفَ يَكُونُ تَرْكِى ... من الأعمال مفروضاً عَلَيَّا ! ! ؟

أُحِبُ محمـــداً حُبًّا شَدِيداً ... وعباساً ، وحمزة ، والرَّضِيَّا

بَنُـــو عَمِّ النَّبىِّ وأَقْرَبوه ... أَحَبُّ الناسِ كُلِّهم إلَيَّا

فإن يَكُ حُبُّهم رُشداً أُصِبْهُ ... وَلَسْتُ بِمُخْطِىء إن كان غَيًّا

هُمُ أَهْلُ النَصِيحَة غَيرَ شَكٍّ ... وأهلُ مَوَدَّتِى ما دُمْتُ حيًّا

أُحِبُّهمُ كحبِّ الله حَتَّى ... أَجِيء إذا بُعِثْتُ عَلَى هَوَيَّا

هَوًى أُعْطِيتُهُ لما استدارت ... رَحَى الإسلام لم يَعْدِل سَوِيًّا

رَأَيْتُ اللهَ خَالِقَ كُلِّ شَىْءٍ ... هَدَاهُمْ واصْطَفَى مِنهم نَبِيًّا

ولم يَخْصُصْ بها أحداً سِوَاهُمْ ... هنيئاً ما اصطفاه لهم مَرِيًّا[1]

ويقول كثيرُ عزة[2] — أو عبد الله بن كثير السهمى على رواية الجاحظ :

إنَّ امْرأً كانَتْ مســـاوِئُهُ ... حُبٌّ النبىِّ لَغَيْرُ ذِى ذَنْبِ

وَبَنِى أَبِى حسنٍ وَوَالدِهِم ... من طابَ فى الأرحام والصلب

أَتَرَوْنَ ذَنْبًا أَنْ نُحِبَّهُمُ ؟ ! ... بَلْ حُبُّهم كفَّارَةُ الذَّنْبِ[3]

ويقول الكميتُ بن زيد الأسدى :

أَجْرُكَ عِنْدِى من الأُودِّ لِقُرْ ... بَاكَ سَجِيَّاتُ نَفْسِىَ الوُظْبُ[4]

---

(١) الأغانى ج ١١ ص ١١٨ .

(٢) كثير بن عبد الرحمن بن أبى جمعه بن خزاعة ويكنى أبا صخر شاعر أموى شيعى مضطرب يتولى محمد بن الحنفية . فهو كيسانى .

(٣) ديوان كثير . والبيان والتبيين ج ٣ ص ٢٠٣ .

(٤) الأود : المحبون . والوظب : المواظبة ـ انظر الهاشميات للكميت .

هذا هو التشيع قبل أن تضطرب العقلية الشيعية هتاف بفضائل أهل البيت ، وتكريمٌ لأشرف الأخلاق الفاضلة ، وأطهر الأعراق النبيلة . . . أما وقد اضطربت فاندس فى الشيعة من ليس منهم ، فقد أصبح التشيع بغيضاً إلى النفس ، وسبيلا إلى السخر والتهكم . . .

يقول الشعبى : لقد بغضوا إلينا حديث على بن أبى طالب . . .

ويقول الجاحظ : « كان معنا فى السفينة شيخ شرس الأخلاق ، طويل الإطراق ، وكان إذا ذكر له الشيعة غضب ، فاربد وجهه ، وزوى عن حاجبه ، فقلت له يوما : يرحمك الله ، ما الذى تكرهه من الشيعة ؟ فإنى رأيتك إذا ذكروا غضبت ، وقبضت ؛ فقال : ما أكره فيهم إلا هذه الشين فى أول اسمهم ، فإنى لم أجدها قط إلا فى كل شر ، وشؤم ، وشيطانٍ ، وشغبٍ ، وشقاء ، وشنارٍ ، وشررٍ ، وشينٍ ، وشوكٍ ، وشكوى ، وشهوةٍ ، وشتمٍ ، وشح . . . قال أبو عثمان : فما ثبتت لشيعى بعدها قائمة »[1] .

* * *

وسبيلنا الأن : أن نتحدث عن التاريخ السياسى للشيعة ، والفرق المناوئة لهم ، لنعلم أثر هذا التاريخ فى الحياة الشيعية ، والفكرة الشيعية ، ونعلم بوجه خاص ، كيف ومتى نشأت فرقهم ؟ وتعاليم كل فرقة ، ولنتصور هذا العصر على حقيقته .

ثم نتناول بالتفصيل طائفة من العقائد الشيعية ، التى لعبت دوراً خطيراً فى السياسة ، والدين ، كما كانت مسبحاً طويلا لخيال الشعراء ، والخطباء ، فغزر بها الأدب ، وتنوعت فنونه .

---

(١) العقد الفريد ج ١ ص ٣٥٤ . وهى إحدى دعابات الجاحظ .

الفصل الأول

التاريخ السياسى للشيعة

خلافة على — التحكيم بين على ومعاوية وأثره — الحسين بن على — صلح الحسن وأثره فى التشيع — سياسة معاوية إزاء الشيعة — الحسين بن على ويزيد بن معاوية — نصيحة خلصائه — إباء الحسين — موقعـة كربلاء — رأى التاريخ — أثر قتل الحسين فى السياسة والعقائد الشيعية — حزب التوابين — المختار ابن أبى عبيد الثقفى — حزب الـكيسانية — تعاليمه — قتل المختار وأثره — زيد بن على وهشام بن عبد الملك — ظهور الزيدية — تعاليم الزيدية — خلصاء زيد — يحيى بن زيد والوليد بن يزيد ابن عبد الملك — تحول الخلافة من الأمويين إلى الهاشميين — الدولة العباسية ميراث الـكيسانية — محمد بن على — العلويون والعباسيون — النفس الزكية والمنصور — قتيل باخمرى — إبراهيم بن عبد الله والمنصور — موقعة فخ — يحيى بن عبد الله — الثورات العلوية والخلفاء العباسيون — المأمون والخلافة .

نسير فى التاريخ السياسى للشيعة بروح الأديب لا بروح المؤرخ ، نسجل أثره الأدبى ، وفواعله النفسية ، فذلك بموضوعنا أليق .

منذ وفاة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وشيعة على تتطلب الخلافة له ثم لنسله ، لأمور تجلت قبل ، لذلك ظلت حياتهم بين وثبة ، واستعداد للوثبة ، وغدا تاريخهم صفحة دامية تذيب القلب ، وتستنزف الدمع ، وتطلق اللسان .

ولقد كانت حركاتهم هادئة أيام أبى بكر ، وعمر ، وصدراً من خلافة عثمان ـ رضى الله عنهم ـ حتى إذا نقم الناس على عثمان فقتلوه ، وتناسوا جلال الخلافة فانتهكوا حرمتها ، أقبلوا يهرعون إلى مبايعة على ، فتحققت بذلك نظرية الشيعة ، وتم لهم ما أرادوه .

خلافة على :

لكن على بن أبى طالب ـ رضى الله عنه ـ تولى والنفوس مضطربة ، والفتنة هائجة ، وتناست دنيا الفتوح دين البساطة والزهد . ولم تعد السياسة الدينية وحدها ـ وهى سلاح على ـ قادرة على كبح النفوس العربية ، التى ورثت خزائن كسرى وقيصر ، وتأثرت بأنظمة الفرس والروم ، وتطلعت إلى جلال الإمارة وسلطانها ؛ فهى لا تريد حاكما يحملها على التقشف والزهد . فقد مضى زمن التقشف والزهد ، كما مضى أهل التقشف والزهد ، فما راعه إلا خروج طلحة والزبير ومعهما أم المؤمنين عائشة بنت أبى بكر الصديق بالبصرة ، وامتناع معاوية بالشام ، كل يتهم علياً بقتل عثمان ، أو التخذيل عنه وإيواء قتلته ، فتحرج الأمر ، وانشقت العصا وانصرف العرب إلى جهاد أنفسهم ، واضطر أمير المؤمنين إلى محاربة هؤلاء الخارجين عن طاعته ، لأنه قد بايعه القوم الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان ، على ما بايعوا عليه ، فليس للشاهد أن يختار ، ولا للغائب أن يرد[1] وقد بايعه طلحة والزبير بالمدينة ، ونكثا بيعته بالعراق ، فكانا أول من بايع وأول من غدر، فيجب أن يحاربهما على نكثهما ، كما يجب أن يحارب معاوية على امتناعه .

فأما طلحة والزبير فقد انتهى أمرهما سريعاً بقتلهما حين وقعت موقعة الجمل ، وأما معاوية فكان أشد خصوم على مراساً ، وأقواهم شكيمة ، وأعلمهم بشئون

(١) من كتابه إلى معاوية : « النهج ج ٣ ص ٤٨ » .

السياسة ، وأخبرهم بنفسيات العرب ورغباتهم ، فكثر أنصاره ، وقوى جانبه ، واتخذ من حادثة عثمان ـ ابن عمه ـ وقوداً يلهب به النفوس ، ويثير الفتنة .

وبقتل طلحة والزبير انقسمت المملكة الإسلامية إلى معسكرين : معسكر الشام مع معاوية ، ومعسكر العراق مع على . . فبعد سفارات فاشلة ومفاوضات سادها العنف الهاشمى من جانب ، والأثرة الأموية من الآخر ، قامت الحرب بين الطائفتين بصفين[1] سنة سبع وثلاثين من الهجرة النبوية ، حتى إذا أحس معاوية بنفس الهزيمة ، واستيقن الدائرة عليه أوعز إلى جنوده برفع المصاحف ، محتكما إلى كتاب الله ، فكانت كما قال على : خديعة ضعضعت قوة ، وأسقطت منة ، وأورثت وهناً وذلة[2] إذ لم يكد جند على يرون المصاحف على أسنة الرماح حتى دب الشقاق فى صفوفهم ، واختلفوا على أنفسهم ، يرى بعضهم قبول التحكيم ، ويأباه على وجماعة معه .

التحكيم بين على ومعاوية :

وأخيراً تم الأمر وأجبر أمير المؤمنين على التحكيم ، كما أجبر على اختيار أبى موسى الأشعرى حكما عنه ، واختار معاوية عمرو بن العاص . . واجتمع الحكمان ثم افترقا دون أن يستوثق الأمر لأحد الرجلين ، وكان الحكم الذى لم يرضه على وأنصاره . وإن تغير به وجه التاريخ .

* * *

---

(١) صفين : كسجين : محلة بين نهرى الفرات ودجلة وهى اليوم فى ولاية حلب.

(٢) طبرى ج ٣ ص ٣١ .

أثر التحكيم :

ولقد كان لهذا التحكيم نتائجه الخطيرة في حياة الدولة العربية وسياستها ، إذ لم يكد يقبله على وصحبه حتى اعتزله جماعة من جنده . جمهرتهم من تميم وبكر . رأت أن التحكيم خطأ ومداهنة ؛ لأن حكم الله فى الأمر واضح جلى وعلى ضوئه حاربوا طلحة والزبير ، ومعاوية وصحبه ، وقَتلوا ، وقُتلوا : والتحكيم معناه شك كل فريق فى أحقية قضيته ، هذه المعانى صاغها « عروة بن أدية[1] » . فى « لاحكم إلا لله » وكانت هذه الجماعة هى نواة « حزب الخوارج » .

وكثير من النقاد يذهبون إلى أن قبول التحكيم غلطة سياسية . نزلت بعلى إلى أن يكون هو ومعاوية أمام الخلافة سواء ، وأضاعت من يده ما كان يحتج به من مبايعة القوم الذى بايعوا أبا بكر وعمر ، وأصبح على كغيره من سائر العرب وأصبح الأمر للحكمين ، ولقد كان من الخير لعلى أن يمضى بمن أطاعه حتى يحكم الله ، أو أن يطبق على نفسه ما كان يشير به على عثمان ، حين انتقضت عليه الأمور ؛ فيعتزل الخلافة ، ويترك أمور الناس للناس ، يختارون لخلافة الإسلام من شاءوا من الصحابة ، خصوصاً وقد رأى من جنده ما رأى ، أما أن يعرض نفسه لرجلين يعلم بغض أحدهما ورأى الآخر فذلك أمر يدعو إلى الدهش .

والقول بأن صاحب الحق كثيراً ما يريد أن يؤكد للشعب بأن الحق له فيحكم كما تفعل الحكومات اليوم من عرض ثقتها على مجلس الأمة مثلا ، تحكيم للعاطفة لا للعقل ، والقول بأن علياً قد أكره على التحكيم ، كما أجبر على أبى موسى لا يغنى عن على فتيلا ، فما كان أحوجه ألا يلوث نفسه وآله بحكم لصق بهم ، وكان حجة لخصومهم .

---

(١) عروة بن أدية : أول من حكم ووضع شعار الخوارج ـ لا حكم إلا لله ـ وأدية جدة له فى الجاهلية : « رغبة الآمل جـ ٧ ص ٩٧ » .

وتعجبنى كلمة عبد الله بن وديعة الأنصارى ، وقد سأله على : ما قول ذوى الرأى فى هذا الأمر ؟ فقال : يقولون : إن علياً كان له جمع عظيم ففرقه ، وكان له حصن حصين فهدمه ، فمتى يبنى ما هدم ، ويجمع ما فرق ! ؟ فلو أنه مضى بمن أطاعه ـ إذ عصاه من عصاه ؛ فقاتل حتى يظفر أو يهلك كان ذلك الحزم[1] .

وكان الحسن البصرى يقول : لم يزل على ـ رحمه الله ـ يتعرفه النصر . ويساعده الظفر حتى حكم ، فلم تحكم والحق معك ! ؟ . ألا تمضى قدماً ـ لا أبالك ـ وأنت على الحق[2] .

* * *

على كل حال ، كان من نتائج التحكيم أن قوى أمر معاوية واشتد ساعده ، فأخذ يغير على أطراف المملكة الإسلامية يقتطعها من أمير المؤمنين ، ويدخلها فى سلطانه ، وأخذ يحارب علياً بذهنه وذهبه ، بعد أن حاربه فى « صفين » بسيفه وخدعه ، وقضى على بقية حياته بين محاربة الخوارج ، وجمع الجيش المتثاقل لحرب معاوية ، إلى أن ائتمر ثلاثة من الخوارج بزعماء هذه الفتنة ـ معاوية وعمرو بن العاص وعلى ، رضى الله عنهم ـ فكان أمير المؤمنين من نصيب عبد الرحمن بن ملجم المرادى ؛ فاغتاله ـ وهو قائم يصلى الفجر ـ فى الخامس عشر من رمضان سنة أربعين من الهجرة .

فكان محياه ومماته تاريخاً دامياً للفضيلة المعذبة ، والنفس المطمئنة الشهيدة .

* * *

---

(١) الطبرى ج ٦ ص ٣٤ ، وابن الأثير ج ٣ ص ١٤٠ .

(٢) الكامل للمبرد ج ٧ ص ١٧٥ ، العقد الفريد ج ١ ص ٧٤ .

خلافة الحسن بن على :

قتل على فبايع أنصاره ابنه الحسن ، وكان ما شئت فضلا ، وكرماً ، ونبلا ، وعقلا : أبوه على ، وأمه فاطمة ، وجده رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم .

والتاريخ يحدثنا : « أن علياً لما طعن سأله القوم : أنبايع الحسن ؟ فقال « لا آمركم ، ولا أنهاكم ، أنتم أبصر »[1] . والشيعة على أن علياً أوصى للحسن بالخلافة من بعده ، وأمره أن يأخذ قاتله بكتاب الله .

وكتب الحسن إلى معاوية : « من عبد الله الحسن ـ أمير المؤمنين ـ إلى معاوية بن أبى سفيان ، أما بعد ، فإن الله بعث محمداً ـ صلى الله عليه وآله ـ رحمة للعالمين ، فأظهر به الحق ، وقمع به الشرك ، وأعز به العرب عامة ، وشرف به قريشاً خاصة ، فقال « وإنه لذكر لك ولقومك » فلما توفاه الله تنازعت العرب فى الأمر بعده ؛ فقالت قريش : نحن عشيرته وأولياؤه فلا تنازعونا سلطانه ؛ فعرفت العرب لقريش ذلك ، وجحدتنا قريش ما عرفت لها العرب ، فهيهات ! ! ، ما أنصفتنا قريش ـ وإن كانوا ذوى فضيلة فى الدين، وسابقة فى الإسلام ـ واليوم فليتعجب المتعجب من منازعتك إيانا الأمر بغير حق فى الدنيا معروف ، ولا أثر فى الإسلام محمود ، فالله الموعد ، نسأل الله معروفه ألا يؤتينا فى هذه الدنيا شيئاً ينقصنا عنده فى الآخرة .

إن علياً لما توفاه الله ، ولانى المسلمون الأمر بعده ؛ فاتق الله يامعاوية ، وانظر لأمة محمد ـ صلى الله عليه وآله ـ ما تحقن به دماءها ، وتصلح به أمرها ، والسلام .

---

(١) الطبرى ج ٦ ص ٨٥ ، ومروج الذهب ج ٢ ص ٣٣ ، وابن الأثير ج ٣ ص ١٦٩ .

فكتب إليه معاوية : « أما بعد ، فقد فهمت ما ذكرت به رسول الله ، وهو أحق الأولين والآخرين بالفضل كله ، وذكرت تنازع المسلمين الأمر بعده فصرحت بتهمة أبي بكر الصديق ، وعمر ، وأبي عبيدة الأمين ، وصلحاء المهاجرين ، فكرهت لك ذلك .

إن الأمة لما تنازعت الأمر بينها رأت قريشاً أخلقها به ، فرأت قريش والأنصار ، وذوو الفضل والدين من المسلمين أن يولوا من قريش أعلمها بالله ، وأخشاها له ، وأقواها على الأمر ، فاختاروا أبا بكر ، ولم يألوا ، ولو علموا مكان رجل غير أبي بكر يقوم مقامه ، ويذب عن حرم الإسلام ذبه ، ما عدلوا بالأمر إلى أبي بكر .

والحال اليوم بيني وبينك على ما كانوا عليه ، فلو علمت أنك أضبط لأمر الرعية ، وأحوط على هذه الأمة ، وأحسن سياسة وأكيد للعدو ، وأقوى على جمع الفيء ، لسلمت إليك الأمر بعد أبيك ، فإن أباك سعى على عثمان حتى قتل مظلوما ، فطالب الله بدمه ، ومن يطلبه الله فلن يفوته .

ثم ابتز الأمة أمرها ، وفرق جماعتها ، نخالفه نظراؤه من أهل السابقة والجهاد والقدم في الإسلام ، وادعى أنهم نكثوا بيعته ؛ فقاتلهم ، فسفكت الدماء ، واستحلت الحرم .

ثم أقبل إلينا لايدعى علينا بيعة ، ولكنه يريد أن يملكنا اغتراراً ، فحاربناه وحاربنا ، ثم صارت الحرب إلى أن اختار رجلا واخترنا رجلا ، ليحكما بما تصلح عليه الأمة ، وتعود به الجماعة والألفة ، وأخذنا بذلك عليهما ميثاقا ، وعليه مثله ، وعلينا مثله ، على الرضا بما حكما . فأمضى الحكمان عليه الحكم بما علمت ، وخلعاه . . . فوالله ما رضي بالحكم ، ولا صبر لأمر الله ،

فكيف تدعونى إلى أمر إنما تطلبه بحق أبيك ، وقد خرج منه ؟ ؟ . . . فانظر لنفسك ولدينك والسلام » .

ثم قال لرسولى الحسن : « ارجعا ، فليس بينى وبينكم إلا السيف »[١] .

* * *

خرج معاوية لحرب الحسن ، وسار الحسن يقدمه قيس بن سعد فى اثنى عشر ألفاً ، فبينما هو فى المدائن إذ نادى مناد فى عسكره : ألا إن قيس بن سعد قد قتل ، فانفروا . . . فنفروا بسرادق الحسن ، فنهبوا متاعه ، حتى نازعوه بساطاً كان تحته ، وطعنه أحدهم برمحه ، فامتلأ الحسن بغضاً لهم وذعراً .

الصلح بين الحسن ومعاوية وأثره :

ثم فكر ، وفكر . . . فكر فى جنده ، واستعرض حياتهم مع أبيه ، وفكر فى جند الشام وإخلاصهم لمعاوية . وفكر فى صالح الإسلام ، ودماء المسلمين ، فراسل معاوية فى الصلح ـ ولم يكن شىء أحب إلى معاوية من ذلك ـ فأرسل إلى الحسن صحيفة بيضاء مختومة ، فاشترط لأصحابه الأمان ، وله ما فى خزائن الكوفة ، وخراج « دَرَابجَرْد » من فارس ، وألا يشتم علىّ . . . فأجابه إلى كل ذلك إلا شتم علىّ ، فاتفقا عَلَى ألا يشتم والحسن يسمع .

* * *

وبذلك انتهى الأمر لمعاوية ، وانتصر الحزب الأموى ، وانحصر النزاع بين الأمويين والخوارج . ورحل معاوية إلى الكوفة ، فبويع له بالخلافة سنة إحدى

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ج ١٦ ص ٩ . ومقاتل الطالبيين ص ٣٦

وأربعين ، وسمى المسلمون هذا العام « عام الجماعة » ورحل الحسن وجماعة الهاشميين إلى المدينة ، فأقام بها حتى مات[١] .

* * *

ولقد كان الحسن بعمله هذا مسدد الرأى ، موفق النظر ، صادق الفراسة ، مؤثراً لمصلحة المسلمين . وبحق يقول — وقد أراده معاوية أن يخطب الناس — : « أما بعد ، أيها الناس ، فإن الله هداكم بأولنا ، وحقن دماءكم بآخرنا . وإن لهذا الأمر مدة ، والدنيا دول »[٢] .

نعم ، حقن الحسن بصلحه دماء المسلمين ، وخشى كما يقول : أن يأتى يوم القيامة سبعون أو ثمانون ألفاً تشخب أوداجهم دماً ، كلهم يستعدى الله . . فيم هريق دمه ؟[٣] .

---

(١) اختلف المؤرخون فى سبب وفاة الحسن ، وتاريخ موته ، فزعم قوم أنه زج ظهر قدمه ـ فى الطواف ـ بزج مسموم ؛ وقال آخرون : إن معاوية بن أبى سفيان دس إلى جعدة بنت الأشعث ـ زوج الحسن ـ بأن تسمه ، ويزوجها ابنه يزيد ؛ فسمته ، فقال لها معاوية : إن يزيد منا بمكان ، وكيف يصلح له من لا يصلح لابن رسول الله ! . ثم عوضها عنه مائة ألف درهم ، وكان ذلك سنة تسع وأربعين ، وقد رثاه النجاشى قيس بن عمرو بن مالك من بنى الحارث بن كعب وهو شاعر على وصاحبه رثاء يقوى هذه الرواية .

وفى رواية : أن الحسن مات حتف أنفه بعد أربعين يوما من دخوله المدينة . انظر فى هذا : البدء والتاريخ ج ٦ ص ٥ ، وابن الأثير ج ٣ ص ١٦٣ ، ومروج الذهب ج ٢ ص ٤١ .

(٢) مروج الذهب ج ٢ ص ٤١ . وتحقق بذلك قول الرسول الكريم : « إن ابنى هذا سيصلح الله به بين طائفتين عن المسلمين » .

(٣) شرح النهج لابن أبى الحديد ج ١٦ ص ٧ ، وتاريخ ابن عساكر ج ٤ ص ٢٢٥

وبصلح الحسن خمدت روح التشيع فى نفوس الشيعة ، وانضووا تحت لواء معاوية الذى أصبح صاحب السلطان المطلق ، ولم يبق فى معترك السياسة والحرب إلا حزب الخوارج والأمويين .

* * *

سياسة معاوية إزاء الشيعة :

بيد أن السياسة التى سار عليها معاوية وولاته من سب على بن أبى طالب على المنابر ، كانت كثيراً ما تثير حنق الشيعة ، فيتبرمون الفينة بعد الأخرى، ويقابلون معاوية بالمثل ، وأظهر مثل لهؤلاء « حجر بن عدى » سيد الشيعة بالكوفة الذى قتله معاوية سنة إحدى وخمسين من الهجرة .

ولسنا نجد سبباً معقولا نعلل به تمسك معاوية بسبّ علىّ ولعنه عَلَى منابر المسلمين — حتى بعد موت على واجتماع الأمر لمعاوية — ولن نستطيع أن نجمع بين أمرين : دين معاوية ، وحلمه ، ودهاته . . . حلماً يحسبه الجاهل خوراً . . حلماً يتسع به صدره إلى أن يسمع الإقذاع من الناس ، والنقد لسياسته ، فيقابل إساءتهم بالصفح ، وإقذاعهم بالعطاء . ثم هو مع ذلك يحلو له أن تعج منابره بسبّ على وآله .

ولعل معاوية — كساسة اليوم — قد علم أن الدعاية من أشد أسلحة الحرب مضاء ، وأبلغها نفاذاً ، فاستعمل هذا السلاح ، ليصرف الناس عن آل البيت ، ويحول قلوبهم عنهم . وفى هذا دوام ملكه ، فاستحل سياسياً ما حرمه الدين ، ووضع لمن بعده شرعة السباب لهذا البيت الكريم ، فاستعملها خلفاء بنى أمية ، حتى غدت سخرية الناس وتندرهم ، إلى أن أبطلها إمام عادل :

وَسِعَ الخلائِقَ عَدْلُهُ وَوَفَاؤُهُ   حَتَّى ارْعَوَى وَأَقَامَ مَيْلَ المائِلِ (١)

ذاك هو عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه ، وقد عرف الشيعة له ذلك فانطلقوا يسجلون هذه المأثُرَة فيقول كُثَيِّرُ عَزَّة :

وَلِيتَ فَلَمْ تَشْتِمْ عَلِيًّا ، وَلَمْ تُخِفْ
بَرِيًّا ، وَلَمْ تَقْبَلْ إِشَارَةَ مُجْرِمِ
وَصَدَّقْتَ بِالْفِعْلِ المَقَالَ مَعَ الذى
أَتِيتَ ، فَأَمْسَى رَاضِيًا كُلُّ مُسْلِمِ (٢)

* * *

نعود فنقول : بصلح الحسن خمدت روح التشيع فى نفوس الشيعة ، وإن ظل حبهم لآل البيت ، وشجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم لاصقاً بقلوبهم ، متغلغلا فى نفوسهم ، وزاد فى خموده سيف معاوية ، وذهبه ، وسياسة زياد بن أبيه والى معاوية على العراق — موطن الشيعة — تلك السياسة التى أقامها على العسف ، والتنكيل بكل من يحس فيه روح التشيع ، وقد كان زياد من شيعة على فكان بالشيعة أعرف ، فأخذ يتتبعهم فى كل سبيل، حتى أباد الألوف من شيعة الكوفة والبصرة ، ومثل بهم أشنع تمثيل، فقطع الأيدى والأرجل، وسمل العيون وصلبهم فى جذوع النخل (٣).

---

(١) البيت من قصيدة لجرير بن عطية الخطفى الشاعر الأموى المشهور — توفى سنة ١١٠ — يمدح فيها عمر بن عبد العزيز حين وفد عليه مع الشعراء « العقد ج ١ ص ٤٠٧ » .

(٢) العقد ج ١ ص ٢٠٤ ، وهى قصيدة طويلة . انظر الشعر والشعراء لابن قتيبة

(٣) ابن أبى الحديد ج ١١ ص ١٥ ، وزياد ولد لأبى سفيان من سمية كانت أمة =

الحسين بن علي ويزيد بن معاوية :

وتوفى معاوية سنة ستين من الهجرة ، فتولى ابنه يزيد إمرة المؤمنين ، ويزيد — كما يصوره التاريخ — « صاحب لهو وشراب وقنص ، قد لزم طاعة الشيطان، وترك طاعة الرحمن ، وأظهر الفساد ، وعطل الحدود ، واستأثر بالفىء ، وأحل حرام الله ، وحرم حلاله . . . »[1].

وكذلك كان يزيد فى نظر الحسين ولداته ، فسقاً وفجوراً ومجوناً ، واستهانة بالدين ، فما كان — ولن يكون — لمثل هذا أن يتولى خلافة المسلمين ، وأن يبايع له الحسين ، مع اعتقاده أنه أحق بالأمر منه ، ومع هذه البيعات المتوالية تأتيه من قِبَل الكوفة .

لذلك خرج الحسين ليلا متوجهاً تلقاء مكة ، ليرحل منها إلى الكوفة ـ شيعته وشيعة أبيه ـ وكذلك خرج ابن الزبير أملا أن يجد له أنصاراً بمكة يستعين بهم على تولى الخلافة .

= لدهقان فارسى اتصل بها أبو سفيان بن حرب فى خمارة أبى مريم السلولى فحملت بزياد من أبى سفيان فلما ولدته أنكره فقيل زياد بن أبيه حتى عرف معاوية مكانه فى السياسة والحرب فألحقه بأبيه واعترف بأخوته ولكنه ظل يغلب عليه «زياد بن أبيه» وكان هذا الاستلحاق من معاوية . مثار حديث طويل فى العصر الأموى ومدداً لشعراء الهجاء .

ومن ذلك قول يزيد بن مفرغ :

الا أبلغ معاوية بن حرب مغلغلة عن الرجل اليمانى
أتغضب أن يقال أبوك عف وترضى أن يقال أبوك زانى
وأشهد أن رحمك من زياد كرحم الفيل من ولد الأتان

(١) انظر خطبة الحسين فى ابن الأثير ج ٤ ص ٢١ . وقد نقلناها فى هذا البحث .

... سار الحسين إلى مكة ، وأرسل ابن عمه مسلم بن عقيل إلى الكوفة ، ليتبين حقيقة الأمر ، ويخبره بما يراه .

وهنا ننتقل إلى مرحلة أخرى من مراحل الصراع الهاشمى الأموى ، كان لها أكبر الأثر فى الحياة العربية .

موقف خلصاء الحسين :

والرواة على أن أصحاب الحسين وآله لم يألوا جهداً فى النصيحة له ، وتحذيره أن يصيبه ما أصاب أباه وأخاه .

يقول له ابن الحنفية — محمد بن على بن أبى طالب — : « يا أخى أنت أحب الناس إلىّ ، وأعزهم علىّ ؛ ولست أدخر النصيحة لأحد من الخلق أحق بها منك تنحّ ببيعتك عن يزيد وعن الأمصار ما استطعت ، وابعث رسلك إلى الناس ، وادعهم إلى نفسك ، فإن بايعُوا لك حمدت الله على ذلك ، وإن أجمع الناس على غيرك لم ينتقص الله بذلك دينك ولا عقلك ، ولا تذهب به مروءتك ولا فضلك إنى أخاف أن تأتى مصراً من الأمصار وجماعة من الناس ، فيختلفوا عليك ، فمنهم طائفة معك وأخرى عليك ، فيقتتلون فتكون لأول الأسنة ؛ فإذا خير هذه الأمة كلها ، نفساً ، وأبا ، وأما ، أضيعها دما ، وأذلها أهلا .

قال الحسين : فأين أذهب يا أخى ؟ !

قال : انزل إلى مكة ، فإن اطمأنت بك الدار ، فسبيلٌ ذلك ؛ وإن نبت بك لحقت بالرمال وشعف الجبال ؛ وخرجت من بلد إلى بلد حتى تنظر إلى من يصير أمر الناس ؛ ويفرُق لك الرأى ؛ فإنك أصوب ما تكون رأيا ؛ وأحزمه عملا . حين تستقبل الأمور استقبالا . ولا تكون الأمور أبداً أشكل منها حين تستدبرها .

قال : يا أخي . . قد نصحت ، وأشفقت ، وأرجو أن يكون رأيك سديداً ، وموفقاً إن شاء الله » . . ثم دخل مسجد الرسول ، وهو يتمثل بقول يزيد ابن مُفَرِّغ :

لاَ ذَعَرت السَّوَامَ فى شَفَق الصُّـــبح مُغِيراً ولا دُعيتُ يزيدَا
يومَ أُعطِى من المَهانةِ ضيما والمنايا يَرْصُدْنَنى أن أحيدَا[1]

* * *

وفى طريقه إلى مكة سأله عبد الله بن مطيع : « يا أبا عبد الله ، لا سقانا الله بعدك ماء طيبا ، أين تريد ؟ ! قال : العراق ؛ قال : سبحان الله ! ! لم ؟ قال : مات معاوية ، وجاءنى أكثر من حمل صحف[2] ؛ قال : لا تفعل - أبا عبد الله - فوالله ما حفظوا أباك ، وكان خيراً منك ، فكيف يحفظونك ! ؟ والله لئن قتلت

---

(١) طبرى ج ٦ ص ١٩١ . وابن الأثير ج ٤ ص ٧ انظر ترجمة يزيد بن مفرغ فى الأغانى ج ١٧ ص ٤٨ . والشعر والشعراء لابن قتيبة . وهو يزيد بن ربيعة بن مفرغ الحميرى حليف قريش صحب زياد بن أبى سفيان فلم يحمده فقال فيه وفى ولاته شعرا كثيراً وهذه الأبيات قالها فى سجن عباد بن زياد بسجستان حين حبسه بها عبيد الله ابن زياد ومطلعها :

حى ذا الزور وأنهه أن يعودا إن بالباب حارسين قعـــودا
من أساويد لاينـــون قياماً وحـــلاليل شهر المولوداً
وطماطيم من سبابج عتما يلبسون مع الصباح قيودا

طماطيم : أعاجم لا يفصحون فى كلامهم والعتمة عجمة فى المنطق . والسبابج قوم من الهند أو السند ذوو جلد يكونون مع رئيس السفينة واحدهم سبيجى .

(٢) قيل : إن الحسين تسلم نحوا من مائة وخمسين كتابا من مختلف الجماعات .

لا بقيت حرمة بعدك إلا استحلت[1] » .

وأتاه عبد الله بن عباس بمكة ؛ فقال له : « قد أرجف الناس أنك سائر إلى العراق ، فبين لى ما أنت صانع ؟ فقال له : قد أجمعت السير فى أحد يومى هذين ـ إن شاء الله تعالى ـ فقال ابن عباس : فإنى أعيذك بالله من ذلك . خبرنى ـ رحمك الله ـ أتسير إلى قوم قتلوا أميرهم ، وضبطوا بلادهم ، ونفوا عدوهم ؟ فإن كانوا فعلوا ذلك ، فسر إليهم ، وإن كانوا إنما دعوك إليهم ، وأميرهم عليهم قاهر لهم ، وعماله تجبى بلادهم ، فإنما دعوك إلى الحرب ، ولا آمن عليك أن يغروك ، ويكذبوك ، ويخالفوك ، ويخذلوك ، ويستنفروا إليك ؛ فيكونوا أشد الناس عليك » .

وفى الغد أتاه ؛ فقال له : « يا ابن عم ، إنى أتصبر ولا أصبر ، إنى أتخوف عليك فى هذا الوجه الهلاك ، والاستئصال ، إن أهل العراق قوم غدر فلا تقربهم، أقم فى هذا البلد ، فإنك سيد أهل الحجاز ، فإن كان أهل العراق يريدونك ـ كما زعموا ـ فاكتب إليهم ، فلينفوا عاملهم ، وعدوهم ، ثم أقدم عليهم . . . فإن أبيت إلا أن تخرج ، فسر إلى اليمن ، فإن بها حصوناً ، وشعاباً ، وهى أرض عريضة ، طويلة ، ولأبيك بها شيعة ، وأنت عن الناس فى عزلة ، فتكتب إلى الناس ، وترسل إليهم ، وتبث دعاتك ، فإنى أرجو أن يأتيك عند ذلك الذى تحب فى عافية ؛ فقال له الحسين : يا ابن عم ، إنى لأعلم أنك ناصح مشفق ، وقد أزمعت ، وأجمعت المسير ، فقال ابن عباس : فإن كنت سائراً ، فلا تسر بنسائك ، وصبيتك ، فإنى لخائف أن تقتل ـ كما قتل عثمان ـ ونساؤه ، وولده ينظرون إليه ، لقد أقررت عين ابن الزبير بخروجك من الحجاز ، وهو

---

(١) العقد الفريد ج ٣ ص ١٣٣ ، وابن الأثير ج ٤ ص ٧ .

اليوم لا ينظر إليه أحد معك ، والله الذى لا إله إلا هو ، لو أعلم أننى إن أخذت بشعرك ، وناصيتك ، حتى يجتمع علينا الناس ، أطعتنى فأقمت لفعلت ذلك » .

ثم خرج من عنده ؛ فمر بابن الزبير ، فقال : « قرت عينك يا ابن الزبير

يا لكِ مِنْ قُبّرة بمَعْمَرِ
خَلاَ لكِ الجَوُّ فبيضى واصْفِرِى
وَنَقّرِى مَا شِئْتِ أَنْ تُنَقِّرِى

هذا الحسين يخرج إلى العراق . ويخليك والحجاز[1] .

* * *

والواقع أنه لم يكن أحد يحب خروج الحسين من مكة إلا رجل واحد هو عبد الله بن الزبير ، فقد كان يعلم أن الناس لا يعدلون بالحسين أحداً ، لذلك طالما رغبه فى الخروج إلى الكوفة ، فى أسلوب ملىء بالمكر والدهاء ، والغريب أن الحسين كان يعلم ذلك من ابن الزبير ، فكان يقول : « إن هذا ليس شىء من الدنيا أحب إليه من أن أخرج من الحجاز ، وقد علم أن الناس لا يعدلونه بى ، فود أنى خرجت حتى يخلو له[2] » .

* * *

ونصحه أبو بكر بن الحارث بن هشام المخزومى فقال : « يا بن عم ،

---

(١) ابن الأثير ج ٤ ص ١٦ والطبرى ج ٦ ص ٢١٦ ، ٢٣٦ ، ومروج الذهب ج ٢ ص ٦٨ والخضرى ج ١ ص ١٢٧ والرجز لطرفة بن العبد الشاعر الجاهلى ، وقد صار مثلا يضرب فى التمكن من الشىء .

(٢) ابن الأثير ج ٤ ص ١٧ ، والطبرى ج ٦ ص ٢١٦ .

إن الرحم يظائرنى[1] عليك ، ولا أدرى كيف أنا فى النصيحة ، كان أبوك أشدّ بأساً والناس له أرجى ، ومنه أسمع ، وعليه أجمع ، فسار إلى معاوية ، والناس مجتمعون عليه إلا أهل الشام ـ وهو أعز منه ـ نخذلوه ، وتثاقلوا عنه ، حرصاً على الدنيا ، وضناً بها ، فجرعوه الغيظ ، وخالفوه ، حتى صار إلى ما صار إليه ، من كرامة الله ورضوانه . . . ثم صنعوا بأخيك بعد أبيك ما صنعوا ـ وقد شهدت ذلك كله ورأيته ـ ثم أنت تريد أن تسير إلى الذين عدوا على أبيك ، وأخيك تقاتل بهم أهل الشام ، وأهل العراق ، ومن هو أعدُّ منك وأقوى ، والناس منه أخوف ، وله أرجى ، فلو بلغهم مسيرك إليهم لاستطغوا الناس بالأموال ـ وهم عبيد الدنيا ـ فيقاتلك من قد وعدك أن ينصرك ، ويخذلك من أنت أحب إليه ممن ينصره . فاذكر الله فى نفسك » .

فقال له الحسين : « جزاك الله خيراً يا بن عم . فقد أجهدك رأيك . ومهما يقض الله يكن » .

فقال : « وعند الله تحتسب أبا عبد الله » ثم دخل على الحارث بن خالد المخزومى ـ والى مكة ـ وهو يقول :

كَمْ تَرَى نَاصِحاً يقولُ فيُعْصَى وَظَنِينُ المَغِيبِ يُلْقَى نَصِيحَا

فقال : وما ذاك ؟ فأخبره بما قال للحسين . فقال : نصحت له ورب الكعبة[2] .

* * *

---

(١) يظائرنى : يعطفنى

(٢) مروج الذهب ج ٢ ص ٦٨ ، طبرى ج ٦ ص ٢١٦ .

لكن الحسين . . . :

لكن الحسين — وقد ورث عن أبيه عزمه الثاقب . وجده العاثر — أبى أن يستمع لهذه الجمهرة الكريمة من خاصائه . كما أبى أن ينتفع بهذه الحكمة الصادقة التى قالها الفرزدق الشاعر — وقد سأله الحسين عن حال الناس بالكوفة . فأجابه — : « قلوب الناس معك ، وسيوفهم مع بنى أمية ، والقضاء ينزل من السماء ، والله يفعل ما يشاء »[1] .

نعم . أبى الحسين — رضى الله عنه — أن ينتفع بذلك . فسار بأهله . وشيعته . حتى بلغ القادسية . وهناك أتاه قتل مسلم بن عقيل . وما فعله عبيد الله بن زياد — والى العراق الأموى— به وبسائر الشيعة . فهم الحسين بالرجوع، وأبى إخوة مسلم إلا الأخذ بالثأر . فلم يجد بدا من المسير .

* * *

موقعة كربلاء :

وعلى بطحاء « كربلاء » . . . كانت الموقعة التى قتل فيها الحسين . وسائر رجالاته ، قتلة لا تزال ترتعد منها فرائص الدهر .

يصفها زحر بن قيس الجعفى . وقد سيره ابن زياد برأس الحسين وثقله إلى الخليفة « يزيد بن معاوية » . فلما وقف بين يديه سأله يزيد : ما وراءك يا زحر ؟

---

(١) طبرى ج ٦ ص ٢١٨ ، وانظر العقد الفريد ج ٣ ص ١٣٩ .

فيقول : « أبشر — يا أمير المؤمنين — بفتح الله ، وبنصره : ورد علينا الحسين ابن على ، فى ثمانية عشر من أهله ، وستين من شيعته ، فسرنا إليهم ، فسألناهم أن ينزلوا على حكم الأمير عبيد الله أو القتال ، فاختاروا القتال ، فغدونا عليهم مع شروق الشمس ، فأحطنا بهم من كل ناحية ، حتى إذا أخذت السيوف مأخذها من هام القوم ، جعلوا يهربون إلى غير وزر ، ويلوذون بالآكام والحفر ، كما لاذ الحمائم من صقر ، فوالله ما كان إلا جزر جزور ، أو نومة قائل ، حتى أتينا على آخرهم ، فهاتيك أجسادهم مجردة ، وثيابهم مرملة . وخدودهم معفرة . تصهرهم الشمس . وتسفى عليهم الريح . زوارهم العقبان والرَّخم بقاع سبسب[1] » .

* * *

قتل الحسين ومن معه . ونساؤه وولده ينظرون إليه . وتحقق ما قاله ابن الحنفية فى نصيحته له : « فإذا خير الناس كلها نفساً . وأماً . وأباً . أضيعها دماً . وأذلها أهلا » .

وديس الحسين بسنابك الخيل حتى تكسرت أضلاعه . وتقاسم القوم أسلابه . ثم حملوا رأسه إلى ابن زياد . فعرضها بالكوفة . ثم بعث بها — مع

---

(١) طبرى ج ٦ ص ٢٦٤ ، وابن الأثير ج ٤ ص ٣٧ ، والعقد الفريد ج ٣ ص ١٣٦ ، وتاريخ ابن عساكر ج ٥ ص ٣٥١ . والوزر : الملجأ . والآكام : جمع أكمة الشجر الملتف والمكان المرتفع .

وعبيد الله هو عبيد الله بن زياد بن أبى سفيان ـ ابن أبيه ـ سياسى حازم قوى الشكيمة لكن تتابع الأحداث والفتن وإحاطة الاعداء جعل الزمام يفلت من يده وتنطوى صفحات المرونة السياسية فيقتل الحسين ويحمل عبيد الله وزره الذى لم يغفر له حتى اليوم .

نسائه وأطفاله على الأقتاب — إلى يزيد ، فوضعها هذا بين يديه . . . ينكت ثغره بقضيب فى يده[١] . . ! !

***

رأى التاريخ :

والخضرى يرى أننا إذا تركنا العاطفة استبحنا أن نقول : بقتل الحسين ، انتهت موقعة « كربلاء » التى أثارها عدم التريث والأناة والبصر بالعواقب ، والغفلة عن دراسة أخلاق الناس ، وسياسة الحكم ، تلك الدراسة التى هى ألزم ما تكون لمن يريد سياسة الناس ، وولايتهم[٢] .

فالكوفة التى اعتد بها الحسين ، هى الكوفة صاحبة على ، والحسن ، والملك لا يقوم إلا بعصبية ، ولم تكن لبنى هاشم فى جاهلية ولا إسلام[٣] .

فالحسين — وإن خالف يزيد عن اجتهاد — هو الذى جر على نفسه وآله نتيجة هذه المعركة ، التى دميت — ولا تزال تدمى — لها قلوب المؤمنين .

قال يزيد بن معاوية — وقد وضع رأس الحسين بين يديه — أتدرون من أين أتى هذا ؟ . . قال : أبى « على » خير من أبيه ، « وفاطمة » أمى خير من أمه ، وجدى « رسول الله » خير من جده ، وأنا خير منه ، وأحق بهذا الأمر منه . . فأما قوله : أبوه خير من أبى ، فقد تحاج أبى وأبوه إلى الله ، وعلم الناس أيهما حكم له ، وأما قوله : أمى خير من أمه ، فلعمرى « فاطمة » بنت رسول الله

---

(١) ابن الأثير ج ٤ ص ٣٧ ، وانظر مقاتل الطالبيين ص ٥٤ ، ٩٠ .

(٢) الخضرى ج ١ ص ١٢٩ .

(٣) انظر مقدمة ابن خلدون ص ١٧١ .

خير من أمى ، وأما قوله : جدى رسول الله خير من جده ، فلعمرى ما أحد يؤمن بالله ، واليوم الآخر يرى لرسول الله فينا عدلا ، ولا نداً . . . ولـكنه إنما أتى من قبل فقهه ، ولم يقرأ : « قل اللهم مالك الملك[1] » .

* * *

أثر قتل الحسين :

وبعد ففى العاشر من المحرم سنة إحدى وستين قتل الحسين بن على – رضى الله عنه – فـكان لمقتله أثر كبير فى حياة العرب السياسية والاجتماعية والأدبية .

كان قتله أكبر صدمة للنفوس الإسلامية ، كما كان من الخواطر التى شغلت بال المسلمين ولا تزال تشغلهم – إلى اليوم – فيما يصنعه الشيعة يوم عاشوراء .

ظهر بقتله حزب الزبيريين بالحجاز ، يدعو لعبد الله بن الزبير .

ونهض شيعة الـكوفة ؛ فـكونوا حزب « التوابين » ثم « الـكيسانية » ينادى بثارات الحسين .

وأصبح التشيع عقيدة ممزوجة بالدماء ، متغلغلة فى النفوس ، بعد أن كان رأياً تنقصه الحماسة ، وشتان بين الرأى والعقيدة .

وغدت ذكرى « كربلاء » – الملطخة بدماء ابن بنت الرسول – صلى الله عليه وآله وسلم – كافية لأن تثير عاطفة الحماسة والحزن فى قلوب الناس ، ومنبعاً للأخيلة ، والأقاصيص .

وتشيع الفرس عن عقيدة ، بعد أن كان تشيعهم شعوبية ، وبغضاً لحـكم العرب ؛ فقد كان الفرس ينظرون إلى الحسين نظرة الرجل إلى صهره ، والمخالط لقطعة من كبده ، كما كانوا ينظرون إليه – وقد تزوج « شاهربانو » بنـة

(١) ابن الأثير ج ٤ ص ٣٨ . « تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء . بيدك الخير إنك على كل شىء قدير » .

« يَزْدَجُرْد » ملكهم ـ أنه قد جمع بين أشرف دم عربى ، وأعرق دم فارسى، فهو أحق الناس بالحكم . . . هو صاحب الحق المقدس .

ووحد صفوف الشيعة . . . وصرف قلوب الناس عن بنى أمية ، وكثر الحاقدين عليهم ، فأخذوا يعضون بنان الندم ، فكان يزيد بن معاوية ـ كلما ذكر الحسين ـ يقول : « وما على لو احتملت الأذى ، وأنزلت الحسين معى فى دارى ، وحكمته فيما يريد ـ وإن كان على فى ذلك وهن فى سلطانى ـ حفظاً لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ورعاية لحقه ، وقرابته من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لعن الله ابن « مرجانة » فإنه اضطره وقد سأله أن يضع يده فى يدى ، أو يلحق بثغر حتى يتوفاه الله ؛ فلم يجبه إلى ذلك ؛ فقتله .. فبغضنى بقتله إلى قلوب المسلمين ، وزرع فى قلوبهم العداوة ، فأبغضنى البر ، والفاجر ؛ لما استعظموا من قتيل الحسين . . . مالى ولابن « مرجانة » ! ! ؟ لعنه الله وغضب عليه .

* * *

حزب التوابين :

ندم شيعة الكوفة على ما فرطوا فى جنب الحسين ، ورأوه خيانة وعاراً لا يمحوه إلا السيف ؛ فاجتمعوا ، وأمروا عليهم الصحابى الجليل « سليمان بن صرد الخزاعى » وكونوا حزب « التوابين » ؛ ثم أخذوا يعملون سراً على اجتماع كلمتهم ، واصطنعوا مبدأ « التقية » حتى مات « يزيد بن معاوية » وتولى « مروان بن الحكم » ، فكان لهم فى ربيع الآخر سنة خمس وستين مع جيوش « عبيد الله بن زياد » موقعة « عين الوردة[1] » التى انهزم فيها « التوابون »

---

(١) معجم البلدان ج ٦ ص ٢٢٨ وهى مدينة بالجزيرة تقع بين حران ونصيبين .

وقتل رؤساؤهم وتفرقت فلولهم ، فانضموا إلى دعوة « المختار بن أبي عبيد بن مسعود الثقفي » .

* * *

المختار بن أبي عبيد والكيسانية :

وقد ظهر المختار على بساط الشيعة فى رمضان سنة أربع وستين ، وكان رجلا ذا أطماع كبيرة ، تواقاً إلى الرياسة والإمرة ، فأعلن الدعوة لابن الحنفية — محمد ابن على بن أبي طالب — على أنه الإمام بعد أخيه الحسين ، فتحزب له نفر أكثرهم من « همدان » حتى اجتمع عليه ملأ الشيعة بعد موقعة « عين الوردة » .

وبهذه الدعوة صار الشيعة فريقين ، يتولى بعضهم « على بن الحسين » ، وهم المسمون « بالإمامية » ويتولى المختار وشيعته « محمد بن الحنفية » وهم « حزب الكيسانية[1] » .

كان أول ما عمل المختار أن وثب بمن معه سنة ست وستين على « عبد الله

(١) تنسب هذه الطائفة : على رواية الطبرى ، وابن خلكان ج ١ ص ٤٥٠ . والفرق بين الفرق ص ٥٧ ، والشهرستانى ج ١ ص ١٩٦ : إلى كيسان مولى على ابن أبي طالب . وعليه جرى الأستاذ « أحمد أمين » فى الجزء الثالث من ضحى الإسلام .. ولكن كيسان قتل بصفين سنة سبع وثلاثين (طبرى ج ٦ ص ١٠) قبل ظهور هذه الطائفة بأكثر من ربع قرن ، و « على » حى .

ويرى المسعودى فى مروج الذهب ج ٢ ص ٧٩ ، وصاحب العقد ج ١ ص ٣٥٢ وابن قتيبة فى المعارف ص ٢٦٧ . والنوبختى فى فرق الشيعة ص ٢٣ نسبتها إلى المختار — على أن اسمه كيسان — .

والصحيح ما ذهب إليه ابن سعد فى الطبقات ج ٥ ص ٧٧ ، والدينورى فى الأخبار الطوال ص ٢٩٤ وابن حزم ج ٤ ص ٩٤ و ١٧٩ من نسبتها إلى أبي عميرة — كيسان — مولى بجيلة ورئيس شرطة المختار .

ابن مطيع » ـ عامل ابن الزبير على الكوفة ـ فطرده منها ، واستولى عليها ، ثم حالفه الظفر ، فتتبع قتلة الحسين حتى أبادهم ، فكان آخر من قتل « عمر بن سعد ابن أبى وقاص ، أمير الجيش الأموى فى موقعة « كربلاء » ، فتعلقت قلوب الناس به ، وكثر أنصاره ، وهنا رأى الفرصة قد سنحت له للقضاء على « ابن زياد » فأرسل « إبراهيم بن الأشتر » لحربه . . والتقى الجيشان على نهر « الخازَر » فقتل « ابن زياد » ، وكثير من أشراف الشام ، وحمل رأس الأمير الأموى إلى « المختار » ، فعرضها بالكوفة ، ثم حملها إلى « ابن الحنفية » ، كما حمل غيرها ، فكان هذا العمل جزاء وفاقاً لما فعله ابن زياد « بالحسين بن على » ـ رضى الله عنه .

ويجب ألا ننسى أثر هذه الموقعة فى نفوس الشيعة ، وموقف المختار ، فقد عظم شأنه واتسعت دعوته ، فشملت : الكوفة ، والبصرة ، والمدائن ، والموصل ، وارتعدت منه فرائص « الزبيريين » بالحجاز ،و « الأمويين » بدمشق ، وتكون حوله مذهب شيعى جديد ـ كما قلنا . انتشرت فى ظله عقائد السبئية[1] من : رجعة ، ووصاية ، وتناسخ ، وبداء ، وإسراف فى تقديس على وأبنائه ، حتى

---

(١) الفرق بين الطائفتين ـ السبئية والكيسانية ـ : أن السبئية تقول بحلول الجزء الإلهى فى الإمام ، وتجعل له نصيبا فى الألوهية نفسها ، بينما تعتبره الكيسانية رمزا للعلم الإلهى ، ويبذلون له الطاعة باعتباره رجلا رفيع المنزلة . محيطا بعلوم ما وراء الطبيعة .

وتتفق الطائفتان فى القول بالرجعة : إلا أن السبئية تقول : بعودة الإمام من مقره السماوى ، على حين ترى الكيسانية : أنه لايعلم مكانه حتى ساعة ظهوره ـ السيادة العربية والشيعة ص ٨١ ، والملل والنحل ج ١ ص ٢٨٠ و ٢٦٣ .

وفى السبئية يقول السيد الحميرى :

قوم غلوا فى على لا أبا لهم ... وأجشموا أنفساً فى حبه تعبا
قالوا : هو ابن الإله جل خالقنا ... من أن يكون له ابن أو يكون أبا

العقد ج ٢ ص ٢٢٧ .

زعموا أنهم أنبياء ، وقالوا : بإحاطة الأئمة بالعلوم الإلهية . . . فمحمد إمامهم قد ورث علم التأويل والباطن وانفرد بتأويل الشريعة فطاعته واجبة .

وفى ظل هذا المذهب أيضاً ظهر القول بالمهدى المنتظر (١) .

* * *

وقد كان المختار ـ لولا ما يتهمه به التاريخ من عقائد خبيثة ، ونهاية شريرة ـ هو الآخذ بثأر « الحسين » والحامى للهاشميين من « ابن الزبير » ، والباذل حياته وقوته فى سبيل آل الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وذريته ، فقد امتنع الهاشميون عن مبايعة « ابن الزبير » بمكة . وبعث بعضهم بطاعته إلى الخليفة الأموى ، فكان هذا وهناً فى دعوة « ابن الزبير » فضيق عليهم ، واستحل أذاهم ، حتى إذا ظهر المختار اشتد خوفه منهم ، فجمعهم فى سجن « عارم » بمكة ، وجمع الحطب حوله ليكونوا طعمة للنار ـ إن لم يبايعوا بعد ثلاث ـ وقد كادوا لولا أن أدركهم جيش المختار فخلصهم ، وخرجوا جميعاً إلى شعب على ، وهم يسبون « ابن الزبير » ويستأذنون « محمد بن الحنفية » ـ شيخ الهاشميين ـ فى حربه ، فيأبى عليهم ، فاجتمع معه فى الشعب أربعة آلاف رجل ، قسم بينهم المال الذى أرسله المختار ، وعزوا ، وامتنعوا طيلة حياة المختار (٢) .

* * *

قتل المختار وأثره :

لذلك عمل « ابن الزبير » على الخلاص من هذا الخصم القوى ، فولى أخاه

---

(١) انظر فرق الشيعة للنوبختى ص ٢٧ ، ٢٩ .

(٢) ابن الأثير ج ٤ ص ١٠٥ .

« مصعبا » العراق ، وإمرة الجيش الذى أعده لحرب المختار . . والتقى الجمعان بالقرب من الكوفة ، فكانت موقعة قتل فيها « المختار » وسبعة آلاف من أتباعه ، وخلصت العراق لابن الزبير[1] .

أما بنو أمية فقد تركوا الحزبين يقتتلان ، ليبيد أحدهما الآخر ، فلما قضى على المختار وجهوا ضرباتهم إلى ابن الزبير ، فقضوا على « مصعب » بالعراق ثم على « عبد الله » بمكة ، واجتمع الأمر لبنى أمية فى « الفرع المروانى » .

* * *

وبانتهاء المختار رجع التشيع إلى عقيدة قلبية ، وحب عاطفى ، واكتفى الشيعة بالعمل سراً على قلب الدولة الأموية ، واقتصرت الحروب مرة أخرى على « الأمويين والزبيريين » ، ثم « الأمويين والخوارج » .

ولقد كان الشيعة من أمهر الناس فى الدعوات السرية ، وأشدهم خطراً على الدولة ، وقد عرف الأمويون لهم ذلك ، فوقفوا منهم وقفة لا رحمة فيها ، وقفة سياسية ، والسياسى إذا نظر إلى العلويين رآهم إما ثواراً إن ظهروا ، أو متآمرين على قلب الدولة إن اختفوا .

والخلفاء الأمويون شباب تأخذهم الحدة ، وتملؤهم الحمية ، والملك عقيم . نعم إن عبد الملك كان يدرك الأثر الخطير لسفك دماء سلالة الرسول – صلى الله عليه وسلم – فكان يصانعهم ، ويعطف عليهم ، وكتب إلى الحجاج – عامله على العراق – جنبنى دماء بنى عبد المطلب ، فليس فيها شفاء من الحرب ، وإنى رأيت آل بنى حرب قد سلبوا ملكهم لما قتلوا الحسين بن على[2] .

---

(١) المصدر نفسه ص ١١٣ .

(٢) العقد ج ٣ ص ١٤٩ .

ولكن الحجاج وإن غلت يده على الهاشميين ، فقد انطلقت فى شيعتهم يقتلهم ، ويسفك دماءهم ، حتى إن الرجل ليقال له زنديق أو كافر ، أحب إليه من أن يقال له شيعة على[1] . وحتى خشى الناس أن يتسموا بأسماء علوية ؛ وقف رجل فى طريق الحجاج ، فقال : أيها الأمير ، إن أهلى عقونى فسمونى علياً ، وإنى فقير بائس وأنا إلى صلة الأمير محتاج ؛ فتضاحك الحجاج ، وقال : بلطف ما توسلت به قد وليتك موضع كذا[2] .

* * *

زيد بن على بن الحسين وهشام بن عبد الملك :

أغمد السيف العلوى حيناً من الدهر ، فاختفى التاريخ السياسى للشيعة حيناً من الدهر ، حتى إذا تولى هشام بن عبد الملك (١٠٥ — ١٢٥ هـ) شاء القدر أن تتلاحق الفواجع العلوية ، فإذا شيعى جديد يخرج ، وحزب جديد يظهر . فيتخذ له فى الحياة السياسية ، والعقائد الشيعية مكاناً له خطره وله استقلاله ، ذاك الداعية هو « زيد بن على بن الحسين » ، وهذا الحزب ، هو « حزب الزيدية » .

طمع زيد فى الخلافة ، وكان رجلا جلداً ، لسناً ، واسع العلم بالدين ، قوى الحجة ، نافراً مما يناله وقومه من ظلم الأمويين ، لا يؤمن « بالتقية » فحدثته نفسه بالخروج ، فشاور أخاه أبا جعفر ـ محمد الباقر بن على ـ فأشار عليه ألا يركن إلى أهل الكوفة « فهم أهل غدر ومكر . بها قتل جدك على وطعن عمك الحسن ، وقتل أبوك الحسين ، وفيها وفى أعمالها شتمنا أهل البيت »[3] .

---

(١) شرح النهج لابن أبى الحديد ج ١٦ ص ١٤ .
(٢) المصدر نفسه ج ١٦ ص ١٥
(٣) مروج الذهب ج ٢ ص ١٤٣ .

لكن « زيداً » يريد الخلافة ، لأنه أحق بالأمر من هشام ، وقد بايعه الكوفيون ، ووعدوه النصر ، فبلغ خبره هشاما ، فاحتفظها له .. دخل عليه « بالرصافة » فلم يحفل به ، فجلس حيث انتهى به المجلس ، ثم تنازعا كلاما[1] ، فقال زيد : « يا أمير المؤمنين ، ليس أحد يكبر عن تقوى الله » ، فقال هشام : « اسكت — لا أم لك — أنت الذى تنازعك نفسك فى الخلافة ، وأنت ابن أمة ؟ » ، فقال زيد : « يا أمير المؤمنين ، إن الأمهات لا يقعدن بالرجال عن الغايات ، قد كانت أم اسماعيل أمة لأم إسحاق — عليهما السلام — فلم يمنعه ذلك أن بعثه الله نبياً وجعله للعرب أبا ، فأخرج من صلبه خير البشر محمداً — صلى الله عليه وسلم — فتقول لى هذا ، وأنا ابن فاطمة ، وابن علىّ ! ؟ » ثم قام وهو يقول :

شَرَّدَه الخوفُ فأزرَى به ... كذاكَ مَنْ يكره حَرَّ الجلاد
مُنْخَرِق الخفَّينِ يشكو الوَجَا ... تَنْكُبُه أطرافُ مَرْوٍ حِداد[2]
قَدْ كانَ فى المَوْتِ لهُ رَاحَةٌ ... والموتُ حَتْمٌ فى رقابِ العِباد
إن يُحْدِث الله لهُ دَوْلَةً ... يَتْرُكُ آثارَ العدَا كالرَّماد[3]

* * *

(١) انظر الطبرى جزء ٨ ص ٢٦٠ وما بعدها .

(٢) المرو : حجارة بيض براقة ، تتقد منها النار .

(٣) الشعر لمحمد بن عبد الله بن الحسين — وكان زيد كثيرا ما يتمثل به — الطبرى جـ ٩ ص ١٦١ ، وزهر الآداب جـ ١ ص ٧٢ ، والبيان والتبيين جـ ١ ص ٣١١ ، وجـ ٣ ص ٣٥٩ ، والعقد الفريد جـ ٤ ص ٤٨٣ ، وجـ ٥ ص ٨٩ .

ظهور الزيدية :

ومضى إلى الكوفة ، فدعا لنفسه سراً ، فتكون حوله شيعته المسمون « بالزيدية[(١)] » .

وفى سنة اثنتين وعشرين ومائة ، أظهر دعوته ، فقاتله « يوسف بن عمر الثقفى » — والى هشام بن عبد الملك على العراق — فلما جد الجد ، مثل الكوفيون معه دورهم مع أجداده ، فحارب فى قليل وهو يقول :

أَذُلَّ الحياةِ وعِزّ المماتِ وكُلاً أَرَاهُ طَعَاماً وَبيلا ! ؟
فإن كانَ لاَ بُدَّ مِنْ واحد فَسِيرِى إلى المَوْتِ سَيْراً جَمِيلا

---

(١) يشترط فى الإمام عند الزيدية ، أن يكون فاطميا ، عالما ، زاهدا ، شجاعا ، سخيا ، خرج مطالبا للامامة ؛ فالزيدية لا تقول « بالتقية » كالإمامية ، بل ترى الخروج شرطا فى كون الإمام واجب الطاعة ، ولا يتبرءون من أبى بكر وعمر ، بل يجيزون إمامتهما — وإن كان على أفضل — بل يرى بعضهم أنهما بويعا لمصلحة دينية واجتماعية ؛ فسيف على من دماء المشركين لم يجف ، لذلك لم تكن العرب لترضى به خليفة فى ذلك الوقت .

ومن أجل هذه النظرة الكريمة من زيد نحو الشيخين فارقه كثير من أتباعه فسماهم زيد « الرافضة » . والزيدية لاتقول بعصمة الأئمة ، ولا باختفائهم ، ومن قال بالوصية : يرى أن الرسول — صلى الله عليه وسلم — نص على « على » بالوصف .

ولا شتراط العلم فى الإمام كثر فيهم الاجتهاد والمجتهدون ، وكان زيد عالما ضليعا تلمذ فى الأصول لواصل بن عطاء رأس المعتزلة ، واقتبس منه الاعتزال ، وتأثر بذلك مذهبه ، وله مجموعتان فى الفقه والحديث ، وقد انقسم الزيدية إلى فرق عدة ذكرها المسعودى فى مروج الذهب ج ١ ص١٤٤ والنوبختى ص ٢١ ، والرازى فى « اعتقادات فرق المسلمين والمشركين » ص ٥٢ وانظر مناقب الزيدية ، والزيدية ورجالها فى الملل والنحل للشهرستانى ج ١ ص ٣٠٢ — ٣٢٣ مطبعة الأزهر .

وحال المساء ، فراح زيد مثخناً بجراحه وقد أصابه سهم غرب[1] فى جبهته ، فلما نزع منه مات ، فدفنه أصحابه ليلا ، ودُلَّ عليه يوسف بن عمر الثقفى ، فاستخرجه وصلبه ، وبعث برأسه إلى هشام ، ثم أحرقه فى عهد الوليد وذراه .

وفى زيد يقول حكيم بن عياش الكلبى ، شاعر الأمويين :

« صَلَبْنَا لَكُمْ زيداً عَلَى جِذْعِ نَخْلَةٍ
وَلَمْ أَرَ مَهْدِيًّا عَلَى الْجِذْعِ يُصْلَبُ
وَقِسْتُمْ بِعُثْمَــــانَ عَلِيًّا سَفَاهَةً
وَعثمانُ خَيرٌ مِنْ عَلِيّ وَأَطْيَبُ »[2]

* * *

خلصاء زيد بن على :

وهكذا مثل زيد وهشام دور الحسين ويزيد ، ويأبى القدر إلا أن تتشابه الفاجعتان ، فقد ركن الحسين إلى الكوفيين واغتر بهم ، وكذلك فعل حفيده زيد بن على . وأكثر الناس من نصح الحسين ، وكذلك فعلوا مع زيد .

يقول له سلمة بن كهيل : « نشدتك الله كم بايعك ؟ ! قال : أربعون ألفاً ، قال: فكم بايع جدك ؟ قال : ثمانون ألفاً . قال : فكم حصل معه ؟ قال : ثلاثمائة . قال: نشدتك الله ، أنت خير أم جدك ؟ قال : بل جدى . قال : أفقرنك الذى خرجت

(١) فى اللسان : وأصابه سهم غرب بسكون الراء وغرب بالتحريك : إذا كان لا يدرى من رماه ، وقيل إذا أتاه من حيث لا يدرى وقد يوصف به . ويضاف ولا يضاف .

(٢) تاريخ ابن عساكر ج ٤ ص ٤٢٣ . وطبرى ج ٨ ص ٢٧٩ ، ومروج الذهب ج ٢ ص ١٤٣ .

فيه خير أم القرن الذى خرج فيه جدك ؟ قال : بل القرن الذى خرج فيه جدى . قال : أفتطمع أن يفى لك هؤلاء وقد غدر أولئك بجدك ؟ قال : قد بايعونى ، ووجبت البيعة فى عنقى وأعناقهم » .

وكتب إليه عبد الله بن حسن بن على : « يابن عم ، إن أهل الكوفة نفخ العلانية خور السريرة ، هرج فى الرجاء ، جزع فى اللقاء ، تقدمهم ألسنتهم ، ولا تشايعهم قلوبهم ، لا يبيتون بعدة فى الأحداث ، ولا ينوءون بدولة مرجوة ، ولقد تواترت إلىّ كتبهم بدعوتهم ، فصممت عن ندائهم ، وألبست قلبى غشاء عن ذكرهم ، يأساً منهم . واطراحاً لهم . وما لهم مثل إلا ما قال على بن أبى طالب إن أهملتم خضتم وإن حوربتم خرتم ، وإن اجتمع الناس على إمام طعنتم ، وإن أجبتم إلى مشاقة نكصتم »[1] .

ولم ينتفع الحسين بنصح الناصحين ، وكذلك لم ينتفع زيد بتلك النصائح ، ونسى الأمويون الدين والعاطفة فى « كربلاء » ، وكانوا مع زيد أشد نكراً ، وأقسى قلباً .

* * *

يحى بن زيد والوليد بن يزيد بن عبد الملك :

قتل زيد فورث ابنه يحيى رياسة الطائفة الزيدية ، فهرب إلى خراسان ، وسار إلى « بلخ » ، وأقام بها يبث دعاته ، ويتهيأ للثورة .

---

(١) طبرى ج ٨ ص ٢٦٥ ، ومروج الذهب ج ٢ ص ١٤٣ : وكلة على من خطبة له فى ذم أصحابه (نهج البلاغة ج ٢ ص ١٢١)
وخور السريرة : ضعفها ، هرج : أى لاأمل فيهم ، جزع : أى غير صابرين ، عدة : أى عدد ولا يثبتون بعدة فى الاحداث أى أنهم يكونون قليلا ولو كثروا مشاقة نكصتم : المشاقة الخلاف والعداوة وهم ينكصون عنها أى لايثبتون لها جنبا

ثم خرج على الوليد بن يزيد سنة خمس وعشرين ومائة ، فكان نصيبه نصيب أبيه — القتل والصلب والإحراق والتذرية فى ماء الفرات — فى عهد يوسف بن عمر الثقفى ، فكان قتل زيد وابنه يحيى على هذا النحو سبباً من أسباب زيادة البغض للأمويين ، والاستعداد للثورة عليهم ، فما هى إلا سنوات حتى دالت دولتهم ، واشتملها التاريخ بحسناتها وآثامها ، سنة اثنتين وثلاثين ومائة من الهجرة النبوية .

* * *

وبذلك انتهى النزاع بين الأمويين والشيعة ، أو نقول : بين حزبين يحكم أحدهما العقل والعصبية ، ويحكم الآخر العاطفة والحنو : فالشيعة تحكم عاطفة شريفة نبيلة ، عاطفة الحنو على آل البيت ، والعطف على نسل الرسول صلى الله عليه وسلم ، عطفاً أنتج قضية « حكمنا الرسول فليحكمنا نسله » .

والأمويون يرون أن الحكم أهلية تمنح ، لا مال يورث ، والحب شىء ، والحكم شىء آخر ، وفى هذا جلال العقل ، وإن لم يكن فيه جمال العاطفة .

* * *

تحول الخلافة إلى بنى هاشم :

سقطت الدولة الأموية ، وتولى الهاشميون الحكم . وبنو هاشم فرعان : فرع على ، وفرع العباس ؛ فمن أولاد على : « الحسن » ، و « الحسين » و « محمد بن الحنفية » .

وحول تعيين الإمام تقسمت شيعتهم إلى فرق[1] ، أهمها ثلاث :

---

(١) عد الشهرستانى فى كتابه « الملل والنحل » نحوا من ثلاثين فرقة شيعية .

الإمامية : وهى تقول بإمامة على بن أبى طالب المتوفى سنة ٤١ هـ ، ثم الحسن ابن على المتوفى سنة ٤٩ هـ ، ثم الحسين المتوفى سنة ٦١ هـ ، ثم – زين العابدين — على بن الحسين المتوفى سنة ٩٤ هـ ثم – الباقر – محمد بن على بن الحسين المتوفى سنة ١١٣ هـ ، ثم جعفر – الصادق – بن محمد الباقر المتوفى فى خلافة المنصور العباسى سنة ثمان وأربعين ومائة .

ثم اختلفوا ، فقال بعضهم بإمامة « اسماعيل بن جعفر » المتوفى فى حياة أبيه ، ليصلوا بذلك إلى خلافة « محمد بن اسماعيل » وهؤلاء هم الاسماعيلية ، أو الباطنية ومنهم الفاطميون خلفاء مصر والمغرب .

وقال آخرون بإمامة موسى ـ الكاظم ـ بن جعفر الصادق المتوفى سنة ١٨٣ هـ ثم ابنه على الرضا ، المتوفى بطوس فى حياة المأمون سنة ثلاث ومائتين ، وهؤلاء هم « الاثنا عشرية » لقولهم بالإمام الثانى عشر ، محمد المهدى بن الحسن العسكرى وهو عندهم المهدى المنتظر ، لانتظارهم رجعته . ولد سنة خمس وخمسين ومائتين ، وتوفى — أو غاب عند الشيعة — سنة خمس وسبعين ومائتين .

والفرقة الثانية : الزيدية ، وهى التى تولت بعد على بن الحسين ابنه زيد بن على ثم يحيى بن زيد ، ثم تابع جمهورهم النفس الزكية محمد بن عبد الله بن حسن بن حسن ابن على بن ابى طالب ، ثم أخاه إبراهيم كما سيأتى .

والفرقة الثالثة : الكيسانية ، أتباع محمد بن الحنفية ، ثم ابنه أبى هاشم عبد الله ابن محمد .

أما فرع العباس : فأولهم العباس بن عبد المطلب عم النبى صلى الله عليه وسلم ، وقد مات رسول الله صلى الله عليه وسلم والعباس هو العاصب الوحيد له .

ولكن علياً كان قد سبقه إلى الإسلام ، وبزه بالفضائل الدينية ، فكان أولى بالخلافة منه ، وقد عرف العباس له ذلك فلم ينازعه حقه ، بل سأله يوم وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم أن يبايع له بالخلافة ، فيقول الناس : عم النبي صلى الله عليه وسلم بايع ابن عمه ، فأبى علىّ ذلك لاشتغاله وقومه بجهاز النبي صلى الله عليه وسلم ، ودفنه ، ولم يكن يدور بخلده - ولا بخلد الهاشميين جميعاً - أن الناس يعدلون به أحداً .

وقد خلف العباس عبد الله ، وكان مع على ثم مع أبنائه ، ثم سالم الأمويين ، كذلك كان ابنه « السجاد » على بن عبد الله ، ذهب إلى عبد الملك ، فأقام معه بدمشق ، فلما تولى الوليد بن عبد الملك أساء إليه ، فرحل إلى إقليم الشراة بالشام ، وأقام بالحميمة [1] حتى مات سنة ثمان عشرة ومائة ، ثم أتى بعده محمد ابن على ، فتظاهر بالعلوية ، فى الوقت الذى كان يعمل فيه سراً لتحويل الخلافة إلى بيته .

* * *

ونحن نعلم أن العصر الأموى مضى وأبناء على هم أبطال هذا النزاع ، وفى سبيله ذهب سادتهم وكبراؤهم طعمة للسيف والنار ، وغير السيف والنار ، من أنواع التعذيب والقتل والمثلة .

وظل بنو العباس على شاطىء السياسة لم يسمع لهم صوت ، بل كانوا مع العلويين بالسيف أحياناً ، وبالقلب فى كثير . . . ولكن التاريخ يتحول فجأة ، فإذا هؤلاء الذين ذهب سادتهم وكبراؤهم يذادون عن الخلافة ، وينتقلون إلى

(١) الحميمة : باقليم الشراة : جنوبى فلسطين ، بالقرب من العقبة .

مرحلة أخرى من التعذيب والظلم ، بل إلى شر منها ، يقول فيها « أبو عطاء » أفلح بن يسار :

يَا ليْتَ جَوْرَ بَنى مَرْوانَ عَادَ لَنَا
يا ليتَ ظُلْمَ بَنى العبَّاسِ فى النَّارِ[1]

نعم ، فإذا التاريخ يتحول فجأة ، وإذا نحن أمام دولة عباسية لاعلوية ، وخليفة من أبناء العباس هو عبد الله « السفاح » بن محمد بن عبد الله بن عباس عم النبى صلى الله عليه وسلم .

فكيف تحول التاريخ ؟ ؟ . . .

وكيف آل الأمر إلى بنى العباس ؟ ؟ . . .

مرحلة شائكة ، تهمنا فى موضوعنا السياسى ، لأنها كما يقولون : نهاية حزب شيعى هو « الحزب الكيسانى » .

***

الدولة العباسية ميراث الكيسانية :

قالوا : لما مات محمد بن الحنفية سنة إحدى وثمانين بالطائف . . . بايع الكيسانية ابنه أبا هاشم — عبد الله بن محمد — وكان سيداً نبيلا ذكياً داهية ، يحسن جمع القلوب حوله ؛ نخشيه سليمان بن عبد الملك ـ الخليفة الأموى (٩٦ ـ ٩٩ هـ) ؛ فعمل على الخلاص منه . مخافة أن يدعو لنفسه . فيجد له من هذه الخلافة نصيراً . . . فاستدعاه سنة ست وتسعين من الهجرة ؛ وأكرم

---

(١) الأغانى جـ ١٦ ص ٧٨ « وأبو عطاء » من مخضرمى الدولتين الأموية والعباسية كانت به لكنة ؛ فاتخذ له مولاه « عطاء » منشدا وراوية لشعره وتكنى به

وفادته ، ثم دس له من قعد على طريق الحميمة بلبن مسموم وتلطف حتى سقاه ، فلما أحس أبو هاشم بالسم عرج على ابن عمه « على بن عبد الله بن عباس » ـ بالحميمة ـ فمرضه حتى مات .

قالوا : فأوصى أبو هاشم بالأمر بعده لمحمد بن على بن عبد الله بن عباس ـ وكان صغيراً ـ وسلم وصاته ، وكتبه إلى دعاته ـ من الكيسانيين ـ لوالده على ابن عبد الله ، ولقنه أسرار الدعوة ، وأمره أن ينهض بها « محمد » فى تمام المائة الأولى للهجرة ، فبذلك أخبره والده محمد بن الحنفية وأمره .

ومن هنا انتقل الأمر إلى العباسيين ، وانماع الحزب الكيسانى فى البيت العباسى ، فأطلق المحدثون على الدولة العباسية « ميراث الكيسانية »[1] .

***

فإذا أنت سألت : ما الذى حدا بأبى هاشم أن يحول الخلافة إلى بنى عمه ويترك بنى أبيه من العلويين مع كثرتهم ، وعلو شأنهم ! ؟ لم تجد من التاريخ جوابا . .

على أن هناك هاشمياً آخر ادعى وصاة أبى هاشم له . . فعبد الله بن معاوية ابن جعفر بن أبى طالب زعم لنفسه هذه الدعوى ، وخرج بالكوفة ،

---

(١) يكاد المؤرخون يجمعون على هذه الوصاية . فأنت تراها فى الطبرى ، وابن الأثير ، والفخرى ، والمعارف ، وشرح النهج لابن أبى الحديد ، ومروج الذهب ، وابن خلدون ، وفرق الشيعة . على أن الدينورى يروى فى الأخبار الطوال ص ٣١٨ أن جماعة الشيعة ذهبوا إلى محمد بن على وأرادوه على البيعة فبايعهم .

فتكون حوله « فرقة الحارثية »[١] ، كما ادعاها جماعة لعلى بن محمد بن الحنفية[٢] .

فلمن يا ترى أوصى أبو هاشم ! ؟

* * *

محمد بن على :

ومهما يكن من شىء فقد قام « محمد » بالدعوة على رأس المائة الأولى من الهجرة . . وبث دعاته فشمروا عن ساعد الجد ـ متظاهرين بالتجارة[٣] ـ ووفق فاختار خراسان قاعدة دعوته ، وحفظه الله من غدر الكوفة ومكرها .

وقد سجل له التاريخ كتابا يدل على ما اجتمع لهذا الزعيم من علم بأحوال الناس فى عصره ، وبصر بأخلاق الشعوب ، وجولات النفوس ، استمع إليه يقول لدعاته :

« أما الكوفة وسوادها فشيعة على ، وأما البصرة فعثمانية ، تدين بالكف ، وأما الجزيرة فحرورية مارقة ، وأعراب أعلاج ، ومسلمون فى أخلاق النصارى ، وأما أهل الشام فلا يعرفون غير معاوية ، وبنى أمية ، وعداوة راسخة ، وجهل متراكم ، وأما مكة والمدينة فقد غلب عليهم أبو بكر وعمر .

ولكن عليكم بخراسان ، فإن فيها العدد الكثير ، والجلد الظاهر ، وهناك صدور سليمة ، وقلوب فارغة ، لم تتقسمها الأهواء ، ولم تتنازعها النحل[٤] » .

---

(١) فرق الشيعة ص ٣٢ (٢) المصدر نفسه ص ٣١

(٣) ابن الأثير ج ٥ ص ٤١

(٤) عيون الأخبار لابن قتيبة ج ١ ص ٢٠٤ وأحسن التقاسيم ج ٣ س ٣٩٢ . وانظر كتب التاريخ الأخرى .

وكانوا يدعون للرضا من آل البيت ، فلم يصرحوا بإمام بعينه ، لينتفعوا بشعور الشيعة وبنى هاشم جميعاً ، وليخفوا أمر الإمام عن بنى أمية .

وفى سنة خمس وعشرين ومائة ، توفى « محمد » بعد أن قطعت الدعوة العباسية أشواطاً فى سبيل النجاح ، فخلفه ابنه « إبراهيم بن محمد بن على بن عبد الله بن عباس » فانتقل إلى دور العمل . . وتسلم « أبو مسلم الخراسانى »[1] مقاليد الدعوة ، فأعمل الحيلة ، واستخدم العصبية بين « اليمنية والنزارية » .

* * *

وعلم « مروان بن محمد » الخليفة الأموى ، فقبض على « إبراهيم » وسجنه وقتله ، فى وقت كانت الدولة الأموية تحتضر ، فأجهز العباسيون عليها سنة اثنتين وثلاثين ومائة ، ورفرف العلم الأسود — وهو شعار العباسيين — على حصون دمشق ، وأظهر أبو العباس نفسه أميراً للمؤمنين سنة ١٣٢ هـ ، فبدأ بذلك عهد جديد وتاريخ جديد ، ونزاع شيعى جديد .

العلويون والعباسيون :

كان النزاع الأول بين الهاشميين والأمويين ، وكان قرب الأولين من الرسول — صلى الله عليه وسلم — يحبب الناس فيهم ، ويجذب العاطفة نحوهم ، فقالوا واستمع الناس . . . أما الصراع اليوم فبين الهاشميين أنفسهم ، بين

---

(١) أبو مسلم الخرسانى فارسى اختاره إبراهيم بن محمد قائدا لدعوته وممثلا شخصيا له فاستطاع بدهائه وذكائه أن يقضى على الدولة الأموية ويسلم الأمر لابى العباس السفاح أول خليفة عباسى وقد حفظ له السفاح ذلك فلما أخذته العزة وجمع حوله شيعة قتله المنصور خوفا على ملكه .

حفدة الرسول وأبناء عم الرسول . . . وليس لأحدهما فضل على الآخر ، فكل منهما يُدلِ بالقرابة ، ويقتسم الحجة .

كان أكبر حجة للعلويين أنهم أوصياء الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأبناؤه ، فهم أحق الناس بميراثه ، فجاء العباسيون ينازعونهم هذه الحجج ، وتولى ذلك « أبو جعفر المنصور » ، الخليفة العباسى الثانى . . فهم ـ فضلا عن وصاة أبى هشام ـ أقرب الناس إلى الرسول ، وأحق بميراثه ، فقد توفى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولا عاصب له إلا العباس ، ولم يجعل الله النساء كالعمومة والآباء ، ولا كالعصبة الأولياء ، فالبنت لا تحوز المال ، ولا يجوز أن تؤم ، فلا تورث الإمامة من قبلها . وعلى ليس له فى الأمر شىء . ولا فى ميراث النبى قليل ولا كثير[١] . فنحن وُرَّاثه دون عبد المطلب على أنه قد حضرت رسول الله الوفاة فأمر بالصلاة غير على . وطلب الإمامة فقدم الناس غيره . حتى إذا صارت إليه حكم فلوثه الحكمان . والحسن باعها لمعاوية بخرق ودراهم . والحسين أسلمه شيعته . فإن كان لكم فيها حق فقد بعتموه . . .

أما الوصاية فقد أوصى النبى لنا ، وبشر بدولتنا ؛ فقال للعباس : « إنها تكون فى ولدك » .

وحين أتاه بابنه عبد الله ، أذن فى أذنه ، وتفل فى فيه ؛ وقال :

---

(١) كان من أثر ذلك أن تأثر نظام التوريث عند الشيعة ، فعندهم تقدم القرابة ، وتحوز البنت كل المال ، وللعاصب التراب ، وابن العم الشقيق مقدم على العم ، والأنبياء تورث ، كل ذلك ليثبت حق على وفاطمة فى الخلافة .

وللشيعة فقه يخالف الفقه السنى ، يقوم على التفسير الشيعى للقرآن ، والحديث الذى رواه شيعى ، وقول الأئمة ، وإنكار الإجماع والرأى .

« اللهم فقهه فى الدين ، وعلمه التأويل » ، ثم دفعه إلى أبيه ؛ وقال : « خذ إليك أبا الأملاك »[١] ، فنحن بنو الأوصياء ، والأئمة من بعد النبى ، فالخلافة خلافتنا وميراث النبى لنا .

* * *

وهكذا أخذ الهاشميون يتقاسمون الحجج ، كلما أدلى العلويون بحجة قابلهم العباسيون بمثلها ، وكان هذا النزاع سبباً فى انقسام الناس إلى علويين وعباسيين ، وانحاز الأدباء أيضاً إلى فريقين : علويين وعباسيين ، وظهر للعباسيين فرق دينية وسياسية ، تناوىء الفرق العلوية ، منها المعتدل ، ومنها المسرف المتغلغل فى سخف العقائد « كالراوندية » مثلا .

وبهذا الوضع أصبحت حجة العلويين على العباسيين أضعف من حجتهم على الأمويين ، لاشتراك الجميع فى الهاشمية ، والقربى من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وانحصار النزاع فى أيهما أقرب ، فيكون أحق بميراث الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأولى بالإمامة .

* * *

النفس الزكية والمنصور :

على أنه قد تم الأمر للعباسيين فأبادوا الأمويين ، وكالوا لهم بالصاع أصوعا ، وتربعوا فى دست الخلافة . . . فغضب العلويون ، وسكتوا يتحينون الفرص لاستئناف الثورة ، وكان أبرز رجالاتهم سيدان يقيمان بالمدينة ، هما : النفس الزكية : — محمد بن عبد الله بن حسن بن حسن بن على بن أبى طالب

---

(١) الفخرى ص ١٠٣ .

وأخوه « إبراهيم » ، فالتف العلويون ـ الإمامية ، والزيدية . وشاركهم المعتزلة ـ حول « النفس الزكية » ، وأرادوه على الخروج والدولة فى نشأتها . . وكتب إليه « ابن هبيرة » ببيعته ونصره[1] . . . وعلم « السفاح » ذلك فقتل « ابن هبيرة » ، وصانع « النفس الزكية » مستعيناً عليه بأبيه عبد الله وعمه جعفر الصادق ، علماً منه أن الإساءة لهؤلاء ـ والدولة ناشئة ، وقلوب القوم معهم ـ ليس من مصلحة الخلافة .

وفى عهد المنصور سنة ١٤٥ هـ بدأ محمد ـ النفس الزكية ـ بن عبد الله بن حسن بن حسن بن على يتحرك بالمدينة ، وبايعه أشراف بنى هاشم ، وتبعه أعيان المدينة ، وزكاه الإمام مالك ، فاستولى على المدينة من عامل المنصور ، وبعث أخاه إبراهيم إلى البصرة . . ثم أخذ هو والمنصور يتكاتبان يعرض كل منهما الأمان لصاحبه ، ويدعوه للدخول فى طاعته محتجاً لنفسه باستحقاق الإمامة . . .

ثم تدخل السيف إذ لم يفلح القلم ، فأرسل إليه المنصور ابن أخيه عيسى بن موسى فى جيش كثيف ، فقتل محمد بالقرب من المدينة[2] وحمل رأسه إلى المنصور .

* * *

قتيل باخمرى لإبراهيم بن عبد الله والمنصور :

ثم خرج إبراهيم ، فأظهر دعوته بالبصرة ، فكثر أنصاره ، وانضوت تحت لوائه شيعة أخيه ، وكان الامام أبو حنيفة يعاونه سراً ، فعمت دعوته « واسط والأهواز وفارس » ، وعظم أمره على المنصور ، فاشتغل به عن كل

---

(١) ابن الأثير جـ ٥ ص ٣٣٨ . وابن هبيرة هو :

(٢) ١٤ من رمضان سنة ١٤٥ هـ

شىء . . ثم كان له مع « عيسى بن موسى » موقعة فى « باخمرى[1] » قتل فيها إبراهيم فلقب بقتيل « باخمرى » .

ومثل العباسيون بالعلويين أشنع تمثيل ، فمن بقى منهم حبسهم المنصور فى سرداب على شاطىء الفرات (بالقرب من الكوفة) لا يصل إليه ضوء ، ولا هواء حتى ماتوا ، وامتلأ قلبه حقداً وغيظاً على هؤلاء الطالبيين . .

تجد ذلك واضحاً فى خطبته فى أهل خراسان التى عرض فيها لتاريخ العلويين ، فصوره كما يراه ، واقْتَصَّ ما فعله الأمويون بأبناء على ، فقام العباسيون يناصرونهم واحتملوا الضيم والتشريد فى سبيلهم ، حتى بعث الله إليهم شيعتهم من أهل خراسان ، فأظهروا حقهم ، وأصاروا إليهم ميراثهم من النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فلم يلبث أن وثب العلويون عليهم ظلماً وحسداً ثم تمثل :

جَهْلاً عَلَىَّ وَجُبْنًا عَنْ عَدُوِّهِم لَبِئْسَتِ الخَلَّتَانِ الجَهْلُ وَالجُبْنُ[2]

. . .

موقعة فخ ـ « الحسين بن على بن حسن » والهادى :

وتوالى النزاع بين فرعى الهاشميين ، كلما قام خليفة عباسى قام داع علوى يدعو لنفسه ، ثم يقاتل فيقتل ، أو يعرف أمره قبل الخروج ، فيحبس أو يسم .

فى عهد الهادى خرج الحسين بن على بن حسن بن حسن بن حسن بن على بن أبى طالب بالمدينة ، وسار إلى مكة ، فقابله جيش الهادى « بفخ[3] » فحمل

---

(١) بين الكوفة وواسط .
(٢) طبرى ج ٩ ص ٣١٣ ، وانظر مقاتل الطالبيين .
(٣) فبقى قتلاهم ثلاثة أيام حتى أكلتهم السباع (معجم البلدان ج ٦ ص ٣٤١) وفخ : واد بمكة .

رأسه إلى الهادى فى موقعة قيل فيها : « لم تكن مصيبة بعد « كربلاء » . أشد وأفجع من فخ » وذلك سنة تسع وستين ومائة ؛ وفيها يقول الشاعر :

فَلأَبكِيَنَّ عَلَى الْحُسَيْنِ بِعَوْلَةٍ وَعَلَى الْحَسَن
وَعَلَى ابْنِ عَاتِكَةَ الَّذِى وَارَوْهُ لَيْسَ بِذِى كَفَن
تُرِكُوا بِفَخٍّ غُدْوَةً فِى غَيْرِ مَنْزِلَةِ الْوَطَن
كَانُوا كِرَاماً قُتِّلُوا لاَ طَائِشِينَ وَلاَ جُبُن
غَسَلُوا الْمَذَلَّةَ عَنْهُمْ غَسْلَ الثِّيَابِ مِنَ الدَّرَن
هُدِىَ الْعِبَادُ بِجَدِّهِم فَلَهُمْ عَلَى النَّاسِ الْمِنَن

* * *

يحيي بن عبد الله أخو النفس الزكية :

وفى عهد الرشيد ، خرج يحيي بن عبد الله ـ أخو النفس الزكية ـ فأقلق باله ، وأقض مضجعه ، فأرسل إليه « الفضل البرمكى » فأعمل الحيلة حتى أرضاه وأجابه إلى الصلح ، على أن يكتب الرشيد أمانه بخطه ، ففعل الرشيد ، وأشهد على ذلك الفقهاء ، والقضاة ، وجلة بنى هاشم ، ومشايخهم ، ثم قدم يحيي مع الفضل ؛ فقبض عليه الرشيد وسجنه ، ثم دس له من سمه[1] .

* * *

وتتبع الطالبيين بالعذاب والتنكيل ، وفى ذلك يقول على بن عبيد الله بن محمد بن عمر بن أبى طالب :

---

(١) طبرى ج ١٠ ص ٥٤ ، حوادث سنة ١٧٦ ، ومقاتل الطالبيين ص ٣٠٨

كُلمَا قُلنَا : أَتَتْنَا دَوْلَةٌ أَذْهَبَتْ عُسْراً وَجَاءَتْ بِيُسر
عَطَفَ الخَوفُ عَلينا وَالرَّدَى وَصَفَاءُ الدَّهْرِ رَهْنٌ بِالْكَدَر
صَارَ واللهِ عَلَيْنَا مَا لَنَا إِنَّ هَذَا لَبَلاءٌ مُسْتَمِر
نَزَغَ الشَّيطانُ فِيما بَيْنَنَا فَأَتَانَا مِنْ جِهَاتِ الخَيْرِ شَر[1]

وفى عهده هرب إدريس بن عبد الله إلى الطرف الشمالى الغربى من إفريقية فأسس دولة الأدارسة ، وضاعت هذه البلاد من يد العباسيين .

محمد بن إبراهيم والأمين ثم المأمون :

فلما ولى الأمين سنة ثلاث وتسعين ومائة ، كانت سيرته خلاف من تقدم لتشاغله بما كان فيه من اللهو والإدمان ، ثم بالحروب التى كانت بينه وبين أخيه المأمون[2] ، فاستغل محمد بن إبراهيم ـ من نسل الحسين ـ هذا النزاع القائم فخرج بالكوفة سنة تسع وتسعين ومائة ، وولى إمرة جيشه « لأبى السرايا بن منصور الشيبانى » فعظم أمر « أبى السرايا[3] » ، وضرب النقود باسمه ، فلم يستطع المأمون إخماد هذه الفتنة إلا ببذل دماء كثيرة على يد « هرثمة بن أعين[4] » .

المأمون يوصى بالخلافة لعلى الرضا الإمام الثامن الإمامية :

كل هذه الأحداث جعلت المأمون يفكر فى حال الخلافة بعده ، فاستعرض

---

(١) معجم الشعراء ص ٢٨٤ . (٢) مقاتل الطالبيين ص ٣٣٦ .

(٣) أبو السرايا : ثائر عصامى شجاع انحاز لجانب المأمون فى فتنته مع الأمين ، ولما قتل الأمين نقصت أرزاقه فخرج فى فرسانه واستولى على الأنبار والرقة ونودى به أميراً فترة غير قصيرة .

(٤) طبرى ج ١٠ ص ٢٢٧ وهرثمة : قائد شجاع له عناية بالعمران استعمله الرشيد على مصر وأفريقية ثم على خراسان ، وانحاز إلى جانب المأمون حتى انتظمت له الدولة ، ثم نقم عليه أمرا فحبسه ، وقيل إن الفضل بن سهل وزير المأمون دس عليه من قتله فى حبسه .

أهل البيتين ، فلم ير أصلح لهـذا الأمر من أبى الحسن على « الرضا » بن موسى « الـكاظم » بن جعفر «الصادق» ، الإمام الثامن للإمامية «الإثنا عشرية» فعهد إليه سنة إحدى ومائتين[١] وزوجه ابنته ، وكتب العهد بيده وأخذ البيعة له بخراسان ، واتخذ شعار العلويين ـ وهو اللباس الأخضر ـ شعاراً رسمياً للدولة ، فـكان لهذا أثر كبير فى نهوض الشيعة ، واجتماع كلمتهم .

لـكن هذا الخبر ما كاد يصل إلى بغداد ، حتى غضب العباسيون ، وخلعوا المأمون ، وبايعوا عمه « إبراهيم بن المهدى » ، وشاء القدر أن يموت على «الرضا» فى حياة المأمون[٢] ، فاضطر أمير المؤمنين أن يرجع إلى الشعار الأسود العباسى ... وماتت الفـكرة ! !

* * *

وهكذا كانت ساحة البلاد :

فأنت ترى أن ساحة البلاد الإسلامية ، كانت مجالا للدسائس ، والفتن والحروب المستمرة طيلة هذه الفترة الشيعية .

وأنت ترى كذلك أنه كان :

لِـكلِّ أَوَانٍ لِلنَّبِيِّ مُحَمَّدٍ قَتِيلٌ ذَكِيٌّ بِالدِّمَاءِ مُضَرَّجُ

كل هذا أثر من آثار شهوة الحـكم ، ولم نذكر لك ما فعله الأمويون ، ثم العباسيون بمن تشيع من عامة الناس ، وإن شئت فاقرأ رسالة الخوارزمى لترى أنك مهما بالغت فى عظم ما أنفق المسلمون من الرءوس والأموال فلست ببالغ قدره ، حتى قال الجاحظ : ولم يظهر فى عدد القتلى مثل الذى ظهر فى آل

---

(١) طبرى ج ١٠ ص ٢٤٣ .

(٢) فلما مات على الرضا اتهم المأمون بسمه رغم جزعه عليه .

أبى طالب وآل الزبير ، وآل المهلب[1] ، وحتى ألف أبو الفرج الأصفهانى كتاباً سماه « مقاتل الطالبين ».

* * *

وإذا نحن لم نستطع أن نحكم بين الأمويين والهاشميين أيهما المحق ، فموقفنا هنا أدق وأغمض ، فعلينا أن نأخذ عدتنا لبحث آخر نصور فيه إجمالا بقية الأحزاب السياسية التى نشأت فى هذا العصر ، فوجهت تاريخ الناس وحياتهم ، كما وجهت آدابهم وعقائدهم وجهة شغلت المشرع ، والسياسى والأديب ، وتركت العالم العربى كما يصوره الشاعر :

لاَ شَىْءَ لِلقَوْمِ سِوَى السِّهَامِ   مَشْحُوذَةً فِى غَلَسِ الظَّلاَمِ

. . .

وقد استطعنا فى التاريخ السياسى للشيعة . أن نلم بموقف الحزب الأموى ونضاله ، فلم يبق من هذه الأحزاب المهمة إلا حزبان ، هما : « الخوارج » ، و« الزبيريون » ، وذلك موضوع بحثنا فى الفصل الثانى .

(١) البيان والتبيين ج ٢ ص ٢٢٣

الفصل الثانى

الأحزاب الأخرى المناوئة للشيعة

(ا) الخوارج :

نشأتهم — المرأة الخارجية — فرقهم وتعاليمهم — الخوارج والخلافة .

نشـــأة الخوارج :

انتهت وقعة صفين بالتحكيم بين على ومعاوية ؛ فشهدت الجزيرة حزباً ثالثاً له خطره وشأنه . . . نشأت فكرته من جيش على . وكوّن رأيه حول التحكيم . رأى — كما قلنا — أن حكم الله فى الأمر واضح جلى . وقد حاربوا القوم وهم على بينة من عدالة قضيتهم ، وضلال عدوهم ، فليس التحكيم بعد إلا ادهاناً فى دين الله ، وجنوحا عن سبيل الله ، وكفراً يجب الرجوع عنه ، والتوبة إلى الله منه . . كل هذه المعانى صاغها « عروة بن أدية » فى : « لا حكم إلا لله » فما إن نطق بها حتى تجاوبتها أنحاء جيش على ، ورددها كل من يدين بهذا الرأى فأصبحت « لا حكم إلا لله » شعار هذه الفرقة الجديدة . . « فرقة الخوارج » .

* * *

رجع جند على من « صفين » وقد فشا فيهم التحكيم ، يتشاتمون الطريق كله ، ويتضاربون ، حتى إذا أتى العراقيون الكوفة ، توجه الخوارج إلى «حروراء»[1]

(١) قرية بظاهر الكوفة ، والنسبة إليها حرورى . « معجم البلدان » . وانظر القاموس المحيط ، ولسان العرب فى مادة (حرر) .

فأجمعوا أمرهم على أن يكون « شبث بن ربعى التميمى » أميراً للقتال ، و « عبد الله بن الكواء اليشكرى» أميراً للصلاة ، والأمر شورى بعد الفتح .

وبذلك أصبحنا أمام ثلاث فرق سياسية : « هاشميين » مع على و «وأمويين» مع معاوية و « خوارج » تكفر هؤلاء وأولئك .

* * *

وقد حاول على رضى الله عنه أن يرجع القوم إلى حوزته ، وأبى الخوارج إلا أن يؤمن « على » بفكرتهم ، فينقض ما أبرم ، ويقر بالخطيئة ، وينهض لحرب معاوية . . .

وهيهات . . . هيهات أن ينقض على عهداً أبرمه ، والدين يأمر بالوفاء بالعهود ، وأن يقر على نفسه بالكفر ، وما أشرك بالله مذ آمن . . .

فتحرج الموقف ، وازدادت الخوارج غلواً ، وعم أذاهم ، فذهبوا يقتلون كل من لم يشاطرهم رأيهم من تكفير « على » و « معاوية » ، ومن قبل التحكيم ، وزادهم شوكة إخفاق الحكمين فى مهمتهما ، وإيمان كثير بفكرتهم ، وعطفهم عليهم ، فاضطر أمير المؤمنين أن يحسم الداء بالكى ، فأوقع بهم فى «النهروان»[1] وقعة كادت تبيدهم ، ولكنها لم تبد فكرتهم ، بل زادتها اشتعالا ، وملأت قلوبهم حقداً ، فدبروا قتله . وتولى كبر ذلك « عبد الرحمن بن ملجم المرادى — كما سبق — .

واعتبر « الخوارج قتل « ابن ملجم » لعلى رضى الله عنه أكبر ما تقرب به العبد إلى ربه .

---

(١) النهروان : مدينة تقع بين واسط وبغداد

يقول « عمران بن حطان السدوسى »[1] شاعر الشراة ..

« يَا ضَرْبَةً مِنْ كَرِيمٍ مَا أَرَادَ بِهَا
إِلاَّ لِيَبْلُغَ مِنْ ذِى العَرْشِ رِضْوَانَا
إنى لَأَفْكرُ فِيهِ ، ثُمَّ أَحْسَبُهُ
أَوْفَى البَرِيَّةِ عِنْدَ اللهِ مِيزَانَا
للهِ دَرُّ المُرَادِىِّ الذى سَفَكَتْ كَفَّاهُ مُهْجَةَ شَرِّ الخلقِ إِنْسَانَا
أَمْسَى عشيَّةَ غَشَّاهُ بضَرْبَتِهِ مِمَّا جَنَاهُ من الآثامِ عُرْيَانَا »

وتقول « ابن أبى مياس المرادى » يفتخر :

« وَنحنُ ضَرَبْنَا — يَا لكَ الخَيْرُ — حَيْدَراً
أَبَا حَسَنٍ مَأْمُونَةً فَتَقَطَّرَا
ونحنُ خلعنا مُلْكَهُ عَنْ نِظَامِهِ بِضَرْبَةِ سيفٍ ، إِذْ عَلاَ وَتَجَبَّرَا
ونحنُ كِرَامٌ فى الصَّبَاحِ أَعِزَّةٌ إِذَا المَوْتُ بالمَوْتِ ارْتَدَى وَتَأَزَّرَا[2]

***

الخوارج وبنو أمية :

قتل « على » ، وانتهى الأمر إلى « بنى أمية » ، فاتصلت الحروب بينهم وبين « الخوارج » ، ووقف كل فريق من صاحبه موقفاً لا رحمة فيه ، ولا شفقة ، ولا هوادة .

---

(١) رأس القعدة من الصفرية وخطيبهم وشاعرهم ترجم له فى الأغانى ج ١٦ ص ١٥٢ ، وخزانة الأدب ج ٢ ص ٤٣٦ .

(٢) ابن الأثير ج ٢ ص ١٧١ ، وانظر مقاتل الطالبيين ، والعقد الفريد .

نظر الخوارج إلى بنى أمية نظرة المسلمين إلى المشركين ، فى الوقت الذى يرى فيه بنو أمية أنهم المسلمون وحدهم . وأن القضاء على الخوارج أمر يدعو إليه الدين ، وعلى ضـوء هذه النظرات كان كل فريق يحارب صاحبه .

• • •

وقد أبلى الخوارج فى هذه الحروب بلاء منقطع النظير ، حتى ضرب بشجاعتهم المثل ، فقيل : « أفتك من حرورى » ، ويقول ابن عبد ربه : « وليس فى الفرق كلهم أشد بصائر من الخوارج ، ولا أشد اجتهاداً ، ولا أوطن نفساً على الموت منهم الذى طعن بالرمح فأنفذه الرمح ، فجعل يسعى إلى قاتله ويقول : (وعجلتُ إليك ربِّ لترضى) »[1] .

وأرسل « ابن زياد » « أسلم بن زرعة » فى ألفين لمحاربة الخوارج ، فهزمه « أبو بلال مرداس بن أدية » الخارجى « بآسك »[2] فى أربعين من صحابته ، فقال شاعرهم :

أألفاً مؤمنٍ – فيما زعمتم – ويقتلهم – بآسكَ – أربعونا
كذبتم ، ليسَ ذاكَ كما زعمتم ولكنَّ الخوارجَ مؤمنـــونا
هى الفئةُ القليلة قد علمتم على الفئةِ الكثيرةِ ينصرونا[3]

***

(١) العقد الفريد ج ٣ ص ٣٥٠ .
(٢) آسك – بفتح السين – بلدة من نواحى الأهواز .
(٣) طبرى ج ٦ ص ٧٥ ، والكامل للمبرد ج ٧ ص ١٩٢ . والشعر لعيسى بن فاتك الخطى ، أحد بنى تيم الله بن ثعلبة .

المرأة الخارجية :

وفى هذه الحروب اشتركت نساء الخوارج مع رجالهم ، واشتهر منهن « أم حكيم » فى جيش « قطرى بن الفجاءة » ، كانت تحارب وهى تقول :

أَحْمِلُ رأساً قدْ سَئِمْتُ حَمْلَهْ
وَقد مَلِلْتُ دَهْنَهُ وَغَسْلَهْ
ألا فتى يَحْمِلُ عنى ثِقْلَهْ

و « غزالة » التى آلت أن تصلى فى مسجد الكوفة ، فحاربت الحجاج بن يوسف مع زوجها « شبيب بن يزيد الشيبانى » حتى اعتصم الحجاج بقصر الإمارة ، وبرّت غزالة بقسمها .

يقول « عمران بن حطان » وقد طلبه الحجاج :

أَسَدٌ عَلَىَّ وَفى الحروب نَعَامَةٌ فَتْخَاء تَنْفِرُ من صَفِيرِ الصَّافِرِ
هَلاَّ بَرَزْتَ إلى غَزالةَ فى الوَغَى بل كانَ قلبُكَ فى جَنَاحَىْ طائِرِ
صَدَعَتْ غزالةُ جَمْعَهُ بِعَسَاكِرٍ تركَتْ كَتائِبَهُ كأمسِ الدَّابِرِ

* * *

قالوا : « قدم الحجاج على الوليد بن عبد الملك ، وعليه درع وعمامة سوداء ، وقوس عربية ، وكنانة . فبعثت إليه « أم البنين » — زوجه — من هذا الأعرابى المستلئم فى السلاح عندك ، وأنت فى غلالة ؟ ![1] فبعث إليها : هذا الحجاج بن يوسف . فأعادت تقول : والله لأن يخلو بك ملك الموت أحب إلى

---

(١) الغلالة : الثوب الرقيق .

من أن يخلو بك الحجاج . فأخبره الوليد بذلك وهو يمازحه ، فقال : يا أميرالمؤمنين دع عنك مفاكهة النساء بزخرف القول ، فإنما المرأة ريحانة ، وليست بقهرمانة ؛ فلا تطلعها على سرك ، ومكايدة عدوك .

فلما قام أخبرها الوليد بماقال ، فقالت : حاجتى أن تأمره غداً يأتينى مسلماً ، فأتاها الحجاج ، فحجبته ، فلم يزل قائماً ، ثم أذنت له ، وقالت : إيه يا حجاج ، أنت الممتن على أمير المؤمنين بقتلك « عبد الله بن الزبير » و « ابن الأشعث » ؟ أما ـ والله ـ لولا أن الله يعلم أنك من شرار خلقه ما ابتلاك برمى « الكعبة » ، وقتل ابن « ذات النطاقين »[1] أول مولود فى الإسلام .

وأما نهيك أمير المؤمنين عن مفاكهة النساء ، وبلوغ أوطاره منهن ، فإن كن ينفرجن عن مثلك فما أحقه بالأخذ عنك ، وإن كن ينفرجن عن مثله فغير قابل لقولك .

أما ـ والله ـ لقد نفض نساء أمير المؤمنين الطيب عن غدائرهن ، فبعثنه فى أعطية أهل الشام ، حين كنت فى أضيق من القرن ، فأظلتك رماحهم وأنجاك كفاحهم ؛ وحين كان أمير المؤمنين أحب إليهم من آبائهم وأبنائهم ، فما نجاك الله من عدو أمير المؤمنين إلا بحبهم إياه ، ولله در القائل ، إذ نظر إليك وسنان غزالة بين كتفيك :

أسدٌ عَلَىَّ وفى الحروبِ نعامةٌ فتخاء تنفرُ مِنْ صَفِيرِ الصافر

---

(١) ذات النطاقين : أسماء بنت أبى بكر الصديق ـ زوج الزبير بن العوام ـ شقت نطاقها ليلة الهجرة وربطت به جراب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وصاحبه ـ أبى بكر ـ فبشرها رسول الله بأن الله قد أبدلها نطاقين فى الجنة ، ولقبها بذلك .

هلاَّ بَرَزْتَ إلى غزالة فى الوَغى   بل كان قلبكَ فى جَناحىْ طائر
صدعت غزالة جمعَهُ بعَسَاكرٍ   تركَتْ كتائبه كأمس الدَّابر

اخرج ؛ نخرج »[1].

* * *

وقد كان عهد « عبد الملك بن مروان » عهد الحروب الطاحنة ، والمعارك العنيفة ، بين هذه الأحزاب السياسية ، وعلى يد « الحجاج بن يوسف الثقفى » استطاع أن يتخلص من ابن الزبير وحزبه ، ثم رمى به الكوفة ، وأمره بقتال الخوارج ، فرماهم هذا « بالمهلب بن أبى صفرة الأزدى » ، فاعمل الحيلة والسيف ، واستخدم ما ابتلوا به من الانقسام لأتفه الأسباب حتى قضى عليهم .

* * *

فرق الخوارج :

وكما كان الانقسام سبباً فى القضاء عليهم ، كذلك كان سبباً فى تشعب آرائهم ، حتى غدا الباحث لا يستطيع أن يجمعهم تحت فكرة واحدة ، وعقيدة متفقة[2].

فأَزَارِقَةٌ : تكفر المسلمين جميعاً ، وتحرم ذبائحهم ، والتزوج فيهم ، والتوارث بين الخارجى وغيره ، كما تكفر مرتكب الكبيرة .

---

(١) العقد الفريد ج ٣ ص ٢٥٠ ، مروج الذهب ج ٢ ص ١٢٠ ، وشرح النهج لابن أبى الحديد ج ١٦ ص ٤٧ ، وعيون الأخبار فى الجبناء .

(٢) تناول « الشهرستانى » فى كتابه : « الملل والنحل » فرق الخوارج وتعاليم كل فرقة ، وقد اشتمل على بضع وعشرين فرقة ، ج ١ ص ١٩٥ – ٢٥٦ .

وإباضيَّةٌ : تخالفهم فى كل ذلك ، وتنظر إلى المسلمين نظرة المسالمة .

ونَجَدات : لها فى التشريع رأى خاص ، ترى أن الدين معرفة الله ورسوله وماعدا ذلك فالناس معذورون فى جهله ومن أداه اجتهاده إلى تحليل حرام ، أو تحريم حلال فهو معذور ، والكذب أشد جرماً من الزنى وشرب الخمر .

وَصُفْرِيَّةٌ : لها رأيها كذلك .

وهكذا كان « الصلتان العبدى» شاعر بنى أمية أصدق ما يكون حين يقول :

« أَرَى أُمَّةً شَهَرَتْ سَيْفَهَا وَقَدْ زِيدَ فِي سَوْطِهَا الأَصْبَحِيْ
بِنَجْدِيَّةٍ وَحَرُورِيَّةٍ وَأَزْرَقَ يَدْعُو إِلَى أَزْرَقِيْ
فَمِلَّتُنَا أَنَّنَا الْمُسْلِمُونَ عَلَى دِينِ صِدِّيقِنَا وَالنَّبِيْ »[1]

* * *

الخوارج والخلافة :

أبرز فكرة عند هؤلاء رأيهم فى الخلافة ، فقد رأوا أن الخلافة ـ إن كان لابد للمسلمين من خليفة ـ يجب أن تكون باختيار حر من المسلمين .

وأصلح الناس أولاهم للناس ، فليس بلازم أن يكون علوياً ، ولا قرشياً ولا عربياً . ففى الحديث « اسمعوا وأطيعوا ولو وُلىَّ عليكم عبد حبشىّ كأن رأسه زبيبة » وهذا عمر يقول ـ وقد سئل يوم طعن أن يعهد لأحد بالأمر ـ « لو كان سالم مولى أبى حذيفة حياً لوليته[2] » .

---

(١) الكامل للمبرد ج ٧ ص ١٠٢ ، وابن أبى الحديد ج ٤ ص ٣٨٠ ـ وسوط أصبحى نسبة إلى ذى أصبح من ملوك حمير وهو أول من اتخذها أداة للعقاب .

(٢) طبرى ج ٥ ص ٣٤ وابن الأثير ج ٣ ص ٢٧ .

وأما الحديث « الأئمة من قريش » فغير متواتر ، ولذا اختلف فيه الأنصار . حتى قال بعضهم : إن غير العربى أحق ـ إن تكافأ العربى وغيره ـ ليسهل عزله إن جار ، ثم الخليفة إذا اختير لا يصح له أن يتنازل أو يحكِّم .

فهم بهذا يخالفون جمهور الشيعة القائلين : بحصر الخلافة فى آل البيت ، وأهل السنة : المشترطين قرشية الخليفة .

وعلى ضوء هذا حاربوا أعداءهم من : (أمويين ، وشيعة ، ثم عباسيين) لأنهم حكموا الناس بالسيف ، وجعلوها وراثة .

* * *

ولعلك معى فى أن رأى الخوارج فى الخلافة أصلح رأى لاختيار الزعيم الذى يحقق للناس سبل السعادة . . . هو رأى الإسلام والعقل ، لولا أن حمل لواءه قوم أسرفوا ؛ فضلوا ، وبالغوا فى تنفيذه وحمل الناس عليه فتخبطوا فى عمياء مدلهمة أوردتهم أخبث مورد .

* * *

على أنك إذا تعديت هذه النظرية لتجمع عقائدهم تحت وحدة ، وجدت اختلافاً بين المؤرخين ، لعل أقربها ما يقوله أبو الحسن الأشعرى : « الذى يجمعها إكفار علىّ ، وعثمان ، وأصحاب الجمل ، والحكمين ، ومن رضى بالتحكيم وصوب الحكمين ، ووجوب الخروج على السلطان الجائر »[١] .

وقدم عروة بن أدية أسيراً إلى ابن زياد ، فسأله عن أبى بكر وعمر ، فقال فيهما خيراً ، فسأله عن عثمان ، فقال : كنت أتولاه فى خلافته ست سنوات ، ثم تبرأت منه بعد ذلك ، وشهد عليه بالكفر ، فسأله عن على ، فقال : أتولاه إلى أن حكم ، ثم أتبرأ منه بعد ذلك ، وشهد عليه بالكفر ، فسأله عن معاوية فسبه سباً

(١) الفرق بين الفرق ص ٥٥ . والملل والنحل ج ١ ص ١٩٨ .

قبيحاً ، فسأله عن نفسه ، فقال : إن أولك لريبة ، وإن آخرك لدعوة ، وأنت فيما بينهما ـ بعد ـ عاصٍ لربك . . فأمر بضرب عنقه[1] .

* * *

فأنت ترى : أن فكرة الخوارج قد بدأت حول الخلافة والخليفة . . . فإن توسعت ففى الحكم على الخلفاء حكماً فردياً ، ولكنها لم تلبث ـ فى عهد عبد الملك ابن مروان ـ أن شملت غير الخلافة من أسس الدين فتناولوا الإيمان ، لحدوه بالقول والعمل ، وبحثوا فى أمر مرتكب الكبيرة وغيرها من أمور التشريع ، فتحكموا فى عقائد الناس ، ودمائهم ، وأموالهم .

* * *

وقد نشأ هذا الحزب والإسلام فى نشأته ، والناس قريبو عهد بالنبوة ، ودرج على بساط الجزيرة العربية ـ ولا تزال بقاياه إلى اليوم ـ فلم يلبث أن كوّن له رأياً خاصاً ، وأدباً خاصاً ، وحياة اجتماعية وتشريعية خاصة بهم ، تستمد أصولها من حرفية الكتاب والسنة ، فلعله الحزب الوحيد الذى كان أبعد ما يكون عن التطور الدينى والعلمى والأدبى ، فظل إيمانه إيمان قلب لا إيمان علم ، وظلت حياته عربية خالصة ، تمثل باديتهم وعقيدتهم .

كما كان أهم ما يمتاز به التفرق حول الفكرة ، لا الأشخاص ـ شأن الشيعة ـ والقسوة فى تنفيذ عقائده ، ومعاملته لخصومه ، وتعرضه لسفك الدماء ، حتى كرههم الناس ، فاستطاع المهلب بن أبى صفرة أن يحاربهم ـ كما قلنا ـ بقلوب العرب وسيوفهم ، وأن يوجه إليهم سيفاً فيه الحتف المبيد والموت الزؤام ، وأن يسلمهم إلى الدولة العباسية فلولا تحتضر .

---

(١) الملل والنحل ج ١ ص ٢٠٥ وعروة ممن نجا من موقعة النهروان .

(ب) الزبيريون[1] :

نشأتهم — رأيهم فى الخلافة

نشأتهم :

مما لا شك فيه أن هذا الحزب لم يظهر فى الحياة السياسية حزباً منظماً إلا بعد قتل الحسين بن على – رضى الله عنه – سنة إحدى وستين من الهجرة ، فما إن قتل الحسين حتى خلا الجو « لعبد الله بن الزبير » ، وغدا – كما يعتقد – أمثل أبناء الصحابة ، وأحقهم بهذا الأمر ؛ فدعا لنفسه ، متخذاً من حادثة « كربلاء » وقوداً يلهب به النفوس ، وينفرها من بنى أُمية ، ويجمع الناس حوله .

وقد علمنا ما خلفته موقعة « كربلاء » من الأثر الدامى فى نفوس المسلمين ، فاستخدم ابن الزبير هذه الأحاسيس للدعاية له ، متخذاً مكة حاضرة للملك ، إذ كان — ككل قرشى — يرى أن يرجع الأمر إلى الحجاز مقر السيادة العربية . . . فوجد الحزب « الزبيرى » .

* * *

وعلم « يزيد بن معاوية » — الخليفة الأموى — بدعوة « ابن الزبير » فانتدب لحربه « الحصين بن نمير » فى جيش بلغ مكة فى المحرم سنة أربع

---

(١) فى العقد الفريد ج ٢ ص ١٦٠ « كان عثمان استخلف عبد الله بن الزبير يوم الدار – على الدار فبذلك ادعى ابن الزبير الخلافة » لذلك يرى كثير من المؤرخين أن هذا الحزب كان نتيجة لرغبة قديمة فى نفس عبد الله . عمل على تحقيقها فى الجمل وصفين وغيرهما حتى تمت له بعد قتل الحسين سنة ٦١ هـ .

وستين من الهجرة ؛ فحاصر الكعبة ورماها بالمنجنيق ، وأوقد النار فيها ، فأثار هذا العمل — بعد موقعة « كربلاء » — عواطف الناس ، وزادهم بغضاً للخليفة الأموى .

وفى شهر ربيع الآخر مات يزيد ، فكان ذلك فاتحة خير لابن الزبير ، وهزيمة للجيش الشامى ، إذ أصبح ابن الزبير خليفة مبايعاً له : فى الحجاز ، ومصر ، والعراق ، وجزء كبير من الشام ، مقر الخلافة الأموية .

وساعد على نشر دعوته ضعف البيت السفيانى : فقد خلف يزيد ابنه معاوية ، وكان شاباً ضعيفاً ، لا قبل له بالخلافة ، فنزل عنها ، وترك أمور الناس . فانقسم البيت الأموى على نفسه ، ثم اجتمع ملؤهم على مروان بن الحكم ، فبويع له بالشام فى ذى القعدة سنة أربع وستين ، وانتقل الأمر إلى البيت المروانى .

وهنا تنتقل السياسة العامة انتقالا سريعاً ، ويشتد النزاع بين الأحزاب ـ الأمويين بالشام ، والشيعة بالكوفة ، والخوارج بالبصرة وفارس ، والزبيريين بالحجاز ـ كل حزب يريد أن يتغلب على الآخر ، فيسوس الناس . وهنا كذلك تلعب القدرة السياسية دورها الخطير ، فتوجه ابن الزبير إلى تشتيت جيشه لمحاربة هؤلاء وأولئك فى وقت واحد ، بينما تلهم عبد الملك بن مروان ـ الخليفة بعد أبيه ـ أن يظل قابعاً بالشام ينظر إلى خصومه يقضى بعضهم على بعض . . . فهذا « مصعب بن الزبير » يسير بجيشه إلى الكوفة لمحاربة « المختار بن أبى عبيد » فيشتد فى قتال الشيعة ، حتى يقضى على المختار سنة سبع وستين من الهجرة . ويعيد الأمر لابن الزبير . . وهذا « المهلب بن أبى صفرة الأزدى » يقود جيشاً زبيريا آخر لمحاربة الخوارج فتفنى زهرة شبابه . . فكان لهذا كله أثره الواضح فى إضعاف قوة ابن الزبير .

لذلك انتهز عبد الملك هذه الفرصة ، فخرج بنفسه لملاقاة مصعب . واستعمل الحيلة حتى استمال إليه قلوب قواد ابن الزبير . وأدخل الفتنة فى صفوفهم . . . والتقى الجيشان ، فتفرق أنصار مصعب وأسلموه ـ شأن العراق إذ ذاك فى كل حرب ـ فقتل مصعب، ودخلت الكوفة فى طاعة عبد الملك سنة إحدى وسبعين، ولم يبق أمامه إلا صحارى الحجاز المقفرة يعتصم فيها « عبد الله بن الزبير » زاعماً أنه عائذ بالبيت . فجهز إليه « عبد الملك » جيشاً كثيفاً بقيادة « الحجاج بن يوسف الثقفى » فقضى على ا بن الزبير سنة ثلاث وسبعين . . وفعل بمكة الأفاعيل .

وبذلك سقط الحزب الزبيرى ، بعد أن بسط سلطانه على كثير من الولايات الإسلامية تسع سنين (٦٤ — ٧٣) وقضى على الحجاز أن يظل إقليما تابعاً للخلافة ، تصدر إليه الولاة من دمشق ثم بغداد .

نعم سقط الحزب الزبيرى بعد أن خلف أثراً واضحاً فى السياسة ، والحياة الأدبية ، وكان له — ككل حزب — ألسنة تدافع عنه ، ودعاة تحتج لنظريته . ويعتبر « عبد الله بن قيس الرقيات » شاعر الزبيريين الفذ ، الذى دافع عنهم ، وأخلص فى الولاء لهم ، وبكاء قتلاهم ، حتى بعد سقوط حزبهم ، واحتمل فى سبيل ذلك آلاماً ثقالا .

* * *

وبعد : فهناك أحزاب أخرى نشأت فى هذا العصر ، كالمرجئة ، والمعتزلة كان لها من غير شك رأى فى الحياة السياسية ، وفكرة خاصة فى سياسة الحكم ، ومن يسوسه ، لكنها لم تكن من الشيعة بحيث تتطلبنا دراسة خاصة . فلنتركها ـ لكتب العقائد ـ لنبحث فى موضوع آخر ، هو العقائد الشيعية . وأثرها فى الأدب العربى .

الفصل الثالث

العقائد الشيعية وأثرها فى الأدب العربى

نشأة العقائد — مم نبع التشيع — المستشرقون ومبادىء الشيعة — أهم العقائد الشيعية المؤثرة فى الأدب .

(ا) الوصاية : كلمة عنها — موقف الفرق الشيعية منها — أثرها فى الأدب .

(ب) الرجعة : كلمة عنها — موقف الفرق الشيعية منها — غيبة الإمام — لماذا تغيب الإمام .

(ج) المهدية : أصلها — موقف الفرق الشيعية منها — الأثر الأدبى لكل من المهدية والرجعة .

كيف نشأت العقائد الشيعية :

يقول الطبرى - عن السرى - : « كان عبد الله بن سبأ يهودياً من أهل صنعاء - أمه سوداء - فأسلم زمان عثمان ، ثم تنقل فى بلدان المسلمين يحاول ضلالتهم ؛ فبدأ بالحجاز ، ثم البصرة ، ثم الكوفة ، ثم الشام ، فلم يقدر على ما يريد عند أحد من أهل الشام ؛ فأخرجوه حتى أتى مصر فاعتمر فيهم ، فقال لهم - فيما يقول - : لعجب ممن يزعم أن عيسى يرجع ، ويكذب بأن محمداً يرجع ، وقد قال الله عز وجل : (إن الذى فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد) ؛ فمحمد أحق بالرجوع من عيسى . . . قال : فقبل ذلك عنه ، ووضع لهم الرجعة ، فتكلموا فيها .

ثم قال بعد ذلك : إنه كان ألف نبى ، ولكل نبى وصى ، وكان « على » وصى « محمد » .

ثم قال : محمد خاتم الأنبياء ، وعلى خاتم الأوصياء ، فمن أظلم ممن لم يجز وصية رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ووثب على وصى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وتناول أمر الأمة . .

إن عثمان أخذها بغير حق وهذا وصى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فانهضوا فى هذا الأمر فحركوه ، وابدأوا بالطعن على أمرائكم ، وأظهروا الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، تستميلوا الناس ، وادعوهم إلى هذا الأمر »[١] .

* * *

نشأ عبد الله بن سبأ فى اليمن ، فتثقف بالثقافتين - اليهودية والفارسية — ثم أسلم فى السابعة من خلافة عثمان — رضى الله عنه — « سنة ٢٩ ـ ٣٠ هـ » ، فاستخدم ثقافته فى هدم الإسلام ، وتشويه عقائده ، تحت ستار الغيرة على الدين ، والتعصب لآل البيت ، وهم منه ومن عقائده براء .

وما كان ابن سبأ إلا عضواً من عصابة شريرة هالها الفتح الإسلامى لبلادها ، فأخذت تسمم عقائد الناس ، وتفشى فيهم مقالة السوء ، وتسلك بهم مسالك شتى ، حتى أخرجتهم عن طريق الهدى . . كيداً للإسلام بالحيلة إذ فشلوا فى هدمه بالسيف[٢] .

ولم تقف أثافى ابن سبأ وشيعته عند هذا الحد : من الرجعة ، والوصاية ،

---

(١) الطبرى ج ٥ ص ٩٨ ، وابن الأثير ج ٣ ص ٩٤ ، والملل والنحل ج ١ ص ٣٦٦ .

(٢) خطط المقريزى ج ١ ص ٣٦٢ ، وابن أبى الحديد ج ٧ ص ١٣٦ / ج ٨ ص ٣١٩ .

بل تعدتها إلى تأليه علىّ[1] ، وطبقوا عليه وعلى أبنائه نظرة الفرس إلى ملوكهم .. والفرس ينظرون إلى ملوكهم كأنهم كائنات إلهية ، اصطفاهم الله للحكم ، ولهم وحدهم حق لبس التاج ، بما يجرى فى عروقهم من دم إلهى . . . فعلىٌّ — فوق أنه وصى الرسول — قد استحق الحكم عن هذا الطريق أيضاً — عن طريق الأسرة الحاكمة — وهو يتولى حكمه بأمر الله كما يتولى الأكاسرة . . وهذه النظرية هى التى سماها المحدثون بالحق الملكى المقدس[2] .

* * *

المستشرقون ومبادىء الشيعة :

على أن ذلك الاختلاط فى المبادىء الشيعية جعل المستشرقين يتساءلون عن أصل مبادىء الشيعة .

فالأستاذ « ولهوسن Wellhausin » يرى أن العقيدة الشيعية نبعت من اليهودية أكثر مما نبعت من الفارسية ، مستدلا بأن مؤسسها عبد الله بن سبأ وهو يهودى ، وهذا الرأى خلاصة كلام الشعبى فى العقد الفريد[3] .

ويميل الأستاذ « دوزى Dozy » إلى أن أصلها فارسى ، لقول الشيعة بنظرية الوراثة ، والنص على « علىّ » وبنيه ، وتلك نظرات فارسية لا عربية ، فالعرب

(١) الفرق بين الفرق ص ٢٢٣ والملل والنحل ج ١ ص ٣٦٥ ، وقد حرقهم على ، ونفى ابن سبإ وغيره إلى المدائن ، وأظهر آل البيت النبوى البراءة من أمثال هؤلاء ، فى كل مناسبة كما سنرى .

(٢) تاريخ الإسلام السياسى .

(٣) ج ١ ص ٣٥٣ .

تدين بالحرية ، والفرس يدينون بالملك ، وبالوراثة فى البيت المالك ولا يعرفون معنى لانتخاب الخليفة[١] .

ويقول « فان فلوتن Van Vloten » : قد تسرب كثير من العقائد غير الإسلامية إلى الشيعة ، تلك العقائد التى انتقلت إليهم عن المجوسية ، والمانوية والبوذية ، وغيرها من الديانات التى كانت سائدة فى آسيا قبل الإسلام[٢] .

* * *

وأنت إذا نظرت إلى ما تسرب إلى التشيع من عقائد سبئية أرجعها المؤرخون إلى الديانات الآسيوية من : رجعة ، ووصاية ، وعصمة ، ومهدية ، وتناسخ ، وبداء ، وتقية ، وتقديس لعلى وبنيه ، آمنت بأن هذا الحزب — إن صح ما قالوا — كان مسترداً لكثير من الديانات الآسيوية من غير شك ، وأن عناصر دخلت فيه فشوهت جماله .

فقد زعموا أنه أخذ عن الهندية مبدأ التناسخ ، كما أخذ عن البراهمة والمسيحية واليهودية مبادىء حلول الإله فى الإنسان ، وعن الفارسية الرجعة والوصاية ووراثة الحكم[٣] .

* * *

---

(١) فجر الإسلام ج ١ ص ٢٤٠ .

(٢) السيادة العربية ص ٨٢ .

(٣) ومن الإنصاف للشيعة أن تقرأ فى هذا : أصل الشيعة وأصولها ، والشيعة فى التاريخ ، والشيعة : لتعرف رأى المعاصرين فى هذه العقائد وأنكارهم لما داخلها من اسراف شوه جمال العقائد الشيعية ونفر الناس منها وأن لاهيب بالشيعة أن ينشروا كتبهم فى العالم الإسلامى والعربى ليسهل الاطلاع عليها ففيها خير كثير وعلم =

ولقد لعبت هذه النظريات دوراً خطيراً فى السياسة ، والعقائد الإسلامية كما كان لها تأثير كبير فى الأدب العربى .

ونحب - الآن — أن نتناول أهم هذه العقائد بشىء من التفصيل ، نذكر فيه نشأتها ، وتدرجها ، وموقف الفرق الشيعية ، والعقلية العربية منها ، وكيف كانت هذه العقائد ينبوعاً من ينابيع الأدب ، وسبيلا من سبل القول والجدال .

بذلك تفهم الأدب الشيعى ، وتستطيع دراسته والحكم عليه ، لأنه أدب عقيدة قبل كل شىء ، يخدم رأياً معينا يسجله ويدافع عنه ، وقد استطاع أن يصور الفكرة الشيعية تصويراً فنياً دقيقاً ، تفهم ذلك حين تفهم الفكرة الشيعية والعقائد الشيعية ، ومقدار أصالتها وتغلغلها فى نفوس الشيعة .

(١) الوصاية :

عقيدة — كما قال ابن جرير — نقلها ابن سبأ عن اليهودية — دينه القديم — فتأثر بها التشيع ، وحاطها بسياج من الحجج والأحاديث « فالإمامة عند الشيعة ليست من المصالح العامة التى تفوض إلى نظر الأمة ، ويتعين القائم بها بتعيينهم ، بل هى ركن الدين ، وقاعدة الإسلام ، ولا يجوز لنبى إغفاله ، ولا تفويضه إلى الأمة ، بل يجب عليه تعيين الإمام لهم ، ويكون معصوما من الكبائر والصغائر »[1] . . وقد عين الرسول – صلى الله عليه وسلم — علياً ، فقال : « من يبايعنى على روحه وهو وصيي ، وولى هذا الأمر من بعدى » ، فلم يبايعه

= كثير واتفاق واضح مع كثير من تعاليم أهل السنة وبذلك تتقارب العقلية الإسلامية شيعيها وسنيها .

(١) فرق الشيعة ص ١٩ ، ومقدمة ابن خلدون ص ١٥٥ ، والشهرستانى ج ١ ص ٢٨٧ ، ٣٢٤ ، وانظر الشيعة فى التاريخ ، وأصل الشيعة وأصولها .

إلا « علىّ » ؛ وقال : « من كنت مولاه فعلى مولاه » ولم تطرد هذه الولاية إلا فى « علىّ » ؛ ولهذا قال فيه عمر : « أصبحت مولى كل مؤمن ومؤمنة » ، وقال : « أقضا كم علىّ » . . وأرسل أبا بكر يقرأ على الناس سورة براءة ؛ فنزلت عليه (ليبلغه رجل منك) ، فبعث علياً ليكون القارىء المبلغ[١] ، وفى هذا تقديم « علىّ » .

قال ابن خلدون : « وهكذا ذهب الشيعة يستدلون لعقيدتهم بنصوص ينقلونها ، ثم يؤولونها ، على مقتضى مذهبهم ، لا يعرفها جهابذة السنة ، ولا نقلة الشريعة ، بل أكثرها موضوع ، أو مطعون فى طريقه ، أو بعيد عن تأويلاتهم الفاسدة »[٢] .

***

الفرق الشيعية والوصاية :

وقد ذهبت الشيعة فى طريق تعيين الرسول لعلى مذاهب شتى ، كان لها أثر فى تفرق كلمتهم ، ونظرهم إلى الصحابة ، فالإمامية ، والكيسانية ، والسبئية يعتقدون أن الرسول – صلى الله عليه وسلم – نص على « علىّ » بالاسم ، وعينه للصحابة – بل ذهب بعضهم إلى أنه دعى بأمير المؤمنين فى حياته[٣] –

---

(١) الشهرستانى جـ ١ ص ٣٢٤ ، والشيعة فى التاريخ ص ١٨ ، والفخر الرازى فى تفسير قوله تعالى « يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك .. » ، وأصل الشيعة وأصولها ص ٥٣ وابن أبى الحديد جـ ٧ ص ١٨١ ، ١٨٢ .

(٢) مقدمة ابن خلدون ص ١٥٥ . والشهرستانى فى الصفحات السابقة . وابن أبى الحديد جـ ١١ ص ٧ / جـ ٢٠ ص ٤٦٢ .

(٣) ابن أبى الحديد جـ ١ ص ٤ . والشهرستانى فى السبئية – وأصل الشيعة وأصولها ، والشيعة فى التاريخ .

ولـكن الصحابة غصبوا حق « على » ، ووثبوا على « وصى » رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فبايعوا غيره ، فالصحابة كفار ، وإمامة غير « على » باطلة .

ومذهب الزيدية : أن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ نص على « علىّ » بالوصف ، فأخطأ الصحابة تطبيق الوصف ، فهم مخطئون ، لا كفار ، وإمامة أبى بكر وصاحبيه صحيحة ، وإن كان على أفضل ، لجواز إمامة المفضول مع وجود الفاضل ، وبهذا قال أساتذتهم المعتزلة .

* * *

فالقول بالنص مذهب الفرق الشيعية . . نص الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ على « علىّ » و « علىٌّ » نص على « الحسن » و « الحسن » نص على « الحسين » و « الحسين » نص على ابنه ـ زين العابدين ـ « على » عند الإمامية أو على أخيه ـ ابن الحنفية ـ « محمد بن على بن أبى طالب » عند الـكيسانية[1] ثم جاء الزيدية فنقلوا الأمر بعد « على بن الحسين » إلى ابنه « زيد » ، بينما نقله جمهور الإمامية إلى ابنه الآخر ـ الباقر ـ « محمد بن على بن الحسين » .

وهكذا كان كل إمام ينص على من بعده ، ويورثه علومه الظاهرة والباطنة .

* * *

المنـكرون للوصاية :

أما المنـكرون للوصاية فيرون أن الرسول لحق بالرفيق الأعلى دون أن يعهد لأحد بالأمر بعده ، بل ترك الأمور للناس ، فانتخب أبو بكر انتخاباً يتفق والروح الإسلامية .

---

(١) هذا قول جمهور « الـكيسانية » ، ويرى بعضهم : أنه الإمام الثانى بعد أبيه « على » بنص منه .

ففى البخارى عن ابن عباس : أن « على بن أبى طالب » - رضى الله عنه - خرج من عند رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فى وجعه الذى توفى فيه ، فقال له الناس : يا أبا الحسن ، كيف أصبح رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال : أصبح بحمد الله بارئاً ، فأخذ بيده « عباس بن عبد المطلب » فقال له : أنت والله بعد ثلاث عبد العصا ، والله إنى لأرى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - سوف يتوفى من وجعه هذا ، إنى لأعرف وجوه بنى عبد المطلب ، اذهب بنا إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فلنسأله فيمن هذا الأمر ؟ فإن كان فينا علمنا ذلك ، وإن كان فى غيرنا علمناه ؛ فأوصى بنا .

فقال على : أما - والله - لئن سألناها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فمنعناها لا يعطيناها الناس بعده ، وإنى - والله - لا أسألها رسول الله - صلى الله عليه وسلم[١] .

وعلى كان يقول : « والله ما كانت لى فى الخلافة رغبة ، ولا فى الولاية إربة ، ولكنكم دعوتمونى إليها ، وحملتمونى عليها[٢] .

ولم نسمعه على كثرة احتجاجه لنفسه ، ومكاشفته لأصحابه ، أنه ذكر هذا عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أو جرى على لسانه لفظ وصية ووصاية .

وحديث السقيفة دليل على عدم النص ، إذ لو كان هناك نص على استخلاف الرسول لعلى لذكره ، إذ لا عطر بعد عروس ، كما يقول ابن أبى الحديد[٣] ، أو ذكره فى السقيفة أحد من الصحابة : من المهاجرين أو الأنصار ، بل كان أكبر دليل للقرشيين على استحقاقهم الخلافة .

---

(١) البخارى جـ ٦ ص ١٢ ، وشرح النهج جـ ١ ص ١٣٢ .
(٢) نهج البلاغة جـ ٢ ص ٢١٠ .
(٣) شرح النهج جـ ٦ ص ٥ : والكلمة مثل يضرب لمن لا يدخر عنه نفيس « الميدانى جـ ٢ ص ١٤٥ » .

بل لو كان هناك نص لما تخلف الصحابة عن بيعته فى وقت كان المسلمون يتسابقون إلى تنفيذ أمر الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولم يكن هناك معنى للاختلاف فيما بينهم فى أيهما أحق بالخلافة .

ولو كان هناك نص ، لما بايع « علىّ » أحداً ، ولكان عليه أن ينهض فى تنفيذ هذه الوصية التى عقدت ـ من غير شك ـ لمصلحة الإسلام والمسلمين شأن أوامر الرسول الأمين ، وتاريخ « على » ملىء بالصرامة فى تنفيذ أوامر الرسول .

ومع هذا فاستمع إلى على ـ رضى الله عنه ـ يقول : « اللهم إنى كنت أول من آمن به ، فلا أكون أول من كذب عليه ، لم يكن عندى فيه عهد من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولو كان عندى فيه عهد من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لما تركت أخا تيم وعدى على منابرها[1] .

* * *

ومهما يكن من شىء ؛ فلقد كان لعقيدة الوصاية أثرها الواقعى فى الحكم ، وعلى ضوئها تقسم الشيعة إلى فرق ؛ كما انقسموا حول تعيين الإمام ، وفى سبيل تنفيذها وقفوا وقفتهم المشهورة أمام « الأمويين » ثم « العباسيين » .

وكذلك كان أثرها فى الأدب العربى عظيم الشأن جليل الخطر ، كانت ميداناً فسيحاً لخطباء الشيعة وشعرائهم ، ومسبحاً طويلا الأخيلة الشعرية ، فلم يكد التشيع يصبح مزيجاً من طوائف مختلفة ، وثقافات عراقية منوعة ، ويغمره العنصر الفارسى ـ خاصة ـ حتى رأينا عقيدة الوصاية تتخذ أسمى مكان من الاحتجاج الشيعى ،

(١) العقد الفريد ج ٢ ص ٨٩ : وتيم ابن مرة : رهط أبى بكر ، وعدى رهط عمر بن الخطاب وإليهما يشير على بن أبى طالب رضى الله عنهم جميعا .

وبخاصة فى الأدب الكيسانى ، فلهج بها « الكميت » شاعر الإمامية ، كما لهج بها « كثير عزة » و (السيد الحميرى) وغيرهما من لسن الكيسانية ، وطغت حتى على ألسنة الأمراء والرؤساء .

وفى العصر العباسى رأيناها فى حجة النفس الزكية ، محمد بن عبد الله بن حسن على المنصور ، كما استخدمها الشعراء ـ العلويون والعباسيون ـ كما شغلت بال المفسرين والمحدثين والمشرعين من الشيعة ، يفسرون بها الآيات ، ويؤولون لها الأحاديث ويضع غلاتهم أخرى .

* * *

العقلية العربية والوصاية :

ولم تجد هذه العقيدة رواجاً أول ظهورها ـ على لسان ابن سبأ ـ فى الوسط العربى ، لأن العقلية العربية قد تربت على الاستقلال ، ووضع لها الإسلام أساس المساواة والشورى .

لذلك نشك كثيراً فيما رواه ابن أبى الحديد من شعر قرشي يفيد إطلاق هذا الاسم على « علىّ » فى حياته .

قال : خرج يوم الجمل غلام ـ من بنى ضبة ـ من عسكر عائشة يقول :

نَحْنُ بَنِي ضَبَّةَ — أَعْدَاءُ عَلِيّْ
ذاكَ الَّذِي يُعْرَفُ قِدْماً بِالْوَصِيّْ
وَفارِسِ الْخَيْلِ عَلَى عَهْدِ النَّبِيّْ
مَا أَنَا عَنْ فَضْـــلِ عَلِيٍّ بِالْعَمِيّْ
لَكِنَّنِي أَنْعِي ابْنَ عَفَّانَ التَّقِيّْ
إِنَّ الْوَلِيَّ طَالِبٌ ثَأْرَ الْوَلِيّْ

(١) ابن أبى الحديد جـ ١ ص ٤٧ وما بعدها .

وقال عبيد الله بن سفيان بن الحارث بن عبد المطلب :

وَمِنَّا عَلِيٌّ ذَاكَ صَاحِبُ خَيْبَرَا وَصَاحِبُ بَدْرٍ يَوْمَ سَالَتْ كَتَائِبُه
وَصِيُّ النَّبِيِّ الْمُصْطَفَى وابْنُ عَمِّه فَمَنْ ذَا يُدَانِيهِ وَمَنْ ذَا يُقَارِبُه

وقال المغيرة بن الحارث يوم صفين :

يَا عُصْبَةَ الْمَوْتِ صَبْراً لا يَهُولُكُمُ جَيْشُ ابْنِ حَرْبٍ فَإِنَّ الْحَقَّ قَدْ ظَهَرَا
وَأَيْقَنُوا أَنَّ مَنْ أَضْحَى يُخَالِفُكُمْ أَضْحَى شَقِيًّا ، وَأَمْسَى نَفْسَهُ خَسِرَا
فِيكُمْ وَصِيُّ رَسُولِ اللهِ قَائِدُكُم وَصِهْرُهُ ، وَكِتَابَ اللهِ قَدْ نَشَرَا

نشك كثيراً فى نسبة هذا الشعر إلى رجالات هذا العصر ـ وخاصة القرشيين منهم ، ونعتقد أنه من وضع الشيعة ، وأن هذا اللقب لم يكن يعرفه الأدب العربى أيام على ، بل لم يكن مألوفاً إلا على لسان ابن سبأ وشيعته .

ولسنا بأول من شك فى نسبة هذه النصوص ؛ فكلام شارح النهج نفسه يدل على أن هذا الشعر ، وتلقيب على بالوصى فى حياته كان موضع شك . . استمع إليه يقول ـ بعد أن روى جمهرة من هذه الأشعار (ذكر هذه الأشعار والأراجيز بأجمعها أبو مِخْنف ـ لوط بن يحيى ـ فى كتاب موقعة الجمل ، وأبو مخنف من المحدثين ، وممن يرى صحة الإمامة بالاختيار ، وليس من الشيعة ، ولا معدوداً من رجالاتها[1]) .

ألست معى أن ابن أبى الحديد كان يتوقع الشك من الناس ـ إن لم يكن قد حصل فعلا ـ فاضطر إلى التعقيب بهذا القول ؟

---

(١) ابن أبى الحديد جـ ١ ص ٥٠ .

على أن صاحب القاموس يقول : وأبو مخنف ـ لوط بن يحيى ـ إخبارى شيعى تالف متروك . . . وهذه شهادة شيعى على شيعى .

وكتب التاريخ ـ مع عنايتها الكبيرة بذكر ما كانوا يقولونه تحت ظلال السيوف ـ لم تسجل لنا شيئاً من هذه الأشعار ، التى ملأت ثلاث صفحات من شرح النهج لبضعة وعشرين شاعراً ـ لم نر لأحد منهم ذكراً فى التراجم ـ ثم يقول : « والأشعار التى تتضمن هذا اللفظ كثيرة جداً ، ولكنا ذكرنا منها بعض ما قيل فى هذه الحربين ـ الجمل وصفين ـ فأما ما عداهما فإنه يجل عن الحصر . ويعظم عن الإحصاء والعد ، ولولا خوف الملال والإضجار لذكرنا من ذلك ما يملأ أوراقاً كثيرة[1] » .

الوصاية والأدب :

لم تتأثر العقلية العربية بعقيدة الوصاية فى عهد على ، فلم يتأثر بها الأدب الشيعى بل مضى على أذلاله إذا مدح فبالقرابة والسبق ، وإذا رثى فبالحجا والعلم . يقول أبو زبيد الطائى « حرملة بن المنذر » يرثى على بن أبى طالب ـ صلوات الله عليه :

إنَّ الكِرَامَ عَلَى مَا كَانَ مِنْ خُلُقٍ ... رَهْطُ امْرِئٍ خَارَهُ للدِّينِ مُخْتَار
طَبٌّ بَصِيرٌ بِأَضْغَانِ الرِّجَالِ وَلَمْ ... يُعْدَلْ بِحَبْرٍ رسولِ اللهِ أَحْبَار
وَقَطرةٌ قَطرت إذْ حَانَ مَوْعِدُهَا ... وَكلُّ شىءٍ لَهُ وقتٌ وَمِقْدار
حَتَّى تَنَصَّلَهَا فى مَسْجِدٍ طُهُرٍ ... عَلَى إمَامِ هُدًى أَنْ مَعْشَرٌ جاروا

(١) ابن أبى الحديد جـ ١ ص ٥٠ .

حُمّت ليَدْخلَ جَنّاتِ أبو حسنٍ ... وأوجبَتْ بَعْدَهُ للقاتل النّار[1]

حتى إذا قتل الحسين بن على ـ رضى‌الله عنه ـ كثر القول بالوصاية فى الأدب الشيعى[2] ، وحمل لواءه الشيعة الكيسانية ، وقد كانوا فى عصرهم أبرز الفرق الشيعية فسمعناها فى شعر « كثير عزة » و « أبى الطفيل » ثم « السيد الحميرى » وغيرهم من شعراء الكيسانية ودرج على بساط الإمامية فى شعر « الكميت » وغيره فأخذ يردده فى هاشمياته .

فى الكامل : وقال كثير — لما حبس عبد الله بن الزبير محمد بن الحنفية فى خمسة عشر رجلا من أهله فى سجن « عارم » :

تُخَبِّرُ مَنْ لاقيْتَ أنّكَ عائذٌ ... بلْ العائذُ المحْبوسُ فى سِجْنِ عارِمِ
وَصِىُّ النّبىِّ المُصْطَفَى وابنُ عَمِّه ... وَفَكّاكُ أعناقٍ وَقاضى مغارِمِ
أبَى فهُوَ لا يَشْرِى هُدًى بِضَلالَةٍ ... وَلاَ يتّقى فى الله لَوْمَةَ لائِمِ
وَنحْنُ بحمْد الله نَتْلو كتابَه ... حُلولاً بهذا الخَيْف خَيْفِ المحَارِمِ
بِحَيْثُ الحمامُ آمن الرّوْعِ ساكِنٌ ... وحَيْثُ العَدُوُّ كالصَّديق المُسَالِمِ
فَمَا رَوْنَقُ الدُّنْيا بباقٍ لأهْلِهِ ... وَلا شِدَّةُ البلْوَى بِضَرْبَةِ لازِمِ[3]

---

(١) رغبة الآمل من كتاب الكامل جـ ٧ ص ١٣٢

(٢) وغير الشيعى ، فيقول عبد الله بن قيس الرقيات الشاعر الزبيرى ـ وكان يفتخر بقريش عامة . رغبة الآمل جـ ٧ ص ١٣٢ :

نحْنُ مِنّا النّبِىُّ أحْمَدُ والصِّدِّيـ ... ـقُ مِنّا التّقِى والحكماء
وَعلِىٌّ وَجَعْفَرٌ ذو الجناحَيْـ ... ـنِ هُنَاكَ الوَصِىُّ والشهداء

(٣) رغبة الآمل من كتاب الكامل جـ ٧ ص ١٣٢ وكان عبد الله بن الزبير يلقب بالعائذ بالبيت لاعتصامه بمكة . وكثير يتحدث عن ابن الحنفية فالمراد : ابن وصى النبى ، حذف المضاف .

ويقول الكميت فى رثاء على بن أبى طالب :

وَالوَصِيُّ الّذِي أَمالَ التَّجُو بِيُّ بِهِ عَرْشَ أُمَّةٍ لانْهِدَامِ
قَتَلوا يَوْمَ ذَاكَ إِذْ قَتَلوهُ حَكَمًا لا كَغَابِرَ الحُكَّامِ
الإمامُ الزَّكى والفارسُ المُعْلَمُ تَحْتَ العجاجِ غيرَ الكَهَامِ
رَاعِياً كانَ مُسْجِحاً فَفَقَدْنَا هُ وفقدُ المُسِيمِ هُلْكُ السَّوَامِ[1]

بل استمع إلى الكميت يحدثنا عن عقد الولاية لعلى ـ رضى الله عنه ـ عند غدير « خُم[2] » فيقول :

وَأَصْفَاهُ النَّبِيُّ عَلَى اخْتِيَارٍ بِمَا أَعْيَا الرَّفُوضَ لَهُ المُذِيعَا
وَيَوْمَ الدَّوْحِ دَوْحِ غَدِيرِ خُمٍّ أَبَانَ لَهُ الوِلايَةَ لَوْ أُطِيعَا
وَلَكِنَّ الرِّجَالَ تَبَايَعُوهَا فَلَمْ أَرَ مِثْلَهَا خَطَراً مَبِيعَا
فَلَمْ أَبْلُغْ بِهِمْ لَعْنًا وَلَكِنْ أَسَاءَ بِذَاكَ أَوَّلُهُمْ صَنِيعَا
أَضَاعُوا أَمْرَ قَائِدِهِمْ فَضَلُّوا وَأَقْدَمِهِمْ لَدَى الحَدَثَانِ رِيعَا
تَنَاسَوْا حَقَّهُ وَبَغَوْا عَلَيْهِ بِلاَ تِرَةٍ وَكَانَ لَهُمْ قَرِيعَا

ويسجل الكميت حادثة الغدير فى كل مناسبة فيقول فى قصيدة أخرى :

إِنَّ الرَّسُولَ رَسُولَ اللهِ قالَ لَنَا إِنَّ الإِمَامَ عَلِيٌّ غَيْرَ ما هُجر
فِى مَوْقِفٍ أَوْقَفَ اللهُ الرَّسُولَ بِهِ لَمْ يُعْطِهِ قَبْلَهُ مِنْ غَيْرِهِ بَشَرَا
مَنْ كانَ يَرْغَمُهُ رَغْمًا قَدَامَ لَهُ حَتَّى يَرَى أَنفَهُ فِى التُّرْبِ مُنْعَفِرَا[3]

هذا الموقف كان يوم « غديرخم » فى الثامن عشر من ذى الحجة سنة عشر

(١) رغبة الآمل والهاشميات .
(٢) غديرخم : بين مكة والمدينة . بينه وبين الجحفة ميلان (معجم البلدان) .
(٣) الهاشميات : وفى البيت الأول عيب عروضى (الاصراف) .

بعد حجة الوداع[1] ، والشيعة تعتبره مصدر ولايتهم ، فاتخذوه عيداً لهم ، وكان لشعرائهم فيه خيال واسع .

وقد قالوا : لما عقد الرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ البيعة لعلى قام « حسان ابن ثابت » فقال :

يُنَادِيهِمُ يومَ الغَدِيرِ نَبِيُّهُمْ ... « بِخُمٍّ » وَأَسْمِعْ بالنَّبِيِّ مُنَادِيَا
وَقالَ : فَمَنْ مَوْلاكُمُ وَوَلِيُّكُمْ ... فقَالُوا ـ وَلَمْ يُبْدُوا هُنَاكَ التَّعَامِيَا ـ
إلهُكَ مَوْلانَا ، وَأَنْتَ وَلِيُّنَا ... وَمَا لَكَ مِنَّا فى الوِلايَةِ عاصِيَا
فقَالَ لَهُ : قُمْ يا عَلِىُّ فإنني ... رَضِيتُكَ مِنْ بَعْدِى إماماً وَهَادِيَا
فَمَنْ كُنْتُ مَوْلاهُ فَهَذَا وَلِيُّهُ ... فَكُونُوا لهُ أَنْصَارَ صِدْقٍ مَوَالِيَا[2]

ثم يجيء « السيد الحميرى » شاعر الكيسانية فيقول :

عَجِبْتُ مِنْ قَوْمٍ أَتَوْا أَحْمَدَا ... بِخُطَّةٍ لَيْسَ لَهَا مَوْضِعُ
قالوا لهُ : لوْ شِئْتَ أَعْلَمْتَنَا ... إلى مَنِ الغَايَةُ والمَفْزَعُ
إذا تُوفِّيتَ وفارَقْتَنَا ... وَفيهِمُ فى المُلْكِ مَنْ يَطْمَعُ
فقالَ : لوْ أَعْلَمْتُكُمْ مَفْزَعاً ... كُنْتُمْ عَسِيتُم فيه أَنْ تَصْنَعُوا
كَصُنْعِ أَهْلِ العِجْلِ إذْ فارَقُوا ... هارُونَ ، فالتَّرْكُ لهُ أَوْرَعُ
ثُمَّ أَتَتْهُ بَعْدَهُ عَزْمَةٌ ... مِنْ رَبِّهِ لَيْسَ لهُ مَدْفَعُ
أَبْلِغْ وَإلاَّ لَمْ تَكُنْ مُبْلِغاً ... واللهُ مِنْهُمْ عاصِمٌ يَمْنَعُ
فعِنْدَهَا قامَ النَّبِيُّ الَّذِى ... كانَ بما يَأْمُرُهُ يَصْدَعُ

---

(١) الشيعة فى التاريخ ص ١٨ .

(٢) الشيعة فى التاريخ ص ١٩ . ومع هذا كان حسان عثمانيا ولم يبايع عليا . رغم هذه الأشعار التى لم نجدها فى ديوانه .

يخطب مأموراً ، وفى كفه كف علىّ ، نورها يلمع
رافعها أكرم بكف الذى يرفع والكف الذى ترفع
من كنت مولاه فهـــذا له مولى فلم يرضوا ولم يقنعوا
وظل قوم غاظهم قوله كأنما آنافهم تجـــدع
حتى إذا واروه فى لحده وانصرفوا عن دفنه ضيعوا
ما قال بالأمس وأوصى به واشتروا الضر بمـــا ينفع
وقطعوا أرحامهم بعده فسوف يجزون بما قطعوا
وأزمعـــوا مكراً بمولاهم تبا لما كانوا به أزمعوا
لا هم عليه يردوا حوضه غداً ، ولا هو لهم يشفع(١)

وهكذا أخذ السيد يحدثنا بنفسه الطويل عن هذه العقيدة ، ولعلك ترى أن نظارية الحق الملكى المقدس قد بان أثرها فى شعر السيد ، فاستحق علىّ الخلافة بأمر الله ، وأمر النبي – صلى الله عليه وسلم – بعقد الولاية له ، فنزل عليه قوله تعالى : (يأيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك ، وإن لم تفعل فما بلغت رسالته ، والله يعصمك من الناس) ، فقام مبلغاً ما أمر به من ربه :

يخطب مأموراً وفى كفه كف علىٍّ نورها يلمع
من كنت مولاه فهذا له مولى . . . .

---

(١) ضحى الاسلام جـ ٣ ص ٣١ ، الألوسى والفخر الرازى فى تفسير الآية الكريمة (يا أيها الرسول بلغ . .) واقرأ حديث أم سلمة لعائشة رضى الله عنهما فى ابن أبى الحديد جـ ١ ص ٧٨ ، وأخبار السيد فى الأغانى جـ ٧ ص ٢٧٦ وفوات الوفيات ثم فى هذا البحث .

فعلىّ بهذا النص الإلهى والإبلاغ المحمدى ولى الأمر بعد محمد ووارثه ، ثم انتقل هذا الحق إلى بنيه ، فالحسن :

وَعِيُّ الوَصِيِّ ذُو الْخُطةِ الفَصْـــــلِ وَمُرْدِى الْخُصُوم يَوْمَ الْخِصَامِ[1]

ثم جاء الحسين بعده ، ثم ابن الحنفية عند « الكيسانية » ، أو على بن الحسين عند « الإمامية » ، ثم زيد بن على عند « الزيدية » أو « الباقر » محمد بن على ابن الحسين عند بقية « الإمامية » وهكذا .

أثر الوصاية فى الأدب العباسى :

على أن عقيدة الوصاية كانت فى العصر العباسى أكثر شيوعا ، وأوسع مدى ، فلم تقتصر على شعراء العلويين ، بل تعدتها إلى لسن العباسيين أنفسهم يدعونها لخلفائهم ، ويتخذونها ضمن حججهم التى بها استحقوا الخلافة .

فهذا أفلح بن مالك بن أسماء بن خارجة الفزارى يفد على أبى مسلم بخراسان وقد ظهرت الدعوة العباسية فيقول :

قلْ للأمِـــيرِ أمِينَ الإمَامِ وَصىٍّ وَصىٌّ وَصىٍّ الْوَصِىّ
أَتَيْتُكَ لا طالِباً حاجَـــةً وَمَا لِي فِي أرْضِـكُمْ مِنْ كَفِىِّ[2]

ويقول شاعر آخر للرشيد :

يَا بْنَ الأَئمَّةِ مِنْ بَعْدِ النَّبِيِّ وَيَا بْـــنَ الأوْصِيَاءِ أَقَرَّ النَّاسُ أَوْ دَفَعُوا
إنَّ الخِلافة كانَتْ إرْثَ وَالدِكُمْ مِنْ دُونِ تيْمٍ وَعفْوُ اللهِ مُتَّسعُ
لَوْلاَ عَدِىٌّ وَتَيْمٌ لَمْ تَـكُنْ وَصَلَتْ إلى أُمَيَّـــةَ تَمْرِيهَا وَتَرْتَضِعُ

---

(١) الهاشميات . (٢) النزاع والتخاصم ص ٦٨ .

وَمَا لِآلِ عَلِيٍّ فِي إِمَارَتِكُمْ   وَمَا لَهُمْ أبداً في إرثكم طَمَعُ[١]

فى الوقت الذى يقول فيه دعبل بن على الخزاعى[٢] – الشاعر العلوى – يرثى الحسين بن على – رضى الله عنه –.

رَأْسُ ابْنِ بِنْتِ مُحَمَّدٍ وَوَصِيِّهِ   يا للرِّجَالِ عَلَى قَنَاةٍ تُرْفَعُ
وَالْمُسْلِمُونَ بِمَنْظَرٍ وَبِمَسْمَعٍ   لا جَازِعٌ مِنْ ذا وَلا مُتَخَشِّعُ
كُحِلَتْ بِمَنْظَرِهِ الْعُيُونُ عَمَايَةً   وَأَصَمَّ رُزْؤُكَ كلَّ أُذْنٍ تَسْمَعُ
أَيْقَظْتَ أَجْفَانًا وَكُنْتَ لَهَا كَرًى   وَأَنَمْتَ عَيْنًا لَمْ تَكُنْ بِكَ تَهْجَعُ
مَا رَوْضَةٌ إِلاَّ تَمَنَّتْ أَنَّهَا   لَكَ تُرْبَةٌ وَلِخَطِّ قَبْرِكَ مَضْجَعُ[٣]

ويقول شيعى آخر، لم تذكر الرواية اسمه:

تأسَّ فكمْ لكَ منْ سَلْوَةٍ   تُفرِّجُ عنكَ غليلَ الْحَزَنْ
بِمَوْتِ النَّبِيِّ، وَقَتْلِ الْوَصِيِّ   وَقتل الْحُسَيْنِ، وَسَمِّ الْحَسَنْ[٤]

وهكذا درج الأدباء يستخدمون هذه العقيدة فى أدبهم حتى تعدت عامة الناس الناس إلى الخلفاء أنفسهم – العلويين منهم والعباسيين – فرأيناها أقوى حجج النفس الزكية – محمد بن عبد الله – فى رسالته التى سننقلها لك كما رأيناها دائرة على ألسنة الخلفاء العباسيين فى خطبهم ورسائلهم.

---

(١) ضحى الاسلام ج ٣ ص ٣١٢.

(٢) شاعر شيعى عباسى مطبوع هجاء خبيث لم يسلم منه أحد. وله المدائح الفاخرة فى آل البيت. وتائيته فيهم « مدارس آيات خلت من تلاوة » من أحسن الشعر وفاخر المدائح؛ ترجم له فى الأغانى ج ١٨ ص ٢٩ وابن خلكان ج١ ص ١٧٨ والشعر والشعراء والفهرست ٢٢٩ وانظر تاريخ ابن عساكر ج ٥ ص ٢٣٣ وزهر الآداب ج ١ ص ١٥١، وتنوير الأبصار.

(٣) معجم الأدباء ج ١ ص ١٧٢.

(٤) ابن الأثير ج ٢ ص ٤

فلنترك هذه العقيدة إلى عقيدة أخرى نجد فيها متاعاً ولذة أدبية . . . تلك هى عقيدة « الرجعة » ونعنى بها عودة الإمام ـ بعد اختفائه عن أعين الناس ـ حين يؤذن له بالرجوع إلى العالم الإنسانى فيصلح ما أفسده خصوم العلويين .

(ب) الرجعة :

عقيدة عرفها الإنسان فى عصوره الأولى . . . قالت بها اليهودية فى نبى الله الياس[١] وغيره ، والنصرانية فى عيسى بن مريم[٢] . وفى البخارى : « والذى نفسى بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكما عدلا ، فيكسر الصليب ، ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية[٣] » .

وفى رواية « كيف أنتم إذا نزل ابن مريم فيكم ، وإمامكم منكم؟[٤] » .

فلما أسلم ابن سبأ قال بها فى محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثم نقلها إلى على بن أبى طالب ـ رضى الله عنه ـ بعد موته ، فكان يقول : لو أتيتمونا بدماغه سبعين مرة ما صدقنا موته ، ولا يموت حتى يملأ الأرض عدلا كما ملئت جورا[٥] .

الفرق الشيعية والرجعة :

وقد كان موقف صحابة على من هذه العقيدة موقفهم من عقيدة الوصاية لم تتشر بها عقولهم ، لبعدها عن طبيعة العقلية العربية ، حتى اصطبغ التشيع بالصبغة الفارسية ، وأصبح مزيجاً من أجناس شتى ، وديانات مختلفة ، ذاع القول بالرجعة ، واتسع مداه ، وأصبح عقيدة جمهرة الطوائف الشيعية .

---

(١) الفصل ـ لابن حزم ـ جـ ٤ ص ١٨٠ (٢) الانجيل والقول الصحيح .
(٣) العينى جـ ٧ ص ٤٥١ (٤) الجامع الصغير جـ ٤ ص ٦٦٠ والنفراوى جـ ١ ص ٨٢
(٥) الفصل : لابن حزم جـ ٤ ص ١٨١ . والبيان والتبيين جـ ٣ ص ٤٦ وتاريخ ابن عساكر جـ ٥ ص ٧٧ .

فعندهم أن آخر إمام يتولونه لا يموت بل هو حى باق ، يرجع حين يؤذن له ؛ فيملأ الأرض عدلا كما ملئت جوراً . .

بذلك قالت : « السبئية » فى على ، و« الكيسانية » فى محمد بن الحنفية ، وقليل من « الزيدية » فى يحيى بن زيد ، و «المحمدية » فى ـ النفس الزكية ـ محمد ابن عبد الله[١] ، « والإثنا عشرية » فى الإمام الثانى عشر ـ محمد بن الحسن العسكرى[٢] ، بل قال بعضهم برجعة الأئمة والخصوم معاً للمحاكمة . . محاكمة أبى بكر ، وعمر ، وعثمان ، وسائر الخلفاء على تعديهم ، وجورهم واغتصابهم حق على ، وأولاده[٣] ، ثم يموتون إلى يوم القيامة .

قال الشريف المرتضى : ويصلب أبو بكر وعمر على جذوع الشجر[٤] .

بل توسع بعضهم ، فزعم أن الخلق كلهم يرجعون قبل يوم القيامة ، يمثل ذلك أصدق تمثيل ما نقله أبو الفرج فى أغانيه عن « كثير عزة » و « السيد الحميرى» و « دعبل بن على » وغيرهم من شعراء الشيعة ـخاصة شعراء الكيسانية. فلم يكد ينجو من هذه العقيدة إلا جمهور الزيدية ، فقد أنكروا الرجعة ، وكفروا القائلين بها ، وذلك أثر من آثار تلمذتهم للمعتزلة الذى حفظهم من كثير[٥] .

وعلى الجملة ، فقد شرع ابن سبأ عقيدة الرجعة ، وبثها فى الجو الشيعى ، فصارت ـ كما يقول ابن جرير ـ عقيدة من عقائدهم ، كما صارت أساساً لعقيدة أخرى ـ عربية فيما نعتقد ـ وهى « المهدية » ومع أن علياً قد حارب هذه الطائفة ،

---

(١) البغدادى ص ٤٤ . (٢) معتقدات فرق المسلمين والمشركين ص ٥٥ .
(٣) أنظر فرق الشيعة للنوبختى ص ٤٢ .
(٤) ضحى الاسلام ج ٣ ص ٢٤٦ (٥) ضحى الاسلام ج ٣ ص ٢٤٣ .

وأحرقهم بالنار ، ونفى ابن سبأ إلى المدائن[١] فقد تفلت منهم نفر نجوا من الإحراق، فانبثوا فى غمار الناس ، وصاروا يظهرون الفينة بعد الفينة

فى العقد ، قال ابن عباس : « قرع اليوم على الباب رجل ـ حين وضعت ثيابى للظهيرة ـ فقلت : ما أتى به فى هذا الحين إلا أمر مهم ، أدخلوه ، فلما دخل قال : متى يبعث ذلك الرجل ؟ قلت : أى رجل ! ؟ قال : على بن أبى طالب ؛ قلت : لا يبعث حتى يبعث الله من فى القبور ، قال : وإنك لتقول بقول هذه الجهلة ! ؟ قلت : أخرجوه عنى لعنه الله[٢] ».

وفى ابن الأثير، قال عمرو بن الأصم : قلت للحسن بن على : إن هذه الشيعة تزعم أن علياً مبعوث قبل يوم القيامة ، فقال : كذب والله هؤلاء الشيعة ، لو علمنا أنه مبعوث قبل يوم القيامة ما زوجنا نساءه ولا قسمنا ماله[٣] .

وفى الأغانى : دخل عبد الله بن حسن، على « كثير » يعوده فى مرضه الذى مات فيه ؛ فقال له كثير : أبشر ، فكأنك بى بعد أربعين ليلة ، قد طلعت عليك على فرس عتيق . فقال عبد الله : مالك ! ؟ ؟ . عليك لعنة الله ، فوالله لئن مت لا أشهدك ، ولا أعودك ، ولا أكلمك أبداً[٤] .

ومن حقك أن تسأل عن هذا الإمام العلوى المقول برجعته ، والمنتظر عودته إلى يومنا هذا[٥] : حى أم ميت . وما الحكمة فى اختفائه هذه القرون المتعاقبة ؟ .

---

(١) العقد الفريد ج ١ ص ٢٦٩ ،والفرق بين الفرق ص ١٨ ،وانظر الملل للشهرستانى

(٢) العقد الفريد ج ١ ص ٣٥٢ . (٣) ابن الأثير ج ٣ ص ١٧ .

(٤) ج ٩ ص ١٧ وانظر أخبار كثير والسيد الحميرى فى الأغانى والعقد الفريد فسوف ترى لهما عجبا فى هذه العقيدة .

(٥) فلا تزال عقيدة الرجعة إحدى عقائد الشيعة الإمامية ، وأصل من أصولهم وإن شئت فاقرأ « أصل الشيعة وأصولها » للاستاذ الشيعى المعاصر : محمد الحسينى ص ٤٢ وكذا كتاب « الشيعة فى التاريخ » للاستاذ محمد الزين .

والجواب عن السؤال الأول ضرورى فى دراستنا الأدبية فى وضع حد فاصل بين تراث رجلين اختلط نتاجهما الأدبى قديماً وحديثاً ، هما : « كثير عزة » و « السيد الحميرى » .

وينفرد ابن خلدون بالفصل بين عقيدة الرجلين فيقول :

« ومن هؤلاء الغلاة من يقف عند واحد من الأئمة لا يتجاوزه إلى غيره ـ بحسب من يعين لذلك عندهم ـ وهؤلاء هم الواقفية ، فبعض يقول هو حى لم يمت ، إلا أنه غائب عن أعين الناس ، ويستشهدون لذلك بقصة الخضر . . قيل مثل ذلك فى على ـ رضى الله عنه ـ وأنه فى السحاب ، والرعد صوته ، والبرق من صوته[1] ، وقالوا مثله فى محمد بن الحنفية ، وأنه فى جبل رضوى من أهل الحجاز ، قال شاعرهم :

ألا إنَّ الأئمةِ مِنْ قُرَيش ... وُلاةَ الحَقِّ أربعةٌ سَوَاء
علىٌّ والثلاثةُ مِنْ بَنِيـــــه ... هُمُ الأسْبَاطُ لَيْسَ بهم خَفَاء
فسِبْطٌ سِبْطُ إيمانٍ وبرٍّ ... وسِبْط غَيَّبَتْه كربلاء
وسِبْطٌ لا يذُوقُ الموتَ حَتى ... يقود الجيش يقدُمُه اللِّواء
تغيّبَ لا يُرَى فيهم زماناً ... برضْوَى عندَهُ عَسَلٌ وماء[2]

وقال مثله غلاة الإمامية ـ وخصوصاً الاثنا عشرية منهم ـ يزعمون أن الثانى عشر من أئمتهم وهو « محمد بن الحسن العسكرى » ، ويلقبونه المهدى ، دخل فى سرداب بدارهم بالحلة ، وتغيب حين اعتقل مع أمه ، وغاب هنالك ، وهو يخرج آخر الزمان ، فيملأ الأرض عدلا ، يشيرون بذلك إلى الحديث الوارد فى كتاب الترمذى فى المهدى ، وهم إلى الآن ينتظرونه ، ويسمونه المنتظر لذلك ، ويقفون

---

(١) انظر الملل والنحل للشهرستانى جـ ١ ص ٣٦٦ والبدء والتاريخ جـ ٥ ص ١٢٩ .

(٢) الشعر لكثير عزة .

كل ليلة بعد صلاة المغرب بباب هذا السرداب ـ وقد قدموا مركبا ـ فيهتفون باسمه ؛ ويدعونه للخروج حتى تشتبك النجوم ، ثم ينفضون ويرجئون الأمر إلى الليلة الآتية ، وهم على ذلك لهذا العهد .

وبعض الواقفية يقول : إن الإمام الذى مات يرجع إلى حياته الدنيا ، ويستشهدون لذلك بما وقع فى القرآن الكريم ، من قصة أهل الكهف ، والذى مر على قرية ، وقتيل بنى إسرائيل ـ حين ضرب بعظام البقرة التى أمروا بذبحها ـ ومثل ذلك من الخوارق التى وقعت عن طريق المعجزة ، ولا يصح الاستشهاد بها فى غير مواضعها .

وكان من هؤلاء « السيد الحميرى » ومن شعره فى ذلك :

إذا مَا المرْء شَابَ لهُ قَذَالٌ ... وَعلّلهُ المواشِط بالخضَابِ
فقَدْ ذَهَبَتْ بشَاشتهُ وَأَوْدى ... فقُمْ يا صاح نَبك عَلَى الشَّبابِ
فَليْسَ بعائدٍ ما فات مِنْهُ ... إلى أَحَدٍ إلى يَوْم المَآبِ
إلى يَوْمٍ يَئُوبُ الناسُ فيهِ ... إلى دُنياهُم قبْلَ الحسابِ
أَدِينُ بأَنّ ذلكَ دِينُ حَقّ ... وَمَا أَنا فى النُّشُورِ بذى ارْتيابِ
كذاكَ اللهُ خبَّرَ عَنْ أُناسٍ ... حَيُوا مِنْ بَعْدِ دَرْسٍ فى التُّرَابِ

قال ابن خلدون : « وقد كفانا مئونة هؤلاء الغلاة أئمة الشيعة ، فإنهم لا يقولون بها ، ويبطلون احتجاجاتهم عليها »[1] .

فأنت ترى أن « الإمامية » تقول بحياة الإمام أيام اختفائه ، وتختلف

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ١٢٦ . وانظر فى الفرق بين الفرق موقف على من ابن سبأ ص ١٧ — ٢٨ والعقد الفريد ج ١ ص ١٥١ وفى السيادة العربية والشيعة حديث عن موقف الأئمة من هذه المعتقدات وأصحابها ص ٩٠ نقلا عن الشهرستانى وطبقات ابن سعد والأغانى والطبرى واليعقوبى وابن خلكان .

« الكيسانية » فى ذلك ، فبعض يرى أنه حى ، ومن هؤلاء « كثير عزة » ، بينما يرى الآخرون أنه مات ومن هؤلاء « السيد الحميرى » .

فهل نستطيع أن نقول: إن كل شعر فيه حياة الإمام فى مخبئه لا يمت إلى السيد فى شىء ، رغم ما فى هذا من مخالفة صريحة للرواية الأدبية ؟ ولعل مما يؤيد ذلك قوله يرثى أخاه :

يا ابْنَ أُمِّى فدتْكَ نَفْسِى ومَالى ... كُنْتَ رُكْنِى وَمُفْزَعِى وَجَمَالى

وَلَعَمْرِى لئنْ تركْتُكَ مَيْتاً ... رَهْنَ رَمْسٍ ضَنْكٍ عليكَ مُهَال

لو شِيكاً أَلْقَاكَ حَيًّا صَحِيحاً ... سَامِعاً مُبْصراً عَلَى خَيْرِ حال

قدْ بُعِثْتُمْ مِنَ القُبُورِ فأنتمْ ... بَعْدَ مَا رُمَّتِ العظامُ البَوَالى

أَوْ كَسَبْعينَ وَافداً مَعَ مُوسى ... عَايَنُوا هَائِلاً مِنَ الأَهْوَال

حينَ رَامُوا منْ خُبْثِهِمْ رُؤْيةَ اللّه ... وأنّى بِرُؤْية المتعالى

فرَمَاهُمْ بصَعْقَةٍ أَحْرَقَتْهُمْ ... ثمّ أحْيَاهُمُ شديدُ المحالِ[1]

أما لماذا تغيب الإمام هذه القرون المتعاقبة ؟ فقد تغيب لحكم ربانية ، وأسرار خفية ، ولله حكم لا تصل إليها عقول البشر ، وليس ببعيد أن يحيا هذه المدة الطويلة ، وأخبار المعمرين كثيرة ، ونوح لبث فى قومه ألف سنة إلا خمسين عاما ، والخضر وإلياس ، أليس أهل السنة يقولون بحياتهما إلى اليوم ؟[2] .

على أن الكيسانية قد أخذوا منذ القدم يتلمسون العلل فى تغيب « ابن الحنفية » إمامهم ، فمنهم من ترك ذلك لله ومنهم من قال : إن الله عاقبه بالحبس لخروجه بعد قتل الحسين إلى يزيد بن معاوية ، وطلبه الأمان منه ، وأخذه

---

(١) العقد جـ ١ ص ٢٥١ . (٢) اقرأ فى هذا كتب الشيعة الإمامية .

عطاءه ، ثم لفراره من وجه ابن الزبير إلى عبد الملك ، فقد كان يجب عليه أن يقاتل مع شيعته ابن الزبير ، فعصى ربه بتركه قتاله ، وعصاه بقصده عبد الملك بعد أن عصاه بقصده يزيد ، فعاقبه بالحبس فى شعب رضوى إلى أن يؤذن له[١] .

وهكذا يكون إمام الكيسانية ـ عندهم ـ صورة مجسمة من المعاصى ، ولعلهم لا يقولون بعصمة الإمام من الصغائر والكبائر حتى صح لهم ذلك .

(م) المهدية :

وبعد : فهذا الإمام الغائب عن شيعته ، المحبوس بأمر من ربه ، يعود حين يؤذن له ، فيبايعه الناس بمكة ـ بين الركن والمقام ـ ثم يخرج ومن معه فيستولى على الممالك ، ويقيم الكتاب ، ويملأ الأرض عدلا ، وهو المهدى المنتظر ، لانتظار الشيعة خروجه .

وقد أخبر الرسول الله — صلى الله عليه وسلم — عنه فقال : « لو لم يبق من الدنيا إلا يوم ، لطول الله ذلك اليوم ، حتى يبعث الله فيه رجلا منى ، أو من أهل بيتى ، يواخى اسمه اسمى ، واسم أبيه اسم أبى » — وفى رواية — « لو لم يبق من الدنيا إلا يوم ، لبعث الله رجلا من أهل بيتى يملأها ، كما ملئت جورا »[٢] .

وتحدث عنه على ـ رضى الله عنه ـ فيما تحدث من إخبار بالمغيبات ، بل حدده لهم تحديداً لا يقبل الشك « فهو من ولد الحسين ـ عليه السلام ـ رجل أجلى

---

(١) الفرق بين الفرق ص ٢٧ وانظر الشهرستانى ، ثم إلى يومنا هذا لم يؤذن لابن الحنفية بالخروج حتى قيل فى المثل أبطأ من مهدى الشيعة (الميدانى) .

(٢) البدء والتاريخ ج ٥ ص ١٢٨ . والفخرى ص ١٤٨ .

الجبين ، أقنى الأنف ، ضخم البطن ، أزيل الفخذين ، أبلج الثنايا ، بفخذه الأيمن شامة »[١] ، ويقول : « لتعطفن الدنيا عليكم بعد شماسها ، عطف الضروس على ولدها ؛ ثم تلا : (ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ، ونجعلهم أئمة ، ونجعلهم الوارثين ، ونمكن لهم فى الأرض) »[٢] .

فهذا وعد فالإمام منتظر : الثانى عشر عند « الإمامية الاثنا عشرية » أو من ولد فاطمة على مذهب « الزيدية » ، أو رجل يملك الأرض ، وليس بلازم أن يكون موجودا عند « المعتزلة » .

وحدث علىّ عن بنى أمية وعسفهم ، وضلالهم ، ثم قال : « ثم يفرجها الله عنكم كتفريج الأديم ، بمن يسومهم خسفا ، ويسوقهم عسفا » . فقالت الإمامية : هو الإمام الثانى عشر ـ محمد بن الحسن العسكرى ـ وقالت المعتزلة : هو فاطمى يولد فى مستقبل الزمان لأم ولد ، وليس بموجود .

لكن علياً يحدث عن بنى أمية ، وأن الله سيسلط عليهم من يسومهم العذاب . . وهنا يقول ابن أبى الحديد : « فإن قيل : فمن يكون من بنى أمية فى ذلك الوقت موجوداً حتى يقول فى أمرهم ما قال من انتقام هذا الرجل منهم ؟ قيل : أما الإمامية فتقول « بالرجعة » ، ويزعمون أنه سيعاد قوم بأعيانهم من بنى أمية وغيرهم إذا ظهر الإمام المنتظر ، فيقطع هذا الرجل أرجلهم وأيديهم ، ويسمل عيونهم ؛ وقال أصحابنا المعتزلة : إنه سيظهر وقد استولى على الإسلام رجل من بنى أمية ، هو السفيانى الموعود به فى الخبر الصحيح

---

(١) ابن أبى الحديد جـ ١ ص ٨٢ . واللسان فى « زايل » .

(٢) ابن أبى الحديد جـ ١٩ ص ١٣٦ . والضروس : العضوض لتذب عن ولدها انظر جـ ٧ ص ١٧٩ شرح النهج .

فيقتله الفاطمي . ويقتل أشياعه ، ثم ينزل عيسى عليه السلام ، وتبدو أشراط الساعة »[1] .

وحديث السفياني هذا حديث عجب . . . فما كادت الشيعة تقول : بأن لها مهديا ، حتى زعم بنو أمية بأن لهم سفيانياً !

قالوا : وتولى كبر ذلك « خالد بن يزيد بن معاوية »[2] ، لما ضاع الأمر من البيت السفياني وانتقل نهائياً إلى الفرع المرواني . . . فقالت الشيعة : إذا ظهر السفياني خرج المهدي، فقاتله ، وقتله، ثم يسلم الأمر لعيسى بن مريم ـ عليه السلام ـ وسندت قولها بحديث نزول عيسى .

فلما انتقل الأمر إلى بني العباس كان لا بد أن يكون لهم مهدي ، فادعوا أن المهدي منهم . . روى الحاكم عن عبد الله : « منا السفاح ، ومنا المنصور ، ومنا المنذر ، ومنا المهدي »[3] .

وجلس المنصور ليأخذ البيعة لابنه المهدي ، فلما فرغ من ذلك قال مطيع : حدثنا فلان عن فلان أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : المهدي منا محمد ، وابن عبد الله ، وأمه من غيرنا ، يملؤها عدلا كما ملئت جوراً ؛ ثم أقبل على العباس

---

(١) النفراوي ج ١ ص ٨٢ بتصرف . وابن أبي الحديد ج ٧ ص ٧٩ ، وانظر مختصر تذكرة القرطبي ج ١ ص ١٥٩ والطبري ج ٩ ص ١٣٨ .

(٢) عرف خالد بالعلم والشعر ، وكان مولعا بالكيمياء ـ وإليه ينسب حديث السفياني . اقرأ هذا في الأغاني ج ١٦ ص ٨٨ ـ وكما كان للأمويين سفياني كان لليمنيين قحطاني منتظر وادعاه غير واحد منهم ـ وللمصريين تميمي منتظر ، كما كان هنالك كلبي منتظر ، السيادة العربية ص ١٢٠ ، ١٤٤ .

(٣) الأغاني ج ١٠ ص ٨٥، وتاريخ بغداد ج ١ ص ٦٢ . وضحى الاسلام ج ٣ ص ٢٤٠

فقال له : أنشدك الله هل سمعت هذا ؟ فقال : نعم ـ مخافة من المنصور ـ[١] ، كل ذلك ليحاربوا العلويين بسلاحهم ، ولعل المنصور سمى ولده المهدى لذلك[٢] .

وهكذا أصبح القول بالمهدى شغل العالم العربى ؛ من شيعة وأمويين ، ثم علويين وعباسيين، كما أصبح أداة سياسية يستخدمها الجميع لنشر مذهبه ودعم رأيه، كما غدت المهدية من أبرز العقائد الشيعية ، وأكثرها شيوعا ، وأبعدها أثراً فى السياسة والتشريع والأدب ، إذ قامت على أسسها دول شامخة وبطولات غامضة ، وحروب طاحنة ، لا نزال نذكرها فى مهدى السودان ، كما كانت سنداً لنزاع عقلى بعيد الغور ، طويل الأمد فى حياة الناس وعقائدهم .

نشأة المهدية وموقف الفرق الشيعية :

وقد رأينا أن المهدية عقيدة متممة لعقيدة الرجعة . . . ويحدثنا الأستاذ أحمد أمين عن نشأة هذه العقيدة فيقول : « وعندنا أن الأمر لما خرج من الشيعة رأى رؤساء الشيعة أن هذا قد يسبب اليأس فى نفوس أتباعهم ، وخافوا أن يذوب حزبهم ، فوضعوا لذلك خططاً منها : الدعوة السرية للتشيع ، والعمل فى الخفاء على قلب الدولة الأموية ، وإضعافها ، ثم رأوا أن ذلك لا يتم إلا بقيام رئيس للشيعة ، يلتف حوله الناس ولو سراً ، ولقبوه بالخليفة حقاً وصبغوه بصبغة دينية ، فهو الإمام ، وهو المعصوم . . . ومنوا الناس بأن الأمر راجع إليهم . ثم قال : ولكن قوماً حولوا الأخبار الواردة من الشيعة الأولين فى الحكومة المنتظرة إلى حاكم منتظر ؛ لأن ذلك أقرب إلى أذهان العامة ، فالأولون كانوا يرمزون بالمهدى المنتظر إلى حكومة شيعية منتظرة ، فجعلها المتأخرون حقيقة ، وجعلوا المهدى المنتظر

---

(١) الأغانى ج ١٢ ص ٨٥ .

(٢) ضحى الإسلام ج ٣ ص ٢٤٠ .

حقيقة ، وأكثروا من القول فيه ، وزادوه أوصافا وأخباراً ، ليلبسوه ثوب الحقيقة .

قال الألوسى فى تفسيره : « وتأول جماعة من الإمامية ما ورد من الأخبار فى الرجعة على رجوع الدولة ، والأمر والنهى ، دون رجوع الأشخاص وإحياء الأموات ، فوضعت لذلك أخبار المهدى المنتظر بشخصه ووصفه »[1] .

نقول : والفكرة فى ذاتها قد تكون مقبولة ، وعودة الأمر إلى بنى على أمنية الشيعة طالما تمنتها نفوسهم ، وهتفت بها ألسنتهم ، وفى سبيلها أريقت دماؤهم .

تقول أبو الطفيل عامر بن واثلة الكندى ، الشاعر الكيسانى :

ومن عجب الأيام وَالدّهر أنّها قريشٌ عَلَى آل النبىّ تحزّبُ
قضى اللهُ فى الفُرْقان أنّ عَدُوّهُ وإن كان ذا كَيْدٍ يَذلُّ ويُغلبُ
فلا تحسبوا أنّ الرّخاء لأهله يَدُوم ، ولا أنّ البَلية تَرْتبُ[2]

ويقول الكميت ، الشاعر الإمامى :

فيارَبِّ عجِّلْ ما يُؤمَّل فيهم ليدْفأ مَقْرُورٌ ، وَيَشْبَعَ مُرْمل
وَيَنْفُذَ فِى رَاضٍ مُقِرِّ بِحُكْمِه وَفِى سَاخِطٍ مِنّا الكِتابُ المُنَزّلُ[3]

ويقول :

فَقُلْ لِبَنِى أُمَيّةَ حَيْثُ حَلُّوا وَإِنْ خِفْتَ المُهَنَّدَ وَالْقَطِيعَا
أَجَاعَ اللهَ مَنْ أشْبَعْتُمُوه وَأشْبَع مَنْ بِجَوْرِكُم أُجِيعَا
بِمَرْضِىِّ السِّياسَةِ هَاشِمِىّ يَكُونَ حَيًا لأُمَّتِهِ رَبِيعَا

---

(١) ضحى الاسلام بتصرف جـ ٣ ص ٢٤١ . وتفسير الألوسى « روح المعانى » جـ ٦ ص ٢١٦ .

(٢) معجم الشعراء ص ١٤٧ .

(٣) الهاشميات للكميت .

وَلَيثٍ فى الكَتِيبَةِ غيرِ نِكْسٍ ‏ لِتَقْوِيمِ البَرِيَّةِ مُسْتَطِيعاً
يُقِيمُ أُمُورَهَا ، وَيَذُبُّ عَنْهَا ‏ وَيَتْرُكُ جَدْبَهَا أَبداً مَرِيعاً[١]

ويقول « معاذ الهراء » الإمام النحوى المشهور :

وَمَا زِلتُ فى طَمَعٍ رَاجِياً ‏ أُؤَمِّلُ كَبْشَهُمُ أَنْ يَحِينَا
وَأَرْقُبُ مِنْ هاشِمٍ قَائِماً ‏ تَقَرُّ بِهِ أَعْيُنُ المؤْمِنِينَا
أَبُوه رَسُولُ مَلِيكِ السَّماء ‏ نَذِيرٌ مِنَ النُّذُرِ الأَوَّلِينَا[٢]

والجديد فى عقيدة المهدية أنها نشأت بعد قتل الحسين بن على - رضى الله عنه - فلم نسمع عنها إلا فى الأدب الكيسانى - أدب المختار وشيعته - وليس بصحيح أن واضعها كيسان مولى على بن أبى طالب كما يقول الأستاذ أحمد أمين[٣] ، فكيسان هذا قتل بصفين - كما قلنا - قبل أن تخلق هذه العقيدة - المهدية - بربع قرن أو يزيد، ولعل هذا الزعم جاءه من ترجيحه أن مولى «على» هذا هو نواة فرقة الكيسانية - وليس كذلك .

ثم هى عربية النشأة - لا فارسية - كما يرى الدكتور حسن إبراهيم[٤] ، وقد استعملت أولا فى معناها اللغوى - رجل هداه الله فهو مهدى - ثم اتخذت معنى جديداً فصارت لقباً للامام المنتظر ، ثم صارت عقيدة الفرق الشيعية جميعها من : زيدية ، وإمامية ، وكيسانية ، تطلقها كل فرقة على الإمام الذى تنتظر عودته ، ثم صارت فيما بعد من دعوى العباسيين .

أثر الرجعة والمهدية فى الأدب :

ومهما يكن من شىء فقد لعبت الرجعة والمهدية دوراً هاماً فى الأدب العربى ،

---

(١) الهاشميات الكميت .
(٢) معجم الشعراء ص ٢٨٠ . ‏ (٣) ضحى الاسلام ج ٣ ص ٢٣٦ .
(٤) تاريخ الاسلام السياسى ج ١ ص ٥٤١ وانظر السيادة العربية ص ١٢١ .

وشغلت ألسنة الأدباء فى هذا العصر ـ شيعيين وغيرهم ـ فاتسع مجال القول ، وغزرت مادة الأدب ، وقد استمعنا إلى شىء من هذا ، فاسمع الآن ما يقول كثيِّر عزة فى ابن الحنفية :

أَلاَ قلْ لِلوَصِىِّ فدَتكَ نفسى أَطلْتَ بِذَلِكَ الجبَلِ المقَامَا
أَضَرَّ بِمَعْشَرٍ وَالُوكَ مِنَّا وَسَمُّوكَ الخَلِيفَةَ وَالإِمَامَا
وَعَادَوْا فِيكَ أَهلَ الأَرضِ طرًّا مُقَامُكَ عَنهُم سِتِّينَ عَامَا
وَمَا ذَاقَ ابن خَوْلَةَ طَعمَ مَوْتٍ وَلاَ وَارَتْ لَهُ أَرضٌ عِظَامَا
لَقَدْ أَمْسَى بِمُورِقِ شِعْبِ رَضْوَى تراجعه المَلاَئِكَةُ الكلاَمَا
وَإِنَّ له بِهِ لَمَقِيلَ صِدْقٍ وأندية تحدثه كِرَامَا
هَدَانَا الله إِذْ جُرْتُم لِأَمْرٍ بِهِ وَلَدَيهِ نَلتَمِسُ التَّمَامَا
تَمَامَ مَوَدَّةِ المهْدِىِّ حَتَّى تَرَوْا رَايَاتِنَا تَترَى عِظَامَا

ويقول يحدث عن هذا الإمام :

أَقرَّ الله عينى إذ دَعَانِى أمينُ الله يلطُف فى السُّؤَالِ
وَأَثنى فى هَوَاىَ عَلَىَّ خيراً وَيسأَلُ عن بنىَّ وَكيفَ حالى
وَكيفَ ذَكرتَ حالَ أَبى خُبَيبٍ وَزَلَّةَ فِعلِهِ عِندَ السُّؤَالِ
هُوَ المهدىُّ خَبَّرَنَاهُ كَعبٌ أَخُو الأَحْبَارِ فى الحِقَبِ الخَوَالِى

ويسأله الناس : هل رأيت كعبا ؟ ؛ قال : لا ، قيل : فكيف قلت خبرناه كعب ؟ ، قال : بالتوهم[1] .

(١) الأغانى جـ ٩ ص ١٤ ، وكعب الأحبار : من حمير إخبارى ، كان على دين يهود ثم أسلم فحمل أخبار بنى إسرائيل معه إلى الاسلام مات بحمص سنة ٣٤ ، وأبو خبيب لقب عبد الله بن الزبير ، وخبيب هذا عربى عقيم فنبذبه ابن الزبير، وانظر أخبار كثير فى الأغانى والعقد الفريد ، قالوا ولما سمع هذا الشعر قال : لايثنى عليك إلا من هو على هواك .

ويسير أبو الطفيل فى ركاب ابن الحنفية — حين مسيره إلى عبد الملك ابن مروان — فيقول :

يَا إِخْوَتِى يَا شِيعَتِى لاَ تَبْعُدُوا
وَوَازِرُوا المهدىَّ، كَيْمَا تَهْتَدُوا
مُحَمَّدَ الخَيْرَاتِ يَا مُحَمَّدُ
أَنتَ الإِمَامُ الطَّاهِرُ المسَدَّد
لاَ ابْنُ الزُّبَيرِ السَّامِرِىّ المُلْحِدُ
ولا الذِى نَحْنُ إِلَيْهِ نَقْصِدُ

ويرتجز كثير — وكان فى ركابه أيضاً فيقول :

هُدِيتَ يَا مَهْدِيَنَا ابن المهْتَدِى
أَنْتَ الذِى نَرْضَى بِهِ ونَهْتَدِى
أَنْتَ ابْنَ خَيْرِ النَّاسِ مِنْ بَعْدِ النَّبِى
أَنْتَ إِمَامُ الْحَقِّ لَسْنَا نَمْتَرِى
يَا ابْنَ عَلِىٍّ سِرْ ، وَمَنْ مِثْلُ عَلِى؟[1]

وحدث الأصفهانى ، قال : « جاء رجل إلى السيد الحميرى ، فقال : بلغنى أنك تقول بالرجعة ؛ قال : صدق الذى أخبرك وهذا دينى ؛ قال : أفتعطينى ديناراً بمائة دينار إلى الرجعة ، قال السيد : نعم ، وأكثر من هذا ، إن وثقت لى بأنك ترجع إنساناً ، فقال : وأى شىء أرجع ؟ قال : أخشى أن ترجع كلباً أو خنزيراً فيذهب مالى ، فأفحم الرجل[2] ، وذلك قول بالتناسخ .

(١) الفرق بين الفرق وابن الأثير ج ٤ ص ١٦ .
(٢) الأغانى ج ٧ ص ٢٤٢ .

وتناول دعبل بن على الخزاعى حديث الرجعة والمهدية فى تائيته الرائعة ، ودعبل شاعر إمامى ، فقال :

فلولاَ الّذِى أرْجُوه فى اليَومِ أوْ غَدِ ... لَقُطِّع قَلْبِى إثْرَهُم حَسَرات
خُرُوج إمَام لا مَحالةَ خَارجٌ ... يَقُومُ عَلَى اسْم الله والبركات
يُمَيز فينا كُلَّ حَقٍّ وباطلِ ... وَيجزِى عَلَى النّعماء والنقمات[1]

ولعلنا على ذكر من هذا الشاعر الذى يقول للزيدية :

صَلَبْنَا لـكم زَيداً عَلَى جِذع نخلة ... وَلَمْ أرَ مَهْدِيًا على الجِذْعِ يُصْلَب

على أنه كان من الشيعة رجال حكموا عقولهم ، فأنفوا من هذه العقائد ، وسجلوا إنـكارهم لها . . يقول (كثير بن كثير) فى رثاء أهل البيت :

أهلُ بيتٍ تَتَابَعُوا للمَنَايَا ... مَا عَلَى الدّهر بعدَهم من عِقاب
فارَقونى وقد عَلِمْتُ يقيناً ... مَا لِمَن ذَاق ميتة من إياب[2]

وهكذا كانت الوصية والرجعة والمهدية مستراداً لأخيلة الأدباء فى هذا العصر — شيعيين وغير شيعيين — فظهر أثرها فى الأدب العربى ، وتنوعت فنونه .

وهناك عقائد أخرى كالتقية ، والتناسخ ، والبداء ، . . . ولـكن هذه وأمثالها ـ وإن أحدثت أثراً كبيراً فى السياسة والعقائد الإسلامية — قد كانت ضئيلة الأثر فى الأدب العربى ، لذلك آثرنا أن نترك تحقيقها لعلماء العقائد ، والمعنيين بدراسة الأهواء والملل ، لنفرغ لموضوعنا . . أدب الشيعة .

---

(١) معجم الأدباء ج ١ ص ١٩٤ . وتنوير الأبصار .
(٢) المؤتلف والمختلف .

الفصل الرابع

أدب الشيعة

مصادر الأدب العربى ـ الأدب الشيعى : أغراضه ـ بيئته ـ أطواره
(ا) الطور الأول: أسس الحجاج فيه ـ على أستاذ الأدب الشيعى،
المرأة العربية والتشيع ـ رأى زكى مبارك ـ
رأينا فى ذلك .
(ب) الطور الثانى : قتل الحسين ـ المناحى الأدبية فى هذا الطور .
أدب الشيعة فى صدر الدولة العباسية ـ آداب
الأحزاب الأخرى .

نحن فى حاجة حين ندرس الأدب الشيعى ، إلى تفهم الحياة الاجتماعية والعقلية للعرب عامة . وللبيئة الشيعية بوجه خاص . . فما الأدب ـ كما يقولون ـ إلا ظل الحياة ، وصحيفة الوجود ، ونتيجة طبيعية لعقليات الأمة وعاداتها وبيئتها ، يخضع لما تخضع له الحياة الإنسانية ، فيتأثر بمؤثراتها المختلفة ، وفواعلها المنوعة : من بيئة وحضارة ، ودين ، وسياسة ، وفواعل نفسية ، وأحداث اجتماعية ، واتصال بالشعوب .

ولقد استطاع العرب أن يصوروا حياتهم تصويراً منطبقاً على الحقيقة من غير تزويق ولا تشويه ، فجاء أدبهم مرآة مجلوة ، تنعكس عليها تماثيل الحياة وانتزاعات العقول .

مصادر الأدب العربى فى الجاهلية :

ونحن نعلم أن العربى قبل إسلامه قد تحكمت فيه جاهلية قاسية ، وعقلية جافية ،

وعصبيّة مفرقة ، وأخلاق فضائلها : الشجاعة ، والشهامة ، والكرم الموفى على الإسراف والتلف ، والفناء فى القبيلة ، والقسوة فى الانتقام . . . وما بعد ذلك فسلب ونهب . وسفاهة وطيش ، وحياة يمثلها القطامى[1] فى أبياته :

ومن تكُنِ الحَضَارَةُ أعْجَبَتْهُ فأىّ رجالِ بادِيَةٍ ترَانَا
وَمَنْ رَبَطَ الجِحَاشَ فَإنَّ فِينَا قَنًا سُلُبًا ، وأفْرَاسًا حِسَانَا
وَكُنَّ إذَا أغَرْنَ عَلَى جَنَابٍ وَأعْوَزَهُن نَهْبٌ حَيْثُ كانَا
أغَرْنَ منَ الضّبَابِ عَلَى حُلول وَضَبَّةَ ، إنهُ من حانَ حانَا
وأحيانًا على بَكْرٍ أخينا إذا ما لم نجد إلا أخانَا[2]

فكان الأدب الجاهلى مظهر هذه الصفات وباعثها ، كما كان الأدب الجاهلى سجل هذه الحياة ومصورها .

وفى صدر الإسلام :

حتى إذا جاء الإسلام فسن الشرائع ورسم الآداب ، وهذب الأخلاق ، وفتح القلوب لكلمة التوحيد وحقيقة البر ، ونادى بأن السيادة للدين لا للنسب ، والإخاء فى الله لا فى العصب ـ تغيرت العقلية العربية ، فتغير ما يصدر عنها من فكر وتصوير وقول .

---

(١) القطامى ـ بفتح القاف وضمها ـ الصقر سمى به « عمير بن شييم بن عمرو من تغلب » شاعر أسلامى فحل رقيق الحواشى . كثير الأمثال حسن التشبيب بالنساء الحماسة ج ١ ص ٣٢٨ ومعجم الشعراء ص ٢٤٤ .

(٢) قنا سلبا : تسلب النفوس . جمع سلوب . ويروى سلبا بفتح فكسر أى طويل . والضباب : اسم لقبائل . وضبة وضبيب وحسل وحسيل . والحلول : الذين يكونون فى مكان واحد وقوله « إنه من حال حانا » التفات . أى : من بلى يغزونا هلك

فالشاعر الذى كان يستلهم شيطانه قصائد المفاخرة والمنافرة والهجاء ، والخطيب الذى كان يستقطر من لسانه سموم العداوة والبغضاء . والفارس الذى كان يخوض ليله ونهاره فى الدماء وبين الأشلاء ، وقفوا جميعاً أمام الدين صامتين منصتين ، لا يقولون ولا يفعلون إلا ما يأمر به ويدعو إليه .

وأصبح الأدب — الذى كان بالأمس أنغام صبا ، وحماسة وفتوة ، وعواطف أثرة — صورة من هذه الحياة الجديدة . . . قبساً من هدى الله ورسولا يدعو إلى الخير ، ويحبب فى الدين الجديد ، كما أفاده هذا المدد الإلهى عذوبة فى اللفظ ، ورقة فى التركيب ، ودقة فى الأداء ، وقوة المنطق ، ووحدة الغرض .

وفى عهد بنى أمية :

على أن تأثير الإسلام لم يقف طويلا عند عقيدته وروحه ، وأسلوب كتابه ، فسرعان ما تعدى ذلك إلى تأثير آخر من جهة ما نشأ عنه من الفتوح ونظام الحكم .

فقد امتد سلطانه بالفتح والجهاد ، وانساح فى مختلف البلاد ، فاستولى على ممالك كسرى وقيصر ، وورث عقليات الفرس والروم ، وامتزج بالأجناس والأمم ، ونقل هؤلاء إلى العربية بخيالهم ، وأفكارهم ، وعقائدهم نقلهم ذاتاً ، ومعنى ، ووطناً ، وأخضعهم لسلطانه إخضاعا مادياً ، ومعنوياً ، فظهر أثر ذلك فى الحياة العربية ، والعقلية العربية ، والخيال العربى .

والأدب حينئذ ربيب الخصومة والجدل ، تبعثه العصبية ، ويقويه الهراش ، وتوحيه شياطين الفرقة ، وتلك حال — وإن أماتها الإسلام — فهى دستور الحياة فى هذا العصر .

فقد رأينا كيف كانت الجزيرة العربية منذ قتل عثمان ـ رضى الله عنه ـ يهدر جوفها من ضرم الفتن ، هدير الحميم المكظوم ، وتفرق الناس حول الخلافة شيعاً وأحزاباً ، كل يدعو لخليفة . ويستاف من أجل فكرة . . . ففى الشام حزب بنى أمية ، وفى الحجاز أنصار ابن الزبير ، وفى العراق شيعة على . ثم حزب آخر ينكر هؤلاء وأولئك ويكفر الزعماء ويقول بالشورى .

وفى هذه الأحزاب توزعت أهواء المسلمين وآراؤهم ، فاتصلت الخصومة ، وأعنف الخصوم ، واقتضى ذلك إحياء العصبية القبلية ؛ بل تعددت العصبيات ، فهى بين القبائل ، والأقطار ، والبلاد ، والعلماء ، والأدباء .

وسعد الأدب من ذلك كله — وإن شقى الاجتماع — فتعددت موضوعات الأدب وتنوعت أغراضه ، وكثر نحوله ، وساير هذه النهضة ؛ فصخب وغزر ، كما صَخِبت الحياة وغزرت . فإذا هو أناشيد جهاد ، وثوران عصبية ، وأطماع حياة ، ولسان فتنة . . . وتطلع إلى الحياة الجاهلية ، والعصبية الجاهلية ، فابتعثها من مرقدها ، وأحيا ما اندثر من آثامها . وصار فى مظهره وجوهره ونوعه امتداداً للأدب الجاهلى ، كما صارت الحياة الأموية فى مظاهرها وجوهرها ونوعها امتداداً للحياة الجاهلية .

فواعل الأدب الشيعى وأغراضه :

هذه هى فواعل الأدب الأموى ومصادره ؛ تراث جاهلى ، وإلهام إلهى ، وتأثير أجنبى ، وعصبية قبلية ، وأهواء سياسية . . . وهذه هى بعينها فواعل الأدب الشيعى فى هذا العصر لأنه نوع منه . يصدر عن دوافعه ؛ وينبع من منابعه ويستقى من روافده . . . أخذ من لغة الآباء لغته وألفاظه ؛ ومن القرآن والحديث أسلوبه وحججه . ومن عقليات العراق وحضارته معانيه وأخيلته ؛ ثم استخدم

كل ذلك فى أغراضه الشيعية : حب آل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ والإخلاص لقرابته ـ رضى الله عنهم ـ ، والاحتجاج لحقهم فى الخلافة ، ومنافحة خصومهم من أمويين ، وزبيرين ، وخوارج ، ثم عباسيين ، ورثاء قتلاهم ، ومدح عقيدتهم .

بيئته :

ولقد كان العراق مدرج هذا النوع من الأدب . والعراق منذ القدم موطن أمم عظيمة ، ونحل متعددة : فالبابليون ، والأشوريون، والـكلدانيون ، والفرس؛ كل هؤلاء اتخذوا العراق وطناً ، نخلفوا فيه حضارة ، كما عرفه العرب قديماً فنزلت فيه قبائل من بكر وتغلب ، وكونوا إمارة المناذرة ؛ وظل ـ حتى بعد الفتح ـ منتجع الخواطر العربية لخصبه ونمائه ، ووفرة ظله ومائه .

فى الطبرى : بعث عتبة أنس بن جحية إلى عمر بمنطقة مرزُبان «دست ميسان» فقال له عمر : كيف المسلمون ؟ فقال : انثالت عليهم الدنيا ، فهم يهيلون الذهب والفضة . . . فرغب الناس فى البصرة فأتوها[1] .

وقد فتح المسلمون العراق فى عهـد عمر ـ رضى الله عنه ـ ، فعرفوا هذا الميراث الوافر الذى خلفته تلك الأمم من العلم والأدب والسياسة والعقائد . والعراق ـ إلى العهد الذى نؤرخه ـ لم يؤت قوة التمثيل والهضم ، فانطبعت الأهواء فيه على الفرقة ، والنفوس على التنافر ، وغدا موطن الفرق ، وعش الخلاف والتحزب .

---

(١) عتبة بن غزوان المازنى . ولى البصرة وما حولها لعمر بن الخطاب . رضى الله عنه ـ (طبرى ج ٤ ص ١٤٩) ومرزبان : الرئيسى الدينى . ودست ميسان : اسم بلد هناك .

يقول ابن أبى الحديد : وطينة العراق ما زالت تنبت أرباب الأهواء ، وأصحاب النحل العجيبة ، والمذاهب البديعة . وأهل هذا الإقليم أهل بصر وتدقيق ، ونظر وبحث عن الآراء والعقائد ، وشبه معترضة فى المذاهب ، وقد كان منهم فى أيام الأكاسرة مثل (مانى) و (بِصّان) و (مزدك) وغيرهم(١).

ولذلك رأينا العراق فى هذا العهد مهد الفتن ، ومنبت الأحزاب ، ومستقر المعارضة الشيعية فى شماله ، والخارجية فى جنوبه .

ولا شك أن للبيئة والوطن الجغرافى أكبر الأثر فى تكوين الملكات ، وظهورها فى سمات العصر التى تكون قد ولدت فيه ، فلا غرو أن كان الأدب العراقى صورة لهذه الحياة الثائرة ، والأهواء الخلقية ، فهو قوى عنيف ، يكثر فيه الهجاء والفخر ، والنزعات المذهبية ، وتتلون فيه المساجلة الحزبية ألوانًا شتى ، فى لفظ جزل ، وأسلوب رصين ، وحجاج عنيف ، وصور بدوية . . . وكذلك كان الأدب الشيعى .

أطوار الأدب الشيعى :

عماد الأدب الشيعى الاحتجاج لعلىّ وبسط نظريته فى الخلافة ، وتبيان أنه ـ ثم ذريته من بعده ـ أولى الناس بسلطان الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقد تدرج يدعو إلى ذلك تدرج الفكرة الشيعية ، والحياة السياسية للشيعة ؛ وسوف نذكر دائمًا الفكرة الشيعية وتدرجها لنرى أن الأدب الشيعى قد ساير هذه الفكرة وصورها ، فبدأ قويًا محكم الجدل ، عربى التفكير والخيال أيام على ومعاوية ، حتى إذا اصطخبت الحياة الشيعية ، وأريقت الدماء العلوية ؛ رأينا الأدب الشيعى ثائرًا ، عنيفًا ، هدامًا ، مضطربا ، يموج بالفتن والعقائد الشيعية .

---

(١) ابن أبى الحديد جـ ٧ ص ١٧٦ .

الطور الأول وأسس الحجاج فيه :

ولقد كانت حادثة « كربلاء » الملطخة بدماء الحسين وآل بيت الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ حداً فاصلا بين طورين من أطوار هذا الأدب الخصيب ، كان فى الأولى حباً صادقاً ، ومدحاً خالصاً ، وموازنة جريئة بين خليفة وخليفة ، وحجاجا عربياً صريحاً ، مؤسساً على نظرة العربى الذى هذبه الإسلام للرياسة وبيت الرياسة ، فأسبق الناس إلى الإسلام ، وأمسهم رحماً بالرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأشدهم جهاداً للعدو ، وبلاء فى نصرة الدين ، وأرسخهم قدماً فى الجاهلية أحق الناس بخلافة المسلمين ، وزعامتهم ، وذلك كله قد اجتمع لعلى بن أبى طالب ـ رضى الله عنه ـ لفضله وسبقه وقرابته وجهاده .

فى ذى الحجة سنة ٣٦ هجرية وفد ـ أبو عمرة ـ بشير بن عمرو بن محصن الأنصارى ، وسعد بن قيس الهمدانى وشبث بن ربعى التميمى ـ رسلا من قبل علىّ ـ على معاوية بن أبى سفيان ، ليدعوه إلى الله والطاعة لأمير المؤمنين على بن أبى طالب ، فحمد الله بشير ، وأثنى عليه ، ثم قال : « يا معاوية ، إن الدنيا عنك زائلة ، وإنك راجع إلى الآخرة . وإن الله عز وجل محاسبك بعملك ، وجازيك بما قدمت يداك ، وإنى أنشدك الله ـ عز وجل ـ أن تفرق جماعة هذه الأمة ، وأن تسفك دماءها بينها .

فقال معاوية : هلا أوصيت بذلك صاحبك ؟ .

فقال أبو عمرة : إن صاحبى ليس مثلك ، إن صاحبى أحق البرية كلها بهذا الأمر ، فى الفضل ، والدين ، والسابقة فى الإسلام ، والقرابة من الرسول ـ صلى الله عليه وسلم .

قال : فيقول ماذا ؟ . . قال : يأمرك بتقوى الله عز وجل ، وإجابة ابن عمك إلى ما يدعوك إليه من الحق ، فإنه أسلم لك فى دنياك ، وخير لك فى عاقبة أمرك .

قال معاوية : ونطل دم عثمان ـ رضى الله عنه ـ ! ؟ لا والله ، لا أفعل ذلك أبداً ، فذهب سعيد بن قيس يتكلم ؛ فبادره شبث بن ربعى ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

يا معاوية إنى قد فهمت ما رددت به على ابن محصن ، إنه ـ والله ـ لا يخفى علينا ما تغزو وما تطلب ، إنك لم تجد شيئاً تستغوى به الناس ، وتستميل به أهواءهم ، وتستخلص به طاعتهم ، إلا قولك : « قتل عثمان مظلوماً ، فنحن نطلب بدمه ، فاستجاب لك سفهاء طغام ، وقد علمنا أن قد أبطأت عنه بالنصر وأحببت له القتل ، لهذه المنزلة التي أصبحت تطلب ، ورب متمنى أمر وطالبه الله عز وجل يحولُ دونه بقدرته ، وربما أوتى المتمنى أمنيته ، وفوق أمنيته ، ووالله ما لك فى واحدة منهما خير . . لئن أخطأت ما ترجو إنك لشر العرب حالا فى ذلك ، ولئن أصبت ما تمنى لا تصيبه حتى تستحق صلى النار . فاتق الله يامعاوية ، ودع ما أنت عليه ، ولا تنازع الأمر أهله .

فحمد الله معاوية ، وأثنى عليه ، ثم قال : أما بعد فإن أول ما عرفت فيه سفهك ، وخفة حلمك قطعك على هذا الحسيب الشريف سيد قومه منطقه ، ثم عنيت بعد فيما لا علم لك به . فقد كذبت ولومت أيها الأعرابى الجاف فى كل ما ذكرت ووصفت ، انصرفوا من عندى ، فإنه ليس بينى وبينكم إلا السيف .

فخرج القوم ، وشبث يقول : « أفعلينا تهول بالسيف ! ؟ . أقسم بالله ليعجلن بها إليك[١] » .

* * *

(١) ابن الأثير جـ ٣ ص ١٢٢ . والطبرى جـ ٥ ص ٢٤٢ .

ونحب أن نقف قليلا عند كلمة بشير بن عمرو وما اشتملت عليه من أصول الحجاج الشيعى .

بدأ بشير كلمته ، ففاضل بين الدنيا والآخرة ، فتلك زائلة عن معاوية ، وهذه مآبه ، ليتلفت إلى ما هو خير له ، وأبقى لسعادته ، وفى الآخرة يحاسب الإنسان على عمله ، ويجازى بما قدمت يداه ، وتلك تعاليم إسلامية بحتة لم يكن يلتفت إليها الذهن الجاهلى .

ثم ناشده الله ألا يفرق الجماعة ويسفك الدماء ، حتى إذا ذكر صاحبه أخذ يبين له فضله واستحقاقه الخلافة ، فلم نر إلا حججاً عربية صريحة ، فضل ودين ، وسابقة فى الإسلام ، وقرابة من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم . .

وهكذا كانت أصول الاحتجاج الشيعى فى هذه الفترة .

وكلمة شبث بن ربعى فى موقف معاوية من عثمان تذكرنا بنقاش طريف جرى بين معاوية وأبى الطفيل ـ عامر بن واثلة الكندى ـ حين قال له : يا أبا الطفيل ؛ قال نعم ؛ قال : أنت من قتلة عثمان ؟ قال : لا ، ولكنى ممن حضره ولم ينصره ؛ قال : فما منعك أن تنصره ؟ قال : لم ينصره المهاجرون والأنصار فلم أنصره ؛ قال : لقد كان حقه واجباً وكان عليهم أن ينصروه ؛ قال : فما منعك من نصره ـ يا أمير المؤمنين ـ وأنت ابن عمه ؟ قال : أو ما طلبى بدمه نصرة له ، فضحك أبو الطفيل ، ثم قال : مثلك ومثل عثمان كما قال الشاعر :

لَأَعْرِفَنَّكَ بَعْدَ الموتِ تَنْدُبُنِى وَفى حَيَاتِى مَا زَوَّدْتَنِى زَادِى[1]

---

(١) العقد الفريد ج ١ ص ٣٢٩ . والبيت يضرب مثلا لمن يضيع أخاه فى حياته ثم يبكيه بعد موته (الميدانى ج ٢ ص ١٧٩)

ولا نريد أن ندخل فى التفاصيل التاريخية لهذه الحادثة التى اتخذها بنو أمية مطية إلى الملك ، وليس من سبيلنا أن نفصل فى هذه القضية ، وموقف الصحابة منها ، على أنه قد سئل على بن أبى طالب ـ رضى الله عنه ـ عن رأيه فى عثمان ـ رضى الله عنه ـ وقاتليه ؟ فقال : « استأثر فأساء الأثرة ، وجزعوا فأساءوا الجزع ، ولله حكم واقع فى المستأثر والجازع[1] » .

وتحاور الحسن بن على ـ رضى الله عنهما ـ مع أبيه ، فقال الحسن ، « دع عنك هذا ، والله إنى لا أظن ، بل لا أشك أن ما بالمدينة من عاتق ، ولا عذراء ولا صبى إلا وعليه كفل من دمه[2] .

نترك هذا إلى مثال آخر من أمثلة الحجاج الشيعى فى هذا الطور ، فى الطبرى وابن الأثير : « لما توادع على ومعاوية يوم صفين فى المحرم سنة ٣٧ ، اختلف بينهما الرسل رجاء الصلح ، فبعث على عدى بن حاتم ، ويزيد بن قيس الأرحبى وشبث بن ربعى وزياد بن خصفة إلى معاوية ، فلما دخلوا حمد الله عدى بن حاتم ثم قال :

« أما بعد فإنا أتيناك ندعوك إلى أمر يجمع الله عز وجل به كلمتنا وأمتنا ، ويحقن به الدماء ، ويؤمن به السبل ، ويصلح به ذات البين . . إن ابن عمك سيد المسلمين : أفضلها سابقة ، وأحسنها فى الإسلام أثراً ، وقد استجمع له الناس ، وقد أرشدهم الله عز وجل بالذى رأوا ، فلم يبق أحد غيرك وغير من معك فانته يا معاوية، لا يصبك الله وأصحابك بيوم مثل يوم الجمل» .

فقال معاوية : « كأنك إنما جئت متهدداً ، لم تأت مصلحاً ! هيهات ـ ياعدى

(١) ضحى الاسلام جـ ٣ ص ٣٠٠ .

(٢) الامامة والسياسة ص ٤٧ والعاتق الجارية أول إدراكها .

كلا والله إنى لابن حرب ، ما يقعقع لى بالشنان ، أما والله إنك لمن المجلبين على ابن عفان ـ رضى الله عنه ـ وإنك لمن قتلته ، وإنى لأرجو أن تكون ممن يقتل الله عز وجل به ، هيهات يا عدى بن حاتم قد حلبتُ بالساعد الأشَدّ»[١]

فقال له شبث بن ربعى ، وزياد بن خصفة ـ وتنازعا جواباً واحداً : « أتيناك فيما يصلحنا وإياك ، فأقبلت تضرب لنا الأمثال ؟ دع مالا ينتفع به من القول والفعل ، وأجبنا فيما يعمنا وإياك نفعه » .

وتكلم يزيد بن قيس فقال :

« إنا لم نأتك إلا لنبلغك ما بعثنا به إليك ، ولنؤدى عنك ما سمعنا منك ونحن ـ على ذلك ـ لن ندع أن ننصح لك ، وأن نذكر ما ظننا أن لنا عليك به حجة ، وأنك راجع به إلى الألفة والجماعة ـ إن صاحبنا من قد عرفت وعرف المسلمون فضله . ولا أظنه يخفى عليك ، إن أهل الدين والفضل لن يعدلوا بعلى ولن يميلوا[٢] بينك وبينه ، فاتق الله يا معاوية ، ولا تخالف علياً ، فإنا والله ما رأينا رجلا قط أعمل بالتقوى ، ولا أزهد فى الدنيا ، ولا أجمع لخصال الخير كلها منه» .

فحمد الله معاوية ، ثم أثنى عليه وقال :

« أما بعد فإنكم دعوتم إلى الطاعة والجماعة ، فأما الجماعة التى دعوتم إليها

---

(١) القعقعة : تحريك الشىء اليابس . والشنان جمع شن بالفتح : القربة البالية وهم يفعلون ذلك لحث الإبل ؛ فإذا قعقع لها نفرت . والكلمة مثل يضرب لمن لايقعقع لما ينزل به أو لا يروعه مالا حقيقة له . وفى المثل حلبتها بالساعد الاشد أخذتها بالقوة إذ لم تأت بالرفق . يعنى معاوية شدة استعداده للقتال وتأهبه له .

(٢) التمييل : الترجيح .

فمعنا هى ، وأما الطاعة لصاحبكم فإنا لا نراها ؛ إن صاحبكم قتل خليفتنا وفرق جماعتنا ، وأوى ثأرنا[١] وقتلتنا ، وصاحبكم يزعم أنه لم يقتله ، فنحن لا نرد ذلك عليه ، أرأيتم قتلة صاحبنا ، ألستم تعلمون أنهم أصحاب صاحبكم ؟ فليدفعهم إلينا فلنقتلهم به ، ثم نحن نجيبكم إلى الطاعة والجماعة » .

فقال شبث : أيسرك يا معاوية أنك أمكنت من عمار[٢] تقتله ؟ .

فقال معاوية : وما يمنعنى من ذلك ؟ والله لو أمكنت من ابن سمية ما قتلته بعثمان ـ رضى الله عنه ـ ولكن كنت قاتله « بناتل » مولى عثمان .

فقال شبث : وإله الأرض ، وإله السماء ـ ما عدلت معتدلا[٣] ، لا والذى لا إله إلا هو ، لا تصل إلى عمار ، حتى تندر الهام عن كواهل الأقوام ، وتضيق الأرض الفضاء عليك برحبها » .

فقال معاوية : « إنه لو قد كان ذلك كانت الأرض عليك أضيق » .

---

(١) الثأر : قاتل حميمك .

(٢) عمار بن ياسر ـ رضى الله عنه ـ أحد السابقين الأولين : تحمل هو وآله فى سبيل عقيدتهم الإسلامية مالا يحتمله بشر وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يمر عليهم وهم يعذبون فيقول : « اصبروا آل ياسر فموعدكم الجنة » تلاحى هو وعثمان ابن عفان فسبه عثمان فغضب رسول الله لعمار وقال: عمار جلدة مابين عينى وأنفى» وفى عمار يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم « يابن سمية لايقتلك أصحابى ، ولكن تقتلك الفئة الباغية » ، فأراد شبث أن يحرج معاوية بذلك إذ كان عمار فى جيش على . فكأنه يقول : إنك إن قتلت عماراً ـ وكان من أصحاب على ـ كنت من الفئة الباغية كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم .

(٣) يريد لست عادلا أن عدلت عمارا بمولى عثمان . وتندر الهام تسقط الرءوس عن الأعناق . والرحب بالضم الاتساع .

وتفرق القوم عن معاوية ، فلما انصرفوا بعث إلى زياد بن خصفة التميمى فخلا به ، فحمد الله وأثنى عليه وقال :

« أما بعد يا أخا ربيعة ، فإن علياً قطع أرحامنا ، وآوى قتلة صاحبنا ، وإنى أسألك النصر بأسرتك وعشيرتك، ثم لك عهد الله جل وعز، وميثاقه ؛ أن أوليك إذا ظهرت ـ غلبت وانتصرت ـ أى المصرين أحببت» .

فقال زياد : « أما بعد ، فإنى على بينة من ربى ، وبما أنعم علىّ ، فلن أكون ظهيراً ـ معيناً ـ للمجرمين »[1] .

ويقول عياض[2] الثمالى لما بايع شرحبيل بن السمط معاوية :

فإنَّ ابن حَرْبٍ نَاصِبٌ لكَ خُدْعَـةً
تـكُونُ علينا مثـلَ رَاغِيَة البَـكْرِ[3]

فإنْ نَالَ ما ترجُو لهُ كانَ مُلـكُنا
هنيئاً لهُ ، وَالحـرْبُ قاصِمَةُ الظَّهْرِ

وإنَّ عَدِيًّا خـــيرُ من وطِىء الحصَا
من الهـاشمِّيينَ ، المَدَارِيك لِلْوِتر

لهُ فى رِقَابِ النَّـاسِ عهـدٌ وذِمَّةٌ
كَعهد أبى حَفصٍ وعهـد أبى بكر

---

(١) طبرى جـ ٦ ص ٢ وابن الأثير جـ ٣ ص ٢٤٢ .

(٢) عياض شاعر شامى . روى أن عليا ـ رضى الله عنه ـ أرسل جرير بن عبدالله البجلى ليأخذ البيعة من معاوية ، فأشار عليه عمرو بن العاص أن يرسل إلى شرحبيل ـ سيد الشام ـ فيشركه فى أمره ، ويلزم عليا دم عثمان ، ففعل .

(٣) وفى المثل كانت عليهم كراغية البـكر ـ يضرب للتشاؤم بالشىء ، والراغية : الرغاء ، والمراد بكر ثمود ـ لما عقر قدار بن سالم ناقة رسول الله صالح ـ فأهلـكهم الله .

فبايعْ ولا ترجعْ إلى العُقْب كافراً أُعِيذُكَ باللهِ العزيزِ مِنَ الـكُفْر

ويقول عمرو بن الْحَمِق :

« والله يا أمير المؤمنين ، إنى ما أحببتك ولا بايعتك على قرابة بينى وبينك ولا إرادة مال تؤتينيه ، ولا التماس سلطان ترفع ذكرى به ، ولـكننى أحببتك بخصال خمس : أنك ابن عم رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ووصيه ، وأبو الذرية التى بقيت فينا من رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وأسبق الناس إلى الإسلام ، وأعظم المهاجرين سهماً فى الجهاد . فلو أنى كلفت نقل الجبال الرواسى ، ونزح البحور الطوامى ، حتى يأتى علىَّ يومى فى أمر أقوى به وليك ، وأهين به عدوك ، ما رأيت أنى قد أديت فيه كل الذى يحق علىَّ من حقك » .

ولما انتهى أمر القوم إلى التحكيم وأجمع أهل العراق على طلب أبى موسى الأشعرى [1] ليـكون حكماً على مروق علىّ أتاه عبد الله بن عباس رضى الله عنهما وعنده وجوه الناس وأشرافهم فبين له الخديعة ، ومقام على من القضية ، ومنزلة معاوية ، ودهاء عمرو بن العاص ، كما أتاه شريح بن هانىء فقال له :

« يا أبا موسى ، إنك قد نُصِبت لأمر عظيم لا يُجْبَرُ صدعه ، ولا تستقال فلتته ومهما تقل من شىء لك أو عليك يثبت حقه ، ويرى صحته وإن كان باطلا ، وإنه لا بقاء لأهل العراق إن ملـكهم معاوية ، ولا بأس على أهل الشام إن ملـكهم

---

(١) كان أبو موسى الأشعرى عامل « على » على الـكوفة ، فـكتب إليه « على » ليستنفر الناس لقتال عائشة ومن معها فى وقعة الجمل ، فثبطهم حين خطبهم فقال : « فأما إذ كان ما كان فإنها فتنة صماء ، النائم فيها خير من اليقظان ، واليقظان فيها خير من القاعد ، والقاعد فيها خير من القائم ، والقائم خير من الراكب ، فـكونوا جرثومة من جراثيم العرب ، فأغمدوا السيوف ، وأنصلوا الأسنة » .

على ، وقد كانت منك تثبيطة أيام الكوفة والجمل ، فإن تشفعها بمثلها يكن الظن بك يقيناً ، والرجاء منك يأساً ، ثم قال :

أبا موسى : رُميت بشر خصم ... فلا تضع العراق ، فدتك نفسى
وأعط الحق شامهم وخذه ... فإن اليوم فى مهل كأمس
وإن غداً يجىء بما عليه ... كذاك الدهر من سعد ونحس
ولا يخدعك عمرو ، إن عمراً ... عدو الله مطلع كل شمس
له خدعٌ يحار العقل فيها ... مموهة ، مزخرفة بلبس
فلا تجعل معاوية بن حرب ... كشيخ فى الحوادث غير نِكْس[1]
هداهُ اللهُ للاسلام فرداً ... سوى عرس النبى وأى عرس[2]

ويخطب الأشتر النخعى[3] ـ قائد على ومساعده ـ على فرس أدهم « بقناصرين » يحرض الناس على القتال فيقول :

« الحمد لله الذى خلق السموات العلى، الرحمن على العرش استوى ، له ما فى

---

(١) النكس : الضعيف .

(٢) يريد خديجة بنت خويلد زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم أول من أسلم من النساء ، كما كان على أول من أسلم من الصبيان ـ ابن أبى الحديد ج ١ ص ١٩٠ والإمامة والسياسة ج ١ ص ٩٩ .

(٣) الأشتر النخعى : مالك بن الحارث بن عبد يغوث النخعى ، توفى سنة ٣٨ هـ ، مات مسموما ، سمه معاوية بن أبى سفيان حين أراد على إرساله إلى مصر فعظم ذلك عليه فبعث إليه من سمه فى الطريق بشربة عسل . وفيه قال معاوية : « إن لله جنودا فى العسل » ثم قام خطيبا فقال : أما بعد ، فإنه كان لعلى بن أبى طالب يدان يمينان ، قطعت إحداهما يوم صفين ـ يعنى عمار بن ياسر ـ وقطعت الأخرى اليوم ـ يعنى الأشتر النخعى ـ طبرى ج ٦ ص ٦٤ .

السموات وما فى الأرض ، وما بينهما وما تحت الثرى . أحمده على حسن البلاء وتظاهر النعماء ، حمداً كثيراً ، بكرة وأصيلا . من هداه الله فقد اهتدى ، ومن يضلل فقد غوى ، أرسل محمداً بالصواب والهدى ، فأظهره على الدين كله ولو كره المشركون ، صلى الله عليه وآله .

ثم قد كان مما قضى الله سبحانه وقدّر ، أن ساقتنا المقادير إلى أهل هذه البلدة من الأرض ، فلفت بيننا وبين عدو الله وعدونا ، فنحن بحمد الله ونعمه ، ومنه وفضله ، قريرة أعيننا ، طيبة أنفسنا ، نرجو بقتالهم حسن الثواب ، والأمن من العقاب .

معنا ابن عم نبينا ، وسيف من سيوف الله : على بن أبى طالب ، صلى مع رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ لم يسبقه إلى الصلاة ذكر ، حتى كان شيخاً لم يكن له صبوة ، ولا نبوة ، ولا هفوة[1] ، ولا سقطة ، فقيه فى دين الله تعالى ، عالم بحدود الله ، ذو رأى أصيل ، وصبر جميل ، وعفاف قديم .

فاتقوا الله ، وعليكم بالحزم والجد ، واعلموا أنكم على الحق ، وأن القوم على الباطل . . . إنما تقاتلون معاوية وأنتم مع البدريين — قريب من مائة بدرى[2] — سوى من حولكم من أصحاب محمد ، أكثر ما معكم رايات قد

---

(١) الصبوة : جهلة الفتوة . ونبا السهم عن الهدف : قصد ولم يصب ، والمراد : لا يعرف التقصير فى الدين .

(٢) شهد مع رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ غزوة بدر الكبرى التى نشبت فى السنة الثانية من الهجرة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهم : « يا آل بدر اعملوا ما شئتم فقد غفر لكم » .

انظر مع كتب الحديث أصل الشيعة وأصولها .

كانت مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومعاوية مع رايات قد كانت مع المشركين على رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فمن يشك فى قتال هؤلاء إلا ميت القلب .

أنتم على إحدى الحسنيين ـ إما الفتح وإما الشهادة ـ عصمنا الله وإياكم بما عصم به من أطاعه واتقاه ، وألهمنا وإياكم طاعته وتقواه ، وأستغفر الله لى ولكم[1] » .

وكلمة الأشتر — فوق دلالتها الشيعية — نموذج حسن للخطابة الإسلامية ، ودليل صادق على ما فعله الاسلام فى العقل العربى من الصقل والتهذيب ، والتلفت بالخطابة إلى غرض خلقى أسمى من أغراضها فى الجاهلية .

بدأ الأشتر كلمته بحمد الله والثناء عليه ، والصلاة على محمد — صلى الله عليه وسلم — وتلك ميزة الخطابة الإسلامية ، ثم ذكر كيف ساقه القدر إلى بلد جمع بينه وبين عدو الله وعدوه . . . ووصفُ أعدائه بأنهم أعداء الله تعبير يلهب النفوس المسلمة ، ويدفعها إلى الاخلاص فى سبيل الله ، ونصرة دينه ، ولا يزال الأشتر مع صحب يرون الجهاد واجباً ، ومحاربة أعداء الله ديناً ، لا يرجون من وراء ذلك إلا حسن الثواب ، والأمن من العقاب ، يخوضون غمرات الحروب على إحدى الحسنيين — الفتح أو الشهادة — وكذلك يقول الأشتر .

ثم أخذ يحتج لصاحبه فسلك كل سبيل تقر به نفوسهم ، وتقوى عزائمهم ، وانظر إلى هذا الأسلوب الرائع الجذاب الذى بدأ به حججه لخليفته . . « معنا ابن عم نبينا ، وسيف من سيوف الله ، على بن أبى طالب » . . . أفلست معى أن من ينتصر لسيف الله ، ويقاتل تحت رايته ، فقد استمسك بالعروة الوثقى ، وسلك سبيل المحجة ؟

---

(١) ابن أبى الحديد ج ٥ ص ٤٨٤ .

حتى إذا وصل إلى غرضه ، فجمع قلوبهم بيده ، أمرهم بالحزم والجد ، وأعلمهم أنهم على الحق ، وأن القوم عَلَى الباطل .

ثم انتقل بهم إلى أسلوب آخر يبعث على الاستماتة فى الجهاد ، هو أنهم يقاتلون مع « بدريين » مع من جاهد تحت لواء الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى هذه الموقعة الفاصلة ، فضمن لهم رسول الله الجنة ، وبشرهم بمغفرة الله ورضوانه ، والمرء يحشر مع من أحب ، أما معاوية وصحبه ـ أعداء الله وأعداؤهم ـ فتخفق فوق رءوسهم راية الشرك والضلال ، راية طالما حاربت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم .

والأشتر فى هذه الموازنة خطيب درس أحاسيس القوم .

فأنت ترى كيف أفاد الإسلام العقل العربى إلى حد بعيد ، فنظم تفكيره ، وهذب من حواشيه ، وكيف أن القرآن علمهم قوة الحجاج ، ودقة المنطق ، ووحدة الغرض .

وأنت ترى كذلك أن الحجاج الشيعى فى هذه الفترة تقوم أسسه على الخلال الإسلامية الكريمة ، والقرابة من رسول الله ـ عليه الصلاة والسلام .

أدب الموازنة بين بنى هاشم وبنى أمية :

وفى كلمة الأشتر موازنة صريحة بين على ومعاوية ، والموازنة بين الهاشميين والأمويين سبيل من سبل القول الشيعى .

يقف ابن عباس ـ رضى الله عنه ـ بصفين ، فيقول بعد حمد الله والثناء عليه :
« وقد ساقنا قدر الله إلى ما ترون ، حتى كان مما اضطرب من حبل هذه الأمة ، وانتشر من أمرها ، أن معاوية بن أبى سفيان وجد من طغام الناس أعواناً على ابن عم رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وصهره ، وأول ذكر صلى

معه ، بدرى قد شهد مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كل مشاهده التى فيها الفضل ، ومعاوية مشرك ، كان يعبد الأصنام ؛ والذى ملك الملك وحده ، وبان به وكان أهله ، لقد قاتل على بن أبى طالب — عليه السلام — مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو يقول : صدق الله ورسوله ، ومعاوية يقول : كذب الله ورسوله .

فعليكم بتقوى الله والجد والحزم والصبر ، والله إنا لنعلم أنكم لعلى الحق وأن القوم لعلى الباطل ، فلا يكونن أولى بالجد على باطلهم منكم فى حقكم ، وإنا لنعلم أن الله سيعذبهم بأيديكم أو بأيدى غيركم ، اللهم أعنا ولا تخذلنا ، وانصرنا على عدونا ، ولا تحل عنا ، وافتح بيننا وبين قومنا بالحق ، وأنت خير الفاتحين »[١] .

على أستاذ الحجاج الشيعى :

وأدب الموازنة وضع على بن أبى طالب ـ رضى الله عنه ـ أسسه ، وعلى ـ من غير شك ـ هو المؤسس الأول للحجاج الشيعى ، وتستطيع أن ترجع إلى التراث الأدبى لابن أبى طالب ليتجلى لك كيف استطاع أبو الحسن أن يشرح فكرته فى سياسة الناس ، ويبسط استحقاقه للخلافة .

وقد رأينا فى حديثنا عن الفكرة الشيعية كيف احتج على لنفسه يوم السقيفة[٢] ، فلنسمع إليه الآن يوازن بين بنى أمية وبنى هاشم فى كتابه إلى معاوية فيقول :

« ولولا ما نهى الله عنه من تزكية المرء نفسه لذكر ذاكر فضائل جمة

---

(١) ابن أبى الحديد جـ ٥ ص ٥٠٤ .
(٢) أنظر أوائل هذا الكتاب .

تعرفها قلوب المؤمنين ، ولا تمجها آذان السامعين ، فدع عنك من مالت به الرمية[١] ، فإنا صنائع ربنا ، والناس بعد صنائع لنا ، لم يمنعنا قديم عزنا ، ولا عادى طولنا على قومك أن خلطناكم بأنفسنا ، فنكحنا وأنكحنا فعل الأكفاء ، ولستم هناك . . . وأنى يكون ذلك كذلك ، ومنا النبي ومنكم المكذب ، ومنا أسد الله ومنكم أسد الأحلاف ، ومنا سيدا شباب أهل الجنة ومنكم صبية النار ، ومنا خير نساء العالمين ومنكم حمالة الحطب[٢] ، وفى كثير مما لنا وعليكم ، فإسلامنا ما قد سمع ، وجاهليتنا لا تدفع ، وكتاب الله يجمع لنا ما شذ عنا ، وهو قوله : (وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله) ، وقوله تعالى : (إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا ، والله ولى المؤمنين) .

فنحن مرة أولى بالقرابة ، وتارة أولى بالطاعة ، ولما احتج المهاجرون على الأنصار يوم السقيفة برسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ فلجوا عليهم ، فإن يكن الفلج به فالحق لنا دونكم ، وإن يكن بغيره فالأنصار على دعواهم»[٣] .

وعلى يؤمن بأن خلافة المسلمين سيادة دينية ودنيوية ، فهى تحتاج مع السبق

---

(١) الرمية الصيد يرميه الصائد ، ومالت به : خالفت قصده فاتبعها ، مثل يضرب لمن اعوج غرضه فمال عن الاستقامة لطلبه .

(٢) المكذاب : أبو جهل . وأسد الله حمزة ، وأسد الأحلاف : أبو سفيان ، لأنه حزب الأحزاب وحالفهم على قتال النبي فى غزوة الخندق . وسيدا شباب أهل الجنة الحسن والحسين بنص قول الرسول وصبية النار : قيل أولاد مروان بن الحكم وقد أخبر عنهم النبي بأنهم من أهل النار . وقيل أولاد عقبة بن أبى معيط أسر فى بدر فأمر الرسول بقتله . فقال : من للصبية يا محمد ؟ فقال : النار ، وخير نساء العالمين فاطمة بنت محمد وحمالة الحطب أم جميل بنت حرب عمة معاوية ـ وزوج أبى لهب .

(٣) نهج البلاغة جـ ٣ ص ٣٥ .

الدينى إلى سيادة عربية قديمة ، وقد كان له من ذلك حظ لم ينله معاوية فأخذ يذكر معاوية بقديمه وجديده ، ويبين له « أن ليس أمية كهاشم ، ولا حرب كعبد المطلب ، ولا أبو سفيان كأبى طالب ، ولا المهاجر كالطليق ، ولا الصريح كاللصيق ، ولا المحق كالمبطل ، ولا المؤمن كالمدغل[1] » فكيف يقرن على بمعاوية ؟ وكيف يطمع ابن أبى سفيان أن يرقى فيكون من ساسة الرعية ، وولاة أمر الأمة ، بلا قدم سابق ، ولا شرف باسق ؟

وهكذا وضع على أدب الموازنة بين البيتين الهاشمى والأموى ، كما وضع عمد الحجاج الشيعى لخطباء الشيعة وشعرائهم ، فكانت كتبه وخطبه المنبع الذى يمتحون منه جميعاً .

وبدهى أن أدب الموازنة يقوم على التكشيف ، وبعث الماضى ، وفى ذلك تبيان للناس أى البيتين ذو أصل ثابت فى الجاهلية ، وفرع باسق فى الإسلام ، وأيهما أولى بسيادة الأمة ، فلا غرو أن كان هذا النوع من الأدب الحزبى أوسعها مجالا ، وأكثرها ذيوعاً ، حتى امتلأت به كتب الأدب والتاريخ .

المرأة الشيعية :

وقد اشتركت المرأة العربية فى هذا الجدال الحزبى ، فكان لها صوت

---

(١) نهج البلاغة ج ٣ ص ١٩ ، والطليق : أبو سفيان وابنه معاوية ، كانا من الطلقاء يوم فتح مكة سنة ثمان ، يوم أن قال الرسول لمشركى مكة بعد الفتح ــ وفيهم أبو سفيان ومعاوية ــ اذهبوا فأنتم الطلقاء ، والصراحة والالتصاق هنا بالنسبة إلى الدين ، فالصريح : من أسلم اعتقادا وإخلاصا لم يلجئه إلى ذلك ملجىء . واللصيق : من أسلم تحت السيف أو رغبة فى الدنيا — انظر شرح النهج لأستاذنا محمد محيى الدين عبد الحميد.

مسموع ، ورأى فى الخلافة ، وعقيدة تنافح عنها ، فتردد فى الجو الشيعى أصوات « عكرشة بنت الأطرش » و « الزرقاء بنت عدى » و « أم الخير بنت الحريش » و « سودة بنت عمارة » و « أم سنان بنت خيثمة » و « دارمية الحجونية[١] » كما سمعنا فى الجو الخارجى « أم حكيم صاحبة قطرى بن الفجاءة » و « غزالة زوج شبيب بن يزيد الشيبانى » ، ثم « فارعة بنت طريف » ، وموقف أم المؤمنين عائشة بنت أبى بكر فى وقعة الجمل يعرفه كل مسلم .

وقد ذكر ابن عبد ربه فى العقد فصلا ممتعاً سجل فيه أدب الوافدات على معاوية من نساء الشيعة .

رأى زكى مبارك :

ويعتقد الدكتور زكى مبارك أنه من وضع الشيعة ، يصورون به أهواءهم فى حب آل البيت ، ولا يمكن أن يكون صحيحاً ، ولا من وضع الأمويين ، ففى بعض هذه المواقف قذف لآل حرب ، ورمى بالبغى والفسوق ، وتذكير بمخازيهم فى الجاهلية والإسلام . . ومعاوية مهما حلم فعنده هيبة الملك ، وهى كفيلة أن ترد سفه الخطاب عند الحد المعقول[٢] .

رأينـــا :

وعندنا أن الدكتور يحكم فى هذا خلق العصر الذى يعيش فيه ، وفاته أنه أدب قوم لا يزالون على فطرة البداوة وأخلاقها ، ربوا على صراحة القول

---

(١) ترجم لهن فى بلاغات النساء . والدر المنثور فى ربات الخدور جـ ١ ، وانظر العقد الفريد ، وصبح الأعشى .

(٢) المدائح النبوية ص ٦٤ — ٦٥ بتصرف .

وصدق اللهجة ، وحرية التعبير عن أغراضهم ، والتاريخ ملىء بكثير من هذه المواقف التى جبه فيها ناس هذا العصر الخلفاء والأمراء ، وردوهم إلى حظيرة الصواب والحق ، لا ينهنههم سيف الحكم ولا بسطة السلطان .

« عدد معاوية بن أبى سفيان على الأحنف بن قيس ذنوباً ؛ فقال الأحنف : يا أمير المؤمنين ! لم ترد الأمور على أعقابها ، أما والله إن القلوب التى أبغضناك بها لبين جوانحنا ، والسيوف التى قاتلناك بها لعلى عواتقنا ، ولئن مددت فترا من غدر لنمدن باعا من ختر ، ولئن شئت لتستصفين كدر قلوبنا بصفو حلمك . . . قال : فإنى أفعل »[1] .

* * *

وقدم عقبة الأسدى على معاوية فدفع إليه رقعة فيها :

« معاوىَ إننّا بشرٌ فأسْجِحْ فلسنا بالجبالِ وَلا الحديد

أكلتمْ أرْضَنَا فجَرَدْتموها فهَلْ مِنْ قائمٍ أوْ مِنْ حَصِيدِ ؟

فهَبْنا أمّةً هلكتْ ضَيَاعاً يزيد أميرها وأبُو يزيد

أتطمعُ بالخلودِ إذا هلكْنا وليسَ لنا ولا لكَ مِنْ خلودا ؟

ذروا خوَلَ الخلافةِ واسْتقيموا وتأميرَ الأرَاذِلَ والعَبيدِ

فدعابه معاوية فقال : ما جرأك على ؟ قال : نصحتك إذ غشوك ، وصدقتك إذ كذبوك ، فقال معاوية : ما أظنك إلا صادقاً ، وقضى حوائجه »[2] .

---

(١) العقد ج ٢ ص ٣٢٧ .

(٢) العقد ج ١ ص ٢٩ وج ٣ ص ٤٠٩ ، وانظر نهاية الأرب ج ٢ ص ٨١ .

وكم سمع معاوية من صحابة على،وقد وفدوا عليه يذكرونه الله والجماعة، من القول الصريح الجارح، الذى تناول خلقه وإسلامه، فقابله بحجاج مثله .

ولقد كان معاوية يفهم نفسية الشعب ، ويعتقد أن القوم لم يسلموا إليه أمرهم عن حب ورضا ، ولكنه ملكهم قهراً .

« قدم المدينة بعد عام الجماعة ، فدخل دار عثمان بن عفان ـ رضى الله عنه ـ فبكت عائشة بنت عثمان ونادت أباها ، فقال معاوية: يابنة أخى ، إن الناس أعطونا طاعة، وأعطيناهم أماناً ، وأظهرنا لهم حلماً تحته غضب ، وأظهروا لنا طاعة تحتها حقد ، ومع كل إنسان سيفه ، ويرى موضع أصحابه ، فإن نكثنا بهم نكثوا بنا ، ولا ندرى أعلينا تكون أم لنا ، ولأن تكونى ابنة عم أمير المؤمنين خير من أن تكونى امرأة من عرض الناس » .

وكلمة معاوية تصوير صادق لحالة العرب الحزبية ، وموقفهم من الدولة القائمة ، فكان على معاوية ألا يحول بين الناس وبين ألسنتهم ما لم يحولوا بينه وبين ملكه، فحلم وتجاوز ، وصانع رءوس العرب وقروم مضر ، بالإغضاء والصبر واحتمال المكاره . يصفه عمرو بن العاص فيقول : « يضحك عند الغضب ، ولا ينام إلا على الرضى ، ويتناول ما فوقه من تحته » .

ويقول فيه أبو الجهم العلوى متمثلا :

ونغضبه لنخبر حالتيه ... فنخبر منهما كرماً ولينا
نميل على جوانبه كأنا ... نميل ـ إذا نميل ـ على أبينا[1]

ويقول عنه ابن عباس رضى الله عنهما : « كان الناس يردون منه على أرجاء

---

(١) العقد ج ٢ ص ١٢٦ ، والبيان والتبيين ج ٣ ص ١٧٣ .

واد رحب»[١] . . . فاستطاع أن يجمع الناس حوله بحلمه وصفحه ، ودهائه وحزمه حتى سجل له التاريخ خلال السياسى المحنك .

على أننا فى عصر النبوة ، ومع قوم ينزلون آل النبى – صلى الله عليه وسلم – من قلوبهم أسمى المنازل وأقدسها ، ويعتقدون حبهم ديناً وعقيدة ، لأنه حب لرسول الله – صلى الله عليه وسلم – وزكاة يتقربون بها إلى الله ، حب يمثله قول المكفوف :

أُحِبكمُ حُبًّا على الله أجرُهُ تَضَمَّنه الأحشاء واللحمُ والدَّمُ[٢]

وقدم أبو الطفيل على معاوية ، فقال له : ما بلغ من حبك لعلى ؟ قال : حبُّ أم موسى موسى ؛ قال : فما بلغ من بكائك عليه ؟ قال : بكاء العجوز الثكلى ، والشيخ الرقوب ، وإلى الله أشكو التقصير ؛ قال معاوية : إن أصحابى – هؤلاء – لو كانوا سئلوا عنى ما قالوا فىَّ ما قلت لصاحبك ؛ قالوا : إذاً ، والله ، لا نقول الباطل ؛ فقال معاوية : لا والله ولا الحق تقولون[٣] .

. وبعث زياد إلى رجل من رءوس أصحاب حجر بن عدى – سيد شيعة الكوفة – فقال له : يا عدو الله ، ما تقول فى أبى تراب ؟ قال : ما أعرف أبا تراب ، فقال : ما أعرفك به ، أتعرف على بن أبى طالب ؟ قال : نعم ، قال : فذاك أبو تراب ، قال : كلا ! ذاك أبو الحسن والحسين ، فقال صاحب شرطته : يقول الأمير: هو أبو تراب ، وتقول لا ؟ ! قال : فإن كذب الأمير أكذب أنا ، وأشهد على

---

(١) البيان والتبيين ج ٣ ص ١٢٨ والعقد الفريد ج ١ ص ٢٩ .
(٢) العقد ج ١ ص ٢١ .
(٣) مروج الذهب ج ٢ ص ٤٩ ، والعقد ج ٢ ص ٢٢٩ والأغانى ج ٣ ص ١٦٧ والرقوب من لا يبقى له ولد — وهى رقوب .

باطل كما شهد ؟ ! فقال زياد : وهذا أيضاً ! علىَّ بالعصا ، ما تقول فى على ؟ قال : أحسن قول ، قال : اضربوه ، فضربوه حتى لصق بالأرض ، ثم قال : أقلعوا عنه ، ما قولك فى على ؟ قال : والله لو شرحتنى بالمواسى ما قلت فيه إلا ما سمعت منى ، قال : لتلعننه أو لأضربن عنقك ، قال : لا أفعل . فأوثقوه حديداً حتى مات فى سجنه » .

وهكذا كانت شيعة على حبًّا له ، وإيماناً بحقه ، يتعرضون للأذى فى سبيل عقيدتهم وحريتهم ، فلا يزيدهم إلا تمسكا . . . وإذا كان لا بد للصدور أن يتنفث ، كان لا بد لكلامه أن يكون عنيفاً حارًّا .

صراحة البدوى :

وأنت إذا درست الحياة العربية وجدت هذه الصراحة ، والفناء فى العقيدة ، دين العربى إبان الدولة الأموية ، إذ كانت دولة عربية ، تعتز ببداوتها ، وتفنى فى سبيل إرادتها . وفى الأدب الأموى ـ الخارجى والزبيرى ـ كثير من هذه المواقف ، مع ولاة ليسوا كمعاوية حلماً وسماحة وديناً ، مع الحجاج وزياد ، وأمثال الحجاج وزياد ، ممن سجل لهم التاريخ خلال الجبروت والقسوة ، ومع هذا يقف العربى أمام هؤلاء ، وسيوفهم مُصلتة تقطر دماً ، فلا يزحزحه ذلك عن رأيه . . . لا ، بل لا يزيده ذلك إلا صراحة وعنفاً ، ذاك لأن نفوس القوم فى هذا العصر لم تكن لتعرف الذل والخنوع .

تقف حرورية بين يدى الحجاج ، فيسأل أصحابه : ما تقولون فى هذه ؟ قالوا : اقتلها ، أصلح الله الأمير ، ونكل بها غيرها ؛ فتبسمت الحرورية ، ثم قالت : لقد كان وزراء أخيك « فرعون » خيراً من وزرائك يا حجاج ! ! استشارهم فى قتل موسى ـ عليه السلام ـ ، فقالوا : « أرْجِهْ وأخاهُ » ، وهؤلاء

يأمرونك بتعجيل قتلى ؟! فضحك الحجاج وأمر بتركها »[١].

فهذه حرورية مع الحجاج ، مع من قتل بسيفه مائة وعشرين الفاً من المسلمين ـ كما يقولون ـ غير من ماتوا فى سجنه ، ومع ذلك جبهته برأيها ، فى موقف كانت فيه أحوج ما تكون إلى التضرع .

« وقدم إليه أسارى من الخوارج ، فعرضهم على السيف ، فقال أحدهم : لا جزاك الله يا حجاج عن السنة خيراً ، فإن الله تعالى يقول : (فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب ، حتى إذا أثخنتموهم فشدّوا الوثاق ، فإمّا مَنًّا بعدُ وإما فداء) ، فهذا قول الله فى كتابه ، ولقد قال شاعركم فيما وصف به قومه من مكارم الأخلاق :

وما نقتُلُ الأسْرَى ، ولكن نفكُّهُمْ
إذَا أثقلَ الأعناقَ حمـــلُ المغارم

فأفاق الحجاج من سكرة السلطان ، ثم قال : ويحكم ! أعجزتم أن تخبرونى بما أخبرنى به هذا المنافق ؟ ! . . وأمسك عن القتل »[٢].

ودخل زبيرى على عبد الملك بن مروان ، فقال له : أليس الله قد ردك على عقبيك ؟ فقال : ومن رد إليك ـ يا أمير المؤمنين ـ فقد رد على عقبيه ، فسكت عبد الملك ، وعلم أنه اخطأ .

ووفد يزيد بن مسلم على سليمان بن عبد الملك ، فقال له : على امرىء أمرك ، وجرأك ، وسلطك على الأمة لعنة الله ، أتظن الحجاج استقر فى قعر جهنم ، ام

---

(١) العقد الفريد جـ ٢ ص ١٥٤ .

(٢) العقد الفريد جـ ٢ ص ١٥٤ والبيت للفرزدق .

هو يهوى فيها ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ، إن الحجاج يأتى يوم القيامة بين أبيك وأخيك . فضعه من النار حيث شئت[١] .

وقال عبيد الله بن زياد لقيس بن عباد : « ما تقول فىّ وفى الحسين ؟ قال : اعفنى-أعفاك الله . قال: لا بد أن تقول . قال : يجىء أبوه يوم القيامة فيشفع له ، ويجىء أبوك فيشفع لك . . . قال : قد علمت غشك وخبثك ، لئن فارقتنى يوما لأضعن أكثرك شعراً بالأرض »[٢] .

هذا هو عصر بنى أمية ، وتلك أخلاق القوم فيه ؛ صراحة وجراءة وعنف ، وحرية رأى ، وقوة شكيمة . . . فإذا أضفنا إلى ذلك شيئاً آخر هو أن معاوية كان أكبر همة، وأسمى نفساً من أن يقدم على قتل امرأة مهما أغلظت له ، فيعرض نفسه وعرضه لشر كثير ، وألوان من النقد لا قبل له بها .

وأخرى أن هذا الأدب قد قيل جملته بصفين ، وصاحبته بين قومها ، وشجعان عشيرتها ، فهى فى مأمن حصين من معاوية وسيفه ، كان لا بد لنا أن نؤمن بصحة هذه المواقف على ما فيها من قوة وعنف ، وأن تطمئن نفوسنا إلى رواية هذا الأدب النسوى على أنه من سجلات الأدب الشيعى الخالد .

فلنستمع إلى المرأة العربية تعلن رأيها فى هذه المشكلة ، التى أسالت الدماء ، وحيرت العقول .

وسوف نرى أنها فى أسلوبها ، وأصول احتجاجها ، لم تخرج عما عرفناه من أصول الاحتجاج الشيعى فى هذا الطور .

---

(١) مروج الذهب جـ ٢ ص ١٢٩ ويزيد كاتب الحجاج وانظر الجزء الثانى من العقد .

(٢) العقد الفريد جـ ١ ص ٢٤٥ وابن الأثير جـ ٣ ص ١٠٥ .

عن الشعبي قال : « وفدت سودة بنت عمارة بن الأشتر الهمدانية على معاوية ابن أبي سفيان ، فاستأذنت عليه ، فأذن لها ، فلما دخلت عليه سلمت ، فقال لها : كيف أنت يا ابنة الأشتر ؟ قالت : بخير ، يا أمير المؤمنين ، فقال لها : أنت القائلة لأخيك :

شَمِّرْ كفعل أبيكَ يا بنَ عمارة ... يومَ الطِّعَان وَمُلتقَى الأقْرَانِ
وأنصُرْ عليًّا ، والحسينَ وَرَهْطه ... واقصد لهند وابنها بهَوَانِ
إن الإمامَ أخو النبيِّ محمد ... عَلَمُ الهدَى ، ومنارةُ الإيمان
فَقُدِ الجيوش ، وسِرْ أمام لِوَائِهِ ... قُدُماً بأبيضَ صارم وسِنان ؟

قالت : يا أمير المؤمنين ، مات الرأس ، وبتر الذنب ، فدع عنك تذكار ما قد نسي . . قال : هيهات ! ليس مثل مقام أخيك ينسى . قالت : صدقت ، والله يا أمير المؤمنين ، ما كان أخي خفي المقام ، ذليل المكان ، ولكن كما قالت الخنساء :

وإنَّ صَخْراً لتَأْتمُّ الهداةُ به ... كأنه عَلَمٌ في رأسه نارُ

وبالله أسأل أمير المؤمنين إعفائي مما استعفيته . قال : قد فعلت ، فقولي حاجتك . قالت : يا أمير المؤمنين ، إنك للناس سيد ، ولأمورهم مقلد ، والله سائلك عما افترض عليك من حقنا ، ولا تزال تقدم علينا من ينهض بعزك ، ويبسط سلطانك ، فيحصدنا حصاد السنبل ، ويدوسنا دياس البقر ، ويسومنا الخسيسة ، ويسألنا الجليلة . . . هذا ابن أرطاة[1] قدم بلادي ، وقتل رجالي ، وأخذ مالي ، ولولا

---

(١) بسر بن أرطاة : هو الذي أرسله معاوية في خلافة علي إلى الحجاز . ثم اليمن ليستولي عليها ففعل بهما الأفاعيل ، وكان على اليمن عبيد الله بن عباس من قبل علي ، فهرب عبيد الله فنزلها بسر . وذبح عبد الرحمن وقثم ابني عبيد الله ، وكانا طفلين بين يدي أمهما عائشة بنت عبد المدان فأصابها من ذلك حزن شديد ، ورثتهما بشعر يذيب القلب حسرة ، رغبة الآمل ج ٨ ص ١٥٨ . والأغاني ج ١٥ ص ٤٢ .

الطاعة لـكان فينا عز ومنعة ، فإما عزلته عنا فشكرناك ، وإما لا فعرفناك ؛ فقال معاوية : إياى تهددين بقومك ؟! والله لقد هممت أن أردك على قتب[1] أشرس ، فينفذ حكمه فيك . فسكتت ثم قالت :

صلى الإلهُ على رُوح تضمَّنه قبرٌ ، فأصبح فيه العدلُ مدفونا
قد حالفَ الحقَّ لا يبغى له ثمناً فصارَ بالحقِّ والإيمان مَقرُونا

قال : ومن ذلك ؟ قالت : على بن أبى طالب ، رحمه الله . قال : ما أرى عليك منه أثراً . قالت : بلى ، أتيته يوماً فى رجل ولاه صدقاتنا ، فكان بيننا وبينه ما بين الغث والسمين ، فوجدته قائماً يصلى ، فانفتل من الصلاة ، ثم قال ـ برأفة وتعطف ـ : ألك حاجة ؟ ؟ فأخبرته خبر الرجل ، فبكى ، ثم رفع يديه إلى السماء فقال : اللهم إنى لم آمرهم بظلم خلقك ، ولا ترك حقك ، ثم أخرج من جيبه قطعة من جراب فكتب فيها :

« بسم الله الرحمن الرحيم . . . (قد جاءتكم بينة من ربكم فأوفوا الكيل والميزان بالقسط ، ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا فى الأرض مفسدين ، بقية الله خير لكم إن كنتم مؤمنين ، وما أنا عليكم بحفيظ) إذا أتاك كتابى هذا فاحتفظ بما فى يدك ، حتى يأتى من يقبضه منك . . . والسلام » .

فأخذته منه يا أمير المؤمنين ، ما خزمه بخزام ، ولا ختمه بخاتم .

فقال مُعاوية : اكتبوا لها بالإنصاف لها ، والعدل عليها . فقالت : ألى خاصة ، ام لقومى عامة ؟؟ قال : وما أنت وغيرك ؟ قالت : هى ، والله ، إذاً الفحشاء واللؤم إن لم يكن عدلا شاملاً ، وإلا يسعنى ما يسع قومى ،

---

(١) القتب : الإكاف الصغير ، والأشرس الخشن الغليظ . وهو صفة البعير .

قال : هيهات ! لمظكم[1] ابن أبى طالب الجراءة على السلطان ، فبطيئاً ما تفطمون، وغركم قوله :

فلو كُنْتُ بَوَّاباً عَلى بابِ جَنَّةٍ
لقلتُ لِهَمْدَانَ ، ادْخُلُوا بِسَلام

وقوله :

نَادَيتُ همدان والأبوابُ مُغْلَقَةٌ — وَمِثْلُ همدان سَنّى فتحة الباب

كالهِنْدُوَانىّ لم تُفْلَلْ مَضَارِبهُ — وَجْهٌ جميلٌ وقلبٌ غيرُ رُجّاب

اكتبوا لها بحاجتها »[2].

وعن عبد الله بن عمر الغسانى عن الشعبى ، قال : « كتب معاوية إلى واليه بالكوفة أن يحمل إليه أم الخير بنت الحريش بن سراقة البارقى برحلها ، وأعلمه أنه مجازيه بقولها فيه ، بالخير خيراً ، وبالشر شراً . فلما ورد عليه كتابه ، ركب إليها فأقرأها كتابه ، فقالت : أما أنا فغير زائغة عن طاعة ، ولا معتلة بكذب ، ولقد كنت أحب لقاء أمير المؤمنين لأمور تختلج فى صدرى .

فلما شيعها ، وأراد مفارقتها قال لها : يا أم الخير ، إن أمير المؤمنين كتب إلىّ أنه مجازىّ بقولك فىّ بالخير خيراً ، وبالشرّ شراً ، فما لى

---

(١) التلمظ : التذوق وتتبع بقية الطعام فى الفم، والمراد عودكم.

(٢) سنى : سهل : العقد ج ١ ص ٢١١ ، وبلاغات النساء ص ٣٥ ، والدرالمنثور ج ١ ص ٢٥٣ وكان على كثيرا ما ينشد شعره هذا كلما رأى وفد همدان ، انظر العقد ج ٢ ص ٢٤٧ والعمدة ج ١ ص ٢١ .

عندك ؟ قالت : يا هذا ، لا يطمعنّك برك بى أن أسرك بباطل ، ولا يؤيسنّك معرفتى بك أن أقول فيك غير الحق .

فسارت خير مسير ، حتى قدمت على معاوية ، فأنزلها مع الحرم ، ثم أدخلها فى اليوم الرابع ، وعنده جلساؤه . فقالت : السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته ، فقال لها : وعليك السلام يا أم الخير ، بحق ما دعوتنى بهذا الاسم ؟ قالت : يا أمير المؤمنين [مه ، فإن بديهة السلطان مدحضة لما يجب علمه ، و] لكل أجل كتاب . قال : صدقت ، فكيف حالك يا خالة ؟ وكيف كنت فى مسيرك ؟ قالت : لم أزل ـ يا أمير المؤمنين ـ فى خير وعافية ، حتى صرت إليك ، فأنا فى مجلس أنيق ، عند ملك رفيق . . .

قال معاوية : بحسن نيتى ظفرت بكم . قالت : يا أمير المؤمنين ، يعيذك الله من دحض المقال ، وما تردى عاقبته ، . . . قال : ليس هذا أردنا ، أخبرينا كيف كان كلامك إذ قتل « عمار بن ياسر » ؟ قالت : لم أكن ـ والله ـ زورته[1] قبلُ ، ولا رويته بعد ، وإنما كانت كلمات نفثها لسانى عند الصدمة ، فإن أحببت أن أحدث لك مقالا غير ذلك فعلت ، [قال معاوية : لا أشاء ذلك] . . .

ثم التفت إلى جلسائه ، فقال : أيكم يحفظ كلامها ؟ فقال رجل منهم : أنا أحفظ بعض كلامها يا أمير المؤمنين . قال : هات . قال : كأنى بها ، وعليها برد زبيدى[2] ، كثيف النسج ، وهى على جمل أرمك[3] ، وقد أحيط

(١) زور الشىء : حسنه وقومه وهذبه .
(٢) الزبيدى : نسبة إلى زبيد ، بلدة باليمن .
(٣) الجمل الأرمك : الرمادى اللون .

بها ، وبيدها سوط منتشر الضفيرة ، وهى كالفحل يهدُرُ فى شقشقته ، تقول :

« يأيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شىء عظيم . . . إن الله قد أوضح لكم الحق ، وأبان الدليل ، وبين السبيل ، ورفع العلم . . . ولم يدعكم فى عمياء [مُبهمة ولا سوداء] مدلهمة ، فأين تريدون — رحمكم الله — أفراراً عن أمير المؤمنين ، أم فراراً من الزحف ، أم رغبة عن الإسلام ، أم ارتداداً عن الحق ؟ أما سمعتم الله جل ثناؤه يقول : (ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم) .

ثم رفعت رأسها إلى السماء ، وهى تقول :

« اللهم قد عيل الصبر ، وضعف اليقين ، وانتشرت الرغبة ، وبيدك ـ يا رب ـ أزمّة القلوب ، فاجمع اللهم بك الكلمة على التقوى ، وألف القلوب على الهدى ، واردد الحق إلى أهله » .

« هلموا ـ رحمكم الله ـ إلى الإمام العادل ، والرضى التقى ، والصديق الأكبر ، إنها إحن بدرية ، وأحقاد جاهلية ، [وضغائن أحدية] ، وثب بها واثب حين الغفلة ، ليدرك ثارات بنى عبد شمس » .

ثم قالت : « قاتلوا أئمة الكفر إنهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون ، صبراً يامعشر المهاجرين والأنصار ، قاتلوا على بصيرة من ربكم ، وثبات من دينكم ، فكأنى بكم غداً ، وقد لقيتم أهل الشام ، كحمر مستنفرة ، فرت من قسورة ، لاتدرى أين يسلك بها من فجاج الأرض ، باعوا الآخرة بالدنيا ، واشتروا الضلالة بالهدى [وباعوا البصيرة بالعمى] وعما قليل ليصبحن نادمين ؛ حين تحل بهم الندامة ، فيطلبون الإقالة . ولات حين مناص .

إنه والله من ضل عن الحق وقع فى الباطل ، ألا إن أولياء الله استصغروا عمر الدنيا فرفضوها ، واستطابوا الآخرة فسعوا إليها ، فالله الله أيها الناس قبل أن تبطل الحقوق ، وتعطل الحدود [ويظهر الظالمون] وتقوى كلمة الشيطان ، فإلى أين تريدون ـ رحمكم الله ـ عن ابن عم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وصهره ، وأبى سبطيه ، خلق من طينته ، وتفرع من نبعته ، [وخصه بسره] ، وجعله باب مدينته ، وأبان ببغضه المنافقين ، وها هو ذا مفلق الهام ، ومكسر الأصنام . صلى والناس مشركون ، وأطاع والناس كارهون ، فلم يزل فى ذلك حتى قتل مبارزى بدر[1] ، وأفنى أهل أحد ، وهزم الأحزاب ، وقتل الله به أهل خيبر ، وفرق به جمع هوازن . . . فيالها من وقائع زرعت فى القلوب نفاقا ، وردة وشقاقاً ، وزادت المؤمنين إيماناً ...

قد اجتهدت فى القول ، وبالغت فى النصيحة ، وبالله التوفيق ، والسلام عليكم ورحمة الله » .

فقال معاوية : يا أم الخير ، ما أردت بهذا الكلام إلا قتلى ، ولو قتلتك ما حرجت فى ذلك ، قالت : والله ما يسوءنى أن يجرى قتلى على يدى من يسعدنى الله بشقائه ، قال : هيهات ! يا كثيرة الفضول ، ماتقولين فى عثمان بن عفان ـ رحمه الله ـ ؟ قالت : وماعسيت أن أقول فى عثمان ؟ استخلفه الناس وهم به راضون ، وقتلوه وهم له كارهون ، قال معاوية : يا أم الخير ، هذا ثناؤك الذى تثنين ؟ قالت : لكن الله يشهد ، وكفى بالله شهيداً ، ما أردت بعثمان نقصاً ، ولكن كان سابقاً إلى الخير ، وإنه لرفيع الدرجة غداً [قال : فما تقولين فى طلحة بن عبيد الله ؟ قالت : وما عسى أن أقول فى

---

(١) لما التقى الجمعان فى بدر خرج عتبة بن ربيعة (والد هند أم معاوية) بين أخيه شيبة وابنه الوليد طالبين مبارزة أقرانهم من قريش فنازلهم على وحمزة وعبيدة ابن الحارث بن عبد المطلب ، فقتل على الوليد ، وساعد عبيدة فى قتل عتبة ، وقتل حمزة شيبة (سيرة ابن هشام . وغيرها من كتب التاريخ) .

طلحة ؟ اغتيل من مأمنه ، وأتى من حيث لم يحذر ، وقد وعده رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الجنة] قال : فما تقولين فى الزبير ؟ قالت : وما أقول فى ابن عمة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وحواريه ؟ وقد شهد له رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالجنة [ولقد كان سباقاً إلى كل مكرمة فى الإسلام]، وأنا أسألك بحق الله ـ يا معاوية ـ فإن قريشاً تحدثت أنك أحلمها ـ [أن تسعنى بفضل حلمك و] أن تعفينى من هذه المسائل ، وتسألنى عما شئت من غيرها . . قال : نعم ، ونعمة عين ، قد أعفيتك منها .

ثم أمر لها بجائزة رفيعة ، وردها مكرمة(١) .

وفى صبح الأعشى : استأذنت أم البراء بنت صفوان على معاوية، فأذن لها ، فدخلت عليه ، وعليها ثلاثة دروع تسحبها ذراعاً ، قد لاثت على رأسها كوراً كالمنسف(٢) ، فسلمت وجلست ، فقال لها معاوية : كيف أنت يابنة صفوان ؟ قالت : بخير يا أمير المؤمنين ، قال : كيف حالك ؟ قالت : ضعفت بعد جلد ، وكسلت بعد نشاط ، قال : شتان بينك اليوم وحين تقولين :

يا زَيْدُ دونَكَ صارماً ذا رَوْنَق عَضْبَ المهزّةِ ليسَ بالخوّارِ
أَسْرِجْ جَوَادَكَ مُسْرِعاً وَمُشَمِّراً للحرب غيرَ مُعَرِّدٍ بِفِرَار
أَجِبِ الإمامَ وذُبَّ تحتَ لِوائه والْقَ العَدُوَّ بصارِمٍ بتّار
يا لَيْتَنى أَصبَحْتُ لَسْتُ قَعِيدَةً فأذبَّ عنه عساكرَ الكفار

(١) العقد الفريد ج ١ ص ٢١٧ ، وصبح الأعشى ج ١ ص ٢٤٨ ، وبلاغات النساء ص ٤١ ، ونهاية الأرب ج ٧ ص ٢٤٧ والدر المنثور ج ١ ص ٥٧ .

(٢) درع المرأة قميصها — مذكر . ولاثت على رأسها كورا أى لفت عمامتها على رأسها عدة لفات ، والمنسف : الغربال وما ينسف به الحب ، وهو شىء ، طويل منصوب الصدر .

قالت : قد كان ذاك ، ومثلك من عفا ، والله ـ تعالى ـ يقول : (عفا الله عما سلف ، ومن عاد فينتقم الله منه) قال : هيهات ، أما والله لو عاد لعدت ، ولكن أخترم منك ، قالت : أجل ، والله إنى لعلى بينة من ربى ، وهدى من أمرى ، قال : كيف كان قولك حين قتل ؟ قالت : أنسيته ، قال بعض جلسائه هو ـ والله ـ حين تقول :

يا للرّجال لعظم هَوْل مُصيبةٍ ... فُدِحَتْ ، فليسَ مُصَابُهَا بالحائلِ
الشمسُ كاسفةٌ لِفَقْدِ إمامنا ... خيرِ الخلائِقِ والإمامِ العادِلِ
ياخيرَ منْ رَكبَ المطِىَّ ومنْ مشى ... فوْقَ الترابِ لمحتفٍ أو نَاعِلِ
حَاشَا النبىَّ لقد هَدَدْتَ قواءنَا ... فالحقُّ أصبحَ خاضعاً للباطلِ

فقال معاوية : قاتلك الله ! ! فما تركت مقالا لقاتل ، اذكرى حاجتك ، قالت : أما الآن فلا ، وقامت فعثرت ؛ فقالت : تعس شانىء على ، فقال : زعمت أن لا ؛ قالت : هو كما علمت .

فلما كان من الغد بعث إليها بجائزة ، وقال : إذا ضيعت الحلم من يحفظه !؟ [1] .

ويقول ابن عبد ربه فى العقد الفريد :

دخلت عكرشة بنت الأطرش على معاوية متوكئة على عكاز ، فسلمت عليه بالخلافة ، ثم جلست . . فقال لها معاوية : الآن يا عكرشة صرت عند أمير المؤمنين ؟ قالت : نعم ، إذ لا علىّ حىّ ، قال : ألست المتقلدة حمائل السيوف بصفين ، وأنت واقفة بين الصفين تقولين :

---

(١) صبح الأعشى جـ ١ ص ٢٦١ .

« أيها الناس : عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم ، إن الجنة لا يرحل من أوطنها ، ولا يهرم من سكنها ، ولا يموت من دخلها ، فابتاعوها بدار لا يدوم نعيمها ، ولا تنصرم همومها ، وكونوا قوماً مستبصرين فى دينهم ، مستظهرين[١] بالصبر على طلب حقهم ، إن معاوية دلف[٢] إليكم بعجم العرب، غلف[٣] القلوب ، لا يفقهون الإيمان ، ولا يدركون الحكمة ، دعاهم بالدنيا فأجابوه ، واستدعاهم إلى الباطل فلبوه ، فاتقوا الله عباد الله فى دين الله ، إياكم والتواكل ، فإن ذلك ينقض عز الإسلام ، ويطفىء نور الحق، هذه بدر الصغرى، والعقبة الأخرى[٤] .

يا معشر المهاجرين والأنصار، امضوا على بصيرتكم، واصبروا على عزيمتكم، فكأنى بكم غداً وقد لقيم أهل الشام كالحُمُر الناهقة ، تصقع[٥] صقع البعير » .

فكأنى أراك على عصاك هذه ، وقد انكفأ عليك العسكران ، يقولون : هذه عكرشة بنت الأطرش بن رواحة ، فإن كدت لتَقْتُلِين أهل الشام لولا قدر الله ، وكان أمر الله قدراً مقدوراً ، فما حملك على ذلك ؟ .

قالت : يا أمير المؤمنين يقول الله جل ذكره : (يأيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم) الآية ، وإن اللبيب إذا كره أمراً لا يحب إعادته، قال : صدقت ، فاذكرى حاجتك .

---

(١) مستظهرين : أى مستعينين .

(٢) دلف : مشى مشى المقيد ، تريد ضعيفا واهنا .

(٣) غلف جمع أغلف ، وقلب أغلف : غشى بغلاف فهو لا يعى .

(٤) تشير إلى بيعة العقبة الأولى والثانية حين بايع المسلمون الأولون من الانصار النبى صلى الله عليه وسلم بالعقبة على نصرته ، فهذه أيضا دفاع عن الإسلام ونصر له كبيعة العقبة .

(٥) الصقيع : رفع الصوت .

قالت : إنه كانت صدقاتنا تؤخذ من أغنيائنا فترد على فقرائنا ، وإنا قد فقدنا ذلك، فما يجبر لنا كسير، ولا ينعش لنا فقير ، فإن كان ذلك عن رأيك فمثلك تنبه من الغفلة وراجع التوبة ، وإن كان من غير رأيك فما مثلك من استعان بالخونة ولا استعمل الظلمة .

قال معاوية : يا هذه ، إنه ينوبنا من أمور رعيتنا أمور تنبثق [1] ، وبحور تنفهق [2] .

قالت : يا سبحان الله ! والله ما فرض الله لنا حقاً فجعل فيه ضرراً على غيرنا ، وهو علام الغيوب .

قال معاوية : يا أهل العراق نبهكم على بن أبى طالب فلم تطاقوا ، ثم أمر برد صدقاتهم لهم ، وإنصافهم [3] .

وذكرت الزرقاء بنت عدى بن قيس الهمدانية عند معاوية يوماً ، فقال لجلسائه أيكم يحفظ كلامها ؟ قال بعضهم : نحن نحفظه يا أمير المؤمنين . قال : فأشيروا على فى أمرها ، فأشار بعضهم بقتلها ، فقال : ليس بالرأى ، أيحسن بمثلى أن يقتل امرأة ! ! . . .

ثم كتب إلى عامله بالكوفة أن يوفدها إليه مع ثقة من ذوى محارمها ، وعدة من فرسان قومها ، وأن يمهد لها وطاء [4] ليناً ، ويسترها بستر خصيف [5] ، ويوسع

---

(١) انبثق : انفجر ، وانبثق السيل عليهم أقبل ولم يحتسبوه .

(٢) تنفهق : تتسع .

(٣) العقد الفريد ج ٢ ص ١٣١ ، صبح الأعشى ج ١ ص ٢٥٣ .

(٤) وطاء : فراشاً .

(٥) من خصف النعل يخصفها ، كضرب ، ظاهر بعضها على بعض وخرزها وهى نعل خصيف ، وكل ما ظوهر بعضه على بعض فقد خصف .

لها النفقة ، فأرسل إليها فأقرأها الكتاب ، فقالت : إن كان أمير المؤمنين جعل الخيار لى فإنى لا آتيه ، وإن كان حَتَّم فالطاعة أولى .

فحملها وأحسن جهازها ، على ما أمر به ، فلما دخلت على معاوية قال : مرحباً بك وأهلا ، قدمت خير مقدم قدمه وافد ، كيف حالك ؟ قالت : بخير يا أمير المؤمنين ، أدام الله لك النعمة . قال : كيف كنت فى مسيرك ؟ قالت : ربيبة بيت أو طفلا ممهداً . قال : بذلك أمرنا . . . أتدرين فيم بعثت لك ؟ قالت : وأنى لى بعلم مالا أعلم ؟! قال : ألست الراكبة الجمل الأحمر ، والواقفة بين الصفين بصِفِّين ، تحضين على القتال وتوقدين الحرب ؟ فما حملك على ذلك ؟ . .

قالت : يا أمير المؤمنين ، مات الرأس ، وبتر الذنب ، ولن يعود ما ذهب ، والدهر ذو غير[1] ، ومن تفكر أبصر ، والأمر يحدث بعد الأمر .

قال لها معاوية : أتحفظين كلامك يومئذ ؟ فقالت : لا والله لا أحفظه ، ولقد أنسيته . . قال : لكنى أحفظه ، لله أبوك حين تقولين :

« أيها الناس : ارعوا وارجعوا ، إنكم قد أصبحتم فى فتنة غشتكم جلابيب الظلم ، وجارت بكم عن قصد المحجة[2] ، فيا لها فتنة عمياء صماء بكماء ، لا تسمع لناعقها . ولا تنساق لقائدها . ولا يقطع الحديد إلا الحديد . ألا من استرشدنا أرشدناه ، ومن سألنا أخبرناه .

أيها الناس : إن الحق كان يطلب ضالته فأصابها . فصبراً يا معشر المهاجرين والأنصار على الغصص ، فكأن قد اندمل شعب الشتات ، والتأمت كلمة الحق ، ودمغ الحق الظالمة . فلا يجهلن أحد فيقول : كيف وأنى ؟ ! ليقضى الله أمراً كان

---

(١) أى ذو أحداث جمع غيره بالكسر ، أو مفرد وجمعه أغيار.

(٢) المحجة الطريق .

مفعولا . ألا وإن خضاب النساء الحناء ، وخضاب الرجال الدماء ، ولهذا اليوم ما بعده ،« والصبر خير فى الأمور عواقبا» .

إيهاً فى الحرب[1] قدماً غير نا كصين ولا متنا كسين .

ثم قال لها : والله يا زرقاء لقد شركت علياً فى كل دم سفكه .

قالت : أحسن الله بشارتك . وأدام سلامتك . فمثلك بشر بخير وسر جليسه .

قال : أو يسرك ذلك ؟ !

قالت : نعم . والله لقد سررت بالخير . فأنى لى بتصديق العقل . .

فضحك معاوية وقال : والله لوفاؤكم له بعد موته أعجب من حبكم له فى حياته . اذكرى حاجتك .

قالت : يا أمير المؤمنين . . آليت على نفسى ألا أسأل أميراً أعنت عليه أبداً، ومثلك أعطى من غير مسألة ، وجاد من غير طلبة .

قال : صدقت . . . وأمر لها وللذين جاءوا معها بجوائز وكساء[2] .

وأمثال هذا كثير تراه فى العقد الفريد ، وصبح الأعشى ، وبلاغات النساء ، ونهاية الأرب ، والدر المنثور .

وليس من سبيلنا أن ننقله فى هذا البحث . فلندعه إلى تصوير طور آخر من أطوار هذا الأدب الشيعى .

---

(١) إيهاً : كلة زجر بمعنى حسبك ، وإيه بالكسر منونة وغير منونة كلة استزادة واستنطاق ، والقدم : المعنى أمام ، وهو يمشى القدم إذا مضى فى الحرب ؟ ورجل قدم : شجاع ، وفى الحديث «طوبى لعبد فقير قدم فى سبيل الله» والقدم: الإقدام ، وأقدم على قرنه إقداما وقدما : تقدم عليه بجراءة صدر .

(٢) العقد الفريد ج ١ ص ٣ ، وصبح الأعشى ج ١ ص ٢٥٢ .

الطور الثانى — قتل الحسين :

ثم كانت حادثة « كربلاء » — تلك الحادثة المروعة المشئومة — فاتحة طور جديد من أطوار هذا الأدب الشيعى . . . كما كانت ذات أثر عميق فى النفوس الإسلامية ، والعقائد الشيعية ، والحياة السياسية .

والواقع أن قتل الحسين — رضى الله عنه — على هذه الصورة الغادرة ، والحسين هو من هو ديناً ومكانة بين المسلمين ، لا بد أن يلهب المشاعر ويرهف الأحاسيس، ويطلق الألسن ، ويترك فى النفس الإسلامية أثراً حزيناً دامياً، ويجمع القلوب حول هذا البيت المنكوب .

وأىُّ رَزِيةٍ عدلَتْ حُسَيناً غَدَاةَ تَبينهُ كَفَّا سِنَانِ[1]

نعم ، ولا بد أن يكبر الناس هذا التنكيل الجائر ، والتمثيل الشائن ، بعترة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وسلالته ، وفلذات كبده ، وقرة عينه ، ويروا فيه إذاية له ، وكُفراناً بحقه ، وتعرضاً لغضبه .

ماذا تقولونَ إذْ قالَ النَّبىُّ لَكُمْ ماذا فَعلتمْ ، وأنتم آخرُ الأمم ؟

بعِترَتى ، وبأهلى بعدَ مُفْتَقَدِى ،

نصفٌ أسارَى ، ونصفٌ ضُرِّجُوا بِدَم ؟!

ما كان هذا جزائى إذ نصحْتُ لكُمْ

أنْ تخلفونى بشَرٍّ فى ذَوِى رَحِمِى[2]

---

(١) سنان بن أنس النخعى : قاتل الحسين ، ومبين رأسه « مروج الذهب ج ٢ ص ٧٢ » .

(٢) مروج الذهب ج ٢ ص ٧٥ . والطبرى ج ٦ ص ٢٢١ ، وابن الأثير ج ٤ =

فبهذا وأمثاله قامت النائحات فى العواصم الإسلامية ، يندبن الحسين ويبكين مصرعه . . .

وبهذا وأمثاله انطلقت الألسن الشاعرة ترثى ابن بنت رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فتصور أسف النبي — صلى الله عليه وسلم — فى قبره ، وحزنه على سبطه ، واحتجاجه على أمته ، وتلقى على بنى حرب سوء فعلهم ، وفتح ضلالهم ، وجور سلطانهم . وتسجل فى صراحة وعنف مروقهم عن الدين ، وانتهاكهم لحرم الله .

يقول أبو دهبل الجمحى[1] :

نبيتُ سُكارَى مِنْ أميَّة نُوَّماً وبالطَّفِّ قَتلى ما ينامَ حَمِيمُها

وما أفسدَ الإسلامَ إلا عِصابةٌ تَأَمَّرَ نوكاهَا ، ودام نعيمها

فصارت قناة الدين فى كفِّ ظالم إذا اعْوَجَّ منها جانبٌ لا يقيمها

ويقول أبو الأسود الدؤلى :

أقولُ وذاكَ من جَزَعٍ وَوَجد : أزالَ الله مُلْكَ بنى زياد

وأبعدهُمْ بما غدرُوا وخانوا كما بعدَتْ ثمودُ وقومُ عاد

ولا رجعت ركائبهم إليهم إلى يوم القيامة والتناد[2]

= ص ٣٩ والشعر لبنت عقيل بن أبى طالب . خرجت تندب به فى نساء من قومها حواسر حين ورد عليهم قتل الحسين مع سبعة عشر من آله (انظر اسماءهم ومصارعهم فى مقاتل الطالبيين ص ٥٤) .

(١) وهب بن زمعة : شاعر جميل عفيف . ترجم له صاحب الأغانى ج ٧ ص ١٣٧ . والطف . أرض من ضاحية الكوفة بها قتل الحسين بن على (معجم البلدان ج ٦ ص ٥١) .

(٢) تاريخ ابن عساكر ج ٧ ص ٢١٦ .

وهال الناس هذا الحادث الجلل — حتى الأمويين أنفسهم — فأقض المضاجع ، وأذهل العقول ، وارتسم فى الأذهان ، وصار شغل الجماهير وحديث النوادى ، وانهالت عليهم التخيلات ، فهذا هاتف يهتف بالمدينة :

أيها القاتلونَ جَهْلاً حُسيناً ۞ أبشرُوا بالعذابِ والتنكيلِ
كلُّ أهل السماء يدعو عليكم ۞ من نبى وَمَلْأَكٍ وقبيل
قد لُعِنتم على لسان ابن داو ۞ دَ ، وموسى ، وصاحب الإنجيل[١]

ومكث الناس شهرين أو ثلاثة كأنما تتلطخ الحوائط بالدماء ساعة تطلع الشمس حتى ترتفع[٢] .

وأقبل « خولى بن يزيد الأصبحى » برأس الحسين — رضى الله عنه — إلى « ابن زياد » ، فأراد القصر ، فوجده مغلقاً ، فاحتمله إلى منزله ، ووضعه تحت إجانة ، ثم أوى إلى فراشه ، فقالت له زوجه النوّار : ما الخبر ، ما عندك ؟ فقال : جئتك بغنى الدهر . . . هذا رأس الحسين معك فى الدار . قالت : ويلك ! جاء الناس بالذهب والفضة ، وجئت برأس ابن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ؟ ! والله لا يجمع رأسى ورأسك بيت أبداً ، قال : ثم قمت من فراشى فخرجت إلى الدار . فدعا الأسدية — زوجه الأخرى — فأدخلها إليه وجلست أنظر . . . فوالله ما زلت أنظر إلى نور يسطع مثل العمود من السماء إلى الإجانة ورأيت طيراً بيضاً ترفرف حولها[٣] .

---

(١) طبرى ج ٦ ص ٢٦٩ ، وابن الأثير ج ٤ ص ٤٠ .
(٢) ابن الأثير ج ٤ ص ٤٠ ، وطبرى ج ٦ ص ٢٢٣ .
(٣) طبرى ج ٦ ص ٢٦١ .

ويقول ابن عباس رضى الله عنهما : « رأيت النبى — صلى الله عليه وسلم — الليلة التى قتل فيها الحسين ، وبيده قارورة ، وهو يجمع فيها دماً فقلت : يا رسول الله ، ما هذا ؟ قال : دماء الحسين وأصحابه ، أرفعها إلى الله تعالى »[١] .

وأمثال هـذا كثير . . . تراه فى الطبرى ، وابن الأثير ، والأغانى ، والعقد الفريد ، وصبح الأعشى . . .

والذين يُغمرون بموجات من الحزن والعواطف تطمئن نفوسهم إلى صدق هذه التخيلات .

* * *

أثر قتل الحسين فى الأدب :

استغل الشيعة هذه الحادثة ، فأخذوا يحيكون حولهـا شتى الأقاصيص ويروون فيهـا الأحاديث ، ويصفونها بألوان شعرية داميـة يصدرها قلب مكلوم ثائر ، فـكان أثر ذلك كله فى أدب هذا الطور ، فهو نتيجة هذا العواطف المستعرة ، والحقد الدفين . . . هو ثائر حزين ، يدعو إلى الثورة العارمة فى عنف وصراحة ، ويسجل هذه الأحزان العلوية فى أسف ولوعة ، وينادى بثارات الحسين .

يقول سليمان بن قتة العدوى :

مَرَرتُ على أبْيَاتِ آلِ محمـــد   فلم أرَها أمثالَهـا يومَ حُلّتِ

---

(١) العقد الفريد ج ٣ ص ١٣٩ . وتاريخ بغداد ج ١ ص ١٤٢ ، وابن الأثير ج ٤ ص ٤١ .

فلا يُبعِدُ اللهُ الدِّيارَ وَأَهْلَها ... وإن أصْبَحَتْ مِنْهُمْ برَغمي تخلَّتِ

وإنَّ قتيلَ الطفِّ مِنْ آلِ هاشم ... أذَلَّ رِقابَ المسلمينَ فَذَلَّتِ

وكانوا غِياثًا ، ثم صاروا رَزِيَّةً ... ألا عظمت تلك الرَّزايا وَجَلَّتِ

وعند « غنى » قطرةٌ من دمائنا ... سنجزيهمُ يوماً بها حيثُ حَلت

إذا افتقرَتْ « قيسٌ » جَبَرْنَا فقيرَها

وتقتلنا « قيسٌ » إذا النعلُ زَلَّتِ (١)

وهذا عبد الله بن الأحمر — أحد التوابين — يرثى الحسين ، فيدعو إلى الثورة ويحض على القتال ، فيقول :

صحَوْتُ ، وقد صَحَّ الصِّبا وَالعَوَادِيا

وقلتُ لأصحابى : أجيبوا المُنَادِيا

وقولوا لهُ — إذ قامَ يَدْعُو إلى الهُدَى —

وقَبْلَ الدُّعا : لَبَّيْكَ ، لَبَّيكَ داعِيا

ألاَ وَأنْعِ خيرَ النَّاسَ جَدًّا وَوَالداً

« حُسَيْناً » لأهل الدينِ ، إن كُنْتَ نَاعِيا

---

(١) الكامل جـ ٣ ص ٣٤ ، ومروج الذهب جـ ٢ ص ٧٣ ومعجم البلدان جـ ٦ ص ٥٢ وزهر الآداب جـ ١ ص ١٠٣ وحماسة أبى تمام .

وغنى : قبيلة عبدالله بن عقبة الغنوى قاتل أبى بكر بن الحسين .

وقيس : قبيلة شمر بن ذى الجوشن ، الذى حرض « ابن زياد » وحبب إليه الخلاص من « الحسين » رضى الله عنه ، ثم جاء إلى المعركة وهو يقول : اقتلوه ، ثكلتكم أمهاتكم .

لبيكَ « حُسَيناً » مُرْمِلٌ ذو خصاصةٍ
عَدِيمٌ ، وأَمّامٌ تَشَكّى المواليا

فأضحَى « حُسَينٌ » للرِّماح دَرِيئةً
وغُودِرَ مسْلوباً لَدَى الطفِّ ثاويا

فياليتنى — إذ ذاكَ — كُنتُ شهدتُهُ
فضارَبْتُ عنهُ الشانئينَ الأعاديا

سَقَى اللهُ قبراً ضُمِّنَ المجدَ والتقى
بغَرْبِيةِ « الطَّفِّ » الغمامَ الغوَادِيا

فيا أُمَّةً تاهَتْ ، وضلّتْ سفاهَةً ،
أَنيبُوا . . . فأَرْضُوا الوَاحدَ المتعاليا

وكذلك كان الأدب الشيعى فى رثائه : صادق العاطفة ، بدوى الخيال ، يبكى فى المرثى وفاه وصبره ، وغناءه فى الملمات ، ويصور عظم الفجيعة .

فشيخ المعرة حين يقول : « ما سمعت فى أمر الحسين بن على — رضى الله عنه — شيئا يجب أن يحفظ »[٢] كان قاسيا فى حكمه على القوم ، بعد أن أبلوا فى رثائه ومدحه أجمل البلاء وأحسنه ، وصوروا مصرعه تصوير الشاعر الفنان . . .

ولست أدرى ماذا يريد أبو العلاء من شعراء هذا العصر ؟ أفيريدهم أن يسلكوا سبيل عصره ، فيزعموا أن الأرض مادت بثقلها ، وانقضت السماء بنجومها ، واضطرب نظام الكون ، فإذا الليل النهار ، والنهار الليل .

---

(١) مروج الذهب ج ٢ ص ٣٨ .
(٢) معجم الأدباء ج ١ ص ١٧٢ .

وأعتقد أن هذا شطط فى التكليف ، وغلو فى النقد ، وتحويل للطبائع . . . فما كان – ولن يكون – أن يسلك شعراء القرن الأول وخطباؤه هذا السبيل من سبل الرثاء ، وهم بعد لا يزالون على فطرة البداوة ، وطبائع الجاهلية ، يؤثرون صدق اللهجة ، وإبراز الحقائق . اللهم إن رأى شيخ المعرة أنه مهما قيل فى الحسين من رثاء ، فلن يبلغ مداه فى تصوير الفاجعة وإبراز عظم المصيبة على الإسلام والمسلمين ؛ لمكانة الحسين من رسول الله – صلى الله عليه وسلم .

وأحب أن أسمعك هذه القطعة فهى من الشعر العاطفى الرقيق ، وسوف ترى كذلك أنها صورة صادقة للخيال البدوى الصريح ؛ تقول الرباب بنت امرىء القيس بن عدى الكلبى – زوج الحسين – رضى الله عنه :

إنَّ الذى كان نوراً يُسْتَضَاء به ... بكَرْبلاء قتيلٌ غيرُ مدفون
سبط النبى جزاك الله صالحة ... عنا ، وجنبت خسران الموازين
قد كنت لى جَبلاً صعباً ألوذ به ... وكنت تَصْحَبنا بالرَّحم والدين
مَن لليتامى ، ومَن للسائلين ، ومَن ... يُغنى ، ويَأوى إليه كلُّ مسكين ؟
والله لا أبتغى صهراً بصهركم ... حتى أُغيب بين الرمس والطين[1]

ويقول خالد بن غفران وقد أتى برأس الحسين إلى دمشق :

جاءوا برأسك يا ابن بنت محمد ... مُتَزمِّلاً بدمائه تزميـــلا
وكأنما بك يابن بنت محمد ... قتلوا جهاراً عامدين رسولا

---

(١) أغانى ج ١٤ ص ١٦٣ ، وابن الأثير ج ٤ ص ٢٩ . وقد كانت الرباب من خيار النساء وأفضلهن وأوفاهن – خطبت بعد قتل الحسين – رضى الله عنه – فقالت ما كنت لأتخذ حما بعد رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وأقامت على حدادها حتى ماتت بعد عام من قتله .

قتلوك عطشـاناً ولم يترقبوا   فى قتلك التأويل والتنزيلا
ويكبرون بأن قتلت ، وإنما   قتلوا بك التـكبير والتهليلا[1]

وكذلك كان موقف الخطابة الشيعية فى هذه الحادثة ، يصدر عن عاطفة صادقة ، وقلب مكلوم .

اجتمع شيعة الـكوفة تفـكر فى قتل الحسين، وتدبر الأمر للأخذ بثأره، فقام سليمان بن صرد الخزاعى ـ أمير التوابين ـ فحمد الله ، وأثنى عليه . . ثم قال : أما بعد ، فإنى والله لخائف ألا يكون أخرنا لهذا الدهر ـ الذى نـكدت فيه المعيشة ، وعظمت فيه الرزية ، وشمل فيه الجور أولى الفضل من هذه الشيعة ـ لما هو خير ، إنا كنا نمد أعناقنا إلى قدوم آل نبينا ونمنيهم النصر ، ونحثهم على القدوم ، فلما قدموا ونينا وعجزنا ، وأوهنا ، وتربصنا ، وانتظرنا ما يكون ، حتى قتل فينا ولدينا ولد نبينا وسلالته ، وعصارته وبضعة من لحمه ودمه ، إذ جعل يستصرخ ويسأل النصف فلا يعطاه . . اتخذه الفاسقون غرضاً للنبل ودريئة للرماح ، حتى أقصدوه ، وعدوا عليه فسلبوه ، ألا انهضوا فقد سخط ربكم ، ولا ترجعوا إلى الحلائل والأبناء حتى يرضى الله . . والله ماأظنه راضياً دون أن تناجزوا من قتله ، أو تبيدوا . . ألا لاتهابوا الموت ، فوالله ماهابه امرؤ قط إلا ذل ، كونوا كالأولى من بنى إسرائيل ، إذ قال لهم نبيهم : (إنـكم ظَلَمْتُمْ أنفُسكم باتِّخاذِ كم العِجْل ، فتُوبُوا إلى بَارِئـكم ، فاقْتُلُوا أنفسَـكم ، ذلـكُمْ خَيْرٌ لـكم عندَ بَارِئـكم) فما فعل القوم ؟ . . جثوا على الركب والله ، ومدوا الأعناق ، ورضوا بالقضاء حين علموا أنه لا ينجيهم من عظيم الذنب إلا الصبر على القتل ، فـكيف بكم لو قد دعيتم إلى مثل ما دعى القوم إليـه ؟ . . . اشحذوا السيوف ، وركبوا

(١) ابن عساكر جـ ٥ ص ٨٥ .

الأسنة : (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ، ومن رباط الخيل) حتى تدعوا ، وتستنفروا[١] » :

وحدث رجل من مزينة قال : ما رأيت من هذه الأمة أحداً كان أبلغ من عبيد الله المرى فى منطق ولا عظة ، وكان من دعاة أهل المصر ، زمان سليمان بن صرد ، وكان إذا اجتمعت عليه جماعة من الناس فوعظهم ، بدأ بحمد الله ، والثناء عليه ، والصلاة والسلام على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثم يقول : أما بعد ، فإن الله اصطفى محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ على خلقه بنبوته ، وخصه بالفضل كله ، وأعزكم باتباعه ، وأكرمكم بالإيمان فحقن به دماءكم المسفوكة، وآمن به سبلكم المخوفة ، (وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها ، كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون) فهل خلق ربكم فى الأولين والآخرين أعظم حقاً على هذه الأمة من نبيها ؟ وهل ذرية أحد من النبيين والمرسلين أو غيرهم أعظم حقاً على هذه الأمة من ذرية رسولها ؟ . . . لا والله ما كان ولن يكون ، لله أنتم ! ! . . ألم تروا ويبلغكم ما اجترم إلى ابن بنت نبيكم ؟ . أما رأيتم إلى انتهاك القوم حرمته ، واستضعافهم وحدته ، وترميلهم إياه بالدم ، وتجرارهموه على الأرض ، ولم يراقبوا فيه ربهم ، ولا قرابته من الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ اتخذوه للنبل غرضاً ، وغادروه للضباع جزراً . . فلله عيناً من رأى مثله ! ولله حسين بن على ! . . ماذا غادروا به !؟ . ذا صدق وصبر ، وذا أمانة ونجدة وحزم ، ابن أول المسلمين إسلاماً ، وابن بنت رسول رب العالمين ، قلت حماته ، وكثرت عداته حوله ، فقتله عدوه ، وخذله وليه ، فويل للقاتل ، وملامة للخاذل ، إن الله لم يجعل لقاتله حجة ، ولا لخاذله معذرة ، إلا أن يناصح لله فى التوبة ، فيجاهد القاتلين ، وينابذ القاسطين ؛ فعسى الله عند ذلك أن يقبل التوبة ويقيل العثرة ،

---

(١) ابن الأثير ج ٤ ص ٦٨ ، وطبرى ج ٧ ص ٤٨ .

إنا ندعوكم إلى كتاب الله ، وسنة نبيه ، والطلب بدماء أهل بيته ، وإلى جهاد المحلين والمارقين ، فإن قتلنا فما عند الله خير للأبرار ، وإن ظهرنا رددنا هذا الأمر إلى أهل بيت نبينا(١) .

وعبيد الله قد وضع بهذه الكلمة كثيراً من عناصر الرثاء الشيعى فى هذا الدور ، حتى لتستطيع أن تعده أستاذ الكميت فى أدب كربلاء ، وتصوير هذه الفاجعة . . . وأنا أسمعك شيئاً من أدب الكميت فى هذه الحادثة حيث يقول :

ومن عَجَب لم أقضه أن خيلهم ... لأجوافها تحت العَجَاجة أَزْمَل(٢)
هَمَاهِمُ بالمستلئمِينَ عوابس ... كحِدْآن يوم الدّجن تعلو وتسفل(٣)
يُحَلِّئنَ عن ماء الفرات وظِله ... حُسينا ولم يُشْهر عليهن منصل(٤)
كأن حسينا والبَهَاليلُ حوله ... لأسيافهم ما يَخْتَلِي المُتَبَقِّل(٥)
يَخضن به من آل أحمد فى الوغى ... دماً طُل منهم كالبَهِيم المحَجَّل(٦)
وغاب نبي الله عنهم وفقده ... على الناس رُزءاً هُناك مُجَلل
فلم أر مخذولا أجل مصيبةً ... وأوجب منه نصرة حين يخذل

---

(١) طبرى ج ٧ ص ٥٢ وعلى هذا المنحى كانت كلمات أم كلثوم بنت على فى الكوفة وأختها زينب أمام يزيد بن معاوية (بلاغات النساء) .

(٢) العجاجة : غبار الحرب ، والازمل : كل صوت مختلط .

(٣) الهمهمة : ترديد الصوت فى الصدر ، وأصله صوت البقر . ثم استعمل فى الفيل والاسد والرعد ، وأشباه ذلك ، والحدآن : جمع حدأة ، والدجن : الغيم .

(٤) حلأه عن الماء : طرده ومنعه . والمنصل السيف .

(٥) البهاليل : جمع بهلول . وهو السيد الجامع لخصال الخير ، ويختلى : يقطع الخلا (الحشيش) والمتبقل : طالب البقل .

(٦) البهيم : الاسود . والخالص الذى لم يشبه شىء . والتحجيل : بياض فى قوائم الفرس كلها والفرس محجلة .

يصيب به الرّامون عن قوس غيرهم　　فيا آخرا أسْدى له الغَيّ أول(١)
تهافت ذُبّان المطامع حوله　　فريقان شتى : ذو سلاح و أعزل
إذا شرَعت فيه الأسنة كبّرت　　غواتُهم من كل أوبٍ وهَلّلوا
فما ظفر المجرى إليهم برأسه　　ولا عذل الباكى عليه المُوَأوِل
فلم أر مَوْتورين أهل بصيرةٍ　　وحقٌّ لهم أيدٍ صحاحٌ وأرجل
كشيعته ، والحرب قد ثفِيَت لهم　　أمامَهم قدر تجيش ومِرْجل(٢)
فريقان : هذا راكبٌ فى عداوة　　وباكٍ على خِذلانه الحق معْوِل
فما نفع المستأخرين نَكِيصهم　　ولا ضَرَّ أهل السابقات التعجُّل

أو يقول :

ومن أكبر الأحداث ـ كانت مصيبة　　علينا ـ قتيل الأدْعِياء المُلَحَّبُ(٣)
قتيل بجنب الطَفّ من آل هاشم　　فيالَكَ لَحْمًا ليس عنه مُذَبِّب
ومُنْعفر الخدّين من آل هاشم　　ألا حَبّذَا ذاك الجبين المترّب
قتيـــل كأن الوُلّه العُفْر حوله　　يطفن به شمّ العرانين ربربُ

المناحى الأدبية فى هذا الطور :

ومهما يكن من شىء فقد صبغت حادثة الحسين ـ ولا تزال تصبغ ـ أدب

---

(١) الرامون : القائلون ، وهو يخاطب هشام بن عبد الملك ، وأسدى له الغى يزيد بن معاوية .

(٢) ثفيت : أقيم لها الاثافى (حجارة يوضع عليها القدر) والجملة كناية عن قيام الحرب .

(٣) الملحب : المقطع بالسيف ، والدعى : عبيد الله بن زياد بن سمية ، نسب إلى أمه إذ لم يعرف أباه حتى ألحقه معاوية بن أبى سفيان بأبيه .

الشيعة بالحزن العميق ، والرثاء النائح ، والمدح المبتهل ، والعصبية الحاقدة ، وأمدته بمدد زاخر من المعانى والاخيلة والعواطف ، فغزرت مادته ، واتسع مجال القول فيه ، وغدونا أمام أدب تبعثه عاطفتان بارزتان ـ عاطفة الحزن وعاطفة الغضب ـ تصدره الأولى حزيناً باكياً ، وتبعثه الثانية قوياً ثائراً ، والعاطفة أقوى دعائم الادب ، فإذا أثيرت وهاجت وكان بجانبها لسان طلق ، وبيان ناصع ، ونفس شاعرة متوثبة ، فهناك الادب الحى ، والقول الساحر . وكذلك كان الشيعة ... تجمعت لهم كل عناصر الادب ، لسان ، وعاطفة ، وفواجع من شأنها أن تستنزف الدم وتذيب القلب ، وتنطق الاخرس ؛ فقالوا وبكوا : قالوا فى الحق وطلبه ، والإرث وغصبه ، وبكوا على حق ضاع ، ودم أريق ، وحرمات انتهكت ، وبيوت دمرت ، وجثث كريمة على الله والناس مثل بها أشنع تمثيل ، وافتنان أموى أثيم فى اختلاج الطالبيين وشيعتهم . . فقتل وصلب ، وإحراق وتذرية . . . وهم يقابلون ذلك بالشجاعة والصبر والاحتساب ، حتى أسفرت حول وجوههم طفاوة من من التنزيه والتقديس ، أشرفت بهم على مقام العبادة ، ثم ظهرت فى صور من العقائد ، فقالوا بالوصاية والرجعة وإرث الخلافة عن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وجعلوا الخلافة من أصول الدين ، وطعنوا فى إمامة الخلفاء من غير هذا البيت ... فكانت القصائد الباكية ، والخطب الرائعة ، والاقوال الدامية ، صدى لهذه الدماء المسفوحة ، والجثث المطروحة ، تبعث ذكراها فى كل قلب حزناً ، فيبعث الحزن أدباً ، يصور الآلام ، ويعلن الفضائل ، ويستميل القلوب ، ويسجل العقائد ، ويشرح القضية الشيعية ، ويحتج لها فى صراحة وعنف ، فيتناولها من أطرافها ، مفتناً فى كل ذلك ، فمفاضلة جريئة ، ومعارضة شديدة ، ومناقشة فقهية ، ودعاية حزبية .

فمن المفاضله والمدح قول أيمن بن خريم بن فاتك الاسدى :

نهارُكم مكابَدَةٌ وصوم ... وليلكم صلاة واقْتِرَاء

بليتم بالقران وبالتزكى ... فأسرع فيكمُ ذاك البلاء

بكى نجد غداة غد عليكم ... ومكة والمدينة والجواء

وحُقَّ لكل أرض فارقوها ... عليهم ـ لا أبا لكم ـ البكاء

أأجعكم وأقواماً سواء ... وبينكم وبينهم الهواء

وهم أرض لأرجلكم وأنتم ... لأرؤسهم وأعينهم سماء ؟[١]

وأمر هشام بن عبد الملك عامله على المدينة أن يأخذ الناس بسب أمير المؤمنين «على بن أبى طالب» و «الحسين» ، فيقول كثير بن كثير بن عبد المطلب من كعب بن لؤى بن غالب :

لعنَ اللهُ من يَسُبُّ عَليًّا ... وَحُسَيْناً من سُوقة وإمام

أَيسُبُّ المطيَّبين جُدُوداً ... والكريم الأخوال والأعمام ؟

طِبْتَ نفساً وطاب بيتك بيتاً ... أهل بيت النبى والإسلام

رَحْمَةُ الله والسلامُ عليكم ... كلما قام قائم بسلام

يَأْمنُ الطيرُ والظباء ولا يَأْ ... منُ رهط النبى عند المقام ؟[٢]

ويحتج الكميت لنظرية الوراثة ، فيقول :

يقولون : لم يورث ، ولولا تراثه ... إذا شركت فيه بكيل وأرحب

وعَكٌّ ، ولخم ، والسَّكُون ، وحمير ... وكِندة ، والحيَّان : بكر وتغلب

---

(١) ديوان المعانى ج ١ ص ٢٦ ، وإعجام الاعلام ص ٦٩ ، والاغانى ج ٢١ ص ٦ ، والجواء : الواسع ، وأيمن بن خريم ينتهى إلى مضر : وهو شاعر أموى شيعى ، أبوه خريم صحابى اعتزل صفين والجمل .

(٢) هكذا ينسبها الميدانى فى مجمع الامثال ج ١ ص ٣٨٣ . وينسبها الجاحظ إلى عبد الله بن كثير السهمى . البيان ج ٣ ص ٣٠٣ .

ولا نتَشَلت عضوين منها يُحَابِر   وكان لعبد القيس عضو مُؤَرَّب[١]
ولا نتقلَتْ من خِنْدف فى سواهم   ولاقتَدَحت قيس بها ثم أثقبوا[٢]
ولا كانت الأنصار فيها أدلة   ولا غيَّبا عنها : إذا الناس غُيَّبُ
هم شهدوا بدراً ، وخيبر بعدها   ويوم حنين ، والدماء تَصَبَّبُ
وهم رأموها غير ظئر ، وأشبلوا   عليها بأطراف القنا ، وتحدَّبوا
فإن هى لم تصلح لحى سواهمُ   فإن ذوى القُرْبى أحقُّ وأقرب[٣]

وقد رأينا فى شرحنا للعقائد ، وسوف نرى فى دراستنا لأدباء البيان الشيعى إلى أى حد استطاع هؤلاء الأدباء أن يحتجوا لقضيتهم فى صراحة وقوة .

أدب الشيعة فى صدر الدولة العباسية :

على أننا إذا وصلنا إلى العصر العباسى رأينا الأدب الشيعى يستبد به غرض واحد ، هو الخلاف المذهبى ، وقد كان ذلك طبيعياً أمام دولة جديدة ، أحدث قيامها قضية جديدة .

فنحن نذكر أن جماع الحجج الشيعية : الوراثة ، والنص ، وأهلية العلويين للخلافة ، وقد كان ذلك كله فى جانبهم أيام الأمويين ، أما وقد انتقل الملك إلى بيت هاشمى فقد أصبح العلويون أمام حجج أخرى جديدة : أيهما أحق بسلطان الرسول — صلى الله عليه وسلم — وإرثه ؟ وأيهما الذى

---

(١) مؤرب : موفر كامل .

(٢) قدح بالزند واقتدح : أراد الإيراء به ، وأثقب النار أوقدها .

(٣) رأمت الناقة ولدها : عطفت عليه ولزمته ، والظئر : العاطفة على غير ولدها ، وأشبل عليه . عطف وأعان ، يقول : إن هؤلاء الأنصار قبلوا الدعوة وناضلوا عنها . وقد نظم الكميت القبائل العربية كما ترى .

نص عليه الرسول — صلى الله عليه وسلم — وأدلى له بالأمر بعده : أعلىّ أم العباس ؟ ؟

هذا هو الميدان الجديد الذى تسابق فيه الأدب الحزبى فى هذه الفترة : فالنفس الزكية — محمد بن عبد الله بن حسن بن حسن بن على بن أبى طالب — يقول للمنصور : « . . . فإن الحق حقنا ، وإنما ادعيتم هذا الأمر بنا ، وخرجتم له بشيعتنا ، وحظيتم بفضلنا ، وإن أبانا علياً كان الوصىّ ، وكان الإمام ، فكيف ورثتم ولايته وولده أحياء ؟ .

« ثم قد علمت انه لم يطلب هذا الأمر أحد له مثل نسبنا وشرفنا ، وحالنا وشرف آبائنا ، لسنا من أبناء اللعناء ، ولا الطرداء ، ولا الطلقاء ، وليس يمت أحد من بنى هاشم بمثل الذى نمتُّ به من القرابة والسابقة والفضل » .

ثم أخذ يوازن له بين بيت العباس وبيت أبى طالب — جاهلية وإسلاما — فيهدم المنصور هذه الحجج العلوية ، ويريهم أن العباسيين أحق بهذا الأمر منهم ؛ « لأن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — لحق بالرفيق الأعلى ولا عاصب له غير العباس ، فكان وارثه من عمومته ، واحتُضِرَ رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فأمر بالصلاة غير علىّ ، ثم أخذ الناس رجلا بعد رجل فلم يأخذوه ، وكان فى الستة فتركوه كلهم دفعاً له عنها ، وقتل عثمان وهو له متهم ، وقاتله طلحة والزبير ، وأبى سعد بيعته ، وأغلق دونه بابه . ثم بايع معاوية بعده . حتى إذا آلت إليه حكّم فاجتمع الحكمان على خلعه ؛ ثم كان الحسن فباعها لمعاوية بخرق ودَرَاهم ، فإن كان لكم فيها شىء فقد بعتموه وأخذتم ثمنه . . .

ولستم أبناء الرسول لأن الله أبى ذلك حيث يقول : (ما كان محمد أبا أحد

من رجالكم ، ولكن رسول الله وخاتم النبيين) . . . ولكنكم بنو بنته ، وإنها لقرابة قريبة ، ولكنها لا تحوز الميراث ، ولا يجوز أن تؤم ، فكيف تورث الإمامة من قبلها ؟ ! . . فلم يبق شرف ولا فضل إلا والعباس وارثه . . . فالخلافة فى ولده ، وميراث النبى له » .

وهكذا استطاع هذان الرجلان — النفس الزكية والمنصور — أن يضع كل منهما أسس الحجاج لأتباعه ، فانطلق « مروان بن أبى حفصة » يقول فى مدحه للرشيد :

« علىٌّ » أبوكم كانَ أفضلَ منكمُ
أباه ذوو الشورى ، وكانوا ذوى فضل
وَساءَ رسولَ اللهِ إذ ساء بنته بخطبَتِه بنت اللعين أبى جهل[1]

---

(١) فاطمة الزهراء البتول بنت النبى صلى الله عليه وسلم من خديجة بنت خويلد رضى الله عنها ، ولدت سنة إحدى وأربعين من مولد الرسول صلى الله عليه وسلم ، وتزوجها على رضى الله عنه بعد وقعة « بدر » فى السنة الثانية من الهجرة ، وولدت له « حسناً » و « حسيناً » و « محسناً » و « زينب » و « أم كلثوم » و «رقية» فماتت رقية ولم تبلغ ، ومات محسن صغيراً . ولم يتزوج على رضى الله عنه عليها حتى ماتت ، ولم يكن للنبى صلى الله عليه وسلم عصب إلا منها ، وتوفيت لثلاث خلون من رمضان سنة إحدى عشرة من الهجرة بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم بستة أشهر ، وهى ابنة تسع وعشرين سنة .

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحبها لأنها التى بقيت له من ولده زمات فى حياتها ولهذا كان يقول : « فاطمة سيدة نساء أهل الجنة » .

ولما خطب « على » جويرية بنت أبى جهل على فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم قال النبى : « فاطمة بضعة منى فمن أغضبها أغضبنى » ، وفى رواية «ويؤذينى ما آذاها» ... وهذا من خصائصه صلى الله عليه وسلم تحريم إيذائه بكل حال وعلى أى وجه ، وإن تولد الإيذاء مما أصله مباح ، القسطلانى شرح البخارى ج ٦ ص ١٢١ ، وبذلك يتبين لك ما تزيده العباسيون على « على » رضى الله عنه .

فذمَّ رســـولُ اللهِ صِهرَ أبيكُمُ
عَلى مِنبَرٍ ، بالنطق ذى الصَّادِحِ الفصل
وحكَّمَ فِيهـــاَ حاكمَينِ أبوكم
هما خلعاهُ خلعَ ذى النَّعْــلِ للنَّعْلِ
وقد باعَها من بعده الحسن ابنه   فقد أبطلت دعوا كم رثة الحبل
وخليْتُموها وهى فى غــــير أهلها
وطالبْتُموها حيثُ صارَتْ إلى أهل[1]

بعد أن قال للمهدى :

يا ابن الذى ورثَ النبيَّ محمداً   دُون الأقَارِبِ من ذَوِى الأرحام
الوَحْىُ بين بنى البناتِ وبينكم   قطعَ الخصامَ فلاتَ حين خِصَام
ما للنساء مع الرجال فريضـــة   نزلت بذلك ســـورةُ الأنعام[2]

---

(١) ابن أبى الحديد ج ٥ ص ٥٣ . ومروان بن أبى حفصة : شاعر السياسة العباسية : بلغت جائزته مائة ألف درهم على كل قصيدة يقولها فيهم : ترجم له فى الاغانى ج ٢ ص ٣٦ وابن خلكان ج ٢ ص ٨٩ والشعر والشعراء ص ٤٨١ وخزانة الأدب ج ١ ص ٤٤٧ ، والفهرست ص ١٦٠ .

(٢) لعله يشير إلى قول الله تعالى فى سورة الأنعام «وإذا قال إبراهيم لأبيه آزر» حيث أطلق القرآن على العم أبا على رأى من يرى ذلك وهو إطلاق شائع — وقد أخذ مروان أبياته هذه من قول مولى تمام بن عباس بن عبد المطلب يخاطب عبد الله ابن رافع — مولى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وقد قال للحسن أنا مولاك — فقال تمام .

جحدت بنى العباس حق أبيهم   فما كنت فى الدعوى كريم العواقب
متى كان أبناء البنات كوارث   يجوز ويدعى والدا فى المناسب

انظر الكامل والشعر والشعراء .

خـــلوا الطريق لمعشر عاداتهم حطْمُ المناكبِ كل يوْم زحام

إرْضَوْا بما قسمَ الإلهُ لكُم به وَدَعَوْا وراثةَ كل أصيد حام

أنى يكُونُ — وليس ذاكَ بكائن —

لبنى البنـــاتِ ورَاثَةُ الأعمـــام ؟ ! !

ألغى سِهامهمُ الكتابُ فحاولوا أن يَشرعوا فيها بغير سهام

ظفرَتْ بَنُـــو ساقِى الحَجيج بحقهم ،

وغُرِرْتمْ بتـــوَهُّم الأحـــــلاَم

فيجيبه الشاعر العلوى « جعفر بن عفان الطائى » بقوله :

لِمَ لاَ يكُونُ — وإن ذاكَ لكائنٌ —

لبنى البنـــات وراثةُ الأعمـــام ؟ ؟

للبنتِ نصف كاملٌ من ماله والعمُّ متروكٌ بغير ســـهام

ما للطليق وللتراث وإنمـا صَلّى الطليقُ مخافةَ الصَّمْصام ؟ ! [1]

ثم يقول « دِعبل بن على الخزاعى » فى تائيته الرائعة :

همُ أهـلُ ميرَاثِ النبيِّ إذا اعْتَزَوا ،

وهُمْ خيرُ قادَاتٍ ، وخـيرُ حُماَة

وما النّـاسُ إلاّ حاسِدٌ ، ومكَذِّبٌ ،

ومُضطغِنٌ ، ذُو إحْنَـــة وترات

* * *

---

(١) الأغانى ج ١٢ ص ٩٤ والعقد الفريد ج ١ ص ٣٦٠ .

ولم ينس الأدب الشيعى فى هذه الفترة أن يتحدث عن الفواجع العلوية ، وفى مقدمتها فاجعة « كربلاء » .

يقول دعبل :

قبــورٌ بكُوفان ، وأخرى بطيبةٍ ، وأخــرَى بِفَخٍّ ، نَالها صَــلوَات

وقبرٌ ببغــداد لنفسٍ زكيَّةٍ تضمَّنهــا الرحمَنُ فى الغرُفاتِ

فأمَّا المُصِمَّاتُ التى لستُ بالغاً مبَالغها مِنِّى بكُنْه صِــــفات

إلى الحشرِ ، حتى يبعث الله قائماً يفرِّجُ منهــا الهــمَّ والـكُرُبات

نفوسٌ لدى النهرينِ من أرض كربلا معرســهم فيهــا بشــطٍّ فــرات

تقسمهم ريب الزمان كما ترى لهم عفرة مغشيــة الحجرات

إلى أن يقول :

فآل رسول اللهِ نحفٌ جسومهم وآل زياد حفَّــل القَصَرَات[1]

بناتُ زياد فى القصور مَصُونة وآلُ رسول اللهِ فى الفلوات

إذا وُتِرُوا مدُّوا إلى أهل وترهم أكفًّا عن الأوتار مُنْقَبِضات[2]

* * *

(١) حفل القصرات : القصرات أصول الأعناق ، وحفل جمع حافل أى الممتلىء

(٢) معجم الأدباء ج ٤ ص ١٩٥ ، وزهر الآداب ج ١ ص ١٠٢ .

ولدعبل من هذا النوع كثير ، ولكنه ضاع ولم يبق إلا القليل النادر ، ولو وصلنا كله لورثنا أدباً قوياً جريئاً ، يمثل نفس دعبل وقوتها ، وجرأتها فالشاعر الذى يقول فى الرشيد :

وليس حى من الأحياء نعلمه — من ذى يمان ومن بكر ومن مضر
إلا وهم شركاء فى دمائهم — كما تشارك أيسار على جزر
قتل وأسر ، وتحريق ، ومنهبة — فعل الغزاة بأرض الروم والخزر
أرى أمية معذورين إن قتلوا — ولا أرى لبنى العباس من عذر
اربع بطوس على القبر الزكى إذا — ما كنت تربع من طوس على وطر
قبران فى طوس : خير الناس كلهم — وقبر شرهم ، هذا من العبر ![1]
ما ينفع الرجس من قبر الزكى ولا — على الزكى بعرب الرِّجس من ضرر
هيهات كل امرىء رهن بما كسبت — له يداهُ فخذ ما شئتَ أو فذر[2]

نقول : فالشاعر الذى يقول هذا فى الرشيد ـ وهو يعلم ما سيلقى من أبناء الرشيد ـ لابد أن يكون قد وصل إلى قمة التصوف فى الحب الشيعى ، والإخلاص فى الرأى ، والفناء فى العقيدة . . وكذلك كان دعبل .

---

(١) يريد : قبر الرشيد وقبر على الرضا — صاحب المأمون — .

(٢) الأغانى جـ ١٨ ص ٥٧ ، تاريخ ابن عساكر جـ ٦ ص ٣٣ ، وانظر زهر الآداب جـ ١ ص ١٠١ وترجمة دعبل فى الأغانى وابن خلكان والشعر والشعراء والفهرست ، ونور الأبصار فى مناقب آل النبى المختار ص ١٤١ .

ولابد لنا من أن نذكر هذه القصيدة التى أغضبت الرشيد، حتى أرسل فى قتل صاحبها ، فوجده الرسول قد مات ، فأمر الخليفة بنبش قبره ، وإحراق جثته ، فما زال الفضل بن الربيع يلطف له حتى عفا عنه .

ذاك هو منصور النمرى ، الشاعر العلوى : حيث يقول :

شاهٍ منَ الناسِ راتعٌ هامِل	يُعللونَ النفوسَ بالباطل
تقتلُ ذرِّيَّةُ النبيِّ ، ويرْ	جون جنانَ الخلودِ للقاتل
ويْلكَ يا قاتلَ الحُسينِ لقدْ	نُؤتَ بحملٍ ينوء بالحامل
أىٌّ حِباءٍ حبوْتَ أحمدَ فى	حُفْرته منْ حرارةِ الثاكل
بأىِّ وَجْهٍ تلقَى النبىَّ وَقَدْ	دخلتَ فى قتلهِ معَ الدَّاخِل
هلم فاطلبِ غداً شفاعتَه	أو لا فردْ حَوْضَهُ معَ الناهِل
ما الشكُّ عندى فى حالِ قاتِلِه	لكنَّنِى أشكُّ فى الخاذِل
نفسِى فداءُ الحُسَين حينَ غدا	إلى المنايا عدو لا قافل
ذلكَ يَوْمٌ أنحى بشفرتِهِ	عَلَى سنام الإسلامِ والكاهل

* * *

حتى متَى أنتِ تعجَبينَ ألا	تنزلُ بالقوْمِ نِقْمةُ العاجل
لا يعْجلُ اللهُ إنْ عجلْتَ وَمَا	ربكَ عمّا يُريدُ بالغافل

ثم يقول:

وَعاذِلى أنَّنِى أحِبُّ بنى (م)	أحمدَ ، فالتُّرْب فى فم العَاذِل
قَدْ ذقتُ ما دِينكم عَليْهِ فما	وَصَلْتُ من دِينكم إلى طائل
دينكم جفوَةُ النبىِّ وَما الـ	جافى لآلِ النبىِّ كالواصِل

ألا مَصَـــــاليتَ يغضبُونُ لهَاَ   بسلةِ الْبَيْض والقَنَاَ الذابل[١]

وهكذا كان أدب العلويين فى كل زمان ومكان ، أدب عاطفة وحب ، ووجدان وسياسة .

آداب الأحزاب الأخرى :

واقد كان بجانب هذا الأدب الشيعى أدب حزبى آخر ، يقوم بالدعاية لأصحابه ، والاحتجاج لآرائهم فى سياسة الناس ـ شأن الصحافة الحزبية ـ فأدب أموى : يقوم على مدح الخليفة القائم ، وإبراز سطوته ، وتبرير سياسته ؛ وأدب خارجى : يصور الحياة الخارجية ، والفكرة الخارجية ، والعقلية الخارجية ؛ وأدب زبيرى : يدعو إلى زعامة قريش فى بيت الزبير ، ويطالب برجوع السيادة إلى مكة . . . هذا فى العصر الأموى . . . وكذلك كان الأدب السياسى فى العصر العباسى متباين الأفكار والرغبات ، تباين أصحابه فى أفكارهم وآرائهم .

الأدب الخارجى :

ولقد استطعنا أن نصور الحياة السياسية ، والعقلية لهذه الأحزاب ، فرأينا ـ مثلا ـ أن الخوارج كانوا عرباً ، قد تحكمت فيهم الطبيعة البدوية ، فاصطبغ مذهبهم بالصبغة البدوية فى محاسنها ومساوئها ، وكانت ثقافتهم ثقافة عربية ، فجاء أدبهم صورة لهذه الحياة العربية فى صحرائها الملتهبة ، وتربيتها المتزمتة ، فهو فى جملته : وصف للمعارك ، وطلب للنزال ، وتكشيف للأعداء ، ومدح للعقيدة الخارجية ، وما توصل إليه من حياة ناعمة ، وجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين .

---

(١) عصر المأمون ج ١ ص ٣٢٦ ، وانظر الأغانى ج ١٢ ص ٢١ ، وأمالى الشريف المرتضى ج ٤ ص ١٨٦ وانظر زهر الآداب ج ٣ ص ٦٦٩ . تحقيق أستاذنا الشيخ محمد محى الدين عبد الحميد .

يقول قطرى بن الفجاءة ـ أحد خلفاء الأزارقة ، وشعرائهم وخطبائهم :

إلى كَمْ تفَازِبنى السيوفُ ولا أرَى مُغَازتها تَدْعو إلىَّ حِمَاميَا
أقَارِعُ عن دار الخلودِ ولا أرى بقاء عَلَى حالٍ لِمَنْ ليسَ باقيا
وَلوْ قرَّبَ المَوْتَ القراعُ لقَدْ أنى لِمَوْتى أن يَدنو لطول قراعيا
أعادِى جِلادَ المُعْلَمِينَ كأننى عَلَى العسلِ المَاذِىِّ أُصبحَ غاديا
وأدْعُو الكماةَ للنزال إذا القَنَا تحطم فيما بيننا من طعانيا
وَلَستُ أرَى نفساً تموتُ وإن دَنت من الموت حتى يَبعث الله دَاعيًا[1]

فلا تكاد تسمع إلا صلصلة السيوف ، واشتجار الرماح ، وقراع الأبطال ، وغدو على الموت كأنه « على العسل الماذى يصبح غاديا » .

وتلك ميزة الأدب الخارجى ، فهو أدب حرب ، واستماتة فى العقيدة ، فليس أدباً حزيناً باكياً ، كما هو الشأن فى أدب الشيعة فى جملته . . وليس أدب المدح الكاذب ، والخنوع للخلفاء ، طلباً للعطاء كما هو الشأن فى أدب الأمويين، ولكنه أدب نفوس بدوية ، تقاتل عن عقيدتها ، وتفنى فى سبيل إرادتها ، تغضب ، ولكن لا لشخص ، بل لفكرة ، وتثور ، ولكن لا لبيت بل لعقيدة ، ترى ذلك واضحاً فيما خلفه قطرى بن الفجاءة ، وعمران بن حطان، والطرماح بن حكيم ،

---

(١) أمالى الشريف لمرتضى ج ٣ ص ٩٠ ولقطرى ترجمة فى وفيات الأعيان ج ١ ص ٥٤٥ ومعجم البلدان ج ١ ص ٢٨٩ ودائرة المعارف ، والأعلام . ثم هو أبو نعامة : جعونة بن مازن بن زيد مناة المازنى التميمى الخارجى ، ولد بفوان ونسب إلى قطر موضع قريب من عمان ، أحد شعراء الخوارج وفرسانهم تولى إمارة الأزارقة ، وحارب المهلب بن أبى صفرة وكاد يقضى على الدولة الأموية .

وغيرهم من شعراء الخوارج . . . كما تلمس ذلك فى خطب أبى حمزة الخارجى ، وشبيب بن يزيد الشيبانى ، والمستورد بن علفة ، وكثير غيرهم من أمراء الخوارج ، وخطبائهم ، والمقدمين فيهم .

الأدب الزبيرى :

فإذا أنت أردت أن تعرف الأثر الزبيرى فى الأدب العربى فأنت واجده فى شعر عبيد الله بن قيس الرقيات ـ شاعر الزبيريين ـ ثم فى خطب عبد الله بن الزبير ، ومصعب أخيه .

وتقوم عناصره على أن قريشاً ، ثم مضر ، أولى بهذا الأمر من غيرها ، فرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ منها ، وأحق البلاد مكة ، مولد الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثم الدعوة لبيت الزبير ، وابنه عبد الله أمثل أبناء الستة الذين اختارهم عمر ـ رضى الله عنه ـ وحصر فيهم خلافة المسلمين يقول عبيد الله ابن قيس الرقيات[1] ، فيحترق على اختلاف قريش وتقاتلهم :

حَبّذَا العيشُ حينَ قومى جميعٌ ... لمْ يُفرِّق أمورها الأهواء

قبلَ أن تطمعَ القبائلُ فى مُلْـــكِ قريشٍ وَتشمَتَ الأعداء

أيها المشتكى فَنَاء قريشٍ ... بيَدِ اللهِ عُمْرُهــا وَالفَنَاء

إنْ تُوَدِّع منَ البلاد قريشٌ ... لا يكُنْ بعدَهمْ لحى بَقَاء

ثم يأخذ فى فخره متنقلا فى بيوتات قريش عامة ، إلى أن يقول فى مصعب :

إنما مُصْعَبٌ شِهابٌ منَ اللـــهِ تجلَّتْ عن وجهِهِ الظّلماء

مُلْكهُ مُلكُ قُوّةٍ ليسَ فيهِ ... جَبَرُوتٌ منــهُ ولا كبرياء

يتقى اللهَ فى الأمور ، وقد أفــلحَ منْ كانَ همـهُ الاتقاء

---

(١) ترجم له أبو الفرج فى أغانيه ج ٤ ص ٩٥٤ .

أما الخليفة عبد الله بن الزبير فيمدحه بقوله :

أنتَ ابنُ مُعْتَلِجِ البِطاَ ح كُدَيِّهَا فَكُدَائِهَا
أوْفَى قريش بالعُــلا فى حُكمها وقضـائها
ولأنت أعلمهـا بهـا وأصَحُّها مِنْ دائهـا
وأتمهـا نَسَباً إذا نُسِبتْ إلى آبائهـا
إن البلادَ سِوَى بلا دك ضاق عَرْض فضائها
فاجمعْ بنىَّ إلى بَنيــكَ ، فأنتَ خيرُ رِعائها
نُشْهِدْكَ منـا مَشْهَداً ضنكا عَلَى أعـدائها
نحنُ الفوارِسُ من قرَيْـش يومَ جِد لِقائها

* * *

وسوف يتجلى لنا فى « أثر التشيع فى الأدب العربى » الصلة الوثيقة بين هذه الآداب ، والخصومة السياسية العنيفة بين أحزابها المختلفة ، مما كان للأدب معه غناء ونفع .

الفصل الخامس

أدباء الشيعة

آن لنا أن نتحدث عن أدباء الشيعة ، وأن نتعرف اللبنات التى وضعها كل منهم فى هذا البناء العتيد .

وقد مضى القرن الثانى الهجرى وأمراء البيان الحزبى خطيب ، أو شاعر ، فلم تكن الكتابة فى هذا النوع من الأدب قد استقلت فناً خاصاً ، له رسومه وله رجاله ، وإنما هى مشافهة مكتوبة ، أو قل خطابة مكتوبة ، فلا يزال زعيمها خطيب أو شاعر .

فسبيلنا الآن أن نتحدث عن هذين الفنين — الخطابة والشعر — ثم نتناول جمهرة من أعلامهما .

الخطابة والخطباء

بنو هاشم – شيعتهم – صعصعة بن صوحان – سليمان بن صرد – المختار بن أبى عبيد الثقفى .

الخطابة :

ليس فى عصور اللغة — على ما سجله التاريخ الأدبى من آثار — عصر زها بالخطابة ، وحفل بالخطباء كهذا العصر الذى نؤرخه . . . فقد كانت الفتن الناشبة والحروب القائمة ، والعصبيات المضطرمة ، والتنازع فى سبيل السيادة والحكم ،

مظهراً من أقوى مظاهر الخطابة ، وأفعلها فى النفوس . . . فأصبحت أساس الدعوة ، ولسان الفتنة . ومثيراً يعصف بالجموع إلى القتال والثورة . إلى جانب أغراضها الدينية من : وعظ ، وقصص ، وتفقيه ، وإرشاد . . . تستمد فى كل ذلك عقولا هذبها الإسلام ، ونفوساً صقلها القرآن ، فإذا أسلوبها أسلوبه ، وإذا حججها من حججه ، وإذا هى تنشر على الناس أدباً لا عهد للعرب بمثله ، ولم يكن للعالم سبيل إليه . . . أدب القرآن ذو النهج الواضح ، والحجج الدامغة ، والنسق المفصل ، واللفظ المصقول

وطبعى أن يظهر فى الخطابة ما جرى على الدولة من عوامل الانقسام والفرقة ، وأن تصور أخلاق مرتجليها ، لاعتمادهم عليها فى الدين والسياسة ، فإذا خطابة أموية تعتمد على القوة وحدها ، والعنف وحدة ، فلا تلم بآيات القرآن وأحاديث الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلا لماماً ، ترى الدين لا يقبل منها ـ وقد قامت على سيوف مشهورة ، ورماح مشرعة — فتلجأ إلى السياسة تستمدها أسلوبها ، وطرائق القول فيها ، بينما يخطب خصومهم من علويين وزبيريين وخوارج ، فتسبق آيات القرآن وأقوال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ألسنتهم ، وتبتدر ألفاظهما إلى ألفاظهم .

والخطابة كالشعر ، لحمتها البيان ، وسداها البلاغة ، ولكن صاحبها أشد حاجة من الشاعر إلى قوة العارضة ، وحضور البديهة ، وملكة الارتجال ، وللعرب من ذلك كله القدم الثابتة ، والقدح المعلى ، وقد أمدتهم الحوادث بمعين فياض يطلق الألسنة ، ويثير النفوس .

من أجل ذلك بلغت الخطابة فى هذا العصر غاية كمالها ، وأصبح الأمر فى يد رجالها ، فورثنا ميراثاً موفوراً من القول ، واستمعنا إلى حفل حافل

من الخطباء . . . كان أوثقهم عقداً وأهداهم قصداً ، وأبعدهم مدى ، وأكثرهم توفيقاً خطباء الشيعة ؛ لصدور كلامهم عن طبع موات ، وعاطفة مستعرة . . .

بنو هاشم :

فمن هؤلاء « بنو هاشم » ، مهبط الوحى ، وشعبة الهدى ، وأئمة البيان . . . يقول الحصرى فيهم :

« ولهم كلام يعرض فى حلى البيان ، وينقش فى فص الزمان، ويحفظ على وجه الدهر ، ويفضح قلائد الدر ، ويخجل نور الشمس والبدر ، ولم لا يطوون ذيول البلاغة ، ويجرون فضول البراعة، وأبوهم الرسول، وأمهم البتول ، وكلهم قدغذى بدر الحكم ، وربى فى حجر العلم :

ما منهمُ إلّا مُرَدّى بالحجا　　أو مُبْشَر بالأحوذية مؤدم[1]

* * *

نمتهُ العرانينُ من هاشم　　إلى النسب الأصرح الأوضح

إلى نبعة فرعها فى السماء　　ومغرسها فى ذرى الأبطح[2]

ويقول مسلم بن بلال العبدى : « أولئك قوم بنور الخلافة يشرقون ، وبلسان النبوة ينطقون »[3].

---

(١) الحكم بالضم : الحكمة ، والأحوذية : الحذق والخفة وفى المثل «رجل مبشر مؤدم » : حاذق مجرب جمع لين الأدمة وخشونة البشرة زهر الآداب جـ ١ ص ٦٢

(٢) العرانين الأوائل ، والأبطح : مسيل واسع فيه دقاق الحصى .

(٣) زهر الآداب جـ ١ ص ٥٣ وانظر العقد جـ ٣ ص ٢٧٩ .

وسئل سعيد بن المسيب : من أبلغ الناس ؟ فقال : رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فقال السائل : إنما أعنى من دونه ؟ فقال: معاوية وابنه . وسعيد وابنه ، وان ابن الزبير لحسن الـكلام ، ولـكن ليس على كلامه ملح ، فقال له رجل : فأين أنت من على وابنه ، وعباس وابنه ؟! فقال : انما عنيت من تقاربت أشكالهم وتدانت أحوالهم ، وكانوا كسهام الجعبة ، وبنو هاشم أعلام الأنام ، وحكام الإسلام »(١) .

وكان لمعاوية بن أبى سفيان عين بالمدينة ، فـكتب إليه : إن الحسين بن على أعتق جارية له وتزوجها . فـكتب معاوية إلى الحسين : «من أمير المؤمنين معاوية إلى الحسين بن على ، أما بعد : فإنه بلغنى أنك تزوجت جاريتك ، وتركت أكفاءك من قريش ، ممن تستحسنه للولد ، وتمجد به فى الصهر ، فلا لنفسك نظرت ، ولا لولدك انتقيت » .

فـكتب إليه الحسين : « أما بعد ، فقد بلغنى كتابك ، وتعييرك إياى بأنى تزوجت مولاتى ، وتركت أكفائى من قريش ، فليس فوق رسول الله منتهى شرف ، ولا غاية فى نسب ، وإنما كانت ملك يمينى ، خرجت عن يدى بأمر التمست فيه ثواب الله تعالى ، ثم أرجعتها على سنة نبيه — صلى الله عليه وسلم — وقد رفع الله بالإسلام الخسيسة ، ووضع عنا به النقيصة ، فلا لوم على امرىء مسلم إلا فى أمر مأثم ، وإنما اللوم لوم الجاهلية » .

قالوا : فقرأ معاوية الـكتاب ، ونبذه إلى يزيد ، فقرأه ، ثم قال : لشد ما فخر عليك الحسين ، فقال معاوية : لا ، ولـكنها ألسنة بنى هاشم الحداد ، التى تفلق الصخر ، وتغرف من البحر »(٢) .

---

(١) زهر الآداب جـ ١ ص ٥٣ فبنو هاشم فى نظر سعيد ملحقون برسول الله صلى الله عليه وسلم فى البلاغة فهم جميعا أعلام البيان وهو إنما يسأل عمن دون ذلك .

(٢) زهر الآداب جـ ١ ص ٥٩ .

الحسين بن على :

والحسين هذا يقف بكربلاء ، فيحتج لنفسه ، فيقول — بعد حمد الله والثناء عليه — : « أيها الناس ، إن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : من رأى سلطاناً جائراً مستحلا لحرم الله ناكثاً لعهد الله ، مخالفاً لسنة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يعمل فى عباد الله بالإثم والعدوان ، فلم يغير عليه بفعل ولا قول، كان حقاً على الله أن يدخله مدخله . . . ألا وإن هؤلاء قد لزموا طاعة الشيطان ، وتركوا طاعة الرحمن ، وأظهروا الفساد ، وعطلوا الحدود ، واستأثروا بالفىء ، وأحلوا حرام الله ،وحرموا حلاله ، وأنا أحق من غير ، وقد أتتنى كتبكم، وقدمت على رسلكم ببيعتكم أنكم لاتسلمونى ، ولا تخذلونى . فإن تممتم على بيعتكم تصيبوا رشدكم ، وأنا الحسين بن على وابن فاطمة بنت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ نفسى مع أنفسكم ، وأهلى مع أهليكم، فلكم فىّ أسوة . . . وإن لم تفعلوا، ونقضتم عهدكم ، وخلعتم بيعتى من أعناقكم ، فلعمرى ما هى لكم بنكر ، لقد فعلتموها بأبى وأخى وابن عمى مسلم ، والمغرور من اغتر بكم ، فحظكم أخطأتم ، ونصيبكم ضيعتم ، ومن نكث فإنما ينكث على نفسه ، وسيغنى الله عنكم ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته »[1].

عبد الله بن عباس :

وكان « عبد الله بن عباس » عيبة العلم ، وكمانى قومه ، يقول عنه الجاحظ : « ومن الخطباء الذين لا يضاهون ، ولا يجارون عبد الله بن عباس ، قالوا : خطبنا بمكة — وعثمان رضى الله عنه محاصر[2] — خطبة لو شهدتها الترك والديلم لأسلمتا.

(١) ابن الأثير ج ٤ ص ٢١ .

(٢) لما حوصر عثمان ـ رضى الله عنه ـ يوم الدار ولى عبد الله بن عباس إمرة الحج

وذكره حسان بن ثابت فقال :

إذا قالَ لم يتركْ مَقالاً لقائلٍ بمُلتقطاتٍ لاَ ترَى بينها فصلَا

كَفى وشَفى مافى النفوس ولم يَدَعْ لذى إرْبَةٍ فى القولِ جِدّاً ولاهَزْلا

سَموْتَ إلى العليا بغير مشقة فنلت ذُرَاها لادَنِيًّا ولا وغلاَ(١)

ويقول فيه علىّ : « لقد كان ينظر إلى الغيب من ستر رقيق . . وما كان يعلم الغيب ، ولكنه الذكاء الحاد ، والفراسة الصادقة » .

وقال الحسن البصرى : كان عبد الله بن عباس أول ما عرف بالبصرة ، صعد المنبر ، فقرأ البقرة وآل عمران ففسرهما حرفاً حرفاً . . وكان والله مثجاً يسيل غرباً[٢] وكان يسمى البحر وحبر قريش .

وكان عمر يقول — كلما رآه — : غص غواص . . ونظر إليه يتكلم ، فقال : شنشنة أعرفها من أخزم . . أراد انى أعرف فيك مشابهة من أبيك فى رأيه وعقله ، ويقال : إنه لم يكن لقرشى مثل رأى العباس[٣] ويقول ابن أبى مليكة : ما رأيت مثل ابن العباس، إذا رأيته رأيت أصبح الناس ، وإذا تكلم فأعرب الناس ، وإذا أفتى فأفقه الناس، ما رأيت أكثر صواباً ، ولا أحضر جواباً من ابن عباس .

الحسن بن على :

وكذلك كان الحسن بن على : علماً ، وسماحة ، وأدباً ، ونجدة . . خطب الناس — وقد تولى الخلافة — فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال : « نحن حزب الله المفلحون ، وعترة رسول الله — صلى الله عليه وسلم — الأقربون ، وأهل

---

(١) البيان والتبيين جـ ١ ص ٢١٥ ، والعقد جـ ٢ ص ٢٦٧ .

(٢) المثج : الخطيب المفوه . والغرب : الراوية والدلو .

(٣) العقد جـ ٢ ص ١١٠ ، وانظر مجمع الأمثال الميدانى فى المثل ، وقد اخترناه له فى الموازنات الأدبية .

بيته الطاهرون الطيبون ، وأحد الثقلين اللذين خلفهما رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ والثانى كتاب الله ، فيه تفصيل كل شىء ، لا يخطئنا تأويله بل نتيقن حقائقه ، فأطيعونا فإطاعتنا مفروضة ، إذ كانت بطاعة الله والرسول وأولى الأمر مقرونة ، (فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول) (ولو ردوه إلى الرسول ، وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم) ، وأحذركم الإصغاء لهتاف الشيطان ، إنه لكم عدو مبين ، فتكونون كأوليائه الذين قال لهم : (لا غالب لكم اليوم من الناس ، وإنى جار لكم ، فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه ؛ وقال : إنى برىء منكم ، إنى أرى مالا ترون) ، فتلقون للرماح أزراً ، وللسيوف جزراً ، وللعمد حظاً ، وللسهام غرضاً ، ثم لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فى إيمانها خيراً »[1] .

ويفجؤه معاوية ، فيناشده أن يخطب الناس ليظهر عيه ؛ وقد كان بالحسن رتة ـ فقال : الحمد لله الذى توحد فى ملكه ، وتفرد فى ربوبيته ، يؤتى الملك من يشاء ، وينزعه ممن يشاء ، والحمد لله أكرم بنا مؤمنكم ، وأخرج من الشرك أولكم ، وحقن دماء آخركم ، فبلاؤنا عندكم قديماً وحديثاً أحسن البلاء إن شكرتم أو كفرتم ، أيها الناس : إن رب على كان أعلم بعلى حين قبضه إليه ، ولقد اختصه بفضل لم تعتدوا بمثله ، ولم تجدوا مثل سابقته ، فهيهات هيهات ! . . طالما قلبتم له الأمور حتى أعلاه الله عليكم ، وهو صاحبكم وعدوكم فى بدر وأخواتها ، جرعكم رنقاً ، وسقاكم علقاً ، وأذل رقابكم ، وأشرقكم بريقكم فلستم بملومين على بغضه . . . وايم الله لا ترى أمة محمد خفضاً ما كانت سادتهم وقادتهم بنى أمية ، ولقد وجه الله إليكم فتنة ، لن تصدروا عنها حتى تهلكوا ،

---

(١) مروج الذهب ج ٢ ص ٤٢ ، والأزر : بفتح فسكون الظهر : أى تركبكم الرماح ، وتعلوكم ، وجزرا : قطعا .

لطاعتكم طواغيتكم ، وانضوائكم إلى شياطينكم ، فعند الله أحتسب ما مضى ، وما ينتظر من سوء دعتكم ، وحيف حكمكم . ثم قال : يا أهل الكوفة ، لقد فارقكم بالأمس سهم من مرامى الله ، صائب على أعداء الله ، نكال على فجار قريش ، لم يزل آخذاً بحناجرها ، جاثماً على أنفاسها ، ليس بالملولة فى أمر الله ، ولا بالسروقة لمال الله ، ولا بالفروقة فى حرب أعداء الله ، أعطى الكتاب خواتمه وعزائمه ، دعاه فأجابه ، وقاده فاتبعه ، لا تأخذه فى الله لومة لائم ، فصلوات الله عليه ورحمته . . ثم نزل ، قالوا : فقال معاوية أخطأ عجل أو كاد ، وأصاب متثبت أو كاد ، ماذا أردت من خطبة الحسن ! ! ؟[١] .

وخطب معاوية الناس بالكوفة ـ حين دخلها ـ فقال : مَن على والحسن ؟ فقام الحسين يرد عليه ، فأخذ الحسن بيده فأجلسه ثم قام ؛ فقال : أيها الذاكر علياً ، أنا الحسن ، وأبى على ، وأنت معاوية ، وأبوك صخر ، وأمى فاطمة ، وأمك هند ، وجدى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وجدك عتبة بن ربيعة ، وجدتى خديجة ، وجدتك قتيلة ، فلعن الله أخملنا ذكراً ، وألأمنا حسباً ، وشرنا قديماً وحديثاً ، وأقدمنا كفراً ونفاقاً ، فقال طوائف من أهل المسجد : آمين[٢] » .

وهكذا كان الحسن ـ سيد شباب أهل الجنة ـ أبصر الناس بالحجة ، وأعرفهم بمواضع الفرصة .

نجيباً حين يُدعى إنَّ أباء الفتى نجب

فلا عجب ، وهو ابن على ، وأشبه الناس برسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ

---

(١) ماء رنق : كعدل وكتف وجبل : كدر ، والعلق الدم . ابن أبى الحديد ج ١٦ ص ١٠ ، وفيه وفى مروج الذهب جمهرة كبيرة من خطب الحسن .

(٢) مقاتل الطالبيين ص ١٥ وشرح النهج .

أن يجرى الجواد على عرقه ، وتلوح مخايل الليث فى شبله ، ويكون النجيب فرعاً لأصله . . وكذلك كان الحسن .

نعم وكذلك كان بنو هاشم جميعاً فى حضور البديهة ، وسرعة الخاطر ، وإفحام الخصم .

عقيل بن أبى طالب :

قدم عقيل بن أبى طالب على أمير المؤمنين على بالكوفة ، يسأله قضاء دينه ، فقال له: اصبر حتى يخرج عطائى فأدفعه إليك ، فلم يعجبه ذلك ، وخرج مغاضباً إلى معاوية ؛ فأكرمه ونعمه ، وقضى حوائجه ودينه ، ثم أراد أن يستخدمه استخداماً سياسياً فيما بينه وبين على ، فقال لأصحابه ، هذا أبو يزيد ، لولا أنه علم أنى خير له من أخيه ، لما أقام عندنا وتركه ، فقال عقيل : أخى خير لى فى دينى ، وأنت خير لى فى دنياى[١] .

نقول : والكلمة فى حينها قصيدة هجاء .

وقال له يوماً : إن علياً قد قطعك ووصلتك ، ولا يرضينى منك إلا أن تلعنه على المنبر ، فقال : أفعل ، فأصعد ؛ ثم قال بعد حمد الله والثناء عليه : أيها الناس ، إن أمير المؤمنين معاوية أمرنى أن ألعن على بن أبى طالب ، فالعنوه ، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، ثم نزل ؛ فقال له معاوية إنك لم تبين ـ أبا يزيد ـ من لعنت بينى وبينه ، فقال : والله لازدت حرفاً ، ولا نقصت آخر ، والكلام إلى نية المتكلم[٢] .

---

(١) البيان والتبيين جـ ٢ ص ٢٢٨ .

(٢) كان عقيل قد كف بصره ، وله بعد لسانه ونسبه وأدبه وجوابه : كما يقول الجاحظ ـ البيان والتبيين ، والعقد جـ ٢ ص ٣٤٨ .

وقال معاوية: يا أهل الشام ، هل سمعتم قول الله ـ تبارك وتعالى ـ فى كتابه : (تبت يدا أبى لهب وتب) ؟ قالوا : نعم ، قال : فإن أبا لهب عمه ، فقال عقيل : هل سمعتم قول الله عز وجل : (وامرأته حمالة الحطب) ؟ قالوا : نعم ، قال : فإنها عمته ... يا معاوية ، إذا دخلت النار فاعدل ذات اليسار ، فإنك ستجد عمى أبا لهب مفترشا عمتك حمالة الحطب ، فانظر أيهما خير[1].

ودخل — وقد كف بصره — على معاوية ، فأجلسه على سريره ، ثم قال : أنتم ـ معشر بنى هاشم ـ تصابون فى أبصاركم ، فقال عقيل : وأنتم ـ معشر بنى أمية ـ تصابون فى بصائركم .

وشبيه بهذا جوابه لمعاوية ، وقد قال له : ما أبين الشبق فى رجالكم يا بنى هاشم ، فقال : لكنه فى نسائكم أبين يا بنى أمية .

وقال له رجل : إنك لخائن ، حيث تركت أخاك وترغب فى معاوية ، فقال عقيل : أخون منى ـ والله ـ من سفك دمه بين أخى وابن عمى أن يكون أحدهما أميرا ..

ولعقيل من هذا النوع كثير ، عنى بروايته الجاحظ ، وابن عبد ربه ، وكله يحمل إصابة المعنى ، وإيجاز اللفظ ، وهو من غير شك دليل على لدده فى الخصومة ، وبصره بالمنازعة ، وشدة قرعه بالحجة ، وحضور البديهة .

محمد بن على بن الحسين :

وسأل أعرابى محمد بن على بن الحسين ـ رضى الله عنهم ـ : هل رأيت الله حين

---

(١) البيان والتبيين ج ٢ ص ١٢٨ ، والعقد ج ٢ ص ٣٤٨ .

عبدته ؟ . فقال : لم أكن لأعبد من لم أره ! ! فقال : فكيف رأيته ؟ . فقال : لم تره الأبصار بمشاهدة العيان ، ورأته القلوب بحقائق الإيمان ، لا يدرك بالحواس ، ولا يشبه بالناس ، معروف بالآيات ، منعوت بالعلامات ، لا يجور فى القضيات ، ذلك الله الذى لا إله إلا هو . . .

فقال الأعرابى : الله أعلم حيث يجعل رسالته[1] .

زيد بن على بن الحسين :

وكانت ملوك بنى أمية تكتب إلى صاحب العراق أن امنع أهل الكوفة من حضور « زيد بن على » فإن له لساناً أقطع من ظبة السيف ، وأحد من شبا الأسنة ، وأبلغ من السحر والكهانة ، ومن كل نفث فى عقد[2] .

ويصفه هشام بن عبد الملك ، فيقول فى كتابه إلى يوسف بن عمر الثقفى ، واليه بالعراق :

« . . . وقد قدم « زيد بن على » على أمير المؤمنين فى خصومة عمر بن الوليد فقصل أمير المؤمنين بينهما ، ورأى رجلا جدلا لسناً ، خليقاً بتمويه الكلام وصوغه ، واجترار الرجال بحلاوة لسانه ، وبكثرة مخارجه فى حججه ، وما يدلى به عند لدد الخصام ، من السطوة على الخصم بالقوة الحادة لنيل الفلج ، فإنه إن أعاره القوم أسماعهم ، لحشاها من لين لفظه ، وحلاوة منطقه ، مع ما يدلى به من القرابة برسول الله — صلى الله عليه وسلم — وجدهم ميلا إليه ، غير متئدة قلوبهم ، ولا ساكنة أحلامهم »[1] .

---

(١) زهر الآداب ج ١ ص ٨٥ .
(٢) المصدر السابق ص ٨٦ .
(٣) الطبرى ج ٨ ص ٢٦٦ .

وكان بين زيد بن على وجعفر بن حسن بن حسن السبط منازعة فى وصية ، فكانا إذا تنازعا انثال النـاس عليهما ليسمعوا محاورتهما ، فيحفظ الرجل على صاحبه اللفظ من كلام جعفر ، ويحفظ الآخر اللفظ من كلام زيد ؛ فإذا انفصلا ، وتفرق الناس ، كتبوا ما سمعوا ، ثم يتعلمونه تعلم الواجب من الفرض . والنادر من الشعر ؛ والسائر من المثل ؛ وكانا أعجوبة دهرهما ؛ وأحدوثة عصرهما [١] .

عبد الله بن حسن :

وأوصى عبد الله بن حسن بن حسن بن على بن أبى طالب — رضى الله عنهم — ابنه فقال :

« أى بنى ؛ إنى مؤد إليك حق الله فى تأديبك ؛ فأدِّ إلىَّ حق الله فى الاستماع منى . . . أى بنىَّ : كف الأذى ؛ وارفض البذاء ؛ واستعن على الـكلام بطول الفـكر فى المواطن التى تدعوك فيها نفسك ؛ فإن للقول ساعات يضر فيها الخطأ ؛ ولا ينفع فيها الصواب ؛ واحذر مشورة الجاهل وإن كان ناصحاً ؛ كما تحذر مشورة العاقل إذا كان غاشاً ؛ لأنه يرديك بمشورته .

واعلم — يا بنى — أن رأيك إذا احتجت إليه وجدته نائما ؛ ووجدت هواك يقظان ؛ فإياك أن تستبد برأيك ؛ فإنه حينئذ هواك ؛ ولا تفعل فعلا إلا وأنت على يقين أن عاقبته لا ترديك ؛ وأن نتيجته لا تجنى عليك » [٢] .

محمد الباقر :

وفى الأمالى : دخل أبو جعفر — محمد الباقر — على عمر بن عبد العزيز — رضى الله عنهم — فقال له عمر : أوصنى يا أبا جعفر ؛ فقال :

---

(١) البيان والتبيين جـ ١ ص ٢١٧ . وزهر الآداب جـ ١ ص ١١٨ .

(٢) زهر الآداب جـ ١ ص ١٢٠ . والبيان والتبيين جـ ١ ص ٢١٦ .

« أوصيك أن تتخذ صغير المسلمين ولداً .. وأوسطهم أخا .. وكبيرهم أبًا .. فارحم ولدك ، وصل أخاك ، وبرّ أباك ... وإذا صنعتَ معروفاً فربه »[١] .

* * *

هؤلاء بنو هاشم ... نصاعة بيان ، ومضاء حجة ، وسماحة أدب ، وأناقة لهجة :

شَرَفٌ تَنقّلَ كابرا عن كابرٍ كالرُّمح أنبوبا على أُنبوب

قد وهبوا لسانًا طلقا ، وقولا عذبا ، فأثرت عنهم الخطب الرنانة ، والأجوبة المسكتة التى تجمع بين إصابة المعنى ، وسحر البيان ...

وقد عقد ابن عبد ربه فى العقد فصلا ممتعاً حقاً ذكر فيه طائفة من أجوبة الهاشميين ، وهو مظهر من مظاهر الأدب الشيعى ، ونموذج حسن لما أنتجه النزاع بين الأمويين والهاشميين من أدب باهر ، ونتاج ساحر .

وفى زهر الآداب ، والبيان والتبيين ، والأمالى ، والكامل ، وكتب التاريخ : زهرات من آدابهم ، هى بحق نفثة سحر ، أو أثر إلهام ورسالة وحى ..

نعم هؤلاء بنو هاشم :

نورُ النبوة والمكارم فيهمُ مُتَوقد فى الشيب والأطفال

جمعوا من كرم الأرومة والأصل ، إمرة البيان والعلم ، ليس فيهم ـ إن عددت ـ إلا خطيب مفوه ، أو شاعر مفلق ، أو عالم ثبت .

---

(١) ج ٢ ص ٣١٢ .

وكذلك كان شيعتهم ؛ سحراً ، وبلاغة ، وأدباً ، وعلماً . . .

فمن هؤلاء بنو صوحان : صعصعة ، وزيد ، وعبد الله ، وشيخان . . . لسن الشيعة ، وأئمة البيان ، وسادة عبد القيس .

صعصعة بن صوحان :

وبصعصعة يضرب المثـــل فى امتلاك ناصية القول ، وحدة الذهن ، وسرعة الخاطر .

يصفه ابن عباس بأنه باقر علم العرب ، وسأله عن السؤدد ؛ فأحسن ؛ فقال له : أحسنت والله يابن صوحان ، إنك لسليل أقوام كرام ، خطباء فصحاء ، ماورثت هذا عن كلالة .

ووفد على معاوية برسالة أمير المؤمنين على بن أبى طالب ، فقال لآذنه : استأذن لرسول أمير المؤمنين على بن أبى طالب – وبالباب أردنة من بنى أمية – فأخذته الأيدى والنعال لقوله ، وهو يقول : أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله !!؟ . وكثرت الجلبة واللغط ، فاتصل ذلك بمعاوية ، فوجه بمن يكشف عنه ، « ثم أذن لهم فدخلوا ، فقال : من هذا الرجل ؟ قالوا : رجل من العرب يقال له صعصعة بن صوحان معه كتاب من على ؛ فقال : والله لقد بلغنى أمره ، هذا أحد سهام على ، وخطباء العرب ، ولقد كنت إلى لقائه شيقاً ، إئذن له يا غلام ؛ فدخل عليه ؛ فقال : السلام عليك يابن أبى سفيان . هذا كتاب أمير المؤمنين ، فقال معاوية : أما إنه لو كانت الرسل تقتل فى جاهلية أو إسلام لقتلتك ، ثم اعترضه ليستخرج قريحته ، فقال : ممن الرجل ؟ قال : من نزار ، قال : وما كان نزار ؟ قال : كان إذا غزا نكس ، وإذا لقى افترس ، وإذا انصرف احترس ، قال : فمن أى أولاده أنت ؟ قال : من ربيعة قال : وما كان ربيعة ؟ قال : كان يطيل النجاد ، ويعول

العباد ، ويضرب ببقاع الأرض العماد ، قال : فمن أى أولاده أنت ؟ قال : من جديلة ، قال : وما كان جديلة قال : كان فى الحرب سيفاً قاطعاً ، وفى المكرمات غيثاً نافعاً ، وفى اللقاء لهباً ساطعاً ، قال : فمن أى أولاده أنت ؟ قال : من عبد القيس ، قال : وما كان عبد القيس؟ قال : كان حضرياً خصيباً أبيض ، وهاباً لضيفه ما يجد ، ولا يسأل عما فقد ، كثير المرق، طيب العرق ، يقوم للناس مقام الغيث من السماء قال : ويحك يا بن صوحان ! ! فما تركت لهذا الحى من قريش مجداً ولا فخراً ، قال : بلى والله يابن أبى سفيان ، تركت لهم مالا يصلح إلا بهم ، ولهم تركت الأبيض والأحمر ، والأصفر والأشقر، والسرير والمنبر ، والملك إلى الحشر، وأنى لا يكون ذلك كذلك ، وهم أمناء الله فى الأرض ـ ونجومه فى السماء ! ؟ ـ فظن معاوية أن كلامه يشمله ، فقال : صدقت يا بن صوحان ، إن ذلك لكذلك فعرف صعصعة ما أراد ، فقال ليس لك ولا لقومك فى ذلك إصدار ولا إيراد ، بعدتم عن أنف المرعى ، وعلوتم عن عذب الماء ، قال : فلم ذلك ويلك يابن صوحان ! ! ؟ قال : الويل لأهل النار ، ذلك لبنى هاشم . فأخرجوه ، فقال صعصعة : الصدق ينبى عنك لا الوعيد[1] ، ومن أراد المشاجرة قبل المحاورة[2] ! ! فقال معاوية : لشيء ما سوده قومه ، وددت والله أنى من صلبه ، ثم التفت إلى بنى أمية ، وقال : هكذا فلتكن الرجال[3] .

وسأل معاوية عقيل بن أبى طالب : ميز لى أصحاب على ، وابدأ بآل صوحان ، فإنهم مخاريق الكلام ، فقال عقيل : أما صعصعة فعظيم الشأن ، عضب اللسان ، قائد فرسان ، قاتل أقران ، يرتق ما فتق ، ويفتق ما رتق ، قليل النظير . . .

---

(١) يقول : ينبغى أن يدل عليك الفعل لا القول (مجمع الأمثال) .

(٢) فى المثل : إن أردت المحاجزة فقبل المناجزة .

(٣) مروج الذهب ج ٢ ص ٦٠ .

وأما زيد وعبد الله فإنهما نهران جاريان يصب فيهما الخلجان ويغاث بهما البلدان، رجلا جد لا لعب معه، وبنو صوحان كما قال الشاعر :

إذا نزل العدو فإن عندى   أسوداً تخلس الأسد النفوسا[1]

ويقول المسعودى : حبس معاوية صعصعة بن صوحان، وعبد الله بن الكواء اليشكرى، ورجالا من أصحاب على، مع رجال من قريش، فدخل عليهم معاوية يوماً، فقال : نشدتكم بالله إلا ما قلتم حقاً وصدقاً، أى الخلفاء رأيتمونى ؟ فقال ابن الكواء . لولا أنك عزمت علينا ما قلنا لأنك جبار عنيد، لا تراقب الله فى قتل الأخيار، ولكنا نقول : إنك ـ ما علمنا ـ واسع الدنيا، ضيق الآخرة، قريب الثرى، بعيد المرعى، تجعل الظلمات نوراً والنور ظلمات، فقال معاوية : إن الله أكرم هذا الأمر بأهل الشام، الذابين عن بيضته، التاركين لمحارمه، ولم يكونوا كأمثال أهل العراق، المنتهكين لمحارم الله، والمحلين ما حرم الله، والمحرمين ما أحل الله، فقال عبد الله بن الكواء : يابن أبى سفيان، إن لكل كلام جواباً، ونحن نخاف جبروتك، فإن كنت تطلق ألسنتنا ذببنا عن أهل العراق بألسنة حداد، لا يأخذها فى الله لومة لائم، وإلا فإنا صابرون حتى يحكم الله، ويضعنا على فرجة، قال : والله لا يطلق لك لسان .

ثم تكلم صعصعة، فقال : تكلمت يابن أبى سفيان فأبلغت، ولم تقصر عما أردت، وليس الأمر على ما ذكرت، أنى يكون الخليفة من ملك الناس قهراً، ودانهم كبراً، واستولى بأسباب الباطل كذباً ومكراً . أما والله مالك فى يوم بدر مضرب ولا مرمى، وما كنت فيه إلا كما قال القائل : لا حلى ولا سيرى، ولقد كنت أنت وأبوك فى العير والنفير ممن أجلب على رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

(١) مروج الذهب جـ ٢ ص ٧٥ .

وإنما أنت طليق ابن طليق ، أطلقكما رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأنى تصلح الخلافة لطليق ؟ ! !

فقال معاوية : لولا أني أرجع إلى قول أبي طالب :

قابلت جهلهم حلماً ومغفرة والعفو عن قدرة ضرب من الكرم

لقتلتكم[1].

سليمان بن صرد :

ومن خطباء الشيعة الصحابي الجليل ، والفارس المعلم ، والخطيب المفوه ، والشيعي الذي قتل مدافعاً عن عقيدته: « سليمان بن صرد بن الجون الخزاعي »،سيد أهل العراق ورأسهم .

سماه رسول الله ـصلى الله عليه وسلم ـ سليمان ، وكان اسمه في الجاهلية يسارا ، فلما قامت الفتنة شهد مع علي مشاهده ، مقدماً في الحرب ، سباقاً إلى المبارزة ، ثم وقف من صلح الحسن موقف المنكر له ، المعلن لغضبه أن يلي الأمر معاوية .

قالوا : لما تمت البيعة لمعاوية بالعراق أتى سليمان بن صرد ، فدخل على الحسن فقال : السلام عليك يا مذل المؤمنين ؛ فقال الحسن : وعليك السلام ، اجلس لله أبوك ، فجلس سليمان ، ثم قال: « أما بعد فإن تعجبنا لا ينقضي من بيعتك معاوية، ومعك مائة ألف مقاتل من أهل العراق ، وكلهم يأخذ العطاء مع مثلهم من أبنائهم ومواليهم ، سوى شيعتك من أهل البصرة وأهل الحجاز ، ثم لم تأخذ لنفسك بقية في العهد ولا حظاً من القضية ، فلو كنت إذ فعلت ما فعلت وأعطاك ما أعطاك

---

(١) مروج الذهب جـ ٢ ص ٦١ ، وفي الجزء الأول من صبح الأعشى . والبيان والتبيين كثير من أخباره .

بينك و بينه من العهد والميثاق كنت كتبت عليه بذلك كتاباً ، وأشهدت عليه شهوداً من أهل المشرق والمغرب: أن هذا الأمر لك من بعده؛ كان الأمر علينا أيسر، ولكنه أعطاك هذا فرضيت به من قوله، ثم قال ـ وزعم على رءوس الناس ما قد سمعت : « إنى كنت شرطت لقوم شروطاً ووعدتهم عدات ، ومنيتهم أمانى ؛ إرادة إطفاء نار الحرب ، ومداراة لهذه الفتنة ، إذ جمع الله لنا كلمتنا وألفتنا ، فإن كل ما هناك تحت قدمى » . . والله ما عنى بذلك إلا نقض ما بينك و بينه ، فأعد الحرب جذعة ، وأذن لى أشخص إلى الكوفة ، فأخرج عامله منها ، وأظهر فيها خلعه ، وانبذ إليه على سواء ؛ إن الله لا يهدى كيد الخائنين[1] ثم سكت . . . فتكلم الناس بمثل مقالته . فخفف الحسن ـ رضى الله عنه ـ بحلمه ، وسداد رأيه حدتهم ، وأبان لهم ما فى الصلح من جمع الألفة ، وإصلاح لذات البين .

وقد ظل ابن صرد بالكوفة مقيما على ولائه لأهل البيت إلى أن كانت حادثة الحسين ، فأصابه ما أصاب الكوفيين من تخاذل ، حتى إذا حلت النكبة بسيد الشهداء ، وضحى بنو حرب بالدين فى كربلاء ، هالته هذه الصدمة فأحس ـ كما أحس غيره ـ بالخطيئة ، فجمع الشيعة بمنزله ، يتذاكرون أمر هذا السبط الكريم ، ويندمون على ما فرط منهم من خذلانه ، ويدبرون الأمر للأخذ بثأره .

وتكلم خطباؤهم : المسيب بن نجبة الفزارى ، وسعد بن نفيل الأسدى ، وعبد الله بن وال التيمى ، ورفاعة بن شداد البجلى ، وغير هؤلاء ممن حملوا لواء الأدب الشيعى . وكان لهم فى تكوينه ـ وبخاصة أدب كربلاء ـ أكبر الفضل .

بدأ المسيب بن نجبة ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، وصلى على نبيه ، ثم قال :

---

(١) الإمامة والسياسة ج ١ ص ١٢٠ . وكلمة معاوية من خطبته فى النخيلة بالكوفة (مقاتل الطالبيين) .

أما بعد فإنا قد ابتلينا بطول العمر ، والتعرض لأنواع الفتن ، فنرغب إلى ربنا ألا يجعلنا ممن يقول له غداً: (أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير) ؟ فإن أمير المؤمنين قال : العمر الذى أعذر الله فيه ابن آدم ستون سنة ، وليس فينا رجل إلا وقد بلغه ، وقد كنا مغرمين بتزكية أنفسنا ، وتقريظ شيعتنا . حتى بلا الله أخيارنا ، فوجدنا كاذبين فى كل موطن من مواطن ابن بنت نبينا ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقد بلغتنا قبل ذلك كتبه ، وقدمت علينا رسله ، وأعذر إلينا يسألنا نصره عوداً وبدءا ، وعلانية وسراً ، فبخلنا عنه بأنفسنا ، حتى قتل إلى جانبنا ، لا نحن نصرناه بأيدينا ، ولا جادلنا عنه بألسنتنا ، ولا قويناه بأموالنا ، ولا طلبنا له النصر إلى عشائرنا . فما عذرنا إلى ربنا ، وعند لقاء نبينا — صلى الله عليه وسلم ؟ — وقد قتل فينا ولده ، وحبيبه ، وذريته ونسله ، لا والله لا عذر دون أن تقتلوا قاتله ، والموالين عليه ، أو تُقتلوا فى طلب ذلك ، فعسى ربنا أن يرضى عنا عند ذلك ، وما أنا بعد لقائه لعقوبته بآمن . . .

أيها القوم : ولوا عليكم رجلا منكم ، فإنه لا بد لكم من أمير تفزعون إليه، وراية تحفون بها . . . أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم »[1].

فاجتمع رأيهم على سليمان بن صرد ، شيخ الشيعة ، وصاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ المحمود فى بأسه ودينه ، والموثوق بحزمه ورأيه ، وسموه أمير المؤمنين، فخطبهم سليمان خطبته الرائعة التى ذكرنا قبل .

تولى سليمان أمر التوابين ، فأخذ يدبر الأمور ، وينتهز الفرص ، حتى إذا استهل شهر ربيع الآخر سنة خمس وستين شخص فى وجوه أصحابه لمحاربة ابن زياد، فعسكر بالنخلة ثلاثاً ، يبعث ثقاته إلى من تخلف عنه ، يذكرهم الله وعهودهم،

---

(١) ابن الأثير جـ ٤ ص ٦٧ .

وكانت هذه الثلاث مجالا واسعاً للسن الشيعة وقادتها، يعرضون فيها بزهم، ويدبرون أمرهم، تحت إمرة سيدهم سليمان بن صرد، خطبهم أولا فوضع لهم سياسته، وما خرجوا من أجله، فقال:

« أيها الناس، من كان إنما أخرجته إرادة وجه الله، وثواب الآخرة، فذلك منا ونحن منه، فرحمة الله عليه حيا وميتاً، ومن كان إنما يريد الدنيا وحرثها فوالله ما نأتى فيئا نستفيئه ولا غنيمة نغنمها، ما خلا رضوان الله رب العالمين. وما معنا من ذهب ولا فضة، ولا خز ولا حرير، وما هو إلا سيوفنا على عواتقنا، ورماحنا فى أكفنا، وزاد قدر البلغة إلى لقاء عدونا، فمن كان غير هذا ينوى فلا يصحبنا ».

فلما أجمعوا على المسير، وملأ يديه من صحابته، فلم يبق إلا من أخرجته إرادة الله، قام سليمان فربط على قلوبهم، وقوى عزائمهم بقوله:

« أما بعد: أيها الناس، فإن الله قد علم ما تنوون، وما خرجتم تطالبون، وإن للدنيا تجاراً، وللآخرة تجاراً، فأما تاجر الآخرة فساع إليها منتصب بتطلابها، لا يشترى بها ثمنا. لا يرى إلا قائما وقاعداً، وراكعا وساجدا. لا يطلب ذهبا ولا فضة، ولا دنيا ولا لذة. وأما تاجر الدنيا فمكب عليها راتع فيها، لا يبتغى بها بدلا فعليكم، يرحمكم الله، فى وجهكم هذا بطول الصلاة فى جوف الليل، وبذكر الله كثيراً على كل حال. وتقربوا إلى الله جل ذكره بكل خير قدرتم عليه حتى تلقوا هذا العدو، والمحل القاسط، فتجاهدوه، فإنكم لن تتوسلوا إلى ربكم بشىء هو أعظم ثواباً من الجهاد والصلاة؛ فإن الجهاد سنام العمل جعلنا الله وإياكم من العباد الصالحين، المجاهدين والصابرين على اللأواء. وإنا مدلجون

الليلة من منزلنا هذا ـ إن شاء الله ـ فأدلجوا »[١].

أدلجوا عشية الجمعة لخمس مضين من ربيع الآخر ؛ ونزلوا « بعين الوردة » وسط الجزيرة . وأقبل أهل الشام . حتى إذا صاروا على مسيرة يوم وليلة قال عبد الله بن غزية : فقام فينا سليمان فحمد الله فأطال ؛ وأثنى عليه فأطنب ؛ ثم قال :

« أما بعد : فقد أتاكم الله بعدوكم الذى دأبتم فى المسير إليه آناء الليل وأطراف النهار ، تريدون فيما تظهرون التوبة النصوح ، ولقاء الله معذورين ، فقد جاءوكم بل جئتموهم أنتم فى دارهم وحيزهم ، فإذا لقيتموهم فاصدقوهم ، واصبروا إن الله مع الصابرين . ولا يولينهم امرؤ دبره إلا متحرفا لقتال أو متحيزاً إلى فئة . لا تقتلوا مدبراً ، ولا تجهزوا على جريح ، ولا تقتلوا أسيراً من أهل دعوتكم ، إلا أن يقاتلكم بعد أن تأسروه ، أو يكون من قتلة إخواننا بالطف ـ رحمة الله عليهم ـ فإن هذه سيرة أمير المؤمنين على بن أبى طالب فى أهل هذه الدعوة » .

والتقى الجمعان ، واستحر القتال ، فتغلب الجيش الشامى .

وأضحى الخزاعى الرئيس مجدلا كأن لم يقاتل مـــــرة ويحارب

بعد أن قتل من القوم مقتلة عظيمة . . وقتل معه رءوس أصحابه[٢].

وعاد فلول التوابين إلى الكوفة ؛ فدخلوا دعوة المختار ، فتسلم وصحابه الكيسانية

---

(١) الطبرى ج ٧ ص ٦٩ ، وانظر أخبار ابن صرد فى الطبقات ، وتاريخ بغداد جزء أول .

(٢) الطبرى ج ٧ ص ٤٧ ومروج الذهب ج ٢ ص ١٠٢ .

إمرة البيان الشيعى ؛ فكان أثر المختار فى توجيه الأدب الشيعى لا يقل عن أثره فى السياسة والعقائد الشيعية .

* * *

المختار بن أبى عبيد الثقفى

وَرِث المختار طموحه ونجدته عن بيت عريق فى المجد والسؤدد[١] . فشب كبير النفس . تواقاً إلى الرياسة والإمرة . فحقق له التشيع آماله ، وبلغ به غايته ، وسجل فى صحف الزعامة ذكره .

كان المختار سياسياً ماهراً وكذلك كان خطيباً من خطباء الشيعة المبرزين ؛ خطيباً ساحراً قوى التأثير ، دارساً لأحاسيس الناس ونفسياتهم ، فاستخدم كل ذلك فى أغراضه .

جاء الكوفة والناس عظمهم مع ابن صرد . تتملكهم نوبة من الندم والحزن؛ لما أصاب بيت الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فكان عليه أن يتخذ أوتار قيثارته من هذا الجو الدينى الحزين ، وهذه العواطف الثائرة ، والأحاسيس الملتهبة .

فكَّر المختار وفكَّر . . كيف يصرف الناس عن ابن صرد شيخ العشيرة وإمام الجمع ؟ ؟

---

(١) كان أبوه أمير الجيش الذى انتدب لفتح العراق فى عهد عمر ـ الطبرى ج ٢ ص ٦٠ ، وابن الأثير ج ١ ص ١٨١ ـ كما كان عمه سعد واليا على المدائن من قبل على والحسن رضى الله عنهما ـ الطبرى ج ٦ ص ٩٢ وابن الأثير ج ٢ ص ١٧٥ ـ وجده عروة بن مسعود عظيم الطائف الذى نزل القرآن فى حقه « وقالوا : لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم » . هذا وعظيم مكة الوليد بن المغيرة .

وكيف يجمع هذا الجمع الحاشد حوله فيكون بهم دولته ؟ ؟

فانظر كيف هداه التفكير ؛ لتدرك إلى أى مدى وُهبَ « المختار » خُلق الزعيم ! ! . . .

يسود الكوفة اليوم رغبة القضاء على هذه الفئة الغاشمة من بنى أمية ؛ ليعود الأمر إلى بيت على . وأمثل هؤلاء وأحقهم ابن الحنفية — محمد بن على — ساعد أبيه رضى الله عنه الأيمن ؛ وصاحب لوائه فى حروبه . فماذا عليه لو دعا لهذا الشبل الكريم ؟ . . بل ماذا عليه لو زعم أن ابن الحنفية بعثه إلى الكوفة ؛ وأمره بأن يدعو الناس إلى بيعته ، والأخذ بثأر الحسين رضى الله عنه ؛ ومحاربة أعداء الله ورسوله . . . أليس سير الناس تحت راية إمام معين لهم من أهل البيت أدعى للإجابة ، وأنفع للدعوة ، وأجمع لشتات الأمة ؟ ؟ . . .

هذا هو الطريق الذى رسمه المختار لنفسه ، وسلكه لدعوته ، فما إن وَصل إلى الكوفة فى رمضان سنة أربع وستين حتى اتصل بالشيعة ليلا ، فأعلمهم أن المهدى بن الوصى — محمد بن على — بعثنى إليكم أمينا ووزيراً ، منتجباً وأميراً ، وأمرنى بقتل المحلين ، والطلب بدماء أهل البيت ، والدفع عن الضعفاء فكونوا أول خلق الله إجابة .

ثم ما زال كذلك مجداً فى دعوته إليهم ، وصرفهم عن ابن صرد ، زاعماً أنه إنما يعمل على مثال مُثِّلَ له ، وأمر قد حددت رسومُه ، فيه قتل الأعداء ونصر الأولياء ، وشفاء الصدور .

« وأما سليمان فليس بذلك الرجل الذى تلقى إليه الأمور ليصرفها . . . إنما هو غشمة من الغشم ، وحفش بال ، ليس له بصر بالحروب ، ولا تجربة للأمور ، يريد أن يخرجكم ، فيقتل نفسه ، ويقتلكم . . . فاسمعوا قولى

وأطيعوا أمرى ، ثم أبشروا وتباشروا ، فإنى لكم بكل ما تأملون خير زعيم »[١] .

وكأن هذه الدعوة قد أثرت فى نفوس الشيعة . فتسابقوا إليه . وهى من غير شك دعوة متزنة ، قد حددت غايتها ، ورسمت طرقها . . . الأخذ بثأر الحسين ، وقتل المحلين ، والدعوة إلى رجل معين ، له فى نفوس المسلمين مكانة ، فلا غرو أن صادفت نجاحا باهراً ، فكثر أتباع المختار ، وتقوى جانبه .

حتى إذا خرج ابن صرد نحو الجزيرة ، خاف عبد الله بن يزيد الأنصارى أمير الكوفة من قبل ابن الزبير ، أن يثب المختار عليه ، فزجه فى السجن ، فكان يقول :

« أما ورب البحار ، والنخيل والأشجار ، والمهامه والقفار ، والملائكة الأبرار ، والمصطفين الأخيار ، لأقتلن كل جبار ، بكل لدن خطار ، ومهند بتار ، فى جموع من الأنصار ، ليسوا بميل أغمار ، ولا بعزل أشرار . . . حتى إذا أقمت عمود الدين ، ورأبت شعب صدع المسلمين ، وشفيت غليل صدور المؤمنين ، وأدركت بثأر النبيين ، لم يكبر علىّ زوال الدنيا ، ولم أحفل بالموت إذا أتى »[٢] .

وبعث المختار إلى عبد الله بن عمر — زوج أخته صفية — فشفع له ، فخلى الأمير سبيله فى وقت كان ابن زياد قضى على حملة ابن صرد ، وقتل سادتها ، فعاد فلول التوابين إلى الكوفة ، يعملون تحت راية المختار ، فكثر أنصاره ، وزاده

---

(١) الطبرى ج ٧ ص ٦٤ ، وابن الأثير ج ٤ ص ٧٢ ولقد كان المختار أعلم بنفسيات الكوفة من ابن صرد فوعدهم ومناهم .

(٢) الطبرى ج ٧ ص ٦٥ .

قوة عزل ابن الزبير عبد الله بن يزيد عن الـكوفة ، وتولية عبد الله بن مطيع العدوى ، وكان رجلا مسالماً .

* * *

فإذا أنت أردت أن تعرف اللبنات التى وضعها المختار وشيعته الـكيسانية فى البيان الأدبى للشيعة ، وجدتها فى هذه العقائد السيئة من مهدية وتناسخ ووصاية وبداء . .

فقد أذاعها المختار بين الناس ، والتزمها فى خطبه وكتبه وأحاديثه ، ونفث فيها من روحه الساحر ، إلى جانب ما قدر له من التوفيق فى القضاء على قتلة الحسين ، حتى صارت لسان الخطباء والشعراء والعامة ، وأساس الدعوة الشيعية فى الـكوفة ؛ والبصرة ، والجزيرة ، والموصل .

وقد رأينا أثر ذلك فى حديثنا عن العقائد ، وكيف أثرت فى الأدب العربى . فلنسر الآن مع المختار حين يعلن دعوته ، فتشيع وتتسع ، حتى يرى نفسه فى قوة تمكنه من الوثوب بالـكوفة لطرد عبد الله بن مطيع والاستيلاء عليها . . . فيدعو هذا الأمر جماعة من الشيعة إلى التفكير فى شأن « المختار » ؛ ودعوته الجديدة . . .

أحقاً أمره « ابن الحنفية »، وأمره أن يأخذ البيعة له ، وأن يحارب أعداءه ، أم هو التقوُّل والاختلاق ؟

فذهب وفدهم إليه . فأخبروه خبر المختار وما جاء به . ويراها « ابن الحنفية » فرصة للأخذ بثأر الحسين — رضى الله عنهما — وهى أُمنية الهاشميين جميعاً فيقول :

« وأما ما ذكرتم من دعاء من دعاكم إلى الطلب بدمائنا ، فوالله لوددت أن الله انتصر لنا من عدونا بمن شاء من خلقه » .

فكانت هذه الكلمة تفويضاً صريحاً للمختار فى نظر هؤلاء ، استخدمه المختار لمصلحة الدعوة ، فجمع الشيعة وخطبهم قائلا :

« يا معشر الشيعة ، إن نفراً منكم أحبوا أن يعلموا مصداق ما جئتُ به ، فرحلوا إلى الإمام المهدى والنجيب المرتضى ، فسألوه عما قدمت به عليكم ، فنبأهم بأنى وزيره وظهيره ، ورسوله وخليله ، وأمركم باتباعى وطاعتى فيما دعوتكم إليه من قتال المحلين والطلب بدماء أهل بيتكم المصطفين »[1] .

وقام رئيس الوفد « عبد الرحمن بن شريح » فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : « يا معشر الشيعة ، فإنا كنا أحببنا أن نستثبت لأنفسنا خاصة ، ولجميع إخواننا عامة ، فقدمنا على المهدى بن على فسألناه عن حربنا هذه ، وعما دعانا إليه المختار منها ، فأمرنا بمظاهرته ومؤازرته ، وإجابته إلى ما دعانا إليه ، فأقبلنا طيبة أنفسنا ، منشرحة صدورنا ، قد أذهب الله منها الشك ، والغل والريب ، واستقامت لنا بصيرتنا فى قتالنا عدونا . . فليبلغ ذلك شاهدكم غائبكم ، واستعدوا وتأهبوا » ثم جلس .

وتتابع بقية الوفد ، فتكلموا بنحو كلامه . قال ابن جرير : فاستجمعت له الشيعة ، وحدبت عليه[2] .

قالوا : ورغب الشيعة إلى المختار أن يضم إليهم إبراهيم بن الأشتر « فإنه فتى

---

(١) الطبرى ج ٧ ص ٩٧ جمهرة خطب العرب ج ٢ ص ١٠٢ .

(٢) الطبرى ج ٧ ص ٩٧ .

رئيس ، وابن رجل شيعي شريف ، له عشيرة ذات عز وعدد » . فأذن لهم فذهبوا إليه ، فأجابهم إلى الطلب بدم الحسين على أن يتولى الأمر ، فقالوا : أنت لذلك أهل ، ولكن ليس إلى ذلك سبيل . . . هذا المختار قد جاءنا من قبل المهدى ، وهو المأمور بالقتال ، وقد أمرنا بطاعته ، فسكت ابراهيم . . . وأخبروا المختار بذلك ، فمكث ثلاثة ، ثم سار إليه فى بضعة عشر رجلا ، فيهم الشعبى ، وأبوه شرحبيل ، فلما جلسوا ، حمد المختار الله وصلى على نبيه ، ثم قال :

« أما بعد ، فإن هذا كتاب إليك من المهدى محمد بن أمير المؤمنين الوصى ، وهو خير أهل الأرض اليوم ، وابن خير أهل الارض كلها قبل اليوم ، بعد أنبياء الله ورسله ، وهو يسألك أن تنصرنا وتؤازرنا ،فإن فعلت اغتبطت ، وإن لم تفعل فهذا الكتاب حجة عليك ، وسيغنى الله المهدى محمداً وأولياءه عنك . . » ثم دفع إليه الكتاب ، فقرأ :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد المهدى إلى ابراهيم بن مالك الأشتر ، سلام عليك ، فإنى أحمد اليك الله الذى لا إله إلا هو ، أما بعد ، فإنى قد بعثت اليكم بوزيرى وأمينى ونجيبى الذى ارتضيته لنفسى ، وقد أمرته بقتال عدوى ، والطلب بدماء أهل بيتى ، فانهض معه بنفسك وعشيرتك ومن أطاعك ، فإنك إن نصرتنى وأجبت دعوتى ، وساعدت وزيرى ، كانت لك عندى بذلك فضيلة ، ولك بذلك أعنة الخيل ، وكل جيش غاد ، وكل مصر ومنبر وثغر ظهرت عليه فيما بين الكوفة وأقصى بلاد الشام ، على الوفاء بذلك عهد الله . . . فإن فعلت ذلك نلت به عند الله أفضل الكرامة ، وإن أبيت هلكت هلاكا لا تستقيله أبدا ، والسلام عليك »[1] .

---

(١) الطبرى ج ٧ ص ٩٧ ، وانظر مع هذا رواية الدينورى فى الأخبار الطوال .

فقال ابراهيم : قد كتب إلى ابن الحنفية ، وكتبت إليه قبل اليوم ، فما كان يكتب إلىّ إلا باسمه واسم أبيه . . فقال المختار : إن ذلك زمان وهذا زمان . . . وشهدت صحابته بصدق الكتاب — إلا الشعبى .

فبايع ابراهيم ودخل فى طاعة المختار ، فعز به جانبه ، وتقوت دعوته ، وعلى يديه طرد عامل ابن الزبير من الكوفة ، وأباد قتلة الحسين ، وهزم الجيش الشامى على نهر « الخازر » ، وقتل عبيد الله بن زياد ، وكثيرا من أشراف الشام . .

نعم . . وعلى يديه خضعت لدعوته الكوفة ، والبصرة ، والجزيرة ، والموصل ، والمدائن ، وارتعدت منه فرائص الأمويين بالشام ، والزبيريين بالحجاز . .

فأنت نرى إذاً كيف صبغ « المختار » الجو الشيعى كله بهذه العقائد ، فتمثلها الأدب ، ورددها الخطباء والشعراء والعامة ، وهى — من غير شك — قوة خارقة ، تلك التى تبدل عقائد الناس وأفكارهم فى سرعة البرق ، وهى دليل على جدارة المختار بالزعامة .

ولا شك أن الكتاب من أدب « المختار » وانشائه ، فما بعث ابن الحنفية إلى ابراهيم ، ولا ادعى يوماً ما الخلافة على الناس ، بل بايع يزيد بن معاوية ثم عبد الملك بن مروان . والتاريخ يحدثنا أن ابن الحنفية أنكر هذه الدعاوى الكاذبة عليه من مهدية ووصاية وإحاطة بالعلوم[1] .

* * *

(١) راجع طبقات ابن سعد .

والآن أنقل إليك جمهرة من الخطب التى نسبت إلى المختار[١] ، لترى إلى أى حد رسم خطط دعوته الكيسانية .

خطب الناس — وقد استولى على الكوفة — فقال :

« الحمد لله الذى وعد وليه النصر ، وعدوه الخسر ، وجعله فيه إلى آخر الدهر ، وعداً مفعولا ، وقضاء مقضيا ، وقد خاب من افترى . .

أيها الناس : إنه رفعت لنا راية ، ومدت لنا غاية ، فقيل لنا فى الراية أن ارفعوها ، ولا تضعوها ، وفى الغاية أن اجروا إليها ولا تعدوها ، فسمعنا دعوة الداعى ، ومقالة الواعى ، فكم من ناع وناعية، لقتلى فى الواعية[٢] ، وبعدا لمن طغى ، وأدبر وعصى ، وكذب وتولى .

ألا فادخلوا — أيها الناس — فبايعوا بيعة هدى ، فلا والذى جعل السماء سقفاً مكفوفاً ، والأرض فجاجاً سبلا ، ما بايعتم بعد بيعة على بن أبى طالب وآل على بيعة أهدى منها[٣] » .

ثم نزل ، فأقبل الناس يبايعونه على « كتاب الله ، وسنة نبيه ، والطلب بدماء

---

(١) أعتقد أن خصوم المختار قد شوهوا تراثه ، فكذبوا عليه كثيرا ، ومبلغ الظن أن المختار الأديب هو المختار فى عروبته وطموحه السياسى ، على أننا قد اخترنا من آثاره أقربها إلى الروح الأدبى .

(٢) الواعية : الصراخ على الميت ونعيه (ولا فعل له) والمعنى كم من ناع وناعية لأناس قتلوا بسبب صراخهم على الحسين وآله ، فالمختار بهذه الكلمة يستثير الكوفيين على هؤلاء الذين لم يكفهم ما اقترفوا من قتل الحسين وشيعته حتى قتلوا من نعاه .

(٣) الطبرى ج ٧ ص ١٠٨ ، وابن الأثير ج ٤ ص ٩٥

أهل البيت ، وجهاد المحلين ، والدفع عن الضعفاء ، وقتال من قاتله ، وسلم من سالمه ، والوفاء ببيعته ، لا يقيلهم ولا يستقيلهم » .

ثم وثب بمن معه فأباد قتلة « الحسين » رضى الله عنه ، وبعث برأس عمر بن سعد بن أبى وقاص — أمير الجيش الأموى فى كربلاء — وبرأس ابنه محمد إلى ابن الحنفية .

ولما حبس عبد الله بن الزبير بنى هاشم فى سجن عارم بمكة، لامتناعهم عن بيعته، وهم بإحراقهم . كتب « ابن الحنفية » إلى المختار ، فجمع المختار الشيعة، وقرأ عليهم الكتاب ، ثم قال :

« هذا كتاب مهديكم . وصريح أهل نبيكم ، وقد تركوا محظورا عليهم ، كما يحظر على الغنم ، ينتظرون القتل والتحريق بالنار . فى آناء الليل وتارات النهار، ولست أبا إسحاق ان لم أنصرهم نصرا مؤزرا . وأن أسرى اليهم الخيل فى إثر الخيل ، كالسيل فى إثر السيل ، حتى يحل بابن الكاهلية الويل »[1] .

ثم أرسل أبا عبد الله الجدلى فى جيش كثيف نخلصهم .

وللمختار شعر كثير ضاع مع تراثه الأدبى ؛ وقد حفظ لنا المرزبانى نموذجاً منه هو :

تسَرْبَلتُ من همدان دِرْعاً حصينة

ترد العَـــوَالى بالأنوف الرّوَاغم

---

(١) الطبرى ج ٧ ص ١٣٦ ، وابن الأثير ج ٤ ص ١٠٦ . وابن الكاهلية هو عبد الله الزبير بن العوام بن خويلد . والكاهلية أم خويلد جده الأعلى . واسمها زهرة بنت عمرة من بنى كاهل بن أسد بن خزيمة . فلقب بها ابن الزبير كما نبز بأبى خبيب — وكان عقيما (ابن أبى الحديد ج ٢٠ ص ٤٩٥ ومجمع الأمثال ج ١ ص ٧٥) .

هم نصروا آل الرسول محمـــد وقد أجْحَفَتْ بالناس إحدى العظائم

وفوا حين أعطوا عهـدهم لنبيهم وكفوا عن الإسلام سيف المظالم

هم أطفئوا — إذ جاهدوا — نار فتنـة

وهم تابعوا من هاشم خـــير قائم

وله :

قد علمت بيضـاء حسناء الطلل

واضحة الخدين ، عجزاء الـكفل

أنى غداة الروع مقـدام بطل[1]

وكان آخر ما سمعناه من المختار خطبته - وقد سار مصعب بن الزبير لحربه — فقام فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« يا أهل الـكوفة ، يا أهل الدين وأعوان الحق ، وأنصار الضعيف ، وشيعة الرسول، وآل الرسول ، إن فراركم الذين بغوا عليكم أتوا أشباههم من الفاسقين، فاستغووهم عليكم ؛ ليدحض الحق ، وينتعش الباطل ، ويقتل أولياء الله ، والله لو تهلـكون ما عبد الله فى الأرض إلا بالفرى على الله ، واللعن لأهل بيت نبيه ... انتدبوا مع أحمر بن شميط ، فإنـكم لو لقيتموهم لقتلتموهم ، إن شاء الله . قتل عاد وإرم »[2].

ولـكن شاء الله أن يأفل نجم « المختار » وتطوى صحيفته ، بعد إمرة دامت ستة عشر شهراً . قضاها كلها فى الدفاع عن الهاشميين ، والأخذ بثأرهم .

* * *

(١) معجم الشعراء ص ٤٠٨ .

(٢) الطبرى جـ ٧ ص ٦٧ .

المختار والتاريخ :

وبعد ، فهل كان المختار صادقا حقاً فى تشيعه ، وهل كان يؤمن بعدالة القضية الشيعية ، فهو يدافع عن عقيدة ، ويفنى فى سبيل الواجب ، ويبذل نفسه طائعاً لله فى نصرة آل البيت ؛ أو إنها المطامع الدنيوية ، وطموحه إلى الملك ، ورغبته فى الإمارة ، ثم اتخذ التشيع سبيلا إلى تحقيق ذلك ؟ ؟

رأى — وهو رجل له مكانته وبيته ـ أن ابن الزبير قد وثب بالحجاز ، ونجدة ابن عويمر باليمامة ، ومروان بن الحكم بالشام ، وليس هو بأقل من هؤلاء بيتاً وطموحا وعشيرة ، فطمع فى الخلافة ، وتستتر بالدعوة لابن الحنفية ، ثم استحل فى سبيل ذلك ما نشر من عقائد .

أما المؤرخون فيكادون يجمعون على أنه رجل سىء الأخبار ، فاسد العقيدة ، متهم فى دينه ، لا يوقف له على مذهب .

يقول ابن عبد ربه :

« ثم إن المختار لما قتل ابن مرجانة — عبيد الله بن زياد — وعمر بن سعد ، جعل يتتبع قتلة الحسين بن على ، ومن خذله ، فقتلهم أجمعين ، فلما أفناهم دانت له العراق . . . ولم يكن صادق النية ، ولا صحيح المذهب ، وإنما أراد أن يستأصل الناس ، فلما أدرك بغيته ، أظهر للناس قبح نيته ، فادعى أن جبريل ينزل عليه ، ويأتيه بالوحى من الله ، وكتب إلى أهل البصرة : بلغنى أنكم تكذبوننى ، وتكذبون رسلى ، وقد كذبت الأنبياء من قبلى ، ولست بخير من كثير منهم »[1] .

---

(١) العقد ج ٣ ص ١٥١ ، والبدء والتاريخ ج ٦ ص ٦٢ . وعيون الأخبار . وفى بعض الروايات « ولست بخير منهم » .

وفيه : « أخذ سراقة بن مرداس البارق[1] أسيراً يوم (جبانة السبع) وكان للمختار فيها مع عرب الكوفة وقعة منكرة - فقدم فى الأسرى إلى المختار ، فقال سراقة :

أُمنن عَلىَّ اليوم يا خير مَعَد وخير من لَبَّى وصلى وسجد

فعفا عنه المختار ، وخلى سبيله . ثم خرج مع إسحاق بن الأشعث فأُتى به المختار أسيراً ، فقال له ألم أعف عنك وأمنن عليك ؟ أما والله لأقتلنك ، قال : لا والله لا تفعل ، قال : ولم ؟ قال : لأن أبى أخبرنى أنك تفتح الشام حتى تَهدم مدينة دمشق حجراً حجراً ، وأنا معك . ثم أنشد :

ألا أبلغ أبا إسحاق أنَّا حملنا حملةً كانت علينا
خرجنا لا نرى الضعفاء شيئاً وكان خروجنا بَطراً وحَيْنا
نراهم فى مَصَفِّهم قليلا وهم مثل الدّبى لما التقينا
[برزنا إذ رأيناهم فلما رأينا القوم قد برزوا الينا
لقينا منهمُ ضرباً طِلَحْفاً وطعناً صائباً حتى انثنينا

* * *

نُصِرتَ عَلَى عدوك كل يوم بكل كتيبة تنعى حسينا
كنصر محمد فى يوم بدر ويوم الشعب إذ لاقى حنينا][2]
فأسجح إن قَدرْتَ فلو قدرنا لجرنا فى الحكومة واعتدينا
تقبَّل توبة منى فإنى سأشكر إن جعلت النقد دينا

فخلى سبيله . .

(١) انظر المؤتلف والمختلف ص ١٣٤ .

(٢) مابين الأقواس عن الطبرى ج ٧ ص ١٢٣ وديوان سراقة .

ثم خرج اسحاق بن الأشعث ومعه سراقة ، فأخذ أسيرا وأتى به إلى المختار ، فقال الحمد لله الذى أمكننى منك يا عدو الله ، فقال سراقة : أما والله ما هؤلاء الذين أخذونى ، فأين هم . . . لا أراهم ؟ ! ! إنا لما التقينا رأينا قوماً عليهم ثياب بيض ، وتحتهم خيل بلق ، تطير بين السماء والأرض ، فقال المختار : خلوا سبيله ليخبر الناس[1] .

ويقول ابن الأثير : « فصعد فأخبر بذلك ، ثم نزل ، فخلا به المختار ، فقال له : إنى قد علمت أنك لم تر شيئاً ، وإنما أردت – ما قد عرفت – أنى لا أقتلك ، فاذهب عنى حيث شئت ، لا تفسد علىّ أصحابى . فخرج إلى البصرة ، فنزل عند مصعب ؛ وأنشأ يقول :

ألا أبلغ أبا اسحاق أنى رأيت البلق دُهما مُصمَتات
أرى عينىّ ما لم ترأياه كلانا عالم بالترهات
كفرت بوحيكم وجعلت نذرا علَىّ قتالكم حتى الممات[2]

وفى رواية الأغانى : « فقال المختار : أما إن الرجل قد شاهد الملائكة ، فخلوا سبيله ، فهرب فأنشأ الأبيات »[3] .

وفى الإصابة : « عن السدى عن رفاعة الغسانى قال : دخلت على المختار فألقى الىّ وسادة ، وقال : لولا أن أخى جبريل قام عن هذه — وأشار الى أخرى — لألقيتها لك »[4] .

---

(١) العقد ج ١ ص ٢٤٣ ـ وعندى أن المختار أعقل من هذا .
(٢) ابن الأثير ج ٤ ص ١٠٠ ، والطبرى ج ٧ ص ١٢٢ شواهد الشافية ج ٤ ص ٣٢٢ والمحاسن والأضداد للجاحظ .
(٣) الطبرى ج ٩ ص ١٣ .
(٤) الإصابة ج ٦ ص ١٩٩ .

ويقول المبرد : « كان المختار لا يوقف له على مذهب ، كان خارجياً ، ثم صار رافضياً فى ظاهره ، وكان يدعى أنه يلهم ضرباً من السجاعة لأمور تكون ، ثم يحتال فيوقعها ، فيقول للناس : هذا من عند الله عز وجل . فمن ذلك قوله ذات يوم : « لتنزلنَّ من السماء ، نار دهماء ، فلتحرقن دار أسماء » . فذكر ذلك لأسماء بن خارجة الفزارى ـ شيخ الكوفة وسيدهم ـ فقال : أوقد سجع أبو إسحاق ؟ هو والله محرق دارى ، فتركه والدار وهرب من الكوفة . وقال فى بعض سجعه : « أما والذى شرع الأديان ، وجنب الأوثان ، وكره العصيان، لأقتان أزد عمان ، وجل قيس عيلان ، وتميما أولياء الشيطان ، حاشا النجيب ظبيان » ، فكان ظبيان النجيب يقول : لم أزل فى عمر المختار أتقلب آمناً »[1].

* * *

قالوا : وادعى أن الملائكة تنزل لنصرته . . فكان يدفع إلى خاصته حماماً بيضاً ضخاماً ، ويأمرهم : « إن كان الأمر له أمسكوها ، وإن دارت الدائرة على جيشه أرسلوها » ، فكان الناس إذا رأوها تصايحوا : الملائكة ! فينهزم العدو .

فعل ذلك يوم طرد عامل ابن الزبير عن الكوفة ، وبالجيش الذى وجهه لمحاربة عبيد الله بن زياد ، ثم خطبهم : « إن استقمتم فبنصر الله ، وإن حصتم حيصة فإنى أجد فى محكم الكتاب ، وفى اليقين والصواب أن الله مُؤيدكم بملائكة غضاب ، تأتى فى صورة الحمام دون السحاب »[2].

---

(١) رغبة الآمل من كتاب الكامل جـ ٧ ص ٢٠٤ .

(٢) رغبة الآمل جـ ٧ ص ٢٩٧ .

وأخرج للناس كرسياً ، فزعم أنه كرسى على ، يقوم لشيعته مقام التابوت فى بنى إسرائيل ، فكبرت السبئية ووسدته شبام ، وشاكر ، ونهد ووضعوا عليه الحرير . . . وفى هذا يقول أعشى همدان :

شَهِدْتُ عليكم أنكم سَبَئِيَّة ... وإنى بكم يا شُرطة الشرك عارف
فأقسم ما كُرسيكم بسَكِينَة ... وإن كان قد لفت عليه اللفائف
وأنْ ليس كالتابوت فينا وإن سعت ... شبام حواليه ، ونَهْد وخارف
وإنِّى أمرؤ أحببت آل محمد ... وتابعت وحيا ضُمِّنَتْه الصحائف
وبايعت عبد الله لما تتابعت ... عليه قريش شُمطُها والغَضارف

ويقول شاعر بنى أمية ـ المتوكل الليثى :

أبلغ أبا إسحاق أنى جئته ... أنى بكُرْسِيِّكم كافر
تنزو شبام حول أعياده ... وتحمل الوحى له شاكر
مُحْمَرة أعينهم حوله ... كأنَّهُنَّ الحامض الخَازِر(١)

ويقول الشهرستانى : ومن مذهب المختار أنه يجوز البداء على الله تعالى، لأنه كان يدعى علم ما يحدث من الأحوال ، إما بوحى يوحى إليه ، وإما برسالة من قبل الإمام ـ ابن الحنفية ـ فكان إذا وعد أصحابه بكون شىء ، وحدوث حادث ، فإن وافق كونه قوله جعله دليلا على صدق دعواه ، وإن لم يوافق يقول : قد بدا لربكم.. وقد تبرأ منه ابن الحنفية حين وصل إليه أنه قد لبس على الناس ، بأنه ليس من دعاته ورجاله ، وتبرأ من الضلالات التى ابتدعها ، ومن التأويلات الفاسدة ،

---

(١) الخازر : رواية ابن الأثير ج ٤ ص ١٠٩ . ولعلها الخاثر . وانظر الطبرى ج ٧ ص ١٤١ والكامل ج ٧ ص ٢١٢ .

والمخاريق ؛ المموهة فمن مخاريقه ، أنه كان عنده كرسى قديم . . . ثم ذكر حديث الكرسى ودعوى نزول الملائكة[١] .

وأنت واجد حديث هذا الكرسى فى الطبرى ، وابن الأثير ، والكامل والفَرْق بين الفِرَق .

ويقول أبو الفداء : وانتقم الله للحسين بالمختار ، وإن لم تكن نية المختار جميلة[٢] .

المختار وبنو هاشم :

هذا هو المختار فى نظر المؤرخين : رجل فاسد الدين ، فاسد العقيدة ، يتخذ التشيع ستاراً لنيل مآربه ، وهو الكذاب فى الحديث الذى روته أسماء بنت أبى بكر — وأم عبد الله بن الزبير — عن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قال : « يكون فى ثقيف كذاب ومبير » فشهدت أسماء أن الكذاب هو المختار .

ولكن المختار فى نظر الهاشميين رجل أدى واجبه ، ونصر بيت الرسول — صلى الله عليه وسلم — بسيفه ولسانه ، وحمى عشيرته من الأمويين والزبيريين والخوارج .

فى ابن الأثير : قال ابن الزبير لعبد الله بن عباس : ألم يبلغك قتل الكذاب قال : ومن الكذاب ؟ قال : ابن أبى عبيد ؛ قال : بلغنى قتل المختار ، قال : كأنك نكرت تسميته كذاباً ، ومتوجع له ! ؟ قال : ذاك رجل قتل قتلتنا ، وطلب ثأرنا ، وشفى غليل صدورنا ، وليس جزاؤه منا الشتم والشماتة[٣] .

---

(١) الشهرستانى ج ١ ص ١٩٧ .

(٢) ج ٤ ص ١١٧ . (٣) ابن الأثير ج ٤ ص ١٧٧ .

وابن عباس فى هذا يمثل الهاشميين جميعاً ، فقد كان المختار بحق ردأهم القوى ، وحصنهم الحصين ، يأخذ ثأرهم ، ويحميهم من عدوهم ، ويمدهم بالهدايا والأموال. . . وكانت هداياه تأتى ابن عمر ، وابن الحنفية ، وابن عباس، فيقبلونها .

وفى اعتقادى أنه لو صح الحديث عند ابن عباس لما أنكر تسميته كذاباً ، وفى اعتقادى كذلك أنه لو صحت هذه الأخبار عن المختار لما توجع ابن عباس عليه ، وابن عباس هو من هو ديناً وعلما ومعرفة بحقوق الله ، وهل كان هؤلاء ـ وهم من سادة الصحابة ـ يقبلون هدية رجل كذاب منافق يدعى النبوة والوحي ، ويفسد عقائد الناس ، وإيمانهم بمخاريقه ؟

رأينا فى المختار :

نقول : وجل ما روى عن المختار مصدره الشعبي ، وقد أحيطت صلاتهما بشبهات ترد أخباره ، على رغم دفاع ابن حجر عن الشعبي وتوثيقه إياه .

على أنه سواء صحت هذه الروايات أم لم تصح ، وسواء أكان المختار كاذباً فى تشيعه ، فاسد النية ، أم كان ذلك من وحى السياسة ، وأكاذيب الأعداء ـ شأن التقول على الزعماء والقادة ، والعمل على تشويه سمعتهم ، والجد فى ذلك حتى تمتلئها صحف التاريخ ـ فلا يستطيع أحد أن ينكر حسن بلائه فى تشيعه ، وانتصاره لآل البيت وحمايتهم ، وأنه قضى حياته متهماً بحبهم ، فلاقى فى سبيل ذلك من ولاة الكوفة أشد أنواع الإعنات والقهر .

فى داره أوى مسلم بن عقيل رسول الحسين إلى الكوفة ، وغمره بعطفه ونصائحه[1] ، وفى سبيلهم ذهبت عينه من ضرب ابن زياد[2] وعرف سجن

---

(١) الطبرى ج ٧ ص ٥٨ .

(٢) ابن الأثير ج ٤ ص ٧١ . وتاريخ ابن عساكر ج ٥ ص ٢٤٧ .

الكوفة مراراً ، فلم يطلقه إلا شفاعة صهره ، عبد الله بن عمر .

ولقد مات المختار، فحفظ له التاريخ ما حفظ من مساوىء ، ولكنه حفظ بجانب ذلك ـ مع شهادة ابن عباس ـ شهادتين . . أما إحداهما فقول الحجاج وقد حدث عنه : لله دره ! أى رجل دينا ، ومسعر حرب ، ومقارع أعداء كان ! ؟[1] .

واستعرض مصعب زوجات المختار ـ بعد قتله ـ وأمرهن أن يتبرأن منه ، ويشهدن عليه بالكذب ، ففعلن إلا أم ثابت بنت سمرة بن جندب الفزارى ، وعمرة بنت النعمان بن بشير ، فقالتا : كيف نتبرأ من رجل يقول ربى الله ! ؟ كان صائم نهاره ، قائم ليله ، قد بذل دمه لله ورسوله فى طلب قتلة ابن بنت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأهله وشيعته ، فأمكنه الله منهم ، حتى شفى النفوس . . . فكتب مصعب إلى أخيه عبد الله : أن عمرة تزعم أنه نبي ، فأمره بقتل من تأبى البراءة منه ، فقالت أم ثابت : لو دعوتنى إلى الكفر مع السيف لكفرت . . . أشهد أن المختار كافر . . وأبت ابنة النعمان فقتلت ليلا بين الكوفة والحيرة . . ضربها شرطى ثلاث ضربات بالسيف :

وفى هذا يقول عمر بن أبى ربيعة :

إن من أعجب العجائب عندى ... قَتْل بيضاء حُرة عُطْبُول
قتلت باطلا على غير جُرم ... إن لله درها من قتيل
كتب القتل والقتال علينا ... وعلى الغانيات جر الذيول[2]

وموقف مصعب هذا هو مفتاح الكذب على المختار ، وتشويه سمعته . استمع

(١) الطبرى ج ٧ ص ٦٠ ، وابن الأثير ج ٤ ص ٧٢ .
(٢) مروج الذهب ج ٢ ص ٩٠ ، والطبرى ج ٧ ص ١٥٨ . والأخبار الطوال ص ٣٠٠ ، وفيها شعر لعبد الرحمن بن حسان بن ثابت .

إلى ابن حجر يقول : وكان المختار معدوداً فى أهل الفضل والخير إلى أن فارق ابن الزبير[١] .

وفى الطبرى – عند الحديث عن الكرسى : « حدثنا موسى بن عامر ، أنه إنما كان يضع ذلك لهم عبد الله بن نوف ، ويقول : المختار أمرنى بذلك ويتبرأ المختار منه[٢] » .

فلم يكن المختار إلا رجلا أبلى فى سبيل قضيته أحسن البلاء ، وكان أثره فى الزبيريين والأمويين كبيراً جداً ، فعملوا على محاربته بهذه الأكاذيب ، وكم فعل بنو أمية فى سبيل تشويه سمعة الحسن بن على . . . ولعل التحقيق العلمى يكشف لنا هذا الغطاء الكثيف فيجلو المختار فى حقيقته . . . إما له ، وإما عليه .

* * *

والذى يهمنا أن نقول : لقد كان الحزب الكيسانى مجازاً انتقل عليه الأدب الشيعى من طور إلى طور ، فأصبح أدب العقائد والفلسفة والتسرب فى شرايين الدعوة الشيعية .

وقد عاصر المختار جمهرة من الشعراء الشيعيين ، أمثال : كُثَيِّر عزة ، وأبى الطفيل عامر بن واثلة الكندى .

---

(١) الإصابة ج ٧ ص ١٩٩ .

(٢) الطبرى ج ٧ ص ١٤١ .

الشعر والشعراء

أطوار الشعر العربى — شعراء الشيعة — ترجمة الكميت بن زيد الأسدى — والسيد الحميرى .

الشعر فى الجاهلية :

الشعر قديم فى حياة المجتمع الإنسانى ، بل هو أقدم الآثار الوجدانية ، وأصدق مظاهر الأدب فى كل أمة .

والعرب من أشعر الساميين فطرة ، وأبلغهم على قول الشعر قدرة ، لاتساع لغتهم للقول ، وملاءمة بيئتهم للخيال ، فهم بين مناظر البادية ، واتساع الصحراء ، فى فضاء يملأ الذهن والنفس خيالا ، وجلالا ، وروعة ، فأكسبتهم هذه الحياة نفوساً شاعرة ، وطباعاً ثائرة ، وأعصاباً ملتهبة ، يهيجها الرضا ، ويطيش بها الغضب ، وتثيرها الرغبة ، ويهزها الطرب ، وهذه كلها من أقوى فواعل الشعر ودواعيه . . . فما كان للناس عجباً أن ملك الشعر مشاعر العرب فى جاهليتهم ، وكان له السلطان الأقوى على نفوسهم ، والأثر الفعال فى حياتهم ، والمقام الأعلى فى كلامهم ، وكان الشعراء هم حكام البادية ، ومفخرة القبائل .

الشعر فى الاسلام :

وانتقل الشعر الى الإسلام مع العرب ، فكان أكبر الظن — وقد أفسح المجال لخيالهم ، وهذب أفكارَهُم وحياتهم — أن يبلغوا فى وضحه أبعد الغايات فى نسج الشعر ونهجه . . . ولكنهم سمعوا قولا من قول الله ، أثارَ مشاعرهم أكثر مما أثارَها الشعر ، وملك خواطرهم أكثر ممَّا مَلكها الشعر ، وأخذهم بأدب لا يحيا فى ظلاله الشعر .. جماعه الإسلام والوئام والوحدة وطهارَة النفس، فانحط شأن الشعر وتعطلت آلاته . وانصرف العرب عنه الى حفظ القرآن ورِواية

الحديث ، وجهاد الشرك ، والدعوة إلى الدين الجديد عن طريق الخطابة ؛ فكانت المظهر القوى للأدب فى هذا العصر .

يقول أمير المؤمنين عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — : « كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه ، فجاء الإسلام ، فتشاغلت عنه العرب ، وتشاغلوا بالجهاد ، وغزو فارس والروم ، ولهت عن الشعر وروايته »[1].

فلم يبق منه إلا أثارة قليلة وصلت بين عصرين عظيمين من عصوره هما : العصر الجاهلى ، والعصر الأموى .

الشعر فى العصر الأموى :

ففى العصر الأموى بدأ الشعر حياة جديدة ، استعاد فيها دولته ، واسترد صولته ، إذ ذهبت بهتة الشعراء وتكشفت روعتهم ، وانشعب المسلمون حول الخلافة فِرَقًا وأحزابًا ، وتفرقت كلمتهم ، وعاد القوم إلى حياة آبائهم يمجدون جاهليتها ، ويحيون تراثها ويؤرثون ما خمد من عداوتها وأيامها ، ويضرمون جذوة العصبية ، حتى أصبح فى كل بلد فريقان : عدنانى وقحطانى ، وربعى ومضرى . وافترق كل إلى شيع وأحزاب . واستباح القوم فى إثارة هذه الروح كل محرجة ، وبذلوا كل رغبة ، فإذا هذه العصبية — التى حرم الإسلام الاعتضاد بها ، والدعوة إليها — قوام سياستهم ، ودستور حياتهم ، وتتابعت الأحداث والفتن ، فذبح أبناء الرسول - صلى الله عليه وسلم - على بطحاء كربلاء ، وطوقت هذه السلالة الكريمة وأشياعهم بالقتل والتشريد ، وأحرقت الكعبة ، وأبيحت مدينة الرسول - صلى الله عليه وسلم - للجيش

(١) طبقات الشعراء لابن سلام ص ١٠ .

الشامى ، وغدت الجزيرة العربية مسرحاً للأهواء والجدل ، ومجالا للتخريب والحروب . فإذا أضفنا إلى ذلك ملكة قوية ، وحرية واسعة ، وحصافة أفادها الإسلام ، وقدرة على الجدل والخصام ، أدركنا إلى أى حد كان هذا العصر بدء معركة كلامية ، كان للشعر فيها السهم الربيح فى نهضة العرب الأدبية والسياسية والاجتماعية .

أثر الشعر فى الحركات الحزبية :

وإنك لتعلم ما لاستخدام الشعر من أثر قوى فى الحركات السياسية ، ومن أقدر من الشعراء على تمويه الرأى ، واستثارة العاطفة ، واستنهاض الهمم ، وحفز العزائم ! ؟

لذلك تسابقت الأحزاب العربية إلى الشعراء يجزلون مثوبتهم ويحملونهم على مناهضة من سواهم ، ودعوة الناس إلى نصرتهم ، وشرح قضيتهم ، والاحتجاج لآرائهم ، فعل ذلك الأمويون — أصحاب الحول والطول — بمن ناوأهم من هاشميين ، وزبيريين ، وخوارج ؛ فنصرهم جل الشعراء رغباً ورهباً ، وقابلهم هؤلاء الخصوم بمثل ذلك ، فتحزب لهم فريق ، ثم كان العباسيون والعلويون ، فوقفوا هذا الموقف من الشعر ورجاله ، فاستحرت وقائعه ، ودارت رحاه ، وتكاملت فنونه ، وبخاصة الشعر السياسى ، وما يتطلبه من جدل وثقافة .

الشعر السياسى :

وما نزعم بتسميتنا « الشعر السياسى » أن الشعراء قد وقفوا على مذهب جديد — جديد فى القصد والغاية — فإن مساجلة الخصوم بالشعر كانت مألوفة

فى عهد الجاهليين ، مشروعة أيام النبوة ، إنما نقصد بالشعر السياسى طائفة من المعانى الجديدة ، استوحتها خواطر الشعراء من اختلاف الأحزاب فى الرأى ، ومنازعة الزعماء فى الخلافة ، جاءت على النهج القديم ، فى صور مختلفة بين مدح وهجاء ، واقتراح لسياسة ، أو بيان لمذهب .

إسهام العرب فى هذه الخصومة :

وإذا علمنا أن العرب جميعاً قد أسهموا فى هذه الخصومة ، وأن أكثرهم يقول الشعر ، خصوصاً فى هذه الفتن المتأججة ، والحياة المكفهرة ، وأن الشعر أصبح صناعة يقوم عليها بعض الناس ، وأن الدولة القائمة ، والأحزاب السياسية ، قد اتخذته من عدد حروبها ؛ أدركنا وفرة الشعر ، وكثرة الشعراء ، حتى نبغ فى هذه الفترة التى نؤرخها زهاء مائة شاعر ، ضاق مضطربهم فى السعى ، فاتسع متقلبهم فى الخيال ، وغلت أيديهم عن العمل ، فاشتغلت أفئدتهم بالفكر وألسنتهم بالقول .

منهج الشعر السياسى :

وشعرهم ـ وإن سار على منهج الجاهلية فى أوزانه وأغراضه ، وأخيلته وأسلوبه ـ أسمى خيالا ، وأقرب منالا ، وأوثق مبنى ، وأغزر معنى من شعر المتقدمين ، لتأثرهم بالدين والحضارة ، والنظم السياسية .

الشعر الشيعى :

هذا ، ولقد كان من حظ هذا الحزب الشيعى أن آمن بفكرته جمهرة من فحول الشعراء ، وقفوا عليه حياتهم وجهدهم ، فكان لشعرهم جمال الإخلاص ، وروعة الخيال ، وقوة الحقيقة .

شعراء الشيعة :

فمن هؤلاء : الفضل بن عباس بن عتبة ، شاعر الهاشميين ، وأبو الأسود الدؤلى ، والنجاشى : قيس بن عمرو ، وأبو الطفيل : عامر بن واثلة الكندى ، وابن أبى جمعة : كثير عزة ، والكميت بن زيد الأسدى ، والسيد الحميرى ، ودعبل بن على الخزاعى . . وكثير غيرهم .

ونترجم الآن لشاعرين من شعراء هذا الحزب ، لنستشف من خلال ذلك صور مذاهبهما ، ومقدار بلائهما فى قضيتهما . . أما أحدهما فشاعر الإمامية الكميت بن زيد الأسدى . . . وأما الآخر فشاعر الكيسانية السيد الحميرى .

الكميت بن زيد الأسدى

(٦٠ — ١٢٦ هـ)

نشأته ـ مصادر إلهامه ـ أقوال النقاد فيه ـ ديباجة الكميت ـ ما أخذ عليه للفضل الضبي ـ الجاحظ ـ رأينا فى نقده ـ ابن قتيبة ـ رأينا فى ذلك ـ رأينا فى الكميت ـ مميزات شعر الكميت ـ خصائص شعره ـ الكميت الراوية ـ دعا الشعراء إلى ترك الأطلال ـ أغراضه الشعرية ـ الشعر القبلى ـ تشيع الكميت ـ إخلاصه لعقيدته ـ مسه التصوف فى حبه ـ الكميت فى نظر الجماهير الشيعية ـ أدب الحجاج لعقيدته : النص والوراثة ـ الهاشميون منحوا صفات الزعامة ـ بنو أمية والخلافة ـ المبادىء الشيعية فى شعره ـ محنة الكميت ـ الكميت فى مجلس هشام بن عبد الملك ـ مدائح الكميت ـ المدائح الأموية وأثرها فى الجو الشيعى ـ أخلاق الكميت وإخوانياته ـ حكمه ـ ضياع شعره ـ قتله .

نشأته :

لم تستطع المصادر الأدبية — التى بين أيدينا — أن تكون لنا صورة واضحة للحياة الخاصة التى درج الكميت فى خلالها ، وتأثرت مواهبه منذ صباه بآثارها ، حتى صيرته أهلا لإنضاج هذه الثمرات الأدبية ، وصعدت به إلى مراتب الفحول .

ولعل أول ما لفت النظر إليه ما رواه ابن قتيبة ، قال : « وقف الكميت على الفرزدق — وهو صبى — والفرزدق ينشد ، فقال له : يا غلام ، يسرك أنى أبوك ؟ قال : أما أبى فلا أريد به بدلا ، ولكن يسرنى أن تكون أمى ، فحصر الفرزدق ، وقال : ما مر بى مثلها قط »[1] .

---

(١) الشعر والشعراء ص ١٣٩ .

فهذه الحادثة التى تحمل ذكاء الكميت ، ونضج عقله ، كفيلة بأن تجعل له شهرة بين الناس .

وشىء آخر يجب أن نذكره فى نشأة الكميت ، وهو أنه قد مارس التعليم بمسجد الكوفة . . ومثل هذه الحياة التعليمية تكسب صاحبها ثقافة فقهية ظهر أثرها فى حجاجه الشيعى ، كما هيأ له القدر جدتين أدركتا الجاهلية ، فكانتا تصفان له البادية ، وتخبرانه بأخبار الناس ، فإذا ما شك فى شعر أو خبر عرضه عليهما فتخبرانه . . .

قالوا : فمن هنا كان علمه[1] .

وبعض الرواة يأبى إلا أن يجعل الكميت من الأعاجيب ، فهو قد نبغ دفعة واحدة ، فكان أول شعر قاله قصيدته :

طربتُ ، وما شوقاً إلى البيض أطربُ
ولا لعباً منى ، وذو الشيب يلعب[2]

والنقد الأدبى يرى أن هذه القصيدة نتيجة التجربة الممتدة ، والحياة الأدبية الطويلة ، هى صرخة شاعر فحل طال منه الصيال ، ولا يمكن أن تكون بداية شعرية . . فالكميت — من غير شك — نشأ كسائر الشعراء بدأ ، ثم تسامى إلى منازل الشعر الرفيع .

مصادر إلهامه :

ولقد تجمعت للكميت أسباب قول الشعر ، فهو[3] عربى صميم من بنى أسد بن

---

(١) الشعر والشعراء ص ١٣٩ . (٢) البيان التبيين ج ١ ص ١٧٥ .
(٣) الأغانى ج ١٥ ص ١٢٥ .

خزيمة ، ثم من مضر بن نزار ، وولد سنة ستين من الهجرة ـ أيام قتل الحسين ـ ونشأ فى الكوفة منبر الشعر والخطابة ، ومدرسة اللغات والثقافة ، ومثار العصبيات والتحزب ، ومدرج الفتن ومثابتها ، بعد تطوافها فى البلاد وتجوالها ، وتثقف ثقافة جاهلية بما سمع من جدتيه ، وحفظ من أشعار الفحول ، وإسلامية بما درس من قرآن وحديث . . واستظل بعصر أموى يعتز بالعربية ويتعصب لتراث آبائه وأجداده ، ويحيي ما اندثر من عصبيات قديمة أماتها الإسلام ، بل لقد كان للعصبية فى عصره قوة لم تعرف بمثل شدتها وتشعب اتجاهها فى غيره .

كانت عصبية بين العدنانية والقحطانية ، ثم بين فرعى العدنانية من مضر وربيعة ، ثم تغلغلت فكانت بين الأمم والأقطار والمدن ، وسمعنا : فرزدقيون ، وجريريون ، كما سمعنا : زبيريون ، وشيعة ، وأمويون ، وخوارج . . كل يتعصب لرأيه ، ويجالد فى سبيله

والعصبية ـ كما تعلم ـ تتطلب من الشاعر علماً بمفاخر القبائل ومثالبها ، وأيام العرب ولغاتها . . وكل ذلك قد اجتمع للكميت ، مع رأى حر ، وشكيمة قوية ، ونفس حساسة ، وبيان ناصع . . فإذا هو شاعر ، خطيب ، راوية للشعر ، نقاد للكلام ، عالم بلغات العرب ، نسابة لهم ، يعرف بيوتهم ومفاخرهم ومثالبهم ، من صحح نسبه صح ، ومن طعن فيه وهى ، وإذا هو فوق ذلك زاجر للطير ، ومهتد بالنجوم ، وجدلى محتج لرأيه وعقيدته ، دامغ الحجة فى الدفاع عنها .

ولم يكن ذلك بدعاً من الكميت وقد تجلت أمام ناظريه أسبابه ، واكتملت فواعله ، ولكن البدع أن يبذ فى كل ذلك ، حتى يغلب حمادا فى الرواية

والغريب[١] ، ويكون مفخرة بنى أسد فى الشعر والخطابة والجدل ، ولسان الشيعة المدافع عنهم ، المحتج لرأيهم ، وأن يعفى على النسابين من قبله ، حتى شهد له بكل ذلك فحل من فحول عصره .

أقوال النقاد فيه :

فى خزانة الأدب : « فى الكميت خصال لم تكن فى شاعر ، كان خطيب بنى أسد ، وفقيه الشيعة ، وحافظ القرآن ، وثبت الجنان ، وكان كاتباً حسن الخط ، وكان جدليا ، وهو أول من ناظر فى التشيع مجاهراً بذلك ، وله فى أهل البيت القصائد المشهورة ، وهى أجود شعره »[٢] .

وقال أبو عكرمة الضبي : « لولا شعر الكميت لما كان للغة ترجمان ولا للبيان لسان »

وحدث عن أبيه قال : أدركت الناس بالكوفة يقولون :

من لم يرو * طربت وما شوقاً إلى البيض أطربُ * فليس بهاشمى

ومن لم يرو * ذكر القلبُ إلفه المهجورا * فليس بأموى

ومن لم يرو * هلا عرفت منازلا بالأبرق * فليس بمهلبى

ومن لم يرو * طربت وهاجك الشوق الحثيثُ * فليس بثقفى[٣]

نقول : وكلها للكميت . . . ومعنى هذا أن الشاعر قد استبد بعواطف هذه الجماهير ؛ فشغلها بحفظ شعره ، وترك لكل قبيلة مفخرة تنشدها ، وترويها لأبنائها .

---

(١) الأغانى جـ ١٥ ص ١١٧ .

(٢) جـ ١ ص ٩٩ .

(٣) شرح شواهد المغنى ص ١٣ – ١٤ .

وقدم الفرزدق الكوفة ؛ فأنشده الكميت بائيته :

* طربت ، وما شوقاً إلى البيض أطرب *

فقال الفرزدق : قد طربت إلى شيء ما طرب إليه أحد قبلك ، فأما نحن فما نطرب ـ ولا طرب من كان قبلنا ـ إلا إلى ما تركت الطرب إليه .

وفي رواية : يابن أخي ، أذع ثم أذع ، فأنت ـ والله ـ أشعر من مضى ، وأشعر من بقي[1] .

ولشهادة الشعراء قيمة ، فهم أعرف بعيون الكلام ، وأبصر بالمآزق التي يتعرض لها الشعراء ، فإنما يعرف الشعر من تمرس بنظمه ، ودفع إلى مآزقه . . وهي إذا كانت من الفرزدق أخذت طابعاً خاصا ، فقد كان حسب الشاعر في ذلك العصر أن يشهد له مثل الفرزدق . . وسوف لا يضرها تشيع أبي فراس إذا علمنا من هو كبراً وحقداً على المجيدين .

وينقل ياقوت عن ابن عبدة النساب : « ما عرف النساب أنساب العرب على حقيقتها ، حتى قال الكميت النزاريات ، فأظهر بها علماً كثيراً : ولقد نظرت في شعره فما رأيت أحداً أعلم منه بالعرب وأيامها ، قال أبو عبد الله السكوتي : فلما سمعت هذا جمعت شعره ، فكان عوني على التصنيف لأيام العرب »[2] .

ويعده الجاحظ من الشعراء الخطباء[3]، ويقول : « ما فتح للشيعة باب الحجاج في الشعر إلا الكميت »[4] .

---

(١) الأغاني جـ ١٥ ص ١٢٤ . (٢) معجم الأدباء جـ ١ ص ٤١٠ .

(٣) البيان والتبيين جـ ١ ص ٥١ ، جـ ٣ ص ٢٥٣ .

(٤) شرح شواهد المغني ص ١٤ .

والجاحظ من أعلم الناس بتطورات الحركة العلمية فى الأحزاب السياسية .

والكميت عند أبى الفرج « شاعر مقدم ، عالم بلغات العرب ، خبير بأيامها ، من شعراء مضر وألسنتها ، والمتعصبين على القحطانيين المقارعين المقارنين لشعرائهم ، العلماء بالمثالب والأيام المفاخرين بها »[1] . . ويعتبره من نقاد الشعر ، فينقل رأيه فى أمية بن أبى الصلت[2] .

وسئل معاذ الهراء : « من أشعر الناس ؟ فقال : من الجاهليين : امرؤ القيس ، وزهير ، وعبيد بن الأبرص . ومن الإسلاميين : الفرزدق ، وجرير ، والأخطل . . . فقيل له : يا أبا محمد ، ما رأيناك ذكرت الكميت ! ؟ فقال : ذاك أشعر الأولين والآخرين »[3] .

وفى هذا الحكم مبالغة . . ولكنه دليل التقدم .

وعنى ابن الأعرابى بمدارسة شعره ، ولفت المتأدبين إليه[4] . . . وكان ابن الأعرابى لا يشغل نفسه إلا بالشعراء الفحول ، الذين يعرفون الأنساب واللغة ، والذين يصطنعون الأساليب الجاهلية ، لأنهم أئمة البيان فى رأيه ، وكذلك كان الكميت .

واحتج بشعره النحويون ، واللغويون . . وملأت شاعريته حياة الأدباء ، فأصبح فى عصره ـ وبعد عصره ـ مضرب المثل .

فيقول البديع الهمذانى فى رسالة الذهب والأدب : واحتيج فى البيت

---

(١) الأغانى جـ ١٥ ص ١٠٠ .

(٢) الأغانى جـ ٤ ص ١٠٠ .

(٣) خزانة الأدب جـ ١ ص ١٠٠ والأغانى جـ ١٥ ص ١٢١ .

(٤) معجم الأدباء جـ ١ ص ١٣٢ .

إلى شيء من الزيت ، فأنشدت ألفا ومائتي بيت ، من شعر الكميت ، فلم يغن »[1] .

فالبديع يشهد أن أدب الكميت في الرعيل الأول إذا تسابقت الآداب .

ديباجة الكميت :

لقد كان للكميت ديباجة صارت عنواناً عليه ، يعرفه بها الرواة ، وإن لم يقرن اسمه بالشعر ، ودلالة الأسلوب على صاحبه مظهر من مظاهر قوة الشخصية ، وعلامة الذيوع والاستقلال .

يقول صاحب الأغاني : « كان هشام بن عبد الملك قد اتهم خالد بن عبد الله القسري[2] ، وكان يقال له : إنه يريد خلعه ، فوجد بباب هشام يوماً رقعة فيها شعر ، فدخل بها ، فقرئت عليه ، وهي :

تألق بَرْق عندنا وتقابلت ... أثافٍ بقدر الحرب أخشى اقتبالها

فدونك قِدْر الحرب وهي مقرّة ... لكفيك ، واجعل دون قِدْر جِفالها

ولن تنتهي أو يبلغ الأمر حدّه ... فَنَلْها برِسل قبل ألا تنالها

فَتَجْشم منها ما جَشمت من التي ... بسوراء هرّت نحو حالِك حالها

تلاف أمورَ الناس قبل تفاقم ... بعقدة حزم لا تخاف انحلالها

(١) معجم الأدباء جـ ١ ص ١٠٠ .

(٢) خالد بن عبد الله القسري : أحد أجواد العرب ، وسادة اليمن ، ولى العراق لهشام بن عبد الملك خمسة عشر عاما — (١٠٥ — ١٢٠) — كان فيها موئل الشعراء والناس ، ثم نقم عليه هشام فعزله . وولاها يوسف بن عمر الثقفي ، وأطلق يده في خالد ، فافتن في تعذيبه حتى قتله في خلافة الوليد بن يزيد فكان لقتله دوى في الأدب والسياسة والدولة الأموية (الكامل للمبرد والمعارف لابن قتيبة ، وتاريخ ابن عساكر) .

فما أبرم الأقوام يوماً لحيلة　　من الأمر إلا قلدوك احتيالها
وقد تخبر الحرب العوان يسرها　　وإن لم تبح من لا يريد سؤالها[١]

فأمر هشام أن يجمع له من بحضرته من الرواة ، فجمعوا ، فأمر بالأبيات فقرئت عليهم ، فقال : شعر من تشبه هذه الأبيات ؟ فأجمعوا من ساعتهم أنه كلام الكميت بن زيد الأسدى ، فقال هشام : نعم ، هذا الكميت ينذرنى بخالد بن عبد الله[٢] .

ومعنى ذلك أنه كان لشعر الكميت طابع لا يشتبه معه غيره ، وهذا الطابع هو دليل الاستقلال ، وآية الملكة المستغنية عن الاحتذاء والتقليد .

وإجماع الرواة من ساعتهم دليل آخر على تحليق هذا الفن فى سماء وحده لا يتسامى إليه غيره من أهل عصره .

والشعراء فى كل عصر تتدانى ملكاتهم وتتقارب قواهم ، وتلتقى فى مشرب واحد مآخذهم ، فحسب أحدهم زعامة أن يستقل بأسلوبه حتى يعرف به ، وينسب إليه ، وتلك منزلة بلغها الكميت ، فاستحق هذه الشهادات المجمعة على جودة الصناعة ، وحسن السبك .

مآخذ النقاد عليه :

بيد أن الكميت ـ ككل شاعر ـ لم يخل من نقاد أسفوا به ، وآخرين عدوا عليه سقطا فى اللفظ أو الأسلوب .

---

(١) يقال : اقتبلت الأمر إذا استأنفته . والأثافى : جمع إثفية وهى الحجر يوضع عليه القدر ، والجعال : خرقة ينزل بها القدر . والرسل : الرفق والتؤدة ، وسوراء : موضع ، والعوان : الحرب التى قوتل فيها مرة (الأغانى ج ١٥ ص ١١٥)

(٢) الأغانى ج ١٥ ص ١١٩ .

المفضل الضبي :

فالمفضل الضبي لا يحتج به ، ويسلكه مع كثير ، وذى الرمة والطرماح[1] .

وبشار لم يعتبره شاعراً ، حتى إذا قيل له : وكيف وهو الذى يقول :

أنصف امرىء من نصف حَيٍّ يسـ
بنى ؟ لعمرى لقد لاقيتُ خطباً من الخطب

هنيئاً لكلبٍ أنَّ كلباً يسـبنى
وأننى لم أردُد جـواباً على كلب

بهت بشار ، واستتر بهجر القول[2] .

الجاحظ :

ويقول الجاحظ : « ومن غرائب الحمق المذهب الذى ذهب إليه الكميت بن زيد فى مدح النبى – صلى الله عليه وسلم – حيث يقول :

فاعْتَتَبَ الشوق فى فؤادى والشـعر إلى من إليـه مُعْتَتَبُ
إلى السراج المنير أحمـد لا يعدلنى رغبـة ، ولا رهب
وقيل : أفرطت ، بل قصدتُ ولو عنفنى القائلون ، أو ثلبوا
إليك يا خير من تضمنت الأ رض ، وإن عاب قولى العُيُب
لجّ بتفضيلك اللسـان ، ولو أكثر فيك الضجاج واللجبُ

فمن رأى شاعراً مـدح النبى – صلى الله عليه وسلم – فاعترض عليه

---

(١) شرح شواهد المغنى ص ١٤ .
(٢) الأغانى جـ ٣ ص ٢٢٥ .

واحد من جميع أصناف الناس ، حتى يزعم أن ناساً يعيبونه ، ويثلبونه ، ويعنفونه ! ! ؟ ؟

ولقد مدح النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فما زاد على قوله :

فبورك قبر أنت فيه ، وبوركت به ، وله أهل بذلك يثرب
لقد غيبوا برا ، وحزماً ، ونائلا عشية واراه الصفيح المنصب

وهذا شعر يصلح فى عامة الناس »[1] .

وعن الجاحظ أخذ ابن رشيق نقده . ثم قال : وقال من احتج له : لم يرد النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وإنما أراد عليًّا ـ رضى الله عنه ـ فورى عنه بذكر النبي ـ صلى الله عليه سلم ـ خوفاً من بنى أمية[2] .

وهذا القول رأى الشريف المرتضى فى أماليه[3] .

رأينا فى هذا النقد :

ونحن نرى أن الكميت كان أعلم بأخلاق عصره من هؤلاء ، وأمس بسياسته . . . كان يشعر أنه يحيا وسط دولة ترى أن هذا اللون من مدح الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ تزكية للهاشميين ، ولفت للذهن إلى حق هؤلاء فى الخلافة .

وإذا كانت السياسة قد أباحت لابن الزبير ـ على مكانته الدينية وبيته من الإسلام ـ أن يسقط ذكر النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ من خطبه حتى إذا ليم على

---

(١) البيان والتبيين ج ٢ ص ١٧٢ . والصفيح : حجارة عراض رقاق .
(٢) العمدة ج ٢ ص ١٥٢ ، ص ١٦٣ .
(٣) ج ٣ ص ١٦٦ .

ذلك قال : والله ما يمنعنى من ذكره علانية أنى لا أذكره سرا ، وأصلى عليه ، ولكنى رأيت هذا الحى من بنى هاشم إذا سمعوا ذكره اشرأبت أعناقهم ، وأبغض الأشياء إلى ما يسرهم — وفى رواية : إن له أهيل سوء[١] .

نقول : إذا كانت السياسة قد أباحت لابن الزبير هذا فما بالك ببنى أمية فى عصر الكميت وقد تغيرت الأخلاق ، وفسد الناس ! ! ؟ ؟

فالكميت يحدثنا عن عصر يحيا فيه ، ويصطلى بسياسته ، ويحس أن مدحه للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ يعرضه للعيب والثلب والعنف .

والجاحظ يحكم فى الرجل نظرة دينية ، ويتناسى أن السياسة قد بدأت فى هذا العصر تستقل عن الدين ، فبغضت هـذا اللون من المديح ، لا لأنه مدح للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بل لأنه ضرب من التمرد والشغب والخروج على السلطان ، به تشرئب أعناق الهاشميين ، ويلفت الناس إليهم . . هذا إلى أن الجاحظ عثمانى ؛ فلا غرو أن اهتم بنفى هذه التهمة عن بنى أمية ، واحتشد لذلك ، فعد مذهب الكميت حمقا ، بل من غرائب الحمق .

ورثاء الكميت للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ هو المذهب المعهود فى عصره ، وقد رثاه حسان بن ثابت فما زاد على أن قال :

لقد غَيَّبُوا حِلما ، وعلما ، ورحمة   عشية علّوه الثرى ، لا يوسد

ومنه أخذ الكميت فكان بيته أمس بالخيال الشعرى ، وأقرب إلى أساليب المدح العربى ، إذ جمع له البر ، والحزم ، والجود . . وتلك صفات الزعامة العربية

---

(١) العقد الفريد ج ٢ ص ١٥٧ وابن أبى الحديد ج ٢٠ ص ٤٨٩ .

والإسلامية . . فالكميت عربى فى مديحه ، أما حسان فقد غلب عليه الدين فكانت عنايته بالحلم والعلم والرحمة . . هذا ، ولا يوسد فى بيت حسّان جىء بها للقافية ، بل الشطر كله ضعيف ، فأين وازاه الصفيح من علوه الثرى ! ! ؟ ؟ وكل ذلك زيادات تجعل شاعرنا يستبد بالمعنى الشعرى فينسب إليه .

ابن قتيبة :

وكان ابن قتيبة أشد نقداً للكميت ، فهو يراه شديد التكلف للشعر كثير السرقة ، فإذا قال امرؤ القيس بن عابس الكندى[1] :

قف بالديار وقوف عابس وتأنّ إنك غير آيس
ماذا عليك مِنْ الوقو فِ بهامِدِ الطللين دارس
دَرَجت عليها الرائحا تُ الغادِيات من الرّوَامِس

أخذ الكميت هذه القصيدة — إلا القليل — ولم يغير إلا القافية ، فقال :

قف بالديار وقوف زائر وتأنّ إنك غير صاغر
ماذا عليك من الوقو فِ بهامِدِ الطللينِ داثر
دَرَجت عليها الرائحا تُ الغادِيات من الأعاصِر[2]

رأينا فى نقد ابن قتيبة :

وفى ظنى أن ابن قتيبة قد أسرف فى حكمه على الشاعر ، فما كان الكميت متكلفاً ، ولا كثير السرقة ، ولكنه شاعر امتلأ ذهنه بالمحفوظ من شعر

(١) امرؤ القيس بن عابس: شاعر مخضرم له صحبة (معجم الشعراء ص ٩ ومعاهد التنصيص ج ١ ص ١٧٣) .

(٢) الشعر والشعراء ص ١٢٩ .

السابقين فتأثر بذلك نتاجه ، ومثل هذا كثير فى التاريخ الأدبى ، ثم لا يعده النقد الأدبى سرقة . . وما كان للكميت الشاعر المكثر المجيد أن يعيبه ارتجال شعر خفيف الوزن مثل :

قف بالديار وقوف زائر وتأنّ إنك غير صاغر

حتى يلجأ إلى سرقتها ، ثم يعرضها فى مجلس هشام بن عبد الملك ـ أو مسلمة أخيه ـ وينسبها لنفسه ، على مسمع من رواة الأدب . على أنه إذا صح للكميت أن يسرق بيتاً أو بيتين ، فما كان له أن يسرق قصيدة بتمامها ، فلا يكون له فيها إلا القافية وقليل من الأبيات ، كما يقول ابن قتيبة .

* * *

وهو عند العجاج قروى يتسقط الغريب ويستعمله ، فلا يقع به فى مكانه ، ومن ثم كان الأصمعى وأبو عبيدة يعيبان شعره .

وقد يكون فى هذا بعض الحق ، وعذر الكميت أن ثقافته اللغوية أتت إليه بالمدارسة والوصف ، وبذلك اعتذر لذى الرمة[1] ، واجتهد أن يجرى شعره مجرى التلميح .

على أن تسعة أعشار شعر الكميت — أو يزيد — قد ذهب مع الزمن ، والعشر الباقى لا أثر فيه لغريب قد وضع فى غير موضعه .

رأينا فى الكميت :

على أنا لا نرى الكمال المطلق للكميت ، ولكنا نؤمن بأنه شاعر كوفى فحل ، وراوية للشعر نقاد ، قد درس لغات العرب وأيامها ، ووقف على مفاخر

(١) الأغانى ج ١ ص ١٢٥ .

القبائل ومثالبها، وأنسابها، فبان أثر ذلك فى شعره، وعدا نتاج الجاهليين على نتاجه، ومكنته هذه الثقافات من أن يضيف إلى التراث الأدبى ثروة لم يضفها شاعر قبله، مثل فيها نشاطه الفكرى، وحرية الرأى وسمو الإنتاج، وشارك بها فى كل ما يدور حوله البحث، ويحتدم الجدال، وشغل الناس، فهز مجالس الولاة، وعروش الخلفاء، فرقاً حيناً، وطرباً حيناً آخر.

ثم هو شاعر مطبوع طويل النفس حتى ليم على الإطالة، فقال: أنا على القصار أقدر[1].. معنى بتجويد شعره، قيل له: إنك قلت فى بنى هاشم فأحسنت، وقلت فى بنى أمية أفضل، فأجاب: إنى إذا قلت أحببت أن أحسن[2].. فهو مخلص لفنه، مالك له، معنى بتجويده وإن خالف هواه.. فجاء شعره صورة لهذا الطبع المستقل، والملكة الصناع.. قد اجتمعت له أسباب الكمال فكمل، واستحق برصانة لفظه، وفخامة أسلوبه، وطول نفسه، وبعد إشارته؛ هذه الشهادات من شيوخ الأدب ونقدته.

مميزات شعر الكميت:

أهم ما يمتاز به شعر الكميت جزالة اللفظ، وفخامة العبارة، وإلفه لأساليب الجاهلية وتشبيهاتها، كتألق البرق، وقدر الحرب، وتقابل الأثاف فى أبيات هشام السابقة، وكقوله فى بائيته يذم بنى أمية:

---

(١) البيان والتبيين ج ١ ص ٩٥١.

(٢) الأغانى ج ١٤ ص ٢٨. ومثله فى هذا الشريف الرضى حيث يقول:

أهذب فى مدح اللئام خواطرى ... وأصدق فى حسن المعانى وأكذب

وما المـــدح إلا للنبى وآله ... يرام، وبعض القول ما يتجنب

إذا اتضعونا كارهين لبيعـة ... أناخوا لأخرى ، والأزمة تجذب[١]
ردافا علينا لم يَسِيمُوا رعيـة ... وَهَمُّهم أن يمتروها ، فيحلبوا[٢]
أقاربنا الأدنون منكم لعَـلّة ... وساستنا منهم ضباعٌ وأذْؤُب[٣]
لنا قائد منهم عنيف ، وسائق ... يُقحمنا تلك الجرائيم مُتْعِب[٤]

ويمتاز كذلك بكثرة الغريب ، كثرة تعنى قارئه ، فهو أبدا فى حاجة ملحة إلى معجمات اللغة ينشرها بين يديه ، كما رأيت فى أبياته السابقة ، وكما ترى فى قوله يمدح أبان بن الوليد بن عبد الملك :

رَجَوك ، ولم يَبلغ العمر سـنّك عشراً ولا نَبْتَ فيك إتغارا[٥]
لأدنى خَسًا أو زكا من سنيك ... إلى أربع فبقوْن انتظارا[٦]
ولم يستريثوك حتى رميت ... فوق الرجال خصالا عُشَارا[٧]

---

(١) الاتضاع : أن تخفض رأس البعير لتضع قدمك على عنقه لتركبه ، ويريد الكميت ، الإذلال على البيعة .

(٢) ساس الماشية : رعاها ، ومرى الناقة يمريها : مسح ضرعها لتدر .

(٣) العلة بالفتح . الضرة .

(٤) قحم الرجل فى الأمر واقتحم . دخل فيه من غير روية . والجرثومة الأصل ، والمراد الأمور العظام . أى أنهم يحملون الناس على البيعة لهم من غير روية .

(٥) الأبيات فى خزانة الأدب ج ١ ص ٨٢ : يقول : تبينوافيك السؤدد ولم تبلغ السنة العاشرة . فرجوا أن تكون سيدا أميرا مطاعا . واتغار : أصله اثتغار قلبت الثاء تاء ثم أدغمت . ويقال للصبي إذا نبتت أسنانه اتغرت ، فالكميت يقول : اتغرت ولم تنبت أسنانك أى بلغت مبلغ الرجال وأنت صبي .

(٦) الخسا : الفرد . والزكا : الزوج . يقول : رجون أن تكون سيدا ولم تبلغ سنة أو سنتين .

(٧) الريث: البطء ، وعشارا : معدول عن عشر والمراد : نشأت نشأة الرجال =

وقد كان من أثر ذلك أن بدا شعره مرقعاً ، فبينا هو يأتيك بالأبيات الأنيقة الواضحة ، إذا به يغلبه طبعه ، فيرمى قارئه بالأبيات الغريبة الغامضة الفجة ، فيشوه شعره ، ويسيء إلى استوائه وتناسبه .

استمع إليه يخاطب بنى أمية ، فيقول :

فيا ساسةً هاتُوا لنا من حديثكم
ففيكم — لعمرى — ذو أفانينَ مقْوَل

أأهْل كتاب نحن فيه وأنتم
على الحق نقضى بالكتاب ونعدل ! ؟

فكيف ، ومن أنى ، وإذ نحن خلفة
فريقان شتى ، تسمنون ، ونُهزل ! ؟

أتصلح دنيانا جميعاً ، وديننا
— على ما به — ضاعَ السَّوَامُ المُؤَبَّل (١)

برينا كبير القدْح أوهنَ مَتْنَهُ
من القوم لاشار ، ولا مُتَنبل (٢)

= فأسرعت فى بلوغ الغاية التى يطلبها طلاب المعالى بل زدت عليهم بعشر خصال ، ومعنى لم يستريثوك : لم يجدوك بطيئا فى طلب المعالى . وانظر الخصائص لابن جنى ودرة الغواص للحريرى .

(١) المؤبل : المهمل . والمراد : ضاع ديننا مثل ضياع السوام المهملة .

(٢) القدح : السهم ، والمتن مابين الريش إلى الوسط ، لاشار : لارائض أومصلح والمتنبل : صاحب النبل وحامله .

ولاية سِلَغْد ألفٌ كأنه
من الرَّهق المخلوط بالنُّوك أتْوَلُ[١]
كأن كتاب الله يعنى بأمره
وبالنهى منه الكَوْدَنى المرَكّل[٢]

ويقول فى بنى هاشم :

أناسٌ بهم عزت قريش فأصبحت
وفيهم خباء المكرمات المطنّب[٣]
مُصَفون فى الأحساب مَحْضون نجرهم
هم المحض منا والصَّريح المهذبُ
خِضمون أشراف لها ـ مِيمُ سادة
مطاعِيمُ أيسارٌ إذا الناس أجدبُوا[٤]
إذا ما المراضيعُ الخِمَاص تَأَوَّهَتْ
من البرد ، إذ مِثْلاَن : سَعْد ، وعَقربُ[٥]

---

(١) السلغد : الأحمق والذئب ، ويقال رجل ألف : عي ثقيل بطيء . الرهق : السفه . والأتول : المجنون .

(٢) الكودنى الفرس الهجين يشبه به البليد ، والمركل : المضروب بالرجل ، كناية عن الذلة والمهانة

(٣) المطنب : المشدود .

(٤) الخضم : السيد الحمول ، والمعطاء ، خاص بالرجل والجمع خضمون . واللهموم . الكثير الخير .

(٥) الخماص الجائعة ، وسعد وعقرب : نجمان شتويان .

وَحَارَدت النَّـكْدُ الجِلادُ ولم يكُن لِعُقْبَةِ قِدْرِ المستعيرين مُعْقِبُ[١]
وبات وليدُ الحَىِّ طيَّانَ ساغِباً وكاعِبهم ذات العُفَاوَةِ أسغبُ[٢]

فإذا أخذ الكميت فى وصف ناقته رأيت الشاعر الجاهلى المغرب الذى يدل بمحصوله اللغوى ، وكثرة حفظه للغريب .

والكميت شاعر يميل إلى الاستقصاء فيما يتناول من معان وأغراض ، يقول فى مدح خالد بن عبد الله القسرى ، فلا تجد استقصاء أبلغ لخلال الكرم من قوله :

لو قيل للجود : مَنْ حَليفك ما إن كان إلاّ إليك يَنْتسبُ
أنت أخوه ، وأنت صورته والرأسُ منه ، وَغَيْرُك الذنبُ
أحرزتَ فضل النِّضَال فى مَهَلٍ فكل يومٍ بكفك القَصَبُ
لو أن كعباً وحاتماً نُشِرَا كانا جميعاً من بعض ما تَهَبُ
لا تُخْلف الوعد إن وَعَدْتَ ، ولا أنت عن المُعْتَفِينَ تحْتَجِبُ
ما دونك اليوم من نَوَالٍ ولا خلفك للراغبين مُنْقَلَبُ

وترى هذه الخصيصة واضحة أتم وضوح وأكمله فى أدب الحجاج لقضية الشيعة ، وإنه ليدهشك استقصاء الكميت لأسباب الخلافة استقصاء لم يترك لمن بعده فضل قول ، ويدهشك بوجه خاص حينما يأخذ فى وصف الهاشميين بنبل الخلال ، أو التردى بالأمويين إلى مصاف الفجرة الطغام ، وذلك كله أثر من آثار ثقافته وحياته التعليمية .

---

(١) حاردت الإبل : انقطع لبنها أو قل ، والنكد : الغزايرت اللبن ، وكذلك الجلاد ، والعقبة ، شىء من المرق يرده مستعير القدر فيها .

(٢) طيان ساغب : جائع شديد الجوع ـ والعفاوة : زبد القدر يخص به من يكرم .

الكميت الراوية وأثر ذلك فى شعره :

والكميت شاعر راوية قد امتلأ ذهنه بأشعار السابقين ، فظهر أثر ذلك فى شعره ، حتى عده بعض النقاد سرقة ، وما هو بالسرقة ، ولكنه امتلاء بالمحفوظ ، يقول فى مخلد بن يزيد بن المهلب بن أبى صفرة[1] :

ما إن أرى كأبيكَ أدركَ شأوه   أحداً ، وَمِثْلَكَ طالباً لم يُلْحَق[2]
يتجاذبان له ، فضـــيلة سنه   وَتَلَوْتَ بعد مُصَلِّياً لم تُسْبَق
إن تنزعا وله فضـــيلة سنه   فبمثل شأو أبيك لم يُتَعَلَّق[3]
ولئن لحقتَ به على ما قد مضى   من بُعْد غايته فأحج وأخلق

والكميت قد نظر فى هذا إلى قول الخنساء تمدح أباها وأخاها ، وقد تسابقا :

جارى أباه فأقبـــلا وهما   يتعـــاوران مُلاءة الُحضر
حتى إذا نزت القلوبُ وقد   لُزَّت هناك العـذر بالعذر
وعلا هتاف النـاس أيهما   قال المجيبُ هناكَ لا أدرى
برزت صحيفة وجه والده   ومضى على غُلَوَائِه يجرى
أولى فأولى أن يســـاويه   لولا جَلال السِّنِّ والكبر
وهما ، وقد برزا ، كأنهما   صقران قد حَطا إلى وكر

أو هما قد نظرا إلى قول زهير يشبه ناقته بحمار يعدو خلف أتانه فى وعث من الرمل :

---

(١) أمالى الشريف المرتضى ج ١ ص ٦٨ .

(٢) الشأو : الغاية والأمد والسبق .

(٣) نزع إلى أبيه : ذهب إليه فى الشبه ، ونازعه جاذبه فى الخصومة .

فشج بها الأماعز فهى تهوى   هوى الدّلو أسلمها الرّشاء[1]
فليس لِحَاقه كَلِحَاق إلف   ولا كنجاتها منـــــه نجاء
يقـــــدمه إذا احتفلت عليه   تمام السّنّ منـــــه والذكاء[2]

ويقول الكميت :

ولا أكوى الصحاح براتعات   بهن العر قبـلى ما كُوِينا[3]

وهو من قول النابغة :

لحملتنى ذنب امرىء وتركته   كذى العر يكوى غيره وهو راتعُ

وقال الكميت فى بائيته :

كأن حَصَى المعزاء بين فُرُوجها   نوى الرّضْخ يلقى المُصمد المتصوّب[4]

وهو من قول الممزق العبدى[5] :

كأن حَصَى المعزاء بين فُرُوجها   يوارى نوى رَضَّاخَةٍ لم تُدَقق

---

(١) الأماعز : جمع أمعوز . وهى الربرب من الظباء ، أو جماعة الأوعال .
(٢) فى رواية يفضله والضمير فى يقدمه عائد على الحمار ، وفى عليه عائد على الوعث [الرمل تغيب فيه قوائم الدابة] ويريد بتمام السن : بلوغه السن الذى تستتم فيه قوته ، وبالذكاء حدة القلب وسرعة الفطنة من ذكا يذكو .
(٣) رتعت الماشية : أكلت ما شاءت ، والعر : داء يتطاير منه وبر الإبل — ديوان المعانى .
(٤) أرض معزاء : بها حصى صغار . والمعز محركة : الصلابة والفروج : القوائم ، والرضخ : الدق. شبه الكميت ترامى الحصى بين قوائم ناقته بالنوى عند دقه يتطاير فيلقى بعضه بعضا دون انتظام ، والمراد أنها لسرعتها يتطاير الحصى بين فروجها.
(٥) شاس بن نهار المعيدى شاعر جاهلى ، وهو القائل . =

وفيه يقول امرؤ القيس :

كأن الحَصى من خلفها وأمامها ... إذا نجلَته رجلُها حذفُ أعسرا

ويقول الكميت :

تجرى أصاغِرهم مجرى أكابرهم ... وفى أرُومَته ما ينبتُ الشجرُ

وقد أخذ هذا من قول الربيع بن أبى الحقيق اليهودى :

ترجو الغلام ، وقد أعياك والده ... وفى أرُومَته ما ينبتُ العود[1]

دعاء الشعراء إلى ترك الأطلال :

وللكميت لفتة بلاغية نحب أن نسجلها فى خصائصه الشعرية ، فقد كان أول من دعا الشعراء إلى أن يصرفوا وجوههم عن الأطلال والدمن إلى ما هو أهم من الأطلال والدمن ، فيقول :

أأبكاكَ بالعـــرف المنزلُ ... وما أنتَ والطللُ المُحوِلُ ؟

وما أنتَ وَيْك ورسم الديارِ ... وَسِتّوكَ قد كَرَبت تكمُل ! ؟[2]

ويقول :

فدعْ ذكر من لست من شأنه ... ولا هو من شأنك المنصِبِ

وهات الثنـــاء لأهل الثناء ... بأصـــوب قولك فالأصوبِ

= فإن كنت مأكولا فكن خير آكل ... وإلا فأدركنى ولما أمزق

وبه سمى الممزق : القاموس . والشعر والشعراء .

(١) أمالى الشريف المرتضى ج ٣ ص ٢٨ .

(٢) خزانة الأدب ج ٢ ص ٣٨١ . والعرف كعنق : ماء لبنى سعد أو جبل . والمحول : الدارس ، وستوك استشهد بها النحويون على أن العدد الذى فى آخره النون يضاف إلى صاحبه أكثر من إضافته إلى المميز : يريد وقد قارب سنك أن يبلغ الستين .

وقد كرر هذا فى هاشمياته ، وجدّ فى الدعوة إليه ، ثم جاء أبو نواس فانتهب هذا الجديد . . . والفرق بين الرجلين هو الفرق بين الخلقين ، صرف صاحبنا حنينه إلى بنى هاشم — رهط النبى وآله — وصرفه أبو نواس إلى ابنة الكرم ، ومجالس الشراب .

وقد كان هذا الجديد ذا أثر أخّاذ لنفوس الشعراء فى عصره ، فى الأغانى : قدم الفرزدق الكوفة ، فأتاه الكميت ، فقال : يا أبا فراس إنك شيخ مضر وشاعرها ، وأنا ابن أخيك الكميت بن زيد ، فقال له : صدقت ، أنت ابن أخى ، فما حاجتك ؟ قال : نفث على لسانى ، فقلت شعراً فأحببت أن أعرضه عليك ، فإن كان حسناً أمرتنى بإذاعته ، وإن كان قبيحاً أمرتنى بستره ، وكنت أول من ستره على ، فقال الفرزدق : أما عقلك فحسن ، وإنى لأرجو أن يكون شعرك على قدر عقلك فأنشدنى ، فأنشده :

* طربت وما شوقاً إلى البيض أطرب *

فقال الفرزدق : ففيم تطرب يابن أخى ! ؟

فقال :

* ولا لعباً منى وذو الشيب يلعب *

فقال الفرزدق : بلى يابن أخى ، فالعب فإنك فى أوان اللعب .

فقال :

ولم يلهنى دار ولا رسم منزل
ولم يتطربنى بنـــان مخضب

فقال : وما يطربك يابن أخى ! ؟

فقال :

ولا أنا ممن يزجر الطير همه أصاح غراب أم تعرض ثعلب
ولا السانحات البارحات عشية أمَرَّ سليم القرن أم مر أعضب

فقال : أجل لا تتطير .

فقال :

ولكن إلى أهل الفضائل والتقى وخير بنى حواء ، والخير يطلب

فقال : ومن هؤلاء ويحك ! ! ؟

فقال :

إلى النفر البيض الذين بحبهم إلى الله فيما نالنى أتقرّب

فقال : أرحنى ويحك ، مَنْ هؤلاء ! ! ؟

فقال :

بنى هاشم رهط النبى فإننى بهم ، ولهم أرضى مراراً وأغضب

فقال الفرزدق : يابن أخى ، أذع ، ثم أذع ؛ فأنت — والله — أشعر من مضى ، وأشعر من بقى[1] .

فشاعرنا فى هذه المقدمة — فوق أنه لفت الفرزدق إلى غرض أسمى مما يطرب إليه الشعراء حتى نال منه هذه الشهادة — شاعر فنان ماهر ، يعرف كيف يملك النفوس فى قبضته . . . ألست تراه قد لعب بمقدمته لعباً جعل الفرزدق يحار

---

(١) الأغانى ج ١٥ ص ١٢٥ ، ومروج الذهب ج ٢ ص ١٥٣ وأمالى الشريف المرتضى ج ١ ص ٤٧ .

ويدهش ، ويلتفت إليه جملة ، ويسائله المرة بعد المرة أن يطفىء غلته ، ويقضى لبانته ، فيضع يده على هؤلاء الذين يطرب إليهم هذا الطرب ؟

أغراض شعره :

خلف الكميت خمسة آلاف ومائتين وتسعة وثمانين بيتاً[1] ، يتقسمها أمران مهمان : التشيع ، والشعر القبلى ، ثم يأتى بعد ذلك مدائحه للخلفاء والولاة وإخوانياته .

وقد منح الكميت ذكاء فطريا هيأ له أسلحة فنه ... عرف أن الهجاء يتطلب علماً خاصاً .. يتطلب تفوقاً فى الأنساب ، ومعرفة بأيام العرب ، ومثالب القبائل — إذ لا شيء أخطر فى الخصومات من معرفة قديم المثالب حين تضطرم نار السباب — فدارس العلماء والأعراب ، وأصغى إلى جدتيه تحدثانه بأخبار الجاهلية ، فإذا هو أعلم الناس بالعرب وأيامها ، حتى إذا خاض لجة الهجاء القبلى كان له فيه السهم الربيح ، والقدم الثابتة ، وغدا شعره تنوراً للعصبيات ، ووقوداً للثورات القبلية فى حياته وبعد مماته .

يقول صاحب الأغانى : « ولم تزل عصبيته للعدنانية ، ومهاجاته شعراء اليمن متصلة ، والمناقضة بينه وبينهم شائعة فى حياته وبعد مماته ، حتى ناقض دعبل الخزاعى وابن أبى عيينة قصيدته المذهبة ، فأجابهما أبو الزلفاء البصرى ، مولى بنى هاشم عنها[1] » .

وكان ذلك بعد وفاة الكميت بنحو قرن .

---

(١) الأغانى ج ١٥ ص ١٣٠ . وخزانة الأدب ج ١ ص ٩٩ .

(٢) الأغانى ج ١٥ ص ١١٣ .

ويعده المسعودى سبباً فى سقوط الدولة الأموية ونقل الأمر إلى بنى هاشم[١].

ومن هنا يقول الأستاذ الكبير أحمد أمين : « وقتل ، فقتلت بعده الدولة الأموية بقليل »[٢].

الشعر القبلى :

وكان سبب انغماسه فى هذه الفتن أن حكيم بن عياش الكلبى كان ولعاً بهجاء مضر — وبنى هاشم خاصة — لعصبيته القحطانية ، ثم الأموية ، فكان شعراء مضر تهجوه ، وهو يجيبهم ، والكميت لا يدخل فى شىء من ذلك ، ويقول : هو — والله — أشعر منكم ، قالوا : فأجب الرجل ، فقال : إن خالد بن عبد الله القسرى محسن إلى ، فلا أقدر أن أرد عليه ، فأنشدوه ما يقول فى بنات عمه وبنات خاله ، حتى حمى لعشيرته ، فقال مذهبته :

ألا حييت عنا يا مدينا　　وهل أحد نقول مسلمينا

تناول فيها اليمن ، فلم يترك حيا من أحيائهم إلا هجاهم ، وعدد مثالبهم ، فكانت قصيدته سبباً لثورة جارفة بين اليمن ونزار ، كما كانت سبباً لتحزب العشائر العربية[٣].

وقد بلغ الكميت بمذهبته ثلاثمائة بيت — كما يقولون[٤]— ولعلنا لم نسمع بشاعر قبل الكميت بلغ بالقصيد إلى هذا الحد ، والذى عالج الشعر العربى يعلم

---

(١) مروج الذهب ج ٢ ص ١٥٥ .

(٢) ضحى الإسلام ج ٣ ص ٢٠٦ .

(٣) مروج الذهب ج ٢ ص ١٥٥ ، والأغانى ج ١٥ ص ١٢٠ ، وخزانة الأدب ج ١ ص ١٠٠ .

(٤) المصدر السابق .

أن القصيدة لا تصل إلى هذا حتى تكون قد استبدت بعقل الشاعر وخياله وهواه ، فوحدة الوزن والقافية فى الشعر العربى تفرض طبع الذهن على غرار واحد ، وتدور بالشاعر حول نغمات موسيقية متماثلة الأوضاع . . فلا بد أن يكون الكميت قد وهب أساس التجويد فى فنه ، واستعد لإنضاج الصور الشعرية ، أتم استعداد وأكمله .

النزاريات :

وفى النزاريات تجلى ذكاء الكميت ، وسعة حيلته ، فقد رأى أن حكيم ابن عياش منقطع إلى بنى أمية ، متعصب لهم ، فانظر ماذا صنع لإفحام خصمه والقضاء عليه . . . هجا الكلبى ، فافتخر ببنى أمية ، وأظهر أن هجاءه إياه للعصبية التى بين عدنان وقحطان ، وبنو أمية من هؤلاء الذين يجلون العصبية ، ويحلونها أسمى مكان من نفوسهم وسياستهم ، فكان حتما من الحتم أن يفحم الكلبى ، وقد أخذ الكميت عليه سبل القول ، وطريق الإجابة .

قال المستهل بن الكميت : قلت لأبى : يا أبى إنك هجوت الكلبى فقلت :

ألا يا سلم من تَرِبِ　　أَفِى أسماء مِنْ ترب ! ؟

وغمزت عليه فيها ، ففخرت ببنى أمية ، وأنت تشهد عليهم بالكفر ، فألا فخرت بعلى ، وبنى هاشم الذين تتولاهم ؟ فقال : يا بنى أنت تعلم انقطاع الكلبى إلى بنى أمية ، وهم أعداء على — عليه السلام — فلو ذكرت عليًّا لترك ذكرى وأقبل على هجائه ، فأكون قد عرضت عليًّا له ، ولا أجد له ناصراً من بنى أمية ، ففخرت عليه ببنى أمية ، وقلت : إن نقضها على قتلوه ، وإن أمسك الكلبى عن ذكرهم قتلته غما وغلبته ، فكان كما قال ، أمسك عن جوابه ،

فغلب عليه ، وأفحم الكلبي[١] ، فبهذه الحيلة استطاع الكميت أن يحظى بالفوز على خصمه . . وهو مكر حسن فى باب المناقضات الشعرية .

ولقد كان الكميت يلجأ إلى هذه الحيل الصناعية ليقى بها نفسه وبنى هاشم ، فهو يمدح ولاة الدولة لأن بيدهم الدنيا والسلطان ، وليغضوا النظر عن تشيعه ، ويمدح هشاماً وأمراء البيت الأموى ، ويرثى معاوية بن هشام حين أحس بالخطر على حياته ، يستعمل فى كل ذلك التقية الشيعية ، التى يقول بها الشيعة ، ويدين بها الكميت ، فيقول :

نَضَحت أديم الود بينى وبينهم ... بآصِرَة الأرحام لو يَتَبَلَّل

فما زادها إلا يُبوساً ، وما أرى ... لهم رحماً ـ والحمد لله ـ يُوصل

ويضحى أناة ، وَالتَّقِيات منهم ... أُدَاجى على الداءِ المريبِ وأدمُل

وإنى على أنى أُرَى فى تقيـــةٍ ... أخالط أقواماً لقومٍ لمِزْيَل

وإنى على إغضاء عينى لمطرق ... وصبرى على الأقذاء وهى تجلل

وإن قِيلَ لم أحْفِل ، ولست مُبَالياً ... لمحتَمِل ضَيْماً ، أبالى وأحْفِل

والتاريخ لم يحفظ لنا من هذه المذهبة ، ولا من شعره القبلى إلا أبياتاً قليلة ، لا تكفى للحكم عليها .

فمن مذهبته يشير إلى استيلاء الحبشة على اليمن ، ويزعم أن لها نسلا فيها :

لنـا قمر السماء وكلّ نجم ... تشير إليه أيدى المهتدينا

وجدت الله إذ سمى نزارا ... وأسكنهم بمكة قَاطِنِينا

لنا جعل المكارم خالصاتٍ ... وللناس القفا ولنـا الجبينا

---

(١) الأغانى ج ١٥ ص ١٢٩ .

وما ضربت هجائن من نزار فَوَالخ من فحول الأعجمينا[1]

وما حملوا الحميرَ على عتاق مطهـــرة فَيُلفُوا مُبْغَلِينا

وما ولدت بناة بنى نزار حلائلَ أسودين وأحمرينا[2]

ومنها هذه الأبيات التى كانت سبباً فى غضب خالد القسرى عليه ، وتدبير قتله ، كما سيأتى .

تشيع الكميت :

وإذا نحن انتقلنا إلى الجانب الشيعى من شعر الكميت وجدنا ناحية مشرقة من القول ، وفنًّا قد استبد بطبع الشاعر وهواه ، فنفث على لسانه السحر الساحر ، والجمال الباهر ، والنمط العالى الرفيع .

والذى يدرس الكميت يرى أن الشاعر قد عاش للشيعة ، وفى الشيعة ، وقضى دهره يهتف بحب آل البيت ، ويتغنى بمدائحهم ، ويشرح قضيتهم ، ويتعرض للأذى فى سبيلهم .

وإذا صدق ما نقله المسعودى فى مروج الذهب من أنه وفد على عبد الله ابن حسن بالمدينة ، فقال له عبد الله بن معاوية[3] : « إنى رأيت أن تقول شيئاً تغضب به بين الناس لعل فتنة تحدث ، فيخرج من بين أصابعها بعض ما يحب » . فابتدأ الكميت مذهبته التى ذكر فيها مناقب قومه من مضر ، وربيعة

---

(١) الفوالخ : الفحول الهائجة ، ورواية الخزانة هوائج وهى الفحول تشتهى الضراب ، والمفرد هائج .

(٢) خزانة الأدب ج ١ ص ٩٩ ، ومروج الذهب ج ٢ ص ١٥٨ .

(٣) ابن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب .

وإياد ، وأنمار — أبناء نزار بن معد — وأنهم أفضل من قحطان ، فأغضب بها بين اليمانية والنزارية ، ونمى القول ، وافتخرت نزار على اليمن ، وافتخرت اليمن على نزار ، وأدلى كل فريق بما له من مناقب ، وتحزب الناس ، وثارت العصبية فى البدو والحضر ، فنتج بذلك أمر مروان بن محمد الجعدى ، وتعصبه لقومه من نزار على اليمن ، وانحرف اليمن عنه إلى الدعوة العباسية ، وتغلغل الأمر إلى انتقال الدولة عن بنى أمية إلى بنى هاشم(١) .

نقول : إذا صح هذا كان الكميت قد أفنى حياته كلها فى التشيع ، وكان هذا النوع فناً آخر من الأدب الشيعى السياسى ، حيك للنيل من الدوله القائمة ،وتأليب الناس عليها ، وإحداث الفتن فى وجهها . وقد مر بك أنه كان يفتخر فيها ببنى أمية ليفحم الكلبى ، ويقى أعراض بنى هاشم ، وأنه مدح الولاة ليغضوا النظر عن تشيعه .

ويقول ورد بن زيد — أخو الكميت — : أرسلنى الكميت إلى أبى جعفر — محمد بن على بن حسين — فقلت له : إن الكميت أرسلنى إليك ، وقد صنع بنفسه ما صنع ، فتأذن له أن يمدح بنى أمية ؟ . قال : نعم ، هو فى حل ، فليقل ما شاء(٢) .

وفى هذا جمال الإخلاص لعقيدته ، فهو حتى فى هذه المحنة المحيطة لم يسلك سبيل الخلاص إلا بعد أن أُذن له .

وذهب الكميت فنال عفو هشام بن عبد الملك — بحيلة سنذكرها بعد — فانظر أدب الكميت ؟ ! . . . وفد على أبى جعفر ، فقال له : يا كميت ! أنت القائل :

(١) مروج الذهب جـ ٢ ص ١٥٤ — ١٥٥ .
(٢) الأغانى جـ ١٥ ص ١٢٦ .

فالآن صرت إلى أميـــة والأمور إلى المصائر

قال : نعم قد قلت ، ولا والله ما أردت به إلا الدنيا ، ولقد عرفت فضلكم ، فقال أبو جعفر : أما إذ قلت ذلك فالتقية تحل[1] .

وهذا الجواب غاية فى أدب النفس ، فالشاعر لا ينكر أنه مدح بنى أمية ، بل يعترف أنه لم يرد به إلا الدنيا ، أما الآخرة فسبيلها مدح آل البيت . . . وهو يقول هذا بمسمع من بنى أمية ، وبيدهم مفاتيح الخزائن ، ومقاليد السجون ، ولكن التشيع الذى ضم عليه جوانحه يغلبه ، فلا يملك أن تفلت من لسانه كلمة هى صميم الأدب الشيعى .

مولد الكميت :

ولد الكميت سنة ستين من الهجرة — أيام قتل الحسين — فشاهد الأحزان العلوية ، وعاش فى الكوفة، مهد الشيعة وبيئتهم ، ومسرح التمثيل بهؤلاء الأطهار من سلالة الرسول — صلى الله عليه وسلم — وشيعتهم ، فرأى بعينه ، وسمع بأذنه مظاهر العدوان الظاهر ، والتجنى الممقوت ، وهذا — وأقل منه — يحمل النفوس الأبية على استشعار الرحمة لهؤلاء ، والعطف على قضيتهم . فإذا تشيع الكميت فبما اجتمعت أمامه من أسباب هذا التشيع .

ولقد كان تشيع الكميت أقوى ما عرف من عواطف الشعراء لذلك العهد ، فهو فى حبه وصدق هتافه يمثل الروحانية أصدق تمثيل ، فقد فنى فى عقيدته فناء امحت الدنيا فى سبيله أو كادت، وتغنى بحب رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وآله ، فى أيام كان هذا النوع من الأدب يعرض الشاعر لغضب بنى أمية ، أصحاب

---

(١) الأغانى ج ١٥ ص ١٢٧ .

الحول والطول ، وما كان بنو أمية بكافرين ، ولكن السياسة – كما قلنا – ترى فى ذلك تزكية للهاشميين ولفتاً للذهن إلى حق هؤلاء المغتصب .

* * *

إخلاص الكميت لعقيدته :

ولقد عرف الكميت أن هذا النوع من الأدب أقوى سلاح وأمضه على الدولة القائمة ، وهو لا يملك فى الدفاع عن قضيته إلا سلاح القول ، فاصطبر على الأذى فى تشيعه ، وكانت هاشمياته أصدق ما تكون تمثيلاً لحياته وعواطفه ، وأتم ما تكون تبياناً لقضيته وآرائه .

استمع إليه يصور حياته مع الناس ، وإذايتهم له ، فيقول :

ألم ترنى من حب آل محمد أروح وأغدو خائفاً أترقب
كأنى جانٍ محدث ، وكأننى بهم أتقى من خشية العار أجرب
على أى جرم ، أم بأية سيرة ؟ أعنف فى تقريظهم وأؤنب

ولكنه مع هذه الحياة يمضى فى تشيعه فى جرأة صادقة ، معلناً تارة ، ومسراً أخرى ، مستقتلا فى حبه ، كما قال هشام بن عبد الملك حين أنشده قوله :

فيهم صرت للبعيد ابن عم واتهمت القريب أىّ اتهام
وتناولت من تناول بالغيبة أعراضهم وقل اكتتامى
ورأيت الشريف فى أعين النا س وضيعاً وقل منه احتشامى
معلناً للمعلنين ، مسراً للمسرين ، غير دحض المقام
مبديا صفحتى على المرقب المعلم ، بالله عزتى واعتصامى
ما أبالى إذا حفظت أبا القا سم فيهم ملامة اللوّام
ما أبالى ، ولن أبالى فيهم أبداً رغم ساخطين رغام

فيهم شيعتى وقسمى من الأمـــة ، حسبى من سائر الأقسام

فهو يحب هؤلاء عن يقين وصدق ، وتفكير عميق ، ويحتج له احتجاجا قويا، يحبهم لأنهم آل رسول الله صلى الله عليه وسلم وعترته ، والبقية الباقية من هذا القبس الإلهى ، وللرسول صلى الله عليه وسلم على الناس فضل أى فضل ، وقد سألنا القرآن الكريم أن نوده فى قرباه ، قال تعالى : (قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة فى القربى) ، ولا قرابة أقرب من هؤلاء . . .

وفى هذا يقول :

أجرك عندى من الأودِّ لقر | باك سجيات نفسى الوُطُبُ
فى عقْدَة من هواك محكمة | ظواهر منها العِناجُ والكَرب[1]
واصلة آخراً بأولهـــا | تَنَخّلوا صفوها ، وما خَشَبوا[2]

ويقول :

وجدنا لكم فى آل حاميم آية | تأولها منا تقى ومعـــربُ
وفى غيرها آيا ، وآيا تتابعت | لكم نصبٌ فيها لذى الشك منصبُ[3]

فحب هؤلاء المصطفين الأخيار حب للرسول — صلى الله عليه وسلم — ومرضاة لله تعالى ، فالدين حبهم ، والقربة توليهم ، والسعيد من قابل الله وقد ربط أسبابه بأسبابهم .

---

(١) العناج حبل يشد فى أسفل الدلو العظيمة . ثم يشد بالخشبة التى تعرض على الدلو، والكرب: الحبل الذى يشد فى الخشبة وهو الذى يلى الماء فلايعفن الحبل الكبير

(٢) تنخلوا : تخيروا ، وخشبوا : خلطوا .

(٣) النصب : العلم . والمنصف : المرجع : يقول : فى القرآن آيات كثيرة فى فضل آل الرسول صلى الله عليه وسلم .

إن أَمُتْ لا أَمُتْ ونفسى نفسا ... ن من الشك فى عمى أو تعامى
عادلا غيرهم من النـاس طرا ... بهـم ، لا همام بى ، لا همام[1]
لم أبع دينى المساوم بالوكـس ولا مُغْلِياً من السُّوَّام
أخلص الله لى هوَاى ، فما أغـرق نزعا ، ولا تطيش سهام
ولهت نفسى الطـروب إليهم ... ولها ، حال دون طعم الطعام

فهو يشتغل بحبهم عن ملاذ الدنيا وسعادتها ، ويتلهى به عن الطعام والشراب كما يشتغل بحبهم عما شغل الشعراء قبله — ويشغلهم — من الصبوة واللهو ، وبكاء الديار والدمن فيقول :

طربتُ ، وما شوقا إلى البيض أطرب
ولا لعبـاً منى ، وذو الشيب يلعب
ولم يلهنى دار ، ولا رسم منزل ... ولم يتطربنى بنـان مخضب
ولا أنا ممن يزجر الطير همه ... أصاح غراب أم تعرض ثعلب
ولا السانحات البارحات عشية ... أمَرَّ سليم القرن أم مر أعضب
ولـكن إلى أهل الفضائل والتقى ... وخير بنى حواء ، والخير يطلب
إلى النفر البيض الذين بحبهم ... إلى الله فيما نالنى أتقرَّب
بنى هاشم رهط النبي فإننى ... بهم ، ولهم أرضى مراراً وأغضب

* * *

وقد يبلغ حبك الشيء ، وإجلالك له أن تلزم الناس إلزاماً بهواك وعقيدتك بله إقرارك على هذا الهوى وتلك العقيدة ، وكم صب الشعراء على العاذلين قوارع التسفيه واللوم .

---

(١) همام : كقطام ، قصد به الحكاية ، والمعنى لا أهم بذلك ولا أفعل .

وكذلك كان الكميت . . . يحب هؤلاء ويحمل الناس على حبهم ، ويعجب كيف لا يشاركونه هواه ، ويغرق فى العجب والتقريع واللوم لمن يعنفه فى حبه ، ويعيبه فى إخلاصه فيقول :

يشيرون بالأيدى إلىّ ، وقولهم　　ألا خاب هذا ، والمشيرون أخيب
فطائفة قد كفرتنى بحبكم　　وطائفة قالوا : مسىء ، ومذنب [1]
فما ساءنى تكفير هاتيك منهم　　ولا عيب هاتيك التى هى أعيب
يعيبوننى من حبهم وضلالهم　　على حبكم ، بل يسخرون وأعجب

وهو يتعدى السخر إلى الإشفاق على العائبين عليه ، من يوم شديد عَصَبْصب ، فيقول :

فقل للذى فى ظل عمياء جَونة
ترى الجور عدلا ، أين ، لا أين تذهب [2]
بأى كتاب ، أم بأية سنة　　ترى حبهم عاراً على ، وتحسب ؟
أأسلم ما تأتى به من خدمة　　وبغضهم ـ لا جير ـ بل هو أشجب [3]
ستقرع منها سن خزيان نادم　　إذا اليوم ضم الناكثين العصبصب [4]

---

(١) الطائفة الأولى : الخوارج ، والثانية : بنو أمية .

(٢) العمياء : تأنيث الأعمى ، ويريد بها الجهالة واللجاجة فى الباطل ، والجونة هنا : السوداء والمراد الفتنة .

(٣) يقال : جير أفعل . ولا جير لا أفعل ، وهو بمعنى اليمين ، وأشجب : أهلك وأعطب . يقول : هل بغضتهم وعداوتهم أسلم من حبهم لا والله إن عداوتهم أشجب وأسوأ .

(٤) قرع السن : كناية عن الندم ، والعصبصب : الشديد ، وقد وقعت الكلمة فى موقعها الذى لايغنى فيه غيرها .

هذا هو حب الكميت لآل بيت الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ حب لله ، وفى الله ، وقربة يتقرب بها إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حب يراه الدين والعدل ، فمن نكص عن حبهم فقد نكص على عقبيه ، وخسر آخرته ، وإن لم يخسر دنياه ، ونعوذ بالله من خسران الآخرة . . . وكذلك كان حب الشيعة لهذا البيت الكريم ، حباً تضمنه الأحشاء ، واللحم ، والدم .

سمة التصوف فى شعره :

لم يطلب الكميت الدنيا بحبه ، ولو طلبها لذهب إلى أهلها ، إلى من بيدهم مفاتيح الخزائن ـ كما قلنا ـ ولوجد مضطرباً واسعاً فى قصور دمشق :

دخل على أبى جعفر ـ محمد بن على بن الحسين ـ فأنشده ، فأعطاه ألف دينار وكسوة ، فقال الكميت : والله ما أحببتكم للدنيا ، ولو أردتها لأتيت من هى فى أيديهم ، ولكنى أحببتكم للآخرة ، فأما المال فلا حاجة لى به ، وأما الثياب التى أصابت أجسادكم فإنى أقبلها . لبركتها[1] .

وكان أعز شىء إليه أن يعود من عندهم مزوداً بدعوة صالحة ، وكأى ما كان يفوز بها من هؤلاء الأطهار . . حدث محمد بن سهل ـ صاحب الكميت ـ قال : دخلت مع الكميت على أبى عبد الله ، جعفر بن محمد ـ عليهما السلام ـ أيام التشريق بمنى ، فقال : جعلت فداك ، ألا أنشدك ؟ فقال : يا كميت إنها أيام عظام ، فقال : إنها فيكم ، فقال : هات ـ وبعث إلى بعض أهله ـ فأنشده لاميته :

أَلاَ هلْ عمٍ فى رَأيه مُتأمِّلُ وهلْ مُدبر بعد الإساءة مُقبلُ

---

(١) الأغانى جـ ١٥ ص ١٢٣ .

فـكثر البكاء حوله . . حتى إذا قال :

يصيب به الرامون عن قوس غيرهم ‏ فيا آخرا أسـدى له الغيّ أول

رفع أبو عبد الله يديه ، وقال : اللهم اغفر للـكميت ما قدم ، وما أخر وما أسر ، وما أعلن ، وأعطه حتى يرضى[1] . . فـكانت هذه الدعوات أحب إليه من الدنيا وزهرتها .

وقد روى المسعودى فى مروج الذهب ، وأبو الفرج فى أغانيه مواقف كثيرة من هذه الروحانية الصادقة تمثل الـكميت فى حبه وتشيعه ، حتى اشتهر بشاعر أهل البيت .

يقول صاعد ـ مولى الـكميت ـ دخلنا على فاطمة بنت الحسين ،فقالت : هذا شاعرنا ـ أهل البيت ـ وجاءت بقدح فيه سويق ، فحركته بيدها ودفعته إليه فشربه ، ثم أمرت له بثلاثين ديناراً ومركباً ، فهملت عيناه ، ثم قال : لا والله لا أقبلها ، إنى لم أحبكم للدنيا[2] .

لقد كان هذا اللقب — شاعر أهل البيت — من أحب الألقاب إليه ، وألصقها بقلبه . كان همه أن ينسب إلى هـذه السلالة الطاهرة ، فأعطاهم من هواه الصفو ، ومن شعره المخزون والمتنخل ، وحمل فى سبيلهم أحقاد الأقارب والأباعد . . .

وكذلك يكون صاحب العقيدة ، يأبى الضيم ، ويمقت الظلم ، ويستعذب العذاب ، ويستصغر العظائم ، ويستخف بالأهوال فى سبيل عقيدته .

---

(١) الأغانى جـ ١٥ ص ١٢٣ . وانظر مروج الذهب جـ ٢ ص ١٥٤ .

(٢) الأغانى جـ ١٥ ص ١٢٣ .

الكميت عند الجماهير الشيعية :

والأدب إذا صدر عن هذه العواطف المشبوبة كان قوياً مشتعلا ، ودخل على القلوب فتبوأ منها مكاناً صدقاً ، فما ظنك بأدب يتغنى بمدح الرسول -صلى الله عليه وسلم- ويهتف بهذه السلالة الطاهرة ؟

لا شك يكسب صاحبه هالة من القداسة والحب ، ويضفى عليه ثوباً فضفاضاً من جلال الدين ووقاره . . . وكذلك كان أدب الكميت عند الجماهير يتألق فيضيء جوانب النفس ، ويبعث فيها القوة والحيـــاة ، فامتلأت قلوبهم إجلالا له ، وتقديراً لصدق عقيدته ، حتى خصومه من الشعراء كانوا يعادونه فى هيبة وحذر .

ورأينا كتب الأدب تحدثنا عن كثير من الرؤى . رؤيا الناس للنبي - صلى الله عليه وسلم - يدعو له ، ويثنى عليه ، ويذب عنه .

فى الأغانى : « عن نصر بن مزاحم المنقرى أنه رأى النبي - صلى الله عليه وسلم - فى النوم ، وبين يديه رجل ينشد :

* من لقلب متيم مستهام *

قال : فسألت عنه ، فقيل لى : هذا الكميت بن زيد الأسدى ، قال : فجعل النبي - صلى الله وسلم - يقول : جزاك الله خيراً ، وأثنى عليه .

وعن إبراهيم بن سعد الأسدى ؛ قال سمعت أبى يقول : رأيت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فى النوم ، فقال : من أى الناس أنت ؟ قلت : من العرب ؟ قال : أعلم ، فمن أى العرب ؟ قلت : من بنى أسد ، قال : أسد بن خزيمة ؟ قلت : نعم قال . أهلا لى أنت ؟ قلت : نعم . قال : أتعرف الكميت بن زيد ؟ قلت :

يا رسول الله ، عمى ومن قبيلتى ، قال : أتحفظ من شعره شيئاً ؟ قلت : نعم ، قال : فأنشدنى :

* طربت وما شوقا إلى البيض أطرب *

قال : فأنشدته حتى بلغت قوله :

فمالى إلا آل أحمد شيعة   ومالى إلا مذهب الحق مذهب

فقال لى : إذا أصبحت ، فاقرأ عليه السلام ، وقل له : قد غفر الله لك بهذه القصيدة .

وهذا الكميت نفسه يرى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يدعو له ولقومه ، فكانت بنو أسد تقول : فى كل بيت منا بركة من دعوة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

والكميت فى ساعة العسرة ، وحين أظلم عليه سجن خالد بن عبد الله القسرى يتلمس سبل النجاة ، ولا سبب أعظم من سبب الكميت ، ومن أعظم من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يلتجىء إليه الكميت ؟ .

ولابد أنه فكر وفكر حتى تراءى له الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى نومه فسأله : مم خوفك ؟ ؛ فقال : يا رسول الله من بنى أمية ، وأنشده :

ألم ترنى من حب آل محمد   أروح وأغدو خائفا أترقب ؟

فقال له الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ : اظهر فإن الله قد أمنك فى الدنيا والآخرة .

نقول : وقد اتصلت هذه الرؤى بعد موته . فدعبل بن على الخزاعى اليمنى الشيعى ينقض مذهبته . ويرد على هجائه لليمنيين ، فيرى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيقول له : مالك وللكميت بن زيد ؟ قال : فقلت : يا رسول الله ما بينى وبينه إلا كما بين الشعراء ، فقال : لا تفعل . . أليس هو القائل :

فلا زلت فيهم حيث يتهموننى
ولا زلت فى أشياعكم أتقلب ؟

فإن الله قد غفر له بهذا البيت ، قال : فانتهيت عن الكميت[1] بعدها .

ورؤيا دعبل تحمل فى طياتها نظر الشعراء إلى الكميت .

وعلماء الأحلام يرون أن حياة النوم امتداد لحياة اليقظة ، فالإنسان يرى فى نومه ما يهمه ويشتغل به ذهنه فى يقظته .

فعلى ضوء هذا نستطيع أن نفسر تلك الرؤى بأنها صورة لما يعتقده الناس فى الكميت من أنه بتشيعه وفنائه فى نصرة آل الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد صارت روحه قريبة الاتصال بروح الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

أدب الحجاج لعقيدته :

وبعد : فقد استمعنا إلى الجاحظ يقول : ما فتح للشيعة باب الحجاج بالشعر إلا الكميت بقوله :

فإن هى لم تصلح لحى سواهم فإن ذوى القربى أحق وأقرب
يقولون : لم يورث ، ولولا تراثه إذا أشركت فيه بكيل وأرحب

والجاحظ ـ كما قلنا ـ من أعلم الناس بتطورات الحركة العقلية فى الأحزاب الإسلامية . فما المدى الذى وصل إليه الكميت من أدب الاحتجاج للشيعة والدفاع عن نظريتهم فى الحكم ؟ . . وإلى أى حد استطاع أن يبسط هذه القضية الشيعية ، ويسجل أصولها ؟

عرفنا أن الخلافة — وهى السيادة العامة للمسلمين — هى أساس المسائل

(١) الأغانى جـ ١٨ ص ٢٩ . وانظر الجزء / ١٥ ص ١٢٤ كذلك .

التى دار حولها الجدل بين الشيعة وغيرهم . وانقسمت من أجلها كلمة الأمة ، وعرفنا أن الشيعة يرون أن النبى — صلى الله عليه وسلم — قد نص على خلافة علىّ — رضى الله عنه — باسمه أو وصفه ، ثم عهد على بالخلافة للحسن ، والحسن للحسين . وهكذا كل إمام كان يتولى الحكم بالنص عمن قبله ، فأبو بكر وعمر وعثمان اغتصبوا الخلافة من صاحبها ، والخلفاء الأمويون معتدون جائرون ، والواجب على الشيعة رَدُّ الحق إلى أهله ، والعمل سراً وجهراً على أن يتولى العلويون سياسة الناس .

هذه خلاصة موجزة لقضية الشيعة ، فماذا كان موقف الكميت من هذه القضية ؟

نظر ، فرأى أن الخلافة حق لآل البيت ، يرثونه عن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — إرثهم لسائر حقوقه ؛ فهم ، فضلا عن أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قد نص على خلافتهم ، أحق بسلطان الرسول .

ونظر نظرة ثانية ، فرأى أن الخلافة سيادة عامة للمسلمين ، سيادة دينية وسيادة دنيوية ، وكل واحدة من هاتين السيادتين تتطلب من صاحبها صفات خاصة ، فالسيادة الدينية لا يستحقها إلا رجل جماع للفضائل الدينية ، من علم بأحكام الله ، وتفقه فى دين الله ، وزهد وتقوى ، ورعاية لأحكام الشريعة . والسيادة الدنيوية تتطلب العدل ، واجتناب الهوى ، وحسن المعاملة ، والسير فى سياسة الناس سيراً يحقق سعادتهم ورشدهم .

ونظر نظرة ثالثة إلى الرياسة العربية ، وشروط شيخ القبيلة من العزة ، والمنعة ، وشرف النجار ، والشجاعة ، والكرم . وكل ذلك قد اجتمع لعلىّ وأبنائه .

هذه هى نظرات الكميت فى قضية الخلافة : حق وميراث لعلىّ ، ثم أبنائه من فاطمة ، ونص من رسول الله — صلى الله عليه وسلم — على خلافتهم

وشروط يجب تحققها فيمن يريد سيادة الناس ، وزعامتهم . وعلى ضوء هذه النظارات بنى أدب الاحتجاج لقضيته ، فلا يكاد يعدل عنها ، أو يزيد عليها ، بل يرددها فى هاشمياته ، فى أساليب شتى ، وفنون مختلفة ، يستخدم فى كل ذلك علمه ، وطريقة تعليمه ، ومعرفته الواسعة بالأخبار والأنساب ، ثم ذكاءه وحيلته ، وحسن مداخلته للأمور .

والآن نسير مع الكميت فى هاشمياته ـ مرة أخرى ـ لا لتلمس اللفتات الخلقية ـ كما فعلنا قبل ـ بل لنرى كيف سجل هذه النظارات السياسية .

عقيدة النص :

الكميت شاعر إمامى ، فهو يعتقد أن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ نص على خلافة علىّ بالاسم ، وأمر الصحابة أن يبايعوه ، وعقد له البيعة يوم غدير « خم » بقوله : « من كنت مولاه فعلى مولاه ، اللهم وال من والاه ، وعاد من عاداه ، وانصر من نصره ، واخذل من خذله » حتى قال عمر : « طوبى لك يا على ، أصبحت مولى كل مؤمن ومؤمنة » ، ولكن سرعان ما خالف الصحابة أمر الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فجاروا ، واستبدوا ، وغصبوا الحق من صاحبه .

كل هذا يسجله الكميت فى قصيدته :

نفى عَنْ عينك الأرقُ الهُجُوعا ... وهمٌّ يمـــترى منها الدُّمُوعا
لفقدان الخَضَارِم[1] من قريش ... وخـــير الشافعين معاً شفيعا
لدى الرحمن يصـــدع بالمثانى ... وكان له أبو حسن قريعا[2]

---

(١) الخضارم : جمع خضرم ، وهو الجواد المعطاء . والسيد الحمول .
(٢) قريعا : مختارا للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

حطوطا فى مسرته ، ومولًى   إلى مَرْضاة خالقــــه سريعا[١]

***

وأصفاهُ النبى على اختيـــار   بمـا أعيْاَ الرَّفُوض له المذيعا

ويوم الدوح ـ دوح غدير خُم ـ   أبانَ له الولاية لو أطيعا

ولـكن الرجال تبايعـــوها   فلم أر مثلهـــا خطراً مَبيعا

فلم أبلغ بهـــم لعناً ولـكن   أســـاء بذاك أولهم صنيعا

فصار بذاك أقربهم لعـــدل   إلى جورٍ ، وأحفظهم مُضيعا

أضاعوا أمْرَ قائدهم ، فضلوا   وَأَقْوَمهم لدى الحِدثان رِيعا[٢]

تناسوا حقـــه وبغوا عليه   بلا تِرَةٍ ، وكان لهم قريعا[٣]

وهـذا الأسلوب ، وإن أوصل الـكميت إلى غرضه ، فى غاية الخبث والالتواء ، ولـكنها عقيدة الشيعة المتأصلة فى نفوسهم ، والـكميت واحد منهم .

وفى الأبيات :

إنَّ الرسولَ ـ رسولَ الله ـ قال لنا :

إنَّ الإمام علىٌّ غـــير ما هُجِرَا

فى موقف أوقف الله الرســول به

لم يعطه قبـــله من غيره بشرا

يعلن الـكميت عن رأى الإمامية فى النص ، وأنه كان بالاسم .

وهو يؤمن بدعـــوى الاستخلاف إيمـانًا يفوق كل إيمـان ، فيقول فى تهـكم وسخر :

---

(١) المولى : ابن العم ، وحطوطا فى مسرته : منصرفا عن ملاذ الدنيا وزخارفها .

(٢) حدثان الدهر : نوائبه . وريعا : طريفاً .

(٣) قريعا : مقارعا ونظيرا .

وتستخلفُ الأمواتُ غيركَ كلُّهم   وَنُعتَبُ ، لو كُنَّا عَلَى الحق نُعْتِبُ

وقد استمر الكميت على ضوء هذه العقيدة يلقب عليًّا بالوصى ، والحسن بوصى الوصى . . ولعلنا نلاحظ أن نظرية الوصاية كانت أوسع مدى فى شعر الكميت منها فى شعر « كثير عزة » الشاعر الكيسانى ، فالكميت قد استطاع أن يفصل قصة غدير خم ، ومبايعة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ لعلى ، ثم موقف الصحابة من هذه الحادثة كما ترى ، ولكن كثيراً لم يزد على أن لقب عليًّا بالوصى ، وابن الحنفية كذلك ، ثم لم نسمع له فى بيعة الغدير ذكراً ـ ولعله ضاع ـ ثم كان السيد الحميرى ، فتناول قصة الغدير بنفسه الشعرى الطويل .

الكميت ودعوى الوراثة :

والفاطميون كما يستحقون الخلافة بالنص يستحقونها كذلك بالميراث ، فهم وراث النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ يرثونه فى سلطانه كما يرثونه فى ماله ، وليس بصحيح ما يزعمه هؤلاء من أن النبى لا يورث ، فالنبى عبد الله ورسوله يورث كما يورث سائر الخلق ، وليس من المعقول أن تحرم ذرية النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ من حق يتمتع به سائر الناس .

فالقوم إذ منعونا « فدكا[1] » مخطئون . . ذلك ما يقوله الكميت فى :

---

(١) فدك : قرية بالحجاز بينها وبين المدينة يومان أو ثلاثة . صالح أهلها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ على نصف مالهم وثمارها ؛ فكانت فيئا للرسول صلى الله عليه وسلم ـ يضع ما يأتيه منها فى أبناء السبيل ، حتى إذا لحق بالرفيق الأعلى أرادت فاطمة ـ رضى الله عنها ـ أن تستولى عليها وأبى أبو بكر ـ رضى الله عنه ـ لحديث « نحن معاشر الأنبياء لانورث » . . فغاضبته فاطمة حتى ماتت واستمرت فدك فى يد الخلفاء الراشدين ينفذون فيها سنة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى أن كان معاوية فأقطعها مروان بن الحكم فوهبها لبنيه ، حتى كان عمر بن عبد العزيز فأعادها إلى سيرة الخلفاء الراشدين . أو ردها إلى أبناء فاطمة . ثم أخذت منهم بعده إلى أن ردها المأمون لهم .

أهوَى عليًّا أميرَ المؤمنين ولا ... ألومُ يوماً أبا بكْر ولا عمرَا
ولا أقول ـ وإن لم يعطيا فدكا ... بنت النبي ولا ميراثه ـ كفرَا
الله يَعـــلم ماذا يأتيان به ... يوم القيامة من عذر إذا اعتذرَا

وليس لهم من عذر إلا ما رواه أبو بكْر ـ رضى الله عنه ـ من حديث « نحن معاشر الأنبياء لا نورث ، ما تركناه صدقة » ولئن سلمنا صحته فالرواية « صدقة » بالنصب على الحالية ، لا بالرفع على الإخبار ، وفدك لم تترك حالة كونها صدقة حتى نحرم من ميراثها ، بل مات النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهى ملك له ، يتصرف فيها ، فهى ملك لأولاده كسائر ما ترك .

والخلافة حق من هذه الحقوق ، تورث كما يورث مال الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويخلفه فيها أبناؤه كما يخلفونه فى ماله ، وإلا كانت شائعة فى قبائل العرب بل فى سائر المسلمين ، ولمـا كان هناك معنى لحصرها فى قريش ، ولبطل احتجاجكم على الأنصار ، بل كانت الأنصار أحق لحسن بلائهم ، وصدق نصرتهم . . . هذه المعانى صاغها الـكميت فى :

يقولونَ : لم يُورث ، ولوْلاَ ترَاثه ... إذا شركت فِيـــهِ بكيلٌ وَأرْحَبُ
وَعَكٌّ ، وَلَخْم ، والسَّـكون ، وحميرٌ ... وكندةُ ، وَالحيَّان : بَـكْرٌ ، وتغلبُ
ولانشلت عُضوين منها يُحابر ... وكان لعبد القيس عضو مُؤَرَّبُ
ولا انتقلت من خِنْدِفٍ فى سواهم ... ولا اقْتَدَحت قيس بها ثم أثْقبُوا
ولا كانت الأنصار فيها أُدِلّة ... ولا غُيبا عنها ، إذ الناس غيبُ
هم شهدوا بدراً ، وخيبر بعدها ... ويوم حنين ، والدماء تصببُ
وهم رَائمُوها غير ظِئْر ، وأسبلوا ... عليها بأطراف القنا ، وتحدبُوا

فإذا ثبت أن ليس لهؤلاء حق فى الخلافة ، وفلجتم على الأنصار برسول الله — صلى الله عليه وسلم — وحديث : « الأئمة من قريش » ، فأحق الناس هم خاصة قريش ، وسادتهم بنو هاشم آل الرسول — صلى الله عليه وسلم — وعترته وأحق هؤلاء على ، ثم أبناؤه من فاطمة بنت الرسول — صلى الله عليه وسلم — ووارثته ، وذلك ما أراده الكميت بقوله :

فإن هى لم تصلح لحى سواهم   فإن ذوى القربى أحق وأقرب

وبهذا استطاع الكميت أن يصوغ نظرية الوراثة صياغة شعرية ، انتفع فيها بشيئين : علمه الواسع بالأنساب والأخبار ، ودراسته لأدب الحجاج الذى خلفه على ابن أبى طالب . . . ثم كان له حسن التصوير ، وجمال الصياغة ، والانتقال بالحجاج إلى الأساليب الشعرية .

وأنت ترى أن الكميت قد فتح هذا الباب للشعراء الشيعيين بعده ، بيد أنه لم يترك لقائل منهم شيئاً ، ولعل ذلك هو الذى جعل الشعراء - بعد الكميت — يمسون نظرية الوراثة مساً خفيفاً ، حين لم يجدوا شيئاً يقولونه . . . حتى السيد الحميرى الشاعر القصصى الطويل النفس لم يستطع ، فيما وصلنا من أدبه ، أن يعمل فيها خياله .

والحق أن هذا المعنى لم يكن له إلا الكميت الشاعر العالم النساب ، ولو تناوله غيره لقلت حيلته ، وقصر فيه باعه .

لا بد أن تقوم الدولة على أسس من الدين :

والكميت يرى أن تقوم الدولة الإسلامية على الأسس من الدين . . على النزاهة المطلقة ، والعدل الشامل . . وهذا المثل الأعلى فى سياسة الناس لا ينهض به إلا من اجتمعت له صفاته . . ديناً ، وسياسة ، ومجداً ، وشجاعة ، وكرماً

وعلماً . . وتلك خلال لم تجتمع إلا فى بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم .

أسرة الصادق الحديث أبى القا سم ، فرع القُدَامس القُدام(١)

* * *

فهم الأقربون من كل خير وهم الأبعدون من كل ذام

بسطوا أيدى النوال وكفوا أيدى البغى عنهم والعرام

أخذوا القصد فاستقاموا عليه حين مالت زوامل الآثام(٢)

* * *

فضلوا الناس فى الحديث حديثاً وقديماً ، فى أول القُدَّام

لا مهاذير فى النَّدى مكاثيـ ـرَ ، ولا مصمتين بالإفحام

سادة ، ذادة عن الخرَّدِ البيـ ـض إذا اليوم صار كالأيام(٣)

ومغاييرُ عندهنَّ مغاويـ ـرُ مساعيرُ ، ليلة الإلجام(٤)

لا معازيلَ فى الحروب تنابيـ ـلَ ، ولا رائمينَ بوَّ اهتضام(٥)

وهم الآخذون من ثقةِ الأمـ ـر بتقواهم عرًى لا انفصام

والمصيبونَ والمجيبونَ للدَّعـ ـوة ، والمحرزون خَصْل الترامى(٦)

---

(١) القدامس : الملك الضخم ، والقديم ، والقدام : المتقدم والسيد .

(٢) الزوامل : الإبل التى تحمل عليها الحمولة ، وفى البيت تشبيه الآثام بالزوامل .

(٣) ذادة حماة عن الأهل والخرد : جمع خريدة وهى المرأة الحسناء ، إذا اليوم : صار يوم حرب .

(٤) مغايير : جمع مغيار الشديد الغيرة ، ومغاوير : جمع مغوار الكثير الغارات ومساعير : جمع مسعار ، ومسعر وهو موقد نار الحرب ، وليلة الإلجام : ليلة الحرب .

(٥) البو : ولد الناقة . وجلد الحوار يحشى ثم يقرب من أم الفصيل فتدر عليه . والاهتضام : الظلم .

(٦) الخصل : إصابة القرطاس . ويكنى بذلك عن سداد الرمى .

ومحِلّونَ ، محرمون ، مُقِرُّو ن لحــــل قراره وحرام

وهكذا أخذ الكميت يلح فى وصف الهاشميين بكرم الخلال ، ويصفهم بهذه الأخلاق العربية التى يتحلى بها أهل الفضل .

والحق أن الكميت — كما قال الفرزدق — وجد آجراً وجصا فبنى[1] ، فقد كان الهاشميون كذلك . . . كانوا أقرب الناس إلى لطف الشمائل ، وجميل الخصال . . .

إن نزلوا فالغيوث باكرةٌ والأسد — أسد العرين — إن ركبوا
لا هم مَفاريح عنــــد نوبتهم ولا مجازيعُ إن هُمُ نُكبوا
هينـون لينون فى بيوتهم سِنْخُ التقى والفضائل النُّجُب[2]
والطيِّبون ، المبرَّأون من الآ فة ، والمنجبون ، والنُّجُب
والسالمون ، المطهرون من العيــــب ، ورأس الرؤوس لا الذنب

خلائق الأشراف :

فالكميت كان يصف ما يرى فى هؤلاء من نبل وكرم ، فمكنته هذه الصفات من أن يبلغ بمدائحه فيهم غاية ما بلغه المديح العربى ، وأمدته بمدد زاخر من المعانى السامية ، فنثرها فى هاشمياته .

فمدح أسرة رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أصل من أصول هذه القصائد العلوية ، لأنه أصل من أصول استحقاقهم فى الخلافة . . . وهو فى مدحه لهؤلاء يرينا فهمه لخلائق الأشراف ، استمع لهذه العلوية ، وسوف يعجبك وزنها المرقص ونهجها العربى الصريح :

(١) قيل للفرزدق : أحسن الكميت فى مدح هؤلاء الهاشميين . فقال كلمته (البيان والتبيين ج ٣ ص ١٧٢) .

(٢) هينون جمع هين : ولينون : جمع لين ، والسنخ . الأصل .

طربتُ ، وهل بك من مطرب؟ ولم تتصـــاب ، ولم تلعب
صبابة شـوق تهيجُ الحليـمَ ولا عار فيهـا على الأشـيب
وما أنت إلاَّ رُسُومُ الديار ولو كُنَّ كالخِـــلَل المذهب[1]
ولا ظعن الحىِّ إذ أدلجـت بواكر كالإجْلِ وَالرَّبْرَب[2]
ولستَ تَصُبُّ إلى الظاعنين إذا ما خَلِيـــلك لم يَصْبَب

* * *

فدع ذِكْرَ من لست من شأنه ولا هو من شـأنك المُنْصب
وهات الثناء لأهـــل الثناء بأصوب قولك فالأصـــوب
بنى هاشم ، فهُمُ الأكرمون بنو الباذخ الأفضَل الأطيب
وإياهم فاتخـذ أوليـــا ء من دون ذوى النسب الأقرب
وفى حُبِّهم فاتهـــم عاذلاً نهاك ، وفى حَبْلهم فاحْطِب[3]

* * *

أرَى لهم الفضل فى السابقات ولم أتمنَّ ، ولم أحْسـب[4]
مَسَاميح بيض ، كرام الجدود مَرَاجيح فى الرَّهج الأصهب[5]

---

(١) الخلل : جمع خلة : جلدة يغشى بها جفن السيف ، والمذهب المموه بالذهب .
(٢) الظعين : جمع ظعينة : المرأة فى الهودج ، أو الهودج ، والإجل : القطيع من البقر . والربرب : القطيع من الظباء .
(٣) حطب فى حبلهم : نصرهم .
(٤) أحسب : أظن .
(٥) المسماح : الكريم من السماحة . والمراجيح من الناس : الحلماء : والرهج : الحرب والشغب ، والأصهب : المغبر .

مَوَاهيب للمنفس المستراد لأمثاله ، حين لا مُوهب[1]
أكارمُ غرّ حسانُ الوجوه مطاعيمُ للطارق الأجنب

***

وردت مياهَهم صادياً بحائمة ، ورِدْ مُستعذب[2]
فما حَلأتنى عِصى السقاة ولا قيل : يا ابعد ولا يا اغرب[3]
ولكن بحاجاةِ الأكرمين بحظّى فى الأكرم الأطيب
لئن طال شربى بالآجناتِ لقد طاب عندهم مشربى

***

أناسٌ إذا وَرَدْتَ بحرهم صوادى الغرائبِ لم تغرب
وليس التفحش من شأنهم ولا طيرة الغضَبِ المغضب
ولا الطعن فى أعين المقبلين ولا فى قفا المدبر المذنب
نجومُ الأمور إذا ادلمّست بظلماء ديجورها الغيهب
وأهل القديم ، وأهل الحديث إذا عُقِدت حَبْوَة المحتبى

***

وشجوٌ لنفسىَ لم أنسه بمعترك الطف فالمجتَبى[4]

---

(١) المنفس : ما يتنافس فيه ويرغب ، والمستراد: المطلوب ، ولاموهب: لاواهب
(٢) الحائمة : العطشانة . وهى الصادية .
(٣) حلأه عن الماء . طرده ومنعه ، وابعد واغرب كلمتان للزجر.
(٤) رواية الهاشميات : فالمجتبي ، وما أثبتناه رواية اللسان. « والمجنب » موضع بكربلاء .

كأن خُدودهم الواضحـــــا ت بين الجـــــرِّ إلى المَسْحَب
صفائح بيض جلتهـا القيـو ن ممـــا تخـــيّرْن من يثرب

* * *

أؤمِّل عـــدلا عسى أن أنا ل ما بين شرق إلى مغرب
رفعت لهم ناظرَىْ خائف على الحق يقـدع مُسْتَرْهب

هؤلاء بنو هاشم فى نظر الـكميت ، قد اجتمعت لهم أسـباب الخلافة : النص ، والميراث ، وأخلاق الزعامة الدينية ، والدنيوية ، والعربية . فمن أولى بالخلافة منهم ؟ !

بنو أمية والخلافة :

أبنو أمية ؟ ! وأنت أينما توجهت إلى الخلافة بنظرك ، فدرست أسبابها ، وجدت أن لا بعد أبعد مما بين بنى أمية وبين هذا الأمر . فقد أخطأهم النص : إذ نص سول الله — صلى الله عليه وسلم — عن علىّ — رضى الله عنه — ، كما أخطأهم الميراث ، فأين بنو أمية من ميراث ابن آمنة ، كما يقول الـكميت ؟ هم بعيدون كل البعد من جذم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولو كانوا وُرّاث النبى لفرض لهم من سهم ذوى القربى ، كما فرض لبنى عبد المطلب ، وكم تمنى الأمويون ذلك ، وألحوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه فأبى عليهم[1] . . فمن السفه البين أن يقولوا :

. . . . ورثناها أبانا وأمنـا وما ورثتهم ذاك أم ولا أب ! !

---

(١) النزاع والتخاصم ص ٢٤ ، وانظر البخارى فى كتاب فرض الخمس ، « وخيبر » وكتب الحديث الأخرى .

يرون لهم حقا على الناس واجباً سفاها، وحق الهاشميين أوْجَبُ

وأخرى أن صفات الزعامة الدينية والسياسية لم تجتمع فى واحد من بنى أمية، فشتان بين أخلاقهم وأخلاق الساسة المصلحين، لأنهم فى سياستهم:

يروضونَ دينَ الحق صعباً مُخَرَّماً بأفواههم، والرائض الدين أصعب
إذا شرعوا يوماً على الغيِّ فتنة طريقهم فيها عن الحق أنكبُ[1]
رضوا بخلاف المهتَدِين وفيهم مُخَبَّأة أخرى تصان وتُحْجَبُ
وإن زَوَّجوا أمرين جوراً، وبدعة أناخوا لأخرى ذات وَدْقين تخطِبُ[2]
أَلَحُّوا، وَلَجُّوا فى بعادٍ وبغضةٍ فقد نشبوا فى حَبْل غىٍّ وأنشبوا[3]
تفرقت الدُّنيا بهم، وتعرضت لهم بالنطافِ الآجنات فأُشربوا[4]
حنانيك ربَّ الناس من أن يُغَرَّ بى كما غرَّهم شرب الحياةِ المنصب
إذا قيل: هذا الحق، لا ميل دونه فأنقاضهم فى الحَىِّ صرعى ولغب[5]
وإن عرضت دون الضلالة حومةٌ أخاضُوا إليها طائعين وأوثبوا

---

(١) المخرم من الإبل: الصعب يذلل للركوب، والأنكب: المائل.

(٢) الودق: المطر، وذات الودقين. الداهية، كأنها ذات وجهين. ومن ذلك قول على رضى الله عنه:

تلكم قريش تمنانى لتقتلنى فلا وربك، مابروا ولا ظفروا
فإن هلكت فرهن ذمتى لهم بذات ودقين لا يعفو لها أثر

قال المازنى: لم يصح أنه تكلم بشىء من الشعر غير هذين، وصوبه الزمخشرى رحمه الله تعالى «القاموس فى. ودق».

(٣) نشبوا: علقوا. وأنشبوا غيرهم جعلوه معهم فى حبل الضلال.

(٤) النطاف: جمع نطفة، وهو قليل ماء يبقى فى دلو أو قربة.

(٥) انقاض: جمع نقض، وهو المهزول من السير ــ ناقة أو جملا ــ وحسرى جمع حسير. البعير المعي من السير.

وقد درسوا القرآن ، وافتلجوا به　　فكلهم راضٍ به متحزب
فمن أين ، أو أنى ، وكيف ضلالهم　　هدى ، والهوى شتى بهم متشعب

نعم ، من أين لهؤلاء أن يسوسوا الناس ، وقد خاضوا ما حرم الله خوضا ، وانتهكوا حرمات الله انتهاكا ، يفعلون ذلك عن علم بأنه ضلال وإثم ، ولا خسران أشد من عصيان عن علم .

وعلى هذا النمط أخذ شاعرنا يتحدث عن بنى أمية ، فيسلبهم أخلاق الرياسة واحدة بعد أخرى ، وينحدر بهم إلى مصاف الطغام الكفرة ، ويوازن بينهم وبين بنى هاشم .

فبنو هاشم :

ساسة لا كمن يرتعى النا　　س سواء ورعية الأنعام
لا كعبد المليك ، أو كوليد　　أو سليمان بعد أو كهشام
رأيه فيهم كرأى ذوى الثلـ　　ة فى الثائجات جنح الظلام [1]
جز ذى الصوف ، وانتقاء لذى المخ　　ة نعقا ودعدعا بالبهام [2]
من يمت لا يمت فقيد أو من يحـ　　يى فلاذو إل ، ولاذو ذمام [3]

* * *

وأدب الموازنة — كما علمت — أدب عريق فى التشيع ، بل فى الأدب الحزبى

---

(١) الثلة : الكثير من الضأن . وثاجت الغنم ثواجا : صاحت .
(٢) ذى المخة : يريد السمينة ، والنعق : الصياح ، والدعدعة . زجر البهائم ، فهم يعاملون الرعية معاملة صاحب الضأن . همه فيها ماينفعه . جز الصوف . وذبح السمينة .
(٣) الإل العهد ، والذمام : الذمة والحق ، يقول : من مات منهم لا يفتقد ، ومن عاش فلا عهد له ولا ذمة .

عامة ، والكميت فيه تلميذ على بن أبى طالب وصحابته ، وقد علم الكميت أثره فجعله عنصراً من عناصر الهاشميات .

هذا قوله فى ميميته . فاستمع إليه فى البائية يقول — بعد أن ذكر حقوق الهاشميين وتمجيد القرآن لهم — :

بخاتمكم غصباً تجـــوز أمورهم   فلم أر غصباً مثله حين يغصب
بحقكم أمست قريش تقودها   وبالفَذِّ منها وَالرَّدِيفين نُركب[1]
إذا اتَّضَعُونا كارهين لبيعـــة   أناخوا لأخرى ، وَالأزِمَّة تجذب
ردَافًا علينا لم يُسيموا رَعِيَّـة   وَهَمُّهم أن يمتروها ، فيحلبوا
لينْتَتِجُوها فتنة بعـــد فتنة   فيفتصلوا أفلاءها ثم يركبوا[2]
أقاربنا الأدنون منكم لِعَـلَّة   وساستنا منهم ضِبَاع وأذؤب
لنا قائد منهم عنيف ، وسائق   يقحمنا تلك الجرائيم مُتْعِب

لامية الكميت :

أما اللامية ، فصرخة عنيفة فى وجه الظلم والظالمين ، وتبغيض جرىء لأعمال بنى أمية ، وتكشيف شائن لسياستهم ، واستبدادهم . . . هى دعوة إلى الثورة العارمة على بنى أمية . . ثورة تقتلع جذور دولتهم ، وتعفى على آثارهم ليعود الحق إلى نصابه ، أهل الرأفة والرحمة بالناس :

. . .   .   فيدفأ مقرور ، ويشبع مرمل

---

(١) الفذ : الفرد ، والرديفان : الأثنان أحدهما يردف الآخر .
(٢) فى اللسان . وقد قال الكميت بيتا فيه لفظ ليس بالمستفيض فى كلام العرب وهو قوله ، لينتتجوها فتنة ... والمعروف لينتجوها . يقال : نتج القوم . إذا ولدت إبلهم . ونتجت الناقة أنتجها ، إذا وليت نتاجها ، فأنا ناتج وهى منتوجة .

وينفذ فى رَاضٍ مقـــر بحكمه
وفى ساخط مِنَّا الـكتاب المعطل

وللثورة أسلحة أخرى غير الحجاج المنطق ، وتقرير الأدلة ، فالثورة لا ينفع فيها العقل والمنطق ، إنما وقودها العاطفة المتأججة ، وإثارة الضغائن ، ومن أمثال العرب « حرك لها حوارها تحن »(١) .

وقد علم الـكميت ذلك ، فاتخذ أسلحته من تلك الفواجع الهاشمية ، يخاطب العاطفة ، ويحرك الشعور ، فى أدب حزين باك ، يستدر الدموع . . ثم نثرها فى هاشمياته ، فى أفانين شتى ، مستقصيا قتلى هذا البيت الـكريم ، من لدن جاء الإسلام إلى يوم الـكميت .

وأحب أن تستمع لشىء من هذه اللامية ، فسوف يعجبك من غير شك ، هذا المطلع كما أعجبنى ، وسوف ترى فى هذا الاستفهام التهـكمى قوة بلاغية ، قوة تصل بالـكميت إلى غرضه ، إلى بعث الحمية ، وإحياء ما عفا من نوازى الضغائن والحفائظ والحقود ، يقول الـكميت(٢) :

---

(١) الحوار ، ولد الناقة ، والـكلمة من أمثل عمرو بن العاص ، قالها لمعاوية حين استشاره فى أمر على .

(٢) يرى صاحب الأغانى أن هذه القصيدة قيلت فى رثاء زيد بن على بن الحسين وأن خالد بن عبد الله القسرى بعث بها إلى هشام حينما غضب على الـكميت (حـ ١٥ ص ١١٤) ومعنى ذلك أنها قيلت بعد سنة ١٢٢ هـ وفيها قتل زيد بن على . . وهذا خطأ ، فزيد بن على قتل وعلى الـكوفة « يوسف بن عمر الثقفى » وقد تولاها سنة ١٢٠ هـ بعد خالد . . وأخرى أن القصيدة لم تذكر زيدا ولا مصرعه ، فلو صح أنها قيلت فيه لخلت عن أهم أغراضها ، وهو خلل شعرى لا يقع فيه الـكميت . . على أن زيد ابن على حين هم بالخروج كتب إلى الـكميت أخرج معنا يا أعيمش ، ألست القائل:

ما أبالى إذا حفظت أبا القا سم فيـكم ملامة اللوام ! =

ألا هل عمٍ فى رأيه متأمل ؟ وهل مُدْبِر بعد الإساءة مقبل ؟
وهل أمة مستيقظون لرشدهم فيكشف عنه النّعْسة المتزمل ؟
فقال طال هذا النوم ، واستخرج الكرى
مساويهم ، لو كان ذا الميل يعدل
وعطلت الأحكام حتى كأننا على ملّة غير التى نتَنحل
كلام النبيين الهداة كلامنا وأفعال أهل الجاهلية نفعل
رضينا بدنيا لانريد فراقها على أننا فيها نموت ونقتل
ونحن بها مستمسكون كأنها لنا جُنةٌ مما نخاف ومعقِل
أرانا على حب الحياة وطولها يُجَدُّ بنا فى كل يوم ونهْزِل
نعالج مرْمقاً من العيش فانياً له حارك لا يحمل العبء أجزل[1]
فتلك أمور الناس أضحت كأنها أمور مضيع آثر النوم بهل[2]
فياساسة هاتوا لنا من حديثكم ففيكم ـ لعمرى ـ ذو أفانين مقوَل
أأهل كتاب نحن فيه وأنتم
على الحق نقضى بالكتاب ونَعْدِل
فكيف ، ومن أنى ، وإذ نحن خِلْفة
فريقان شتى تسمنون ، ونُهْزَل

= فكتب إليه :

تجود لكم نفسى بما دون وثبة تظل بها العقبان حولى تجلل

والبيت من اللامية هذه فهى إذاً قد قيلت فى حياة زيد ومهما يكن فلا بد أنها قيلت بعد سنة ١١٣ هـ فقد ذكر فيها « محمدا الباقر » المتوفى سنة ١١٣ هـ .

(١) المرمق : الضيق ، والحارك : الكاهل من البعير يكون عليه الحمل .

(٢) بهل جمع باهل ، والباهل : الناقة المهملة .

ولا ظلم أظلم من أن تهزل الرعية ، وتسمن الحكام ، لذلك استمر الكميت يوضح هذا المعنى ، فيبرز آصار الظلم ، فيقول :

بربنا كبرى القِدح أوهن متنه   من القوم لا شار ولا متنَبل
ولاية سِلَّغد ألفّ كأنه   من الرَّهق المخلوط بالنوك أثوك
كأن كتاب الله يعنى بأمره   وبالنهى منه الكودنى المركل
ألم يتدبر آية فتدله   على ترك ما يأتى أم القلب مقفل ؟
فتلك ملوك السوء قد طال ملكهم   فحتام حتام العنــاء المطوَّل ! ؟
رضوا بفعال السوء من أمر دينهم   فقد أيتموا طوراً عداء وأثكلوا[1]

ثم أخذ يضرب لهم الأمثال ، ويخوفهم هوة الردى ، وقبح العاقبة ، ويشبههم بالرهبان يبتدعون للناس :

. . . . . . ما لم يجىء به   كتاب ولا وحى من الله منزل

وتلك معان قرآنية لم يكن يعرفها الذهن العربى قبل القرآن .

وبيت الكميت :

تحل دماء المسلمين لديهم   ويحرم طلع النخلة المتهدل

لا تفنى عجائبه . . فالظالمون فى جميع العصور كذلك . . وهو معنى لا يزال منتهباً بين الأدباء .

وفى اللامية يتناول حادثة « كربلاء » فيقفك أمام جيش لجب ، تختلط فيه صلصلة السيوف بهمهمة الخيل وتهليل المحاربين حيث يقول :

ومن عجب لم أقضه أن خيلهم   لأجوافها تحت العجاجة أزمل

---

(١) انظر ص ٢٤٤ من هذه الكتاب .

هما هم بالمستلئمين عوابس كحدثان يوم الدجن تعلو وتسفل
يحلئن عن ماء الفرات وظله حسينا ، ولم يشهر عليهن مُنصُل

موقف الكميت من صياغة المعانى الشيعية :

وكل هذه المعانى قد سبق بها الكميت ورددها خطباء الشيعة ، خاصة التوابين ـ كما قلنا ـ ولكن الشاعر استطاع بريشته ، وجمال تصويره الشعرى أن يعرض عليك صورة دامية لهذه المعركة الأثيمة ، وأن يخلع عليها ألوان فنه ، حتى حسبتها له ، وله خاصة ، وكذلك يكون الشاعر الفنان .

ويمضى الكميت فى قصيدته يغلى غليان القدر ، ويزأر زئير العاصفة ويتهدد ، ويتوعد ، ويكاشف بنى أُمية الجزاء فيقول :

فإن يجمع الله القلوب ونلقهم لنا عارض من غير مزْن مكلل[1]
نكيل لهم بالصاع من ذاك أصوعا ويأتيهم بالسَّجل من ذاك أسْجل

ويدعو الناس :

إلى مفزع لن يُنْجِيَ الناس من عمى ولا فتنـــة إلا إليه التحوّل
إلى الهاشميين البهاليل إنهم لخائفنا الرّاجى ملاذ وموئل
وفيهم نجوم الناس ، والمهتدَى بهم إذا الليل أمسى ، وهو بالناس أليل

* * *

فإنهم النـــاس فيما ينوبهم غيوث حيا ينفى به المحلَ ممْحِل

(١) العارض . السحاب المعترض فى الأفق ، والجبال من السحاب . والمزن . السحاب أو أبيضه ، ومكلل فيه برق . أو كثيف مخيم . والمراد عارض ليس من نوع السحاب الممطر ولكنه جيش كثيف كالسحاب .

وإنهم للنـــاس فيما ينوبهم أكف ندى تجدى عليهم وتُفْضِل
وإنهم للنـــاس فيما ينوبهم عُرا ثقةٍ حيث استقلوا وحلّوا
وإنهم للنـــاس فيما ينوبهم مصابيح تهدى من ضلال ومنزل
لأهل العمى فيهم شفاء من العمى مع النصح ، لو أن النصيحة تقبل

والكميت كان لابد له من هذه الموازنة بعدما قدم من تكشيف لسياسة بنى أمية ، ليضع البيتين ، « الهاشمى والأموى » ، كفتى ميزان أمام أعين الناس .

زهو الكميت :

ولقد أحس الكميت بما فى هذه القصيدة ، بل بما فى هاشمياته عامة ، من قوة وخطر ، وأدرك قيمتها فى نصرة الشيعة ، فإذا إعجابه بها يخرجه إلى الفخر والزهو ، وإذا هو يحدثنا بأفصح بيان عن اطمئنانه لقوته الشعرية ، فيضع نفسه مع زهير وامرىء القيس ، والحطيئة ، فى أيام كان فيها أولئك الشعراء قادة الشعر وأئمة البيان ، فيقول :

فدونكموها آل أحمد إنها مُقَلّلة لم يأت منها المقلّل
مهذبة غراء فى غِبِّ قولها غداة غد تفسير ما قال مُجْمِل
أتتكم على هول الجنان ولم تطع لنا ناهياً ممن يئن ويرحل[1]
وما ضرها أن كان فى التُّرب ثاوياً
زهير ، وأودى ذو القروح وجرول

هذه هى هاشميات الكميت . أو نقول : هذا هو الكميت نفسه ، فقد

---

(١) الهول: المخافة من الأمر لايدرى ماهجم عليهمنه . والجنان . القلب ؛ يريد: أنه يقول هذه الهاشميات فى خوف ووجل .

اتخذ الشاعر هذه القصائد سجلا خالداً لعقيدته ، وثبتاً صادقاً للقضية الشيعية. على أن الكميت لم يشغلنا طويلا بنفسه ، يحدثنا عنها ، ولا بفنه ، يفتخر به . وإنما فنى فى التفكير العقلى فى مصير الأمة الإسلامية ، وساق ذلك بمنطق الشاعر الجاهلى الفحل ، الذى هذب الإسلام عقله ونوازع نفسه . . فهو جاهلى فى بيانه وأسلوبه ، إسلامى فى أغراضه وخياله وتفكيره .

الهاشميات :

نقول : والهاشميات ست قصائد ، بلغ مجموعها ثلاثة وستين وأربعمائة بيت .

الأولى « حسب الطبع » :

من لقلب متيم مستهام   غير ما صبوة ولا أحلام

والثانية :

طربت وماشوقاً إلى البيض أطرب   ولا لعباً منى ، وذو الشيب يلعب

والثالثة :

أنى ، ومن أين آبك الطرب   من حيث لا صبوة ولا ريب

والرابعة :

ألا هل عم فى رأيه متأمل ؟   وهل مدبر بعد الإساءة مقبل

والخامسة :

طربت ، وهل بك من مطرب   ولم تتصاب ، ولم تلعب ؟

والسادسة :

نفى عن عينك الأرق الهجوعا   وهم يمترى منها الدموعا

غير قطع أخرى صغيرة .

وقد أودعها الشاعر عقائده الشيعية ـ كما قلنا ـ فحدثنا عن عقيدة الإمامية فى النص على علىّ بالاسم ، وعن نظرية الوراثة ، واستجماع الهاشميين لأخلاق الزعامة .

وقد رأينا كيف كان الشاعر يعبر عن هذه العقائد ، ويحتج لها احتجاجاً ينبثق عن عاطفة صادقة ، وشعور قوى ، وإحساس مرهف ، فتظاهر على الهاشميات عقل وعاطفة ، كما اجتمع لها ثقافة عربية واسعة ، وقدرة شعرية رائعة . . . فاستحقت ما نالت من شهادات وخلود .

وقد طبعت الهاشميات وشرحت عدة شروح ـ وهى لا تزال فى حاجة إلى جهد ـ وعنى بها المستشرقون قبل أن يعنى بها رجال الأدب العربى ، فنقلوها إلى لغاتهم ، وكتبوا عنها المقدمات الضافية .

محنة الكميت :

وبعد ففى النزاريات والهاشميات صاغ الكميت جل شعره ، فاحتج فى الأولى لجذمه وعشيرته ، واحتج فى الثانية لرأيه وعقيدته ، واستخدم فى كل ذلك علمه الواسع ، وعقله النافذ ، وأدبه الغزير ، وإحاطته الشاملة بأشعار العرب وأخبارها ، وأيامها ولغاتها ، بجانب ثقافته الإسلامية ، ودراسته لدين الله .

وبالنزاريات والهاشميات امتحن الكميت محنة تتبعت أثره حتى قتلته ، بعد أن بعد أن فتحت للناس باب الشك فى عقيدته الشيعية .

فقد لج الهجاء بين شعراء مضر واليمن ، واشتد كلب حكيم بن عياش الكلبى على مضر ، والهاشميين خاصة . . . كل ذلك والكميت ينظر إلى الفريقين نظراً هادئاً نظر الناقد البصير ، لا تطغى عليه عصبيته أن يقول قوله الحق ، فكان إذا اجتمع مع شعراء مصر يقول : هو والله أشعر منكم، فيقولون : أجب الرجل،

فيأبى لإحسان خالد بن عبد الله القسرى والى العراق من قبل هشام بن عبد الملك ، وكان خالد يمنياً شديد البر بالكميت والشيعة جميعاً .

ولكن المضريين لا يزالون ينشدونه شعر الكلبي حتى حمى الكميت لبنات عمه وبنات خاله ، فتصدى للدفاع عنهم فى مذهبته — كما قلنا — قالوا : فلما قال الكميت مذهبته ، وبلغ خالداً خبرها ، قال : لا أبالى ما لم يجر لعشيرتى ذكر ، فأنشدوه حتى غضب لنفسه وقومه . فقال : فعلها ! ؟ والله لأقتلنه . ثم اشترى جارية — أو ثلاثين جارية — تخيرهن نهاية فى الحسن والكمال والأدب ، وروّاهن الهاشميات . ثم دسهن مع نخاس إلى هشام ، فاشتراهن فلما أنس بهن واستنشدهن أنشدنه الهاشميات ، فقال : ويلكن ، من قائل هذا الشعر ؟ قلن : الكميت بن زيد الأسدى ، قال : وفى أى البلاد هو ؟ قلن : بالعراق ثم بالكوفة ، فكتب إلى خالد : ابعث إلى برأس الكميت بن زيد ، فقبض عليه خالد وسجنه ، حتى ينفذ فيه أمر هشام ، وفى الغد قرأ على الناس كتاب أمير المؤمنين ، واعتذر إليهم فى قتله ، وكان بين الكميت وبين « أبان بن الوليد البجلى » — عامل واسط — صداقة . فأنذر الكميت بما دبر له ، وأمره : أن ابعث إلى حُبّى — زوج الكميت . وكانت تتشيع — فأقمها مكانك ، ثم تنقب نقابها ، والبس ثيابها ، واخرج ، فإنى أرجو ألا يؤبه لك ، ففعل الكميت ثم اختفى ، حتى خف طلب الأمير ، فخرج إلى هشام ، فاستجار بمسلمة بن عبد الملك ، ثم بمسلمة بن هشام ، فأجاره ، وبلغ أمير المؤمنين ، فقال : أتجير على أمير المؤمنين بغير إذن ! ؟ فقال : كلا ، ولكنى انتظرت سكون غضبه ، قال : أحضرنيه الساعة . فإنه لا جوار لك . فقال مسلمة للكميت : يا أبا المستهل ، إن أمير المؤمنين أمرنى بإحضارك ، قال : أتسلمنى يا أبا شاكر ؟ قال : كلا ولكنى أحتال لك . . « إن معاوية بن هشام مات قريباً ، وقد جزع عليه جزعاً شديداً ، فإذا كان من الليل فاضرب رواقك على قبره ، وأنا أبعث إليك بنيه يكونون معك فى الرواق ، فاذا دعا بك

تقدمت إليهم أن يربطوا ثيابهم بثيابك ، ويقولوا : هذا استجار بقبر أبينا ، ونحن أحق من أجاره

الـكميت فى مجلس هشام بن عبد الملك :

وأصبح هشام ـ على عادته ـ متطاعاً من قصره إلى القبر ، فقال ، من هذا ؟ فقالوا : لعله مستجير بالقبر ، فقال يجار من كان إلا الـكميت ، فإنه لا جوار له ، قيل : فإنه الـكميت ، قال : يحضر أعنف إحضار . فربط الصبيان ثيابهم بثيابه ، فلما رآهم هشام اغرورقت عيناه ، واستعظم ، وهم يقولون : يا أمير المؤمنين استجار بقبر أبينا ، وقد مات ، ومات حظه من الدنيا ، فاجعله هبة له ولنا ، ولا تفضحنا فيمن استجار به ، فبـكى هشام حتى انتحب ، ثم أقبل على الـكميت ، فقال : يا كميت أنت القائل :

وإلا تقولوا غيرها تتعرفوا نواصيها تردى بنا وهى شذب

فقال : لا والله ، ولا أتان من أتن الحجاز وحشية . . . ثم حمد الله ، وصلى على نبيه ، ثم قال : أما بعد ، فانى كنت أتدهدى فى غمرة . وأعوم فى بحر غواية ، أخنى على خطلها ، واستنفرنى وهلها ، فتحيرت فى الضلالة ، وتسكعت فى الجهالة ، مهرعاً عن الحق ، حائداً عن القصد ، أقول الباطل ضلالا ، وأفوه بالبهتان وبالا ، وهذا مقام العائذ ، مبصر الهدى ، ورافض العماية ، فاغسل عنى يا أمير المؤمنين الحوبة بالتوبة ، واصفح عن الزلة ، واعف عن الجرم :

كم قال قائلكم : لعـا لك ، عند عثرته لعاثر
وغفرتم لذوى الذنو ب من الأكابر والأصاغر
أبنى أميــة إنكم أهل الوسائل والأوامر
ثقتى بكل ملمـة وعشيرتى دون العشائر
أنتم معـادن للخلا فة كابرا من بعد كابر

بالتسـعة المتتـابعين خلائفنا وبخير عاشر
وإلى القيـامة لا تزا ل لشافع منكم وواتر

إغضاء أمير المؤمنين ، وسماحته ، وصباحته ، ومناط المنتجعين ، من لا تحل حبوته لإساءة المذنبين ، فضلا عن استشاطة غضبه بجهل الجاهلين .

فقال هشام : ويلك يا كميت ، ومن زين لك الغواية ، ودلاك فى العماية ؟ .

قال : الذى أخرج أبانا من الجنة ، وأنساه العهد ، فلم يجد له عزماً .

فقال : إيه ، أنت القائل :

فياموقدا ناراً لغيرك ضوءها ويا حاطبا فى غير حبلك تحطب

فقال : بل أنا القائل :

إلى آل بيت أبى مالك مناخٌ هو الأرحب الأسهل
نمت بأرحامنا الداخـلا ت من حيث لا ينكر المدخل
وجدنا قريشاً ، قريش البطاح على ما بنى الأول الأول
بهم صلح الناس بعد الفساد وحيص من الفتق ما رعبلوا[1]

فقال هشام ، فأنت القائل :

لا كعبد المليك أو كوليد أو سليمان بعد أو كهشام
من يمت لا يمت فقيداً ومن يحـ ى فلا ذو إل ولا ذو ذمام

وويلك يا كميت ! ! . . . جعلتنا ممن لا يرقب فى مؤمن إلاً ولا ذمة ! .

فقال : بل أنا القائل — يا أمير المؤمنين :

---

(١) حاص الثوب : خاطه ، ورعبله مزقه .

فالآن صرت إلى أميـــــة والأمور إلى المصائر
والآن صرت بها المصيب لمهتد بالأمس حائر
يابن العقـــائل للعقـــائل ، والجحاجحة الأخائر[1]
من عبد شمس ، والأكابر من أمية ، فالأكابر
إن الخـــلافة والإلاف برغم ذى حسد ووَاغِر[2]
دلفا من الشرف التليد إليك بالرفد الموافر
فحللت معتلج البطـــاح . وحل غيرك بالظواهر[3]

فقال له : أنت القائل :

فقل لبنى أمية حيث حلوا وإن خفت المهند والقطيعا
أجاع الله من أشبعتموه وأشبع من بجوركم أُجِيعا
بمرضىّ السياســـة هاشمىٍّ يكون حياً لأمته ربيعا

فقال : لا تَثْريب يا أمير المؤمنين إن رأيت أن تمحو قولى الكاذب .

قال : بماذا ؟ قال : بقولى الصادق :

أورثته الحصان أم هشام حسبا ثاقبا ، ووجها نضيرا
وتعاطى به ابن عائشة البدر ، فأمسى له رقيباً نظيرا[4]

---

(١) الجحجاح : السيد الكريم ، والعقيلة : المخدرة .
(٢) الإلاف : العهد ، والواغر : الحاقد .
(٣) اعتلجت الأرض : طال نبتها ، والأبطح : مسيل الماء .
(٤) عائشة أم هشام بن عبد الملك ، وهى بنت اسماعيل بن هشام المخزومى (العقد الفريد ج ٣ ص ١٥٧) وعائشة أم عبد الملك بنت معاوية بن المغيرة بن أبى العاص . (الطبرى ، وابن الأثير ، وتاريخ الإسلام السياسى) .

وكساه أبو الخلائف مروا ن سنى المكارم المأثورا
لم تجهم له البطاح ، ولكن وجدتها له معاناً ودورا

وكان هشام متكئاً ، فاستوى جالساً ؛ وقال : هكذا فليكن الشعر . . . لقد رضيت عنك يا كميت ، فقبل يده ، وقال : يا أمير المؤمنين إن رأيت أن تزيد فى تشريفى ، ولا تجعل لخالد على إمارة ، قال : قد فعلت ، وكتب له بذلك ، وأمر له بأربعين ألف درهم ، وثلاثين ثوباً هشامية ، وكتب إلى خالد أن يخلى سبيل امرأته ، ويعطيها عشرين ألفاً ، وثلاثين ثوباً ، ففعل .

ثم استأذن الكميت فى رثاء معاوية ، فأذن له ، فأنشده :

سأبكيك للدنيا وللدين ، إننى رأيت يد المعروف بعدك شلت
فدامت عليك بالسلام تحية ملائكة الله الكرام ، وصلت

ثم رحل مزوداً بعطايا هشام وبنى أمية .

***

هذه رواية أبى الفرج فى شأن الكميت وهشام ، ولعلك معى فى أن هذا الموقف يعتبر اختباراً مراً لشاعرية الكميت ، وقدرته على الارتجال وحسن التخلص ، ومبلغ الظن أن الكميت قد أعد لهذا الموقف عدته .

فأبياته . . . إلى آل بيت أبى مالك . . .
و . . . أورثته الحصان أم هشام . . .
فيها قوة تفوق أدب المرتجل حتى عدها النقاد من جيد شعره .

ولقد ضاعت خطبة الكميت كما ضاعت قصيدته :

. . . قف بالديار وقوف زائر . . .

حتى لم يحفظ منهما الرواة إلا ما ذكرنا . . وقد سئل الكميت فقال : ما أحفظ منها شيئاً ، إنما هو كلام ارتجلته .

على أن صاحب العقد قد استطاع أن ينقل إلينا رواية لهذه الخطبة ، وأنا أنقلها لأنها تمثل الكميت خطيباً ، ولأن المصادر العربية لم تستطع أن تحفظ لهذا الرجل موقفاً آخر من مواقفه الخطابية ، مع أنه شاعر خطيب فى نظر الرواة والمؤرخين ، وما كان للجاحظ أن يعده من الخطباء الشعراء إلا وقد قرأ له فيما قرأ مواقف خطابية أهلته لهذا الحكم .

يقول صاحب العقد :

« كان الكميت بن زيد يمدح بنى هاشم ويعرض ببنى أمية ، فطلبه هشام ، فهرب منه عشرين سنة ، لا يستقر به القرار من خوف هشام ، وكان مسلمة بن عبد الملك له على هشام حاجة فى كل يوم يقضيها له ولا يرده فيها ، فلما خرج مسلمة إلى بعض صيوده ، أتى الناس يسلمون عليه ، وأتاه الكميت بن زيد فيمن أتى فقال : السلام عليك أيها الأمير ورحمة الله وبركاته ، أما بعد :

قف بالديار وقوف زائر ... وتأن إنك غير صاغر

حتى انتهى إلى قوله :

يا مسلم بن أبى الوليـ ... ـد لميت إن شئت ناشر
علقت حبالى من حبا ... لك ، ذمة الجار المجاور
فالآن صرت إلى أميـ ... ـة ، والأمور إلى المصاير
والآن كنت به المصيـ ... ـب كمهتد بالأمس حائر

فقال مسلمة : سبحان الله ! من هذا الهندكى الجلحاب[1] الذى أقبل من أخريات

(١) الهندكى : الرجل من أهل الهند ، والجلحاب : الشيخ الكبير .

الناس ، فبدأ بالسلام ، ثم أما بعد ، ثم الشعر ؟ ! . . . قيل له : هذا الكميت ابن زيد ، فأعجب به لفصاحته وبلاغته .

فسأله مسلمة عن خبره ، وما كان فيه من طول غيبته ، فذكر له سخط أمير المؤمنين عليه ، فضمن له مسلمة أمانه ، وتوجه به حتى أدخله على هشام ، وهشام لا يعرفه ، فقال الكميت : السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته . . الحمد لله . . . فقال هشام : نعم الحمد لله ، ما هذا ؟

قال الكميت : مبتدىء الحمد ومبتدعه ، الذى خص بالحمد نفسه ، وأمر به ملائكته ، وجعله فاتحة كتابه ، ومنتهى شكره ، وكلام أهل جنته ، أحمده حمد من علم يقيناً ، وأبصر مستبيناً ، وأشهد له بما شهد به لنفسه ، قائماً بالقسط ، وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده العربى ، ورسوله الأمى ، أرسله والناس فى هبوات[1] حيرة ، ومدلهمات ظلمة ، عند استمرار أبهة الضلال ، فبلغ عن الله ما أمر به ، ونصح لأمته ، وجاهد فى سبيله ، وعبد ربه حتى أتاه اليقين — صلى الله عليه وسلم — .

ثم إنى — يا أمير المؤمنين — تهت فى حيرة ، وحرت فى سكرة ، ادلأم[2] بى خطرها ، وأهاب بى داعيها ، وأجابنى غاويها ، فاقْطَوْطَيْتُ[3] إلى الضلالة ، وتسكعت فى الظلمة والجهالة ، حائداً عن الحق ، قائلا بغير

---

(١) هبوات : جمع هبوة وهى الغبرة . والهباء : الغبار ، أو يشبه الدخان ، يريد أرسله الله تعالى والناس فى حيرة قد عميت مسالكها ، وقد وردت فى بعض النسخ « هفوات » .

(٢) ادلأم بى خطرها : وقع وألم .

(٣) اقطوطى : قارب فى مشيه مع نشاط .

صدق . . . فهذا مقام العائذ بك ، ومنطقُ التائب ، ومبصرُ الهـدى ، بعد طول العمى . . . ثم — يا أمير المؤمنين — كم من عاثر أقلتم عثرته ، ومجترم عفوتم عن جرمه ! !

فقال له هشام — وأيقن أنه الـكميت — : ويحك ! ! من سن لك الغواية، وأهاب بك فى العماية ؟ !

قال : الذى أخرج أبى آدم من الجنة ، فنسى ولم يجد له عزماً ، وأمير المؤمنين كريح رحمة أثارت سحابا متفرقا ، فلفقت بعضه إلى بعض حتى التحم ، فاستحكم هدر رعده ، وتلألؤ برقه ، فنزل الأرض فرويت ، واخضلت ، واخضرت ، وأسقيت ، فروى ظمآنها ، وامتلأ عطشانها ، فـكذلك نعدك أنت ياأميرالمؤمنين أضاء الله بك الظلمة الداجية بعد العُموس[١] فيها ، وحقن بك دماء قوم أشعر خوفك قلوبهم ، فهم يبـكون لما يعلمون من حزمك وبصيرتك ، وقد علموا أنك الحرب وابن الحرب ، إذا احمرت الحدق ، وعضت المغافر بالهام .

عز بأسك ، واستربط جأشك ، مسعار هتان ، وكاف بصير بالأعداء ، مغرى الخيل بالتـكرار ، مستغن برأيه عن رأى ذوى الألباب ، برأى أريب ، وحـلم مصيب . . . فأطال الله لأمير المؤمنين البقاء ، وتمم عليه النعماء ، ودفع به الأعداء » .

فرضى عنه هشام وأمر له بجائزة[٢] .

وهكذا استطاع ابن عبد ربه أن ينقل إلينا نصاً كاملا لخطبة الـكميت ، وقد أغفل سند هذه الخطبة ، فلم يبق أمامنا إلا متنها ننظر فيه ، ثم نحكم على

(١) العموس : الشدة والتعسف .
(٢) العقد الفريد ج ١ ص ٢٥٠ .

ضوئه بصدق الرواية أو كذبها ، وليس فى متن الخطبة ما نستكثره على الكميت ، ذلك الشاعر الفحل ، والراوية الذى امتلأ بأساليب الجاهلية وألفاظها ، بل الكلمة فى ذاتها بالنسبة للكميت ، وثقافته ونتاجه الأدبى من الأدب الخفيف ، فيها روح الارتجال وعجلته .

على أن رواية ابن عبد ربه لم تخرج فى روحها ، وكثير من أساليبها عن رواية الأغانى . . من أجل ذلك تطمئن نفوسنا إلى تصديق صاحب العقد .

مدحه مسلمة بن عبد الملك :

والقصيدة : * قف بالديار وقوف زائر *

يرويها ابن عبد ربه فى مسلمة بن عبد الملك ، وقد يقويها هذه الأبيات التى رواها الجاحظ فى باب المخصرة . قال : وقال الكميت :

ونزور مسلمة المهذب (م) بالمـؤيدة السرائر
بالمذهبـات المعجبا ت لمفحم منا وشاعر
أهل التجارب والمحا فل ، والمقاول ، والمخاصر
فهم كذلك فى المجا لس ، والمحافل ، والمشاعر[1]

ومهما يكن من شىء فقد نال الشاعر عفو هشام بن عبد الملك ، وعاد مزوداً بشيئين : صلات أموية جمة ، وأمان من سطوة الأمير اليمنى ، خالد بن عبد الله القسرى ، ذلك الأمان الذي استخدمه فى النكاية بالأمير ، والسخر من عشيرته ، وإفساد ما بينه وبين الخليفة .

* * *

(١) البيان والتبيين جـ ١ ص ٢٣٦ .

المدائح الأموية :

واتصلت أسباب الكميت بقصر الخلافة ، فكان يفد على هشام ، ثم الوليد ابن يزيد بن عبد الملك يمدحهما ، ويأخذ جوائزهما ، وينال من أمراء البيت الأموى – خاصة مسلمة بن عبد الملك – كثيراً من العطف والتقدير لشاعريته ، ولقد قدر للأدب أن يستفيد من هذه الصلة الأموية ، بما خلفه الكميت من أدب المديح لهؤلاء ، استمع إليه يقول فى مسلمة بن الملك :

فما غاب عن حلم ، ولا شهد الخنا ولا استعذب العوراء يوماً ، فقالها
يدوم على خير الخلال ، ويتقى تصرمها من شيمة ، وانتقالها
وتفضل أيمانَ الرجال شمالُه كما فضلت يمنى يديه شمالها
وما أجم المعروف من طول كره وأمراً بأفعال الندى ، وافتعالها
ويبتذل النفسَ المصونة نفسه إذا ما رأى حقاً عليه ابتذالها
بلوناك فى أهل الندى ففضلتهم وباعك فى الأبواع قدماً فطالها
فأنت الندى فيما ينوبك وَالسَّدى إذا الخود عدت عقبة القدر مالها

وعلى هذا النمط العربى المشرق كانت مدائح الكميت ، فهى من آيات الإبداع فى المدائح العربية . . . يقول فى مخلد بن يزيد بن المهلب :

قاد الجيوش لخمس عشرة حجة ولداته عن ذاك فى أشغال
قعدت بهم هماتهم ، وسمت به هم الملوك ، وسورة الأبطال
فكأنما عاش المهلب بينهم بأغر قاس مثـــاله بمثال
فى كفه قصبات كل مقلد يوم الرهان ، وقوتُ كل نصال[1]

---

(١) المقلد من الخيل : السابق ، وقوت كل نصال : يريد حفظ كل نصال (الأغانى ج ١٥ ص ١٢٨) .

ولعلك تذكر مديحه لخالد بن عبد الله القسرى وغيره ، ولقد سئل الكميت عن مصدر هذا الإحسان ، فجعله خاصة من خواص نفسه حيث قال : إنى إذا قلت أحببت أن أحسن .

على أنه إن صح أن الشعر دليل على وجدان الشاعر ، فسيبقى من شواهد شعره أن شعره فى الهاشميات أقوى من شعره فى بنى أمية . . . فليست أشعاره فى الأمويين إلا قصائد مديح لها نظائرها فى اللغة العربية ، أما قصائده فى بنى هاشم فأعز من أن يكون لها مثيل ، فالهاشميات - من غير شك — أروع قصائده أسلوبا ، وأقواها عاطفة ، وأسماها معانى وأغراضاً ، قد تجلى فيها سحر البيان وقوة الإيمان .

أثر المدائح الأمويه فى الجو الشيعى :

ولقد كان لهذا الاتصال الأموى أثره فى الجماهير الشيعية ، فاستخدمه كثير من خصوم الكميت فى الطعن فى عقيدته ، ولا طعن على الرجل ، فإنها محنة ، وهو مؤمن بالتقية والمداراة حفاظاً على حياته .

دخل المستهل بن الكميت على أبى مسلم الخراسانى ـ صاحب الدعوة العباسية ـ فقال له أبو مسلم : أبوك الذى كفر بعد إسلامه ؟ ! فقال المستهل : وكيف وهو الذى يقول :

بخاتمكم غصباً تجوز أموركم ... فلم أر غصباً مثله حين يغصب؟

قال : فأطرق أبو مسلم مستحيياً[1] .

والمستهل — فى هذا الجواب — عرف كيف يفحم الرجل . . . فليس

---

(١) الأغانى ج ١٥ ص ١٢٣ .

موقف العباسيين من العلويين بأقل من موقف الأمويين من العلويين .

ودخل المستهل على عبد الصمد بن على ، فقال له : من أنت ؟ فأخبره ، فقال : لا حياك الله ، ولا حيا أباك . . . أليس هو القائل :

فالآن صرت إلى أميـــة والأمور إلى المصائر ؟

قال . فأطرقت مستحيياً ممـا قال ، وعرفت البيت . . . فقال : ارفع رأسـك يا بنى ، فلئن كان قال هذا فلقد قال :

بخاتمكم غصباً تجوز أموركم فلم أر غصباً مثله حين يغصب

فسلى عنى بعض الشيء ما كان بى ، وحادثنى ساعة ثم قال : ما يعجبك من النساء ؟ ! قلت :

بيضاء تسحب من قيام فرعها جثلا يزينه سـواد أسحم
فـكأنها فيه نهـار مشرق وكأنه ليـــل عليها مظلم[١]

فقال : يا بنى ، هذه لا تصاب إلا فى الفردوس ، وأمر له بجائزة .

وقد عرفت اعتذار الـكميت عن هذه الصلة الأموية ، وأنه شاعر شيعى يدين بالتقية ، ويحتج لها ، فلا عليه أن يمدح هؤلاء ما دام قد أحس بالخطر يتهدد حياته وما دام قد أغلق قلبه على حب الهاشميين . . .

ولا بد لنا أن نذكر استئذان الرجل فى مديح هؤلاء ، واعترافه بأنه مدحهم

(١) هذه الأبيات نسبها أبو على القالى ، والشريف المرتضى ، والحصرى ، وأبو تمام ، وابن قتيبة فى عيون الأخبار لبـكر بن النطاح المتوفى سنة ٢٤٠ .
ونسبت فى معجم البلدان إلى الحسين بن مطير ، وهو شاعر أموى أدرك الدولة العباسية . . كما نسبت للمستهل بن الـكميت نفسه فى الأغانى ، ونسبها آخرون لأبى حية النميرى .

للدنيا ، ليضمن لنفسه حياة مستقرة ، ينفقها فى خدمة القضية الشيعية ، وإذاعة محامد العلويين .

أخلاق الكميت وإخوانياته :

وبعد ، فقد كان الكميت مر العداوة ، وكذلك كان عذب المودة . . . كانت حياته موزعة بين طائفة من الميول والأهواء ، فهو من الوجهة النفسية رجل يعرف حقوق الإخوان ، فيصطفى من يصطفى على أساس من التفكير العقلى لا الوجدانى ، فلا يحكم عصبيته ولا أهواءه إلا حيث يجب أن تحكم هذه العصبية ، وتلك الأهواء .

الكميت الصديق :

فقد ذكروا أنه كان صديقاً « للطِّرِمَّاح بن حكيم » بينهما خلطة ، ومودة ، وصفاء ، لم يكن بين اثنين على تفاوتهما فى المذهب والعصبية . . . فالطِّرِمَّاح خارجى ، صفرى ، قحطانى ، يتعصب للقحطانيين ، وينتصر لأهل الشام على أهل العراق . . . والكميت — كما علمنا — شيعى ، عدنانى ، يتعصب لمضر ، وينتصر لأهل الكوفة .

وقد سئل الكميت : فيم اتفقتما هذا الاتفاق مع اختلاف سائر الأهواء فقال : اتفقنا على بغض العامة[1] .

ومعنى هذا أن قرابة العقل قد جمعت بين الرجلين ، وفى المثل اللاتينى : « كل الشعراء أرستقراطيون »[2] .

---

(١) الأغانى جـ ١٥ ص ١١٣ . والشعر والشعراء ، والبيان والتبيين جـ ١ ص ٤٧

(٢) تاريخ الأدب العربى للأستاذ الزيات .

وفى عيون الأخبار لابن قتيبة أبيات تمثل مذهب الكميت فى الإخاء ومعاشرة من يصطفيهم لمودته ، يقول فيها :

فما أنا بالنكس الدنىء ولا الذى ... إذا صدّ عنه ذو المودة يقرب
ولكنه إن دام دمت ، وإن يكن ... له مذهب عنى ، فلى عنه مذهب
ألا إن خير الود ودٌّ تطوعت ... به النفس لا ود أتى وهو متعب

فهو يعاشر من يصطفى على اساس قوى من عزة النفس ، وجميل الوداد ، عشرة لا تفحش فيها ولا ضرار ، فإذا أحس من صديقه ملالة الدنو كان معه كما يقول :

وقد يخذل المولى دعأنى ، ويجتدى ... أذاتى ، وإن يعدل به الضيم أغضب
فأنس من بعض الصديق ملالة الد ... نو ، فأستبقيهم بالتجنب[1]

الكميت الوفى :

وهو وفى لمن يعرفه وفاء لا يعدله وفاء ، يعرف كيف يشكر من أحسن إليه ، كان بين الكميت وبين أبان بن الوليد البجلى ما بين الشاعر والأمير . يمدحه فيجزل عطاءه ، حتى توطدت بينهما علائق الود والمحبة ، وحتى كان لهذا أثره عند محنة الكميت — كما قلنا — ، ثم تعرضت حياة أبان لما كانت تتعرض له حياة الولاة عادة من تبدل ونكبات ، فعزل عن واسط ، وسجن ، وأطلقت يد الوالى الجديد « الحكم بن الصلت الثقفى » فيه ، وأقل الكميت يمدح الحكم بن هشام بقصيدته :

* طربت ، وهاجك الشوق الحثيث *

فلما فرغ منها ، دعا الحكم بخازنه ليعطيه الجائزة . . . ثم دعا أبان بن الوليد

---

(١) عيون الأخبار (باب شرار الإخوان) .

فأدخل عليه مكبلا بالحديد ، فطالبه بما عليه من الأموال . . . قالوا : فالتفت الكميت فرآه ، فدمعت عيناه ، ثم أقبل على الحكم فقال : اجعل جائزتى لأبان ، وكان « حوشب بن يزيد الشيبانى » فى المجلس ، فساءه أن يشفع الكميت لأبان فقال : أصلح الله الأمير ، أتشفع حمار بنى أسد فى عيد بجيلة ؟ فقال الكميت : لئن قلت ذاك ، فوالله ما فررنا عن آبائنا حتى قتلوا ، ولا نكحنا حلائل آبائنا بعد أن ماتوا . .

يشير الكميت إلى ما اتهم به حوشب من فراره عن أبيه فى بعض الحروب حتى قتل ، ونجا حوشب[1] فعيره بعض الشعراء بقوله :

نجّى حشاشته ، وأسلم شيخه لما رأى وقع الأسنة حوشب[2]

***

وقد علم قوم « أبان » أثر مدائح الكميت فى تسجيل مفاخرهم ، فاتصلت أعطياتهم له ، ثم لأبنائه من بعده :

فى الأغانى : « التقت « ريا » بنت الكميت ، و « فاطمة » بنت أبان ابن الوليد ، بمكة وهما حاجتان ، فتساءلتا حتى تعارفتا ، فدفعت بنت أبان إلى بنت الكميت خلخالى ذهب كانا عليها ، فقالت بنت الكميت : جزاكم الله خيراً يا آل أبان ، فما تتركون بركم بنا قديماً ولا حديثاً ، فقالت بنت أبان : بل أنتم جزاكم الله خيراً ، فإنا أعطيناكم ما يبيد ويفنى ، وأعطيتمونا من المجد والشرف ما يبقى أبداً ، ولا يبيد ، يتناشده الناس فى المحافل ، فيحيى ميت الذكر ، ويرفع بقية العقب[3].

---

(١) اقرأ هذه الحادثة فى الكامل للمبرد « ج ٨ ص ٤٤ من رغبة الأمل »

(٢) الأغانى ج ١٥ ص ١٢٩.

(٣) الأغانى ج ١٥ ص ١٣٠ .

حكمة الكميت :

وقد كان من شأن هذه الحياة التى عاشها الكميت أن تخلق من صاحبها رجلا مجرباً ، قد مارس الدهر ، وحلب أشطره ، مسدد النظر ، صادق الفراسة ، فلاغرو أن رأينا للكميت لفتات مشرقة من الأدب الحكمى ، تصور عقل الكميت وقد أنضجته الحوادث وجدت فى ثقافته الأيام .

استمع إليه يقول فى ملحمته التى عاتب فيها قريشاً ، فإذا أنت أمام حكمة قد انتزعت من الحياة انتزاعا ، فهى نتيجة التجربة الممتدة :

ألا لا أرى الأيام يقضى عجيبها لطول ، ولا الأحداث تفنى خطوبها
ولا غير الأيام يعرف بعضها ببعض من الأقوام إلا لبيبها
ولم أر قول المرء إلا كنبله به ، وله ، محرومها ، ومصيبها
وما غبن الأقوام مثل عقولهم ولا مثلها كسباً أفاد كسوبها
وأجهل جهل القوم ما فى عدوهم وأقبح أخلاق الرجال غريبها
ولم أر باب الشر سهلا لأهله ولا طرق المعروف وعثاً كثيبها
وأكثر مأتى المرء من مطمئنة
وأكثر أسباب الرجال ضروبها
ولم أجد العُبدان أقذاء أعين ،
ولكنما أقذاؤها ما ينوبها

وهكذا يمضى الكميت بن زيد . . . وبمثل هذا الأسلوب ، يتحدث عن قريش ، ومعاملتها له مع إحسانه إليها ، فيبلغ ما أراد ، فى أدب العاتب المتزن .

* * *

ضياع شعره :

وللكميت شعر كثير عدت عليه الأيام ، فلم تحفظ لنا إلا هاشمياته وبعض مقطعات أخرى قليلة لا يبلغ مجموعها خمسمائة بيت من أكثر من خمسة آلاف كما قلنا .

كما حفظ لنا ابن قتيبة فى ديوانه الكبير أبياتاً متفرقة قد تبلغ الألف استدل بها على ما تناوله من موضوعات الوصف المختلفة تدل على وفرة شعر الكميت ، وغزارة علمه باللغة والأدب .

فنزارياته التى عارض بها الكلبى وشعراء اليمن ، ومدحه للخلفاء والولاء وإخوانياته ، ولا بد أنها كثيرة جداً كثرة تجاربه وما لاقاه ، كل ذلك ضاع ، مع ما ضاع من تراث الأدب العربى .

وقد ذكر السيوطى[1] ، فيما قرأ من دواوين الأدب ، شرح السبع العاليات للكميت ، وعبثاً حاولنا الحصول عليها أو الوقوف على موضوعها ، ولعلها النزاريات ولعلها غيرها ، ولعل الزمن يجود بإظهارها للناس ، وكشف الستار عنها .

والذى لا شك فيه أن لو وصلنا أدب الكميت كله لرأينا ديواناً ضخماً يسجل أنساب العرب وأيامها ، ومفاخر القبائل ومثالبها ، بجانب ماتناوله الكميت من أغراض خلقية سامية . . . ديواناً ينفع المؤرخ والأديب معاً .

قتل الكميت :

ولقد صدق الكميت حيث يقول :

ولم أر قول المرء إلا كنبله   به ، وله محرومها ، ومصيبها

(١) شرح شواهد المغنى ص ٢ .

فقد كان للكميت من قوله محرومه ومصيبه ، فانتهت حياته بسبب من أسباب شعره المضرى ، وما أثاره من حفائظ اليمنيين .

غضب هشام بن عبد الملك على خالد بن عبد الله القسرى ، فعزله عن العراق ، وولى يوسف بن عمر الثقفى ، وأطلق يده فى خالد وشيعته .

واتصلت حياة الكميت بهذا الوالى الجديد ، يمدحه ، ويأخذ عطاءه ، تقية شيعية ، وحيلة صناعية ، وحياة دنيوية . . . فبينما هو بين يديه ينشده :

خرجت لهم تمشى البراح ، ولم تكن كن حصنه فيه الرتاج المضبب
وما خالد يستطعم الماء فاغراً بعدلك ، والداعى إلى الموت ينعب

يعرض بخالد حين خرجت عليه الجعفرية ، وهو يخطب الناس على المنبر فدهش ، فقال : أطعمونى ماء .

قالوا : وكان الجند الذين على رأس يوسف يمانية ، فثارت عصبيتهم لزعيمهم القسرى ، ورأوها فرصة تخلصهم من لسان هذا الشاعر فوضعوا ذباب سيوفهم فى بطن الكميت ، وهم يقولون :

تمدح الأمير قبل أن تستأذن !؟ . . فلم يزل ينزف منه الدم حتى مات وهو يقول : اللهم آل محمد . . اللهم آل محمد .

وهكذا عاش الشاعر شيعياً . ومات شيعياً كذلك .

وكانت وفاته سنة ست وعشرين ومائة هجرية .

رحم الله الكميت وأكرم مثواه .

السيد الحميرى

أبو هاشم إسماعيل بن محمد بن يزيد بن مفرغ الحميرى ١٠٥ ـ ١٧٣ هـ

دراسة السيد — لماذا ندرس السيد — تشيعه — السيد شاعر الأساطير الشيعية — منزلة السيد عند الشيعة — العقائد الشيعية فى شعره — السيد فى البلاط العباسى ـ شاعريته ـ أغراض شعره : الغزل ، الهجاء ، الرثاء ـ طرف من أخباره ـ خصائصه الشعرية ـ أقوال العلماء فيه ـ نسبه ـ بيئته ـ أثرها ـ موته .

دراسة السيد :

نحتاط فى دراستنا للسيد كما احتاط أبو الفرج الأصفهانى فى رواية ما روى من من أخباره وأشعاره ، ولو استطعنا لأعرضنا عن ذلك إعراضاً ، وساعدنا الزمن على قبر تراثه ، والتصفية على ما روى من علوياته .

وما رأيك فى رجل لم يدع نقيصة من النقائص ، ولا مأثمة من المآثم ، ولا لوناً من ألوان العيب والتسفيه إلا رمى به خيرة المسلمين وسلفهم الصالح لا يستثنى من هؤلاء جميعاً إلا أئمة العلويين وشيعتهم . . فأما أبو بكر ، وعمر وعثمان ، وغيرهم من أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مهاجرين وأنصاراً ثم مَنْ بعدهم مِنَ المسلمين فلم يسلموا من لسانه ، ولم يأمنوا من طعنـــه فى إسراف وقبح ؟

أليس مثل هذا جديراً بأن تطوى صحيفته ، وينسخ من سجلات الأدب ذكره ؟ !

أما الرواة فقد رأوا فيه ذلك ، فأعرضوا عن تقييد شعره على إكبارهم لموهبته ، وتقديرهم لطرازه الشعرى ، فذهب شعره مع الزمن ، وتحاماه العلماء

والأدباء ، ثم ما كانوا ينشدونه إلا على استحياء وخفية ... يقول أبو الفرج : كان السيد شاعراً متقدماً مطبوعاً ، يقال : إن أكثر الناس شعراً فى الجاهلية والإسلام ، ثلاثة : بشار ، وأبو العتاهية ، والسيد ، فإنه لا يعلم أن أحداً قدر على تحصيل شعر أحد منهم أجمع ، وإنما مات ذكره ، وهجر الناس شعره ؛ لما كان يفرط فيه من سب أصحاب رسول الله — صلى الله عليه سلم — وأزواجه فى شعره ، ويستعمله من قذفهم والطعن عليهم ، فتحومى شعره من هذا الجنس وغيره لذلك ، وهجره الناس تخوفاً وتوقياً . وله طراز من الشعر ومذهب قلما يلحق فيه أو يقاربه ، ولا يعرف له من الشعر كثير ، وليس يخلو من مدح بنى هاشم أو ذم غيرهم ، ممن هو عنده ضد لهم[1] .

وحدث التَّوزِى قال : رأى الأصمعى جزءاً فيه من شعر السيد فقال : لمن هذا ؟ فسترته عنه لعلمى بما عنده فيه ، فأقسم على أن أخبره فأخبرته ، فقال : أنشدنى قصيدة منه ، فأنشدته قصيدة ، ثم أخرى ، وهو يستزيدنى ، ثم قال : قبحه الله ، ما أسلكه لطريق الفحول ! ؟ لولا مذهبه ، ولولا ما فى شعره ، ما قدمت عليه أحداً من طبقته[2] .

ويقول عمر بن شبة : أتيت أبا عبيدة — معمر بن المثنى — يوماً ، وعنده رجل من بنى هاشم يقرأ عليه كتاباً ، فلما رآنى أطبقه ؛ فقال أبو عبيدة : إن أبا زيد ليس ممن يحتشم منه ، فاقرأ ، فأخذ الكتاب ، وجعل يقرؤه فإذا هو شعر السيد ، فجعل أبو عبيدة ، يعجب منه ، ويستحسنه[3] .

وهكذا ، أعرض الرواة عن إذاعة شعر السيد ، بل حثوا على الإعراض عنه ،

---

(١) الأغانى جزء ٧ ص ٢٢٩ .
(٢) المصدر ص ٢٣٢ .
(٣) المصدر ص ٢٣٢ ، ص ٢٣٦ .

فكان الطوسى يقول : إذا رأيت فى شعر السيد « دع ذا » فدعه ؛ فإنه لا يأتى بعده إلا سب السلف ، أو بلية من بلاياه[١] .

من أجل هذا لم يبق من شعره إلا هذه لأبيات التى ذكرها أبو الفرج تنفيذاً لشرطه[٢] .

لماذا ندرس السيد ؟

وكم كنا نحب أن نعامله بمثل هذه المعاملة التى عامله بها الرواة ، إجلالا للسلف الصالح . ومقتاً لهذا اللون من الأدب ، وفى اعتقادى أنه لن يخسر الأدب كثيراً إذا طهر من هذا الإسفاف ـ لولا أن رسالتنا فى « التشيع » فى هذا الأدب الشيعى . الذى يمثل العقيدة الشيعية ويسجلها ، ويصور طائفة من الناس كان لها شأن كبير فى الحياة الإسلامية ، سياسة ، وأدباً ، وعقيدة، وللسيد فى هذه الحياة شأن وله فى علوياته مكانة ، تدفعنا مرغمين إلى دراسته ، فقد كان من هذه الألسن السياسية التى هى مرآة لقلوب أصحابها، والتى تمثل الإيمان الشيعى ، والصدق فى العقيدة ، والتى تعلن رأيها الكيسانى فى غير مواربة ولا استحياء ، بل هى تعطيك هذا الرأى صريحاً حراً ، وتحتج له فى حرارة وعنف ، لا تخشى سطوة أمير ، ولا سيف خليفة ، ولا تضن بالنفس على الموت فى سبيل عقيدتها ، ولعل شيعة العلويين لم يظفروا ـ بعد الكميت ـ فى حياتهم السياسية بشاعر مثله ، وقف عليهم حياته وجهده ، وكاد يقف عليهم ثناءه ومدحه ، مخلصاً فى ذلك كله إخلاصاً لا يشبهه إخلاص .

---

(١) الأغانى ج ٧ ص ٢٣٧ .

(٢) حيث يقول « ولكنا شرطنا أن نأتى بأخبار من نذكره من الشعراء ، فلم نجد بدا من ذكر أسلم ما وجدناه له » ج ٧ ص ٢٣٠ .

فى الأغانى : عن الحسن بن على الدؤلى ، كنا جلوساً عند أبى عمرو بن العلاء فتذكرنا السيد ، فجاء ، فجلس ، وخضنا فى ذكر الزرع والنخل ساعة ، فنهض ، فقلنا : ياأبا هاشم : مم القيام؟ فقال :

إنِّى لأكرَهُ أن أطيل بمجلس   لا ذكرَ فيه لفضلِ آل محمدِ
لا ذكر فيه لأحمدٍ ووَصِيّه   وبنيه ، ذلك مجلسٌ نَطِفٌ رَدِى
إنّ الذى ينساهم فى مجلسٍ   حتى يُفارقهُ لغيرُ مسددِ[1]

وهكذا كان السيد شاعراً ينفق حياته فى التشيع ، حتى كاد يحيا فيه وله ، ويخص آل محمد بمحبة فى القلب قد طويت عليها الأضلع ، وهو يجاهر بهذا الحب ، ويدعو إليه ، حتى فى قصور الخلفاء العباسيين وولاتهم .

يقول الحسن بن على بن المغيرة[2] : حدثنى أبى ؛ قال : كنت مع السيد على باب عقبة بن سلم ومعنا ابن لسليمان بن على - عم المنصور - ننتظره وقد أسرج له ليركب ، إذ قال ابن سليمان — يعرض بالسيد — أشعر الناس — والله — الذى يقول :

محمدٌ خيرُ منْ يمشِى عَلَى قدمٍ   وصاحباهُ ، وعثمان بن عفانا

فوثب السيد ؛ وقال : أشعر — والله — منه الذى يقول :

سائل قريشا إذا ما كنتَ ذا عَمَهٍ   مَنْ كان أثبتها فى الدين أوْتادَا
مَنْ كانَ أعلمها علما ، وأحلمهَا   حلما ، وَأَصدَقَهَا قَوْلاً وميعادَا

---

(١) الأغانى ج ٧ ص ٢٦٧ .

(٢) الأغانى ج ٧ ص ٢٦٦ وهى طويلة تناول فيها أبا بكر وعمر ، وكثيراً من الصحابة الذين تخلفوا عن بيعة على كسعد بن أبى وقاص ، وأسامة بن زيد وعبد الله بن عمر (مروج الذهب ج ٢ ص ٤٨) وعقبة بن سلم بن نافع ولى إمرة البصرة لأبى جعفر المنصور .

إنْ يصدقوكَ فلن يعدُوا أبا حسن إنْ أنتَ لم تلق للأبرارِ حُسَّادَا

ثم أقبل على الهاشمى يقول : يا فتى ، نعم الخلف أنت لشرف سلفك ! ! أراكَ تهدم شرفك ، وتثلب سلفك ، وتسعى بالعداوة على أهلك ، وتفضل من من ليس أصلك من أصله ، على من فضلك من فضله ، وسأخبر أمير المؤمنين عنك بذا حتى يضعك ، فوثب الفتى خجلا ، ولم ينتظر عقبة بن سلم ، وكتب إليه صاحب خبره بما جرى ، فخرجت الجائزة للسيد .

فشاعرنا لم ينس عقيدته فيجامل ، ويفتخر بالعباس مثلا ـ فعل شعراء السياسة العباسيين ـ ولكنه أعلن عقيدته ، ثم جبه بها صاحبه ، وهو من بيت الخلافة ، بل ابن عم أمير المؤمنين ، واحتج لهـذا التفضيل بما يرضى أمير المؤمنين ، وهى حيلة حسنة .

ودخل أبو الخلال العتكى ـ شيخ العشيرة ، وكبيرها ـ على عقبة بن سلم والسيد عنده ، وقد أمر له بجائزة ، فقال له: أيها الأمير : أتعطى هذه العطايا رجلا ما يفتر عن سب أبى بكر وعمر ! ؟ فقال له عقبة : ما علمت ذلك ، ولا أعطيته إلا على العشرة والمودة القديمة ، وما يوجبه حقه وجواره ، مع ما هو عليه من موالاة قوم يلزمنا حقهم ورعايتهم ، فقال له أبو الخلال : فمره ـ إن كان صادقاً ـ أن يمدح أبا بكر وعمر حتى نعرف براءته مما ينسب إليه من الرفض ، فقال : قد سمعك ، فإن شاء فعل ، فقال السيد :

إذا أنا لم أحفظ وَصــاة محمد ولا عَهدَهُ يومَ الغدير المؤكدَا
فإنِّى كمن يشرَى الضلالةَ بالهدى تنَصَّرَ من بعد التقَى ، وتهوَّدَا
ومالى وتيم ، أوْ عَدِى ، وإنما أُولو نعمتى فى الله مِن آل أحمدَا
تَتِمُّ صلاتى بالصـلاة عليهم وليست صلاتى بعد أنْ أتشهدَا

بكاملة إنْ لَمْ أصَـــلْ عليهم
وأدْع لَهُمْ رَبًّا كريمًا ممجـدًا

بذلتُ لَهُمْ وُدّى ، وَنُصْحى ، وَنُصْرَتى
مَدَى الدّهر ما سميتُ ـ يا صاحِ ـ سَيِّدًا

وإنْ امرأً يَلْحى على صـدقِ وُدِّهم
أَحَقُّ ، وَأَوْلَى فيهـم أنْ يُفَنَّدَا

فإنْ شئت فاخـتر عاجل الغَمِّ ضلّة
وإلاَّ فأمْسِك كى تُصَـان وَتُحْمَدَا

ثم نهض مغضباً . فقال أبو الخلال : أعذنى من شره ـ أعاذك الله من السوء ـ أيها الأمير . قال : قد فعلت ، على ألا تعرض له بعدها[1] .

فالسيد يذكر يوم الغدير . . . وهو اليوم الذى تروى فيه الشيعة أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد عهد فيـه لعلىّ بن أبى طالب ، وأوصى له بالخلافة تنفيذاً لقوله تعالى : « يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك . . . » الآية .

والسيد يعلم أنه يذكر هذا عند عقبة بن سلم ، أمير البصرة لأبى جعفر المنصور ، وأنه بهذا يهدم القضية العباسية ، وينقض تلك النظريات والحجج التى أسسها المنصور ليحتج بها على استحقاقهم للخلافة .

ولـكنها عقيدة الشيعة التى فنى فيها السيد ، وتعبد بها ، وجعلها لب حياته ، وجوهرها ، وغايتها .

---

(١) الأغانى جـ ٧ ص ٢٦٢ .

السيد شاعر الأساطير الشيعية :

ثم هو مسرف فى هذا الحب ، ينسى فيه عقله ، فكل خير ـ فى نظره ـ يمكن أن ينسب إلى العلويين قبله العقل أو لم يقبله ، وكل شر ـ فى نظره ـ يمكن أن ينسب إلى خصوم العلويين رضيه العقل أو لم يرضه ... وكان يكفى أن يسمع رجلا من القصاص ، ورواة الأساطير ، يروى كرامة من الكرامات لعلى وأبنائه حتى ينظم فيها قصيدة طويلة ، يتخذها وسيلة إلى ذم السلف ، والنعى عليهم ، بل كان يسعى بنفسه إلى هذا اللون من الأساطير فيسجلها فى شعره ، حتى صح لنا أن نسميه شاعر الأساطير الشيعية ، بجانب تسميته شاعر العقائد الكيسانية .

يقول المدائنى : « كان السيد يأتى الأعمش فيكتب عنه فضائل على ـ رضى الله عنه ـ ويقول فى تلك المعانى شعراً ، فخرج ذات يوم من عند بعض أمراء الكوفة ، وقد حمله على فرس ، وخلع عليه ، فوقف بالكناسة ، ثم قال : يا معشر الكوفيين ، من جاءنى منكم بفضيلة لعلى بن أبى طالب لم أقل فيها شعراً أعطيته فرسى هذا وما على ، فجعلوا يحدثونه ، وينشدهم ، حتى أتاه رجل منهم ، وقال : إن أمير المؤمنين على بن أبى طالب ـ رضى الله تعالى عنه ـ عزم على الركوب ، فلبس ثيابه ، وأراد لبس الخف ، فلبس أحد خفيه ، ثم أهوى إلى الآخر ليأخذه ، فانقض عقاب من السماء ، فحلق به ، ثم ألقاه ، فسقط منه أسود ، وانساب فدخل جحراً ، فلبس على ـ رضى الله تعالى عنه ـ الخف . . قال : ولم يكن قال فى ذلك شيئاً ، ففكر هنيهة ، ثم قال :

ألاَ يَا قوم لِلْعَجَب العُجَابِ خُف أبى الحسين وَللحُبَاب
أتى خفاً له ، وانساب فيه لينهش رجله منهُ بناب
فخرَّ منَ السماءِ له عُقَاب من العِقْبَانِ أوْ شِبْه العُقَاب

فطار به ، فحلق ، ثمَّ أهْوَى ... به للأرْضِ من دون السَّحاب

إلى جُحْرٍ له ، فانساب فيه ... بَعِيد القَعر ، لم يُرْتَج بباب

كريه الوجه ، أسْوَد ، ذو بصيص ... حديد الناب ، أزْرَقُ ، ذو لعاب

ودوفع عن أبى حسن على ... نقيع سِمَامه بعـــد انْسِياب

ثم حرك فرسه ، ومضى ، وجعل تشبيهاً بعد ذلك :

صبوت إلى سليمى والرباب ... وما لأخى المشيب وللتصابى ؟[1]

* * *

وعن حاتم بن قبيصة ، قال : سمع السيد محدثاً يحدث أن النبى – صلى الله عليه وسلم – كان ساجداً ، فركب الحسن والحسين على ظهره ، فقال عمر : « نعم المطى مطيكما ! » فقال النبى – صلى الله عليه وسلم – : « ونعم الراكبان هما » ، فانصرف السيد من فوره ، فقال :

أَتَى حسناً والحســينَ النبى ... وقد جلَسَـــا حَجْرَةً يلعبانِ[2]

فَفَدَّاهما ، ثمَّ حَيَّـــاهما ... وكانَ لديهِ بذاكَ المكانِ

فراحا وتحتهما عاتقـــاهُ ... فنعْمَ المطيَّـــة ، والرَّاكبانِ

وليـــدان أمُّهما برَّةٌ ... حصـــانٌ مُطَهَّرَةٌ للحصانِ

وَشَيْخُهما ابن أبى طالب ... فنعْمَ الوليـــدان والوالدانِ

خليلى لا تُرْجيا واعـــلما ... بأنَّ الهُدَى غيرُ ما تزعمانِ

وإن عَمَى الشَّك بعـــد اليقين ... وضعف البصـــيرة بعد العيانِ

ضلالٌ ، فلا تَلْجَجا فيهما ... فبئست – لعمركما – الخصلتانِ

---

(١) الأغانى ج ٧ ص ٢٥٧ .

(٢) الحجرة : الناحية .

أيُرْجَى علىٌّ إمام الهدى وعثمان ! ما أعندَ المرجيان[1]
ويرجى ابن حرب وأشياعه وهوج الخوارج بالنهْرَوَان
يكون إمامهم فى المعاد خبيثالهوى مؤمنالشيصبان[2]

وهكذا يمضى السيد يتلقف من القصاص ، ورواة الأساطير الشعبية ما يخلعونه من كرامات وأخبار على « علىّ » وأبنائه ، فينظم فيها شعراً ، حتى كان أحدثلاثة لم يبذهم شاعر جاهلى ولا إسلامى فى كثرة الشعر ، وحتى أربت قصائده الهاشميات على ألفين وثلاثمائة قصيدة .

يقول الموصلى : حدثنى عمى ، قال : جمعت للسيد فى بنى هاشم ألفين وثلاثمائة قصيدة ، فخلت أن قد استوعبت شعره ، حتى جلس إلىّ يوماً رجل ذو أطمار رثة فسمعنى أنشد شيئاً من شعره ، فأنشدنى له ثلاث قصائد لم تكن عندى ، فقلت فى نفسى : لو كان هذا يعلم كل ما عندى كله ، ثم أنشدنى بعد ما ليس عندى لكان عجباً ، فكيف وهو لا يعلم ، وإنما أنشدنى ما حضر ؟ ! وعرفت أن شعره ليس مما يدرك ، ولا يمكن جمعه كله[3] .

منزلة السيد عند الشيعة :

وقد عرف الشيعة له إخلاصه فى حبه ، وفنائه فى عقيدته ، فأنزلوه من نفوسهم أسمى المنازل . . . ووضعوا له الوسائد بمسجد « الكوفة » يجلس عليها ،

---

(١) الإرجاء : التأخير ، وقد تكرر هذا اللفظ فى شعر السيد ، والمراد به هنا ترك الحكم بين على ومن ذكر .

(٢) الشيصبان : من أسماء الشيطان ، والقطعة فى الأغانى ج ٧ ص ٢٥٩ .

(٣) الأغانى ج ٧ ص ٢٣٦ .

وينشدهم شعره[١] ... وأدرك الطالبيون خطره الحزبى ، وبلاءه الشيعى ، وحسن تصويره لمصارع قتلاهم ، ففتحوا صدورهم له ، وغمروه بعطفهم ، وبرهم ، وعطاياهم .

وأدرك السيد هذه المنزلة الشعرية فاعتمد عليها فى غفران ما يقترف من ذنوب وآثام ، واتخذ حظه من اللهو والخمر والاستماع — شأن شعراء عصره ، وإن لم يسرف إسرافهم — وأطمعه العلويون فى شفاعتهم يوم القيامة ، فكانوا يقولون — كلما ذكر السيد — : وأى ذنب يعظم على الله أن يغفره لرجل من آل البيت فهو لن تزل له قدم إلا ثبتت له أخرى[٢] .

وحدث جعفر ، عن أبيه محمد ، عن جده على بن الحسين : « أن محبى آل محمد لا يموتون إلا تائبين » ، وقد تاب السيد ، وكتب إليه بذلك[٣] .

وطبعى أن تنظر الجماهير إلى السيد نظرات مختلفة ، نظرة البغض والمقت لمذهبه فى سب السلف ، ونظرة الخوف والإجلال لمكانته من أبناء فاطمة — رضى الله عنها — ودفاعه عنهم ، وإذاعته محامدهم — وأنت تعلم ما لهؤلاء السادة من مكانة فى قلوب الناس — فوُجد فى الجو الشيعى من رآه ينشد الرسول — صلى الله عليه وسلم — مدائحه .

يقول زيد بن موسى بن جعفر : رأيت رسول الله — صلى الله عليه وسلم —

---

(١) العقد ج ٣ ص ١١٣ .
(٢) الأغانى ج ٧ ص ٢٥٢ .
(٣) هذه رواية الأغانى ج ٧ ص ٢٧٧ . وأعتقد أن جعفر الصادق أجل من هذا ، اللهم إلا أن تكون كلمات سياسية .

وقدامه رجل جالس عليه ثياب بيض ، فنظرت إليه فلم أعرفه ، إذ التفت رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فقال : يا سيد ، أنشدنى قولك :

* لأم عمرو باللوا مربع *

فأنشده إياها ، ما غادر منها بيتاً واحداً ، فحفظتها عنه فى النوم ، وفى رواية : أنه لما وصل إلى قوله :

قالوا له : لو شئت أعلمتنا إلى من الغاية والمفزع ؟

قال الرسول — صلى الله عليه وسلم — : حسبك ، ثم نفض يده ، وقال : قد - والله - أعلمتهم [1] .

* * *

قوله الشعر ببركة الرسول :

والسيد يحدثنا : أنه لم يقل الشعر إلا ببركة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وإشارته . . . رأى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فى النوم ، وكأنه فى حديقة سبخة ، فيها نخل طوال ، وإلى جانبها أرض كأنها الكافور ليس فيها شىء فقال : أتدرى لمن هذا النخل ؟ قلت : لا ، يا رسول الله ، قال : لامرىء القيس ابن حجر ، فاقلعها ، واغرسها فى هـذه الأرض ، ففعلت ، وأتيت ابن سيرين فقصصت رؤياى عليه ، فقال : أتقول الشعر ؟ قلت : لا ، قال : أما إنك ستقول شعراً مثل شعر امرىء القيس ، إلا أنك تقوله فى قوم بررة أطهار ؟ قال : فما انصرفت إلا وأنا أقول الشعر [2] .

---

(١) الأغانى جـ ٧ ص ٢٦٧ ، وانظر فوات الوفيات ص ٢٠ ، وقد نقلناها لك هذه الرسالة من قبل .

(٢) الأغانى جـ ٧ ص ٢٣٧ .

نقول : ولكن ابن سيرين مات سنة عشر ومائة[1] ، والسيد فى الخامسة من عمره . . . فمن غير المعقول أن يتلاقيا فى مثل هذا الموقف ، ولكنه أبو الفرج ورواياته !

ومهما يكن ، فكل هذه الأحلام أثر من آثار التفكير العميق فى قضية هؤلاء الطالبيين .

العقائد الشيعيه فى شعر السيد :

وقد كان السيد شاعر العقائد الكيسانية ، من رجعة ، ووصاية ، ومهدية ، وتناسخ . . . يصورها فى أفانين شتى ، وألوان متفاوتة ، ويستخدم فيها نفَسَهُ الشعرى الطويل ، وطبعه الروائى ، وأسلوبه السهل الرائع ، وقد رأينا — فى أوائل هذا البحث — كيف صور عقد البيعة لعلى فى غدير « خم » . فاستمع الآن قصيدة أخرى ، فهى أثر من آثار هذه الأساطير الشيعية ، وهى فى الوقت نفسه تمثل السيد وعقيدته الكيسانية التى مات عليها[2] ، كما تمثل إخلاصه لتشيعه . وفناءه فى عقيدته ، وأنه إنما يتولى هؤلاء العلويين عن قلب صادق ، وعاطفة مشبوبة .

يقول ابن الساحر ، راويته :

« . . . وآخر عهدى به قبل موته بثلاث ، وقد سمع رجلا يروى عن النبى — صلى الله عليه وسلم — أنه قال لعلى عليه السلام : إنه سيولد لك بعدى ولد ،

---

(١) المعارف لابن قتيبة ص ١٩٥ .

(٢) زعم بعض الرواة أن السيد رجع عن مذهب الكيسانية إلى القول بإمامة جعفر الصادق . وقال فى ذلك قصيدة ، وقد أغنانا ابن الساحر — راويته — عن الرد على هذا الزعم : الأغانى ج ٧ ص ٢٣١ .

وقد نحلته اسمي وكنيتي ، فقال في ذلك آخر قصيدة قالها :

أشاقتْكَ المنازل بعد هند ... وتربيها ، وذاتِ الدلِّ دعد ؟
منازلُ أقفرت منهن مَحَّتْ ... معالمهُنَّ ، من سَبَلٍ ورعد[1]
وريح حَرْجَفٍ تستنّ فيها ... نسافى الترب تلحم ما تُسدِّى[2]

* * *

ألم يبلغك والأنباء تنمى ... مقالَ محمد فيما يؤدى
إلى ذى علمه الهادى علىّ ... وخولة خادم في البيت تَرْدِى[3]
ألم تر أن خولة سوف تأتى ... بوارى الزّند صافى الخِيم نجد
يفوز بكُنيتى واسمى لأنى ... نحلتهماهُ ، والمهْدِىُّ بعدى
[يغيَّبُ عنهم حتى يقولوا ... تضمنه بطيبة بطن لحد][4]
سنين وأشهراً ويرى برضوى ... بشعب بين أنمار وأسدِ
مقيم بين آرام وعين ... وحفّان تروح خلال ريد
تراعيها السباع وليس منها ... ملاقيهن مفترساً بحَدِّ
أمِنٌ به الردى فرتعن طوراً ... بلا خوف لدى مرعى وَوِرْدِ

* * *

حلفتُ برب مكة والمصلى ... وبيت طاهر الأركان فرد
يطوف به الحجيج ، وكل عام ... يحل لديه وفد بعد وفد

---

(١) محت : عفت . والسبل : المطر .
(٢) ريح حرجف : بارد . وتستن : تعدو فيها إقبالا وإدبارا .
(٣) تردى : تلعب .
(٤) قد يعكر هذا على رواية ابن خلدون فى مذهب السيد ولعله مقحم .

لقد كان ابن خولة غير شك   صفاء ولايتى وخصوص ودى
فما أحـــدٌ أحبُّ إلى فيما   أُسِرُّ وما أبوحُ به وأُبْدِى
سوى ذى الوحى أحمد أوعلى   ولا أزكى وأطيب منه عندى

* * *

ومن ذا يابن خولة إذ رمتنى   بأسهمها المنية حين وعدى
يُذَبِّبُ عنكم ، ويسدُّ مما   تثلم من حصونكم كَسَدِّى ؟ !

* * *

ومالى أن أمر به ، ولكن   أؤمل أن يؤخر يوم فقدى
فأدرك دولة لك لستَ فيها   بجبار ، فتوصف بالتعدِّى
على قوم بغَوْا فيكم علينا   لتعدى منكم يا خيرى معدى[1]
لتعل بنا عليهم حيث كانوا   بغور من تهامة ، أو بنجد
إذا ما سرتَ من بلد حلال   إلى من بالمدينة من مَعَدِّ
وماذا غرهم والخير فيهم   بأشْوَسَ أعْصَلِ الأنياب وَرْدِ[2]
وأنت لمن بغى وعدا وأزكى   عليك الحرب واستردك مرد[3]

فهذه القصيدة الطويلة النفس ، الصادقة اللهجة ، تصور عقيدة السيد فى المهدى ورجعته ، وكيف يقيم الإمام بين آرام وأسد وحفان ، قد أمن بعض من بعض ببركة هذا المغيب فى قبره .

---

(١) أعدى فلانا : نصره ، وأعانه ، « ومنكم » صفة لموصوف محذوف ، أى لتنصر فريقا منكم .

(٢) الشوس : النظر بمؤخر العين ، وأعصل الانياب معوجها .

(٣) الأغانى ج ٧ ص ٢٣٥ .

وللسيد فى غيبة الإمام ابن الحنفية ـ كما ذكره ابن خلدون ـ مذهب يخالف مذهب كثير ، فكثير عزة يعتقد أن ابن الحنفية حىٌّ مع أربعين من صحابته ، يقيمون بجبل رضوى ، فهو لا يذوق الموت حتى يقود الخيل يقدمها اللواء . . . بينما يعتقد السيد موت إمامه ، فرجعته حياته مرة أخرى قبل البعث ، مثله فى ذلك مثل أصحاب الكهف قبل العثور عليهم ، وقتيل بنى إسرائيل ، وعزير عليه السلام وقد رأينا أبياته فى ذلك ، بل سمعنا رثاءه لأخيه ، وإيمانه بحياته قبل البعث ، وأنه سيلقاه حياً ، سامعاً ، مبصراً على خير حال .

وقد يقوى هذا الرأى فى السيد ما رواه البغدادى له :

ولكن كل من فى الأرض فان ... بذا حكم الذى خلق الإماما[1]

فابن الحنفية عند السيد ، سيبعث ليتولى الأمر ، ويعيد الأمر لبنى على ، ويملأ الأرض عدلا ، كما ملئت جوراً ، وينتقم لهذه الدماء العلوية البريئة ، التى سفكتها السياسة ، وهو المهدى المنتظر ، الذى تحدث عنه الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ونحله اسمه وكنيته .

وهكذا يحدثنا السيد عن المهدية والرجعة ، كما يحدثنا عن الوصاية لعلى فى أسلوب قصصى رائع ، وتصوير لم يألفه الأدب الشيعى فى عهد الكميت .

السيد فى بلاط العباسيين :

والسيد شاعر كيسانى ـ كما قلنا ـ يتولى محمد بن الحنفية ، والحزب الكيسانى بعد قتل المختار أصبح حزبا ضعيفاً مسالماً ـ حزب عقائد ـ فهو لا يرى الخروج على السلطان ، ولا يعمل على قلب الدولة القائمة ، بل يعيش فى كنفها ، مستظلا

(١) الفرق بين الفرق ص ٢٠ .

بأعطياتها ، منتظراً بفارغ الصبر رجوع المهدى من جبل رضوى ليتولى الأمر ، ويحقق الأمانى .

على ضوء هذه السياسة اتصل كثير عزة بالأمويين يمدحهم ويأخذ جوائزهم ، فينتفع بهم فى معاشه ، كما ينتفع بالهاشميين فى دينه .

وعلى ضوء هذه السياسة - أيضاً - اتصل السيد بالعباسيين يمدحهم ، ويأخذ جوائزهم ، وينتفع بهم فى دنياه ، وللآخرة العلويون .

وعاملتهما الدولة القائمة بسياسة القصر مع كل شيعى مفوه لا خطر منه ، تغض عن تشيعه ، وتغمره بعطاياها ، وتكتفى منه بإذاعة المحامد وجميل الثناء .

مدحه الخلفاء :

فلم يكن السيد فى مدحه للخلفاء العباسيين منافقاً سياسياً [1] كما كان أبان بن عبد الحميد ، ولا عتسلحاً بالتقية كما فعل الكميت بن زيد مع الأمويين، فالكيسانية لا ترى التقية ، ولكن ترى المسالمة حتى يخرج الإمام . . . وكذلك كان كثير وكذلك كان كل شاعر كيسانى اتصل بقصر الخلافة .

ومهما يكن فقد اتصل السيد بخلفاء العباسيين وولاتهم ، فعاش فى خفض ودعة مقربا مقبول الشفاعة ، ونفعه كثيراً تشيع بعض الولاة سراً .

ثم لم يكن السيد بذلك الرجل الذى ينسى عقيدته ورأيه ، حتى فى قصور الخلفاء فهو يجاهر بعقيدته ، ويردد رغباته الشيعية فى شعره .

جلس المهدى - وهو ولى عهد - يعطى قريشاً صلات لهم ، فبدأ ببنى هاشم ثم

---

(١) يتهم الدكتور طه حسين فى كتابه « حديث الأربعاء » كثيرا والسيد الحميرى بالنفاق السياسى ونحن لانرى ذلك .

بسائر قريش ، فجاء السيد ، فرفع إلى الربيع رقعة مختومة ، وسأله أن يوصلها للأمير ، ففعل ، فإذا فيها :

قل لابن عباس سمى محمد : لا تعطين بنى عدى درهما
إحرم بنى تيم بن مرة إنهم شر البرية آخراً ومُقَدَّما[1]
إن تعطهم لايشكروا لك نعمة ويكافئوك بأن تذم وتشتما
وإن ائتمنتهم ، أو استعملتهم خانوك ، واتخذوا خراجك مغنما
ولئن منعتهم لقد بدءوكم بالمنع إذ ملكوا ، وكانوا أظلما
منعوا تراث محمد أعمامه وابنيه ، وابنته عديله مَرْيَما
وتأمروا من غير أن يستخلفوا وكفى بما فعلوا هنالك مأثما
لم يشكروا لمحمد إنعامه أفيشكُرون لغيره إن أنعما ؟ !
والله مَنَّ عليهم بمحمد وهداهم، وكسا الجنوب ، وأطعما
ثم انبروا لوصيه ووليه بالمنكرات ، فجرعوه العلقما

يقول أبو الفرج : وهى طويلة ، حذف باقيها لقبح ما فيها . . . قال : فرمى بها إلى عبيد الله — كاتبه — ثم قال : اقطع العطاء ، فقطعه ، وانصرف الناس . . . ودخل السيد إليه ، فلما رآه ضحك ، وقال : قد قبلنا نصيحتك يا إسماعيل ، ولم يعطهم شيئا[2] .

وهكذا كان السيد لا ينسى عقائده الشيعية ، ولا يخشى أن يقول للمهدى :

ثم انبروا لوصيه ووليه بالمنكرات ، فجرعوه العلقما

فى وقت كان هم السياسة فيه أن ينسى الناس الوصاية لعلىّ ، بل أن يكفروا بها كفرانا ، ويجحدوها جحوداً .

---

(١) بنو عدى بن كعب : رهط عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ وبنو تيم ابن مرة رهط أبى بكر الصديق ـ رضى الله عنه ـ .

(٢) الأغانى ج ٧ ص ٢٤٣ وما بعدها .

ولا تنس أنه يقول هذا فى خلافة المنصور ـ صاحب النفس الزكية ـ وقد علمنا كيف كان اهتمام المنصور بنظرية الخلافة .

ولعلنا على ذكر من موقف السيد مع أبى الخلال فى مجلس عقبة بن سلم ـ عامل المنصور على البصرة ـ وكيف افتخر يعلى فى رده على ابن عم المنصور ، وأمام جمع حاشد من صنائع الخلافة.

هذا ، وقد اتصلت أسباب السيد بجمهرة من الخلفاء العباسيين ، إذ مات فى خلافة الرشيد . فاستمع هؤلاء إلى مدائحه ، وخلطوه بأنفسهم ، وقبلوا شفاعته ، حتى فى خاصة أمورهم .

فى الأغانى : لما استقام الأمر لبنى العباس ، قام السيد إلى أبى العباس السفاح ، حين نزل عن المنبر ، فقال :

دونكموها يا بنى هاشم ... فجددوا من عهدها الدارسا
دونكموها لا علا كعب من ... كان عليكم ملكها نافسا
دونكموها فالبسوا تاجها ... لا تعدموا منكم له لابسا
لو خير المنبر فرسانه ... ما اختار إلا منكم فارسا
قد ساسها قبلكم ساسة ... لم يتركوا رطبا ولا يابسا
ولست من أن تملكوها إلى ... مهبط عيسى فيكم آيسا

فسر أبو العباس لذلك ، وقال له : أحسنت يا إسماعيل ، سلنى حاجتك قال : تولى سليمان بن حبيب الأهواز ، ففعل[١] .

والبيت الأخير لا يطعن فى عقيدة السيد ، فهو يطمئن إلى أن الخلافة ستكون فى بنى هاشم حين يتسلمها عيسى بن مريم ـ عليه السلام ـ بعد نزوله من السماء ، وعيسى سيتسلمها من المهدى المنتظر ، وهو ابن الحنفية عند السيد ، وهو هاشمى ، لذلك كان حريصا أن يكون خطابه للهاشميين عامة .

(١) الأغانى ج ٧ ص ٢٤٠ وفوات الوفيات ص ٢١ .

وعلى هذا يجب أن نفهم مدحه للمدى يوم بايع لابنيه عيسى وهارون ، حيث يقول :

ما بالُ مجرى دمعك الساجم ... أمِنْ قذى بات بها لازم
أم من هوى أنت له ساهرٌ ... صبابة من قلبك الهائم
آليتُ لا أمدَح ذا نائل ... من معشر غير بنى هاشم
أوْلتهم عندى يد المصطفى ... ذى الفضل والمَنِّ أبى القاسم
فإنها بيضاء محمودة ... جزاؤها الشكْر على العالَمِ
جزاؤها حفظ أبى جعفر ... خليفة الرحمن ، والقائم
وطاعة المهدى ، ثم ابنه ... موسى على ذى الإربة الحازم
وللرشيد الرابع المرتضى ... مفترض من حقه اللازم
ملكُهم خمسون معدُودة ... برغم أنف الحاسد الرّاغم
ليس علينا ، ما بقوا ، غيرهم ... فى هذه الأمة من حاكم
حتى يردُّوها إلى هابطٍ ... عليه عيسى منهم ناجم[1]

أغراضه الشعرية :

والسيد — من غير شك — شاعر مطبوع ، متصرف فى فنون القول ، له غزل رقيق ، وهجاء مقذع ، ومدح رائع ، وفخر بالغ ، وله جد وهزل ؛ وهو فى كل ذلك شاعر فنان ، دقيق الحس ، رقيق الشعور ، مالك لفنه . . . قد شهد له بذلك كل من تعرض للقول فيه ، حتى لقد قدمه بعضهم على جرير[2] .

الغزل :

ولعلك لا ترى غزلا جمع إلى صدق العاطفة ، ورقة الحضارة ، وإجادة الوصف وقوة التأثير ، من قول السيد :

---

(١) الأغانى جـ ٧ ص ٢٥٥ .

(٢) الأغانى جـ ٧ ص ٢٣٩ .

ما جرتْ خَطْرَةٌ عَلَى القلب مِنّى ... فيكِ إلا استترْتُ عن أصْحَابى
من دموع تجرى، فإن كُنتُ وحدى ... خالياً أسْعَدَتْ دُمُوعى انتحابى
إن حبى إياكِ قد سَلَّ جسمى ... ورمانى بالشيب قبلَ الشباب
لو منحت اللقا شفى بك صبا ... هائم القلب ، قد ثوى فى التراب

ولهذه الأبيات فضل كبير على السيد ، أو على الأدب العربى — إن كان ذكر السيد ينفع الأدب العربى ! ! — فقد اتخذت مكانها من حلوق المغنين ، وأندية الطرب ، فاضطر أبو الفرج أن يحدثنا عن صاحبها ، على تحرجه من مذهبه . . . فلولا هذه القطعة لضاع شعره ، واندثرت أخباره ، كما اندثرت أخبار كثير من الشعراء ، فليس للسيد ديوان شعر ، وليس له مصدر آخر يعتمد عليه الباحث الأديب فى دراسته إلا الأغانى ، ثم أبيات قليلة ، مبعثرة هنا وهناك ، لا تمكننا من الحكم على السيد حكما عن بصيرة وعلم .

وبين يدى قطعة من غزل السيد سلك فيها مسلك الشعراء قبله ، من وصف الديار ، وتعفية الرياح لها ، ثم التحدث بعد عن غرضه الشيعى ، وأنا أكتفى بهذه القطعة ، التى يحدثنا عنها غانم الوراق ، فيقول :

خرجت إلى بادية البصرة فصرت إلى عمرو بن تميم ، فأثبتنى بعضهم ، فقال : هذا الشيخ - والله - راوية ، فجلسوا إلىّ ، وَأَنِسُوا بى ، وأنشدتهم ، وبدأت بشعر ذى الرمة ؛ فعرفوه ، وبشعر جرير والفرزدق ؛ فعرفوهما ، ثم أنشدتهم للسيد :

أتعرف رسما بالسّويين قد دثر ... عَفَتْهُ أهاضيب السَّحَائب والمطر
وَجَرَّت به الأذيال ريحان خلفة ... صبا ودبورٌ بالعشيات وَالبُكر
منازل قد كانت تكون بجوِّهَا ... هضيم الحشا، ريا الشَّوَى، سحرها النَّظَرْ
قطوف الْخُطَا خمصانة بَخْتَرِيَّةٌ ... كأن محياها سنا دارة القمر

رمتنى ببُعْد بَعْـد قرب بها النوى ... فبانت ولما أقض من عَبْدَة الوَطَرْ
ولـما رأتنى خشية البين موجعاً ... أكفكف مِنِّى أَدْمُعا فيضها دررْ
أشارت بأطرَاف إلىَّ وَدَمْعُهَا ... كنظم جُمَانٍ خَانهُ السلك فانتَـثرْ
وقد كنت مما أحدث البين حاذِراً ... فلم يغن عنى منه خوفى والحذر

قال : فجعلوا يمرقون لإنشادى ويطربون ، وقالوا : لمن هذا ؟ فأعلمتهم ، فقالوا : هو والله أحد المطبوعين ، لا والله ما بقى فى هذا الزمان مثله[1].

ونعتقد أن السيد وقد التزم هذا الأسلوب السهل الممتع ، وتلك الألفاظ الأنيقة العذبة ، كان لا بد له أن ينبغ فى الغزل ، ويكون فيه أحد المطبوعين ، بل كان لا بد له أن يكون الشاعر المكثر ، ونعتقد أن هذا المذهب بعينه هو الذى جعل بشاراً شاعراً مكثراً ، كما جعل أبا العتاهية شاعراً مكثراً .

الهجاء :

أما هجاؤه فقد أقض المضاجع ، وملأ قلوب السادة فرقاً ، وحادثته مع أبى الخلال العتكى ، واستعاذته بالأمير من شره ، مثل من هذه الأمثلة التى تريك كيف كان السيد مخوفاً حياته كلها .

فهو قاس مقذع يجد فى الهجاء لذة ، وخاصة إذا كان بسبب من عقيدته الشيعية ، وهو يسلك فيه مسلك التندر والسخر ، ويختار له الخفيف المرقص من الأوزان غالباً ، ليكون أعون على الحفظ والذيوع ، وفى الأغانى كثير من هذا الهجاء . وإن شئت فاقرأ قصة السيد مع قاضى البصرة للمنصور : سوار ابن عبد الله العنبرى :

روى صاحب الأغانى عن الحارث بن عبد المطلب ، قال : كنت جالساً فى مجلس أبى جعفر المنصور ـ وهو بالجسر ـ وهو قاعد مع جماعة على دجلة

(١) الأغانى ج ٧ ص ٢٣٨ . وقطوف الخطا : ضيقته ، والبخترية : الحسنة المشية والجسم ، ويمرقون : يغنون .

البصرة ، وسوار بن عبد الله العنبرى ـ قاضى البصرة ـ جالس عنده ، والسيد بن محمد بين يديه ينشد :

إن الإله الذى لا شىء يُشْبِهه أعطاكم الملك للدنيا وللدين
أعطاكُمُ الله مُلكاً لا زوال له حتى يقاد إليكم صاحب الصين
وصاحب الهند مأخوذاً بِرُمَّتِهِ وصاحب الترك محبوساً على هون

والمنصور يضحك سروراً بما ينشده ، فحانت منه التفاتة ، فرأى وجه سوار يتربد غيظاً ، ويسود حنقاً ، ويدلك إحدى يدى بالأخرى ويتحرق ، فقال له المنصور : مالك ! أرابك شىء ؟ قال : نعم ، هذا الرجل يعطيك بلسانه ما ليس فى قلبه ، والله يا أمير المؤمنين ما صدقك ما فى نفسه ، وإن الذين يواليهم لغيركم . فقال المنصور : مهلا ! هذا شاعرنا وولينا ، وما عرفت منه إلا صدق محبة وإخلاص نية . فقال له السيد : يا أمير المؤمنين ، والله ما تحملت غضكم لأحد ، وما وجدت أبوى عليه فافتتنت بهما[1] ، وما زلت مشهوراً بموالاتكم فى أيام عدوكم ، فقال له : صدقت . قال : ولكن هذا وأهلوه أعداء الله ورسوله قديماً ، والذين نادوا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من وراء الحجرات[2] ، فنزلت فيهم آية من القرآن « أكثرهم لا يعقلون » . وجرى بينهما خطاب طويل ؛ فقال السيد قصيدته التى أولها :

قف بنا يا صاح وَارْبَعِ بالمغانى الموحشات

---

(١) كان أبو السيد وأمه من الخوارج الإباضية ، فكيف يتفق هذا مع قوله «وما وجدت أبوى عليه فافتتنت بهما» .

(٢) يعنى وفد بنى تميم يوم قدموا المدينة لمفاخرة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فدخلوا المسجد ، فوقفوا عند حجرات أمهات المؤمنين ، ثم نادوا بصوت عال جاف : خرج إلينا يا محمد ، فقد جئنا لنفاخرك فأنزل الله فيهم « إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لايعقلون » والقصة فى الأغانى ج ٤ ص ١٤٦ طبع دار الكتب .

وفيها :

يا أمين الله يا منـــصور يا خير الولاة
إنَّ سوار بن عبد الله منْ شرِّ القضاة
نعثـــــلىٌّ جملىٌّ لـكمُ غــير موات
جده ســارق عَنز فَجْرَةٌ من فجرَاتِ[1]
لرسول الله والقــا ذفــه بالمنـكرَاتِ
وابن من كان يُنَادى من وراء الحجرات
يا هَنَاة اخرج إلينــا إننا أهـــل هنات
مدحنا المدح ومن نر م يصب بالزفرات
فا كفنيــه لا كفاه الله شر الطـــــارقات

فشكاه سوار إلى أبى جعفر ، فأمره أن يصير إليه معتذراً ، ففعل ، فلم يعذر سوار ، فقال :

أتيت دعى بنى العنـــبر أروم اعتذاراً فلم أعذر
فقلتُ لنفسى — وعاتبتها على اللوم فى فعلها : أقصرى
أيعتذر الحـــرُ مما أتى إلى رجل من بنى العنبرى ! ؟
أبوك ابن سارق عنز النبىّ وأمك بنت أبى جحدر
ونحن على رغمك الرافضو ن لأهل الضلالة والمنكر[2]

على أن صاحب الأغانى قد روى هذه الخصومة من طريق آخر ، وأن السيد تقدم إلى سوار فى شهادة ، فردها عليه . فقام مغضباً ، وكتب إليه رقعة فيها :

إن سوار بن عبد الـــه من شرِّ القضاة

(١) عنزة بن نقب ، جدسوار ، سرق عنزا لآل رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم وفد مع بنى تميم فلقب بسارق عنزه .

(٢) الأغانى ج ٧ ص ٢٦٠ وما بعدها .

فلما رآها القاضى وثب من مجلسه ، وقصد أبا جعفر بالجسر ، فسبقه السيد ، وأنشد :

قلْ للإمام الذى يُنْجى بطاعته ... يوم القيامة من بحبوحَةِ النَّار

لا تستعينن ـ جزاك الله صالحة ـ ... يا خير من دب فى حكم بسوار

لا تستعن بخبيث الرأى ذى صلف ... جم العيوب عظيم الكبر جَبَّار

تُضحى الخصوم لديه من تكبره ... لا يرفعون إليه لحظ أبْصَار

تيهاً ، وكبراً ، ولولا ما رفعت له ... من ضبعه كان عين الخائع العارى

ودخل سوار ، فلما رآه المنصور تبسم وقال : أما بلغك خبر إياس بن معاوية حيث قبل شهادة الفرزدق[1] ، واستزاد فى الشهود ؟ فما أحوجك للتعريض للسيد ولسانه ، ثم أمر السيد بمصالحته[2] .

وسواء أكانت الخصومة لهذا أم لذلك أم لكليهما ، فقد عرّض سوار نفسه للسان السيد ، فأتبعه هجاءه ، حتى أمره المنصور فكف ، وحتى ضاق سوار ، فأراد أن يستعمل حيلته القضائية . فأعد جماعة يشهدون على السيد بسرقه ليقطعه ، فأنذر السيد بما دبره له القاضى ، فشكاه إلى المنصور ، فعزله عن الحكم للسيد أو عليه ، فما استطاع أن يتعرض له بسوء حتى إذا مات سوار لم ينج من لسان السيد ميتاً كما لم ينج منه حياً[3] .

* * *

(١) شهد الفرزدق الشاعر عند إياس بن معاوية قاضى البصرة لعمر بن عبد العزيز فقال إياس : أجزنا شهادة الفرزدق أبى فراس ، وزيدونا شهودا ، فقام الفرزدق فرحا ، فقيل له : والله ما أجاز شهادتك . قال : بلى ، قد سمعته يقول : قد قبلنا شهادة أبى فراس ، قالوا : أفما سمعته يستزيد شاهدا آخرا ؟ قال : وما يمنعه ألا يقبل شهادتى وقد قذفت ألف محصنة (الأغانى ج ١٩ ص ٥٠) .

(٢) الأغانى ج ٧ ص ٢٥٤ .

(٣) الأغانى ج ٧ ص ٢٦٠ ، ٢٦٨ .

وفى الأبيات الآتية يهجو السيد أهل البصرة ، وقد خرجوا يستسقون ـ والبصرة عثمانية ـ فخرج فيهم يجر مطرفه ويقول :

اهبط إلى الأرض فخذ جلمدا ثم ارمهم يا مزن بالجلمد
لا تسقهم من سبل قطرة فإنهم حرب بنى أحمد

وهكذا كان السيد يصادق ، ويعادى على ضوء عقيدته . . . يتلاحى رجلان من بنى عبد الله بن دارم فى المفاضلة بعد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثم يحكمان أول من يطلع ، فيكون السيد ، فقاما إليه ـ وهما لا يعرفانه ـ فقال له مفضل على : إنى وهذا اختلفنا فى خير الناس بعد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقلت : على بن أبى طالب ، فقطع السيد كلامه وقال : وأى شىء قال هذا الآخر ابن الزانية ؟ فضحك من حضر ، ووجم الرجل ولم يحر جواباً .

وركب سفينة إلى الأهواز ، فماراه رجل فى تفضيل على ، وباهله على ذلك فلما كان الليل قام الرجل على حرف السفينة يقضى حاجته ، فدفعه السيد فغرقه ، فصاح الملاحون : غرق — والله — الرجل ، فقال السيد : دعوه فإنه باهلنى[1] .

واستمع إليه يمثل الخصومة العنيفة التى كانت بين رجال الحديث من أهل السنة والشيعة ، فالشيعة لا تدين بحديث يرويه سنى ، وأهل السنة لا تطمئن نفوسهم إلى أحاديث الشيعة إلا إذا عاضدتها روايةسنية . وعلى هذه الأسس كان للشيعة فقه وتشريع ، يخالف الفقه السنى والتشريع السنى .

يسجل لنا السيد هذه الخصومة، وقد لقى رجلا يختلف إلى ابنى قيس ـ وكانا يرويان عن الحسن ـ قال الرجل : فلقينى السيد ، وأنا منصرف من عندهما ، فقال : أرنى ألواحك أكتب فيها شيئاً ، وإلا أخذتها فمحوت ما فيها ، فأعطيته ألواحى ، فكتب فيها :

---

(١) أنظر الأغانى ج ٧ ص ٢٥٢ .

لشربةٌ من سويق عند مسغبة　　　وأكلة من ثريد لحمه وارى
أشدّ مما روى حُبا إلىّ بنو　　　قيس ، ومما روى صلت بن دينار[1]
مما رواه فلان عن فلانهم　　　ذاك الذى كان يدعوهم إلى النار

رثاء السيد :

والرثاء عنصر أصيل فى الأدب الشيعى بل هو شطر الأدب الشيعى ، فقد علمنا أنه نتاج عاطفتين — عاطفة الحزن وعاطفة الغضب — لذلك كان رثاء أدباء الشيعة من الأدب العاطفى الرقيق ، وللسيد فى هذا الفن أدب باك حزين يتلمس مواطن الإحساس ، فيهز النفوس هزاً عنيفاً ، يقول ، فيرثى الحسين بن على — رضى الله عنه — :

أمرر على جدث الحسـ　　　ـين فقل لأعظمه الزكيّه :
آأعظما لا زلت من　　　وطفاء ساكبة رويّه ؟
وإذا مررت بقبره　　　فأطل به وقف المطيه
وابك المطهر للمطهـ　　　ـر والمطهرة النقيه
كبكاء معولة أتت　　　يوما لواحدها المنيه

ففى هذه الأبيات جودة ، وفيها عاطفة ، ولهذا الوزن القصير . وتلك القافية ، أثرهما فى الرثاء والندب ، وتأثيرهما فى النفس الحزينة ، ومثل هذا الشعر ، أوفق ما يكون للنوح والبكاء ، ومن أجل ذلك ، كان الفاطميون يجلسون لسماعها من السيد ، وتجلس نساؤهم خلف ستر ثم يبكون ما شاءوا .

وفى هذه الأبيات نقد حسن ، فقد سمعها بعض النقاد ، فقال : ويلى على الكيسانى ، الفاعل ابن الفاعل ! ! يقول :

فإذا مررت بقبره　　　فأطل به وقف المَطِيّه ؟

---

(١) صلت بن دينار الأزدى البصرى محدث ، ضعيف الحديث منهم الرواية ، وكان ينال من الإمام على — رضى الله عنه — الأغانى جـ ٧ ص ٢٥١ .

أو لا ينحر ! ، أو لا يقتل نفسه ! فثكلته أمه !

وهذا النقد يذكرنا بنقد العبدى لأبيات السيد فى على بن أبى طالب ، يعارض شاعر الشراة ، قيس بن الأصم الضبى على رواية ياقوت :

إنى أدين بما دان الوصىّ به ... يوم الُخريبة من قتل المحلينا[1]

وبالذى دان يوم النهر دنت به ... وشاركت كفه كفى بصفينا

تلك الدماء معاً يارب فى عنق ... ومثلها فاسقنى آمين آمينا

فقال له العبدى : أخطأت ، لو شاركت كفك كفه كنت مثله ، ولكن قل : تابعت كفى كفه لتكون تابعاً لا شريكا ، فكان السيد بعد ذلك يقول : أنا أشعر الناس إلا العبدى[2] .

هذا ، وسوف لا ننسى رثاءه لأخيه ، وأعتقد أن السيد فى قوله :

يا بن أمى فدتك نفسى ومالى ... كنت ركنى ، ومفزعى ، وجمالى

شاعر يحسن تصوير الفجيعة ، على أن مذهب السيد كان جناية عليه فى كل فنونه الشعرية ، فذهب رثاؤه حتى لم يبق منه إلا ما روينا .

أخباره وفكاهاته :

ننتقل سريعاً إلى ذكر طائفة من أخبار السيد وفكاهاته لنستكمل تصوير الرجل تصويراً واضحاً ، فالناحية الجدية وحدها ليست صالحة للحكم إلا من ناحية واحدة ، ليست هى كل شىء ، بل قد لا تكون شيئاً بجانب ما يقابلها من هزل ودعابة يبرز فيها الرجل نفسه على حقيقتها .

---

(١) الخريبة : موضع بالبصرة كانت به وقعة الجمل ، وما أثبتناه رواية الأغانى ومعجم البلدان . ومناقب آل أبى طالب — وقد رواها المبرد ، [أنظر رغبة الأمل من كتاب الكامل جـ ٧ ص ١٧٧] يوم النخيلة : ويوم النخيلة كان بين الخوارج والمغيرة بن شعبة والى معاوية ، ولم يكن لعلى به وقعة مع الخوارج .

(٢) الأغانى جـ ٧ ص ٢٧٣ طبع دار الكتب .

على أن السيد فى هزله هو السيد فى جده ، شيعى لم يتخل عن مذهبه ، به يفتخر ويعتز ، وبه يستشفع ويسترضى .

وقد كان السيد ـ ككل الشعراء ـ يأخذ حظه من المجون والمرح والتفكه مع الناس فى غير إسراف ، وله من ظرفه ، وخفة روحه ، وتسامح الولاة معه — لتشيعهم المستور — خير مساعد ، وقد طالما أخذه العسس لشربه الخمر ، فيطلقه شعره ، ومكانته الشيعية .

قدم الأهواز ، وأبو بجير بن سماكِ الأسدى يتولاها ، وكان له صديقاً وكان يتشيع ، ويُرَوّى مولاه يزيد بن مذعور شعر السيد لينشده له ، فذهب السيد إلى بعض إخوانه بالأهواز ، فشرب معهم ، فلما أمسى انصرف ، فأخذه العسس ، وسجنوه ، فكتب من غده إلى يزيد بن مذعور .

قف بالديار ، وحيها يا مربع ... واسأل ، وكيف يجيب من لا يسمع
إن الديار خلت ، وليس بِجَوِّها ... إلا الضوابح ، والحمام الوقع[1]
ولقد تكون بها أوانس كالدمى ... جمل ، وعزة ، والرباب وبَوْزع[2]
حور نواعم لا ترى فى مثلها ... أمثالهن من الصبابة أربع
فعرين بعد تألف ، وتجمع ... والدهر ـ صاح ـ مشتت ما تجمع
فاسلم فإنك قد نزلت بمنزل ... عند الأمير تضر فيه ، وتنفع
تؤتى هواك إذا نطقت بحاجة ... فيه ، وتشفع عنده ، فيشفع
قل للأمير ـ إذا ظفِرت بخلوة ... منه ، ولم يك عنده من يسمع :
هَبْ لِى الّذِى أحببته فى أحمد ... وبنيه ، إنك حاصد ما تزرع
يَخْتَصُّ آلُ محمدٍ بِمَحبــــة ... فى الصدر قد طويت عليها الأضلع

(١) الضوابح : الثعالب وغيرها ، يقال : ضبح الثعلب والأرنب إذا صوت ، ووقع الطائر : إذا نزل عن طيرانه .

(٢) بوزع علم امرأة . ولاشك أنها من الكلمات التى تذهب بجمال الشعر .

فدخل بها يزيد على أبي بجير ، وهو يقول : قد جنى عليك صاحب عسسك مالا قوام لك به ، قال ، وما ذاك ؟ فأسمعه شعر السيد ، فغضب أبو بجير ، وأمر بإطلاقه ، وأبى السيد أن يطلق إلا مع من أخذ معه ، فأطلقوا من أجله . . ثم أقام الشاعر عند الأمير مدة ، وعاد بالجوائز السنية ، واتصلت بينهما الأواصر حتى أباح له النبيذ[١] .

وفى الأغانى عن شيبان : « مات منا رجل موسر ، وخلف ابناً له ، فورث ماله وأتلفه بالإسراف ، وأقبل على الفساد واللهو ، وقد تزوج امرأة تسمى « ليـلى » ، واجتمع على السيد — وكان من أظرف الناس — وكان الفتى لا يصبر عنه ، وأنفق عليه مالا كثيراً ، وكانت « ليلى » تعذله على إسرافه ، وتقول له : كأنى بك قد افتقرت ، فلم يغن عنك شيئاً ، فهجاها السيد ، وكان مما قال فيها :

أقول : يا ليت ليلى فى يدى حَنِق ... من العداوة من أعدى أعاديها
يعلو بها فوق رَعْنٍ ، ثم يَحْدرها ... فى هوة ، فتَدَهْدَى يومها فيها
أو ليتها فى غمار البحر ، قد عصفت ... فيه الرياح ، فهاجت من أَوَاذِيها[٢]
أو ليتها قرنت يوماً إلى فرسى ... قد شد منها إلى هاديه هاديها[٣]
حتى يرى لحمها من حضره زِيَماً ... وقد أتى القوم بعد الموت ناعيها[٤]
فمن بكاها فلا جفت مدامعـــــه ... لا أسخن الله إلا عين باكيها[٥]

والسيد فى هذا ظريف ، ظريف فى هجائه ، ظريف فى تصويره ، يستلب من قارئه الإعجاب والضحك ، والبيت الأخير فيه طرافة وجدة .

* * *

(١) الأغانى ج ٧ ص ٢٦٨ .
(٢) الأواذى : جمع آذى بالتشديد وهى الأمواج .
(٣) الهادى : العنق .   (٤) زيما : قطعا متفرقة .
(٥) الأغانى ج ٧ ص ٢٧٠ .

ويقول أبو الفرج : ومما يحكى عنه أنه اجتمع فى طريقه بامرأة تميمية إباضية ، فأعجبها ، وقالت : أريد أن أتزوج بك ، ونحن على ظهر الطريق ، قال : يكون كنكاح أم خارجة[1] قبل حضور ولى شهود . فاستضحكت وقالت : ننظر فى هذا ، وعلى ذلك فمن أنت ؟ فقال :

إن تسألينى بقومى تسألى رجلا فى ذروة العز من أحياء ذى يمن

حولى بها ذو كلاع فى منازلها وذو رُعَينٍ ، وهمدانٌ ، وذو يزن[2]

والأزد ـ أزد عمـان ـ الأكرمون إذا

عـــدت مآثرهم فى سالفِ الزّمن

بانتْ كريمتهم عـنى فدارهم

دارى ، وفى الرّحبِ منْ أوطانهم وطنى

لى منزلان : بلحج منزل وسط منها ، ولى منزل للعز فى عدن[3]

---

(١) نكاح أم خارجة : يضرب به المثل فى السرعة . فيقال : أسرع من نكاح أم خارجة ، وهى عمرة بنت سعد ، كان يأتيها الخاطب ، فيقول خطب ، فتقول : نكح ، فيقول : أنزل ، فتقول : أنخ ، فينزل بها معرسا ، قال المبرد : ولدت أم خارجة للعرب فى نيف وعشرين حيا من آباء متفرقة ، وكانت تتزوج الرجل على أن يكون أمرها إليها ، فإن رضيته عالجت له طعاما إذا أصبح [الميدانى ج ١ ص ٦٧ ، والكامل للمبرد (والقاموس وشرحه فى خطب ونكح)] .

(٢) ذو كلاع : رجلان من أذواء اليمن . وأحدهما يزيد بن النعمان الحميرى ، وهو الأكبر ، والأصغر وينسب إلى ذى الكلاع الأكبر قدم على النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وذو رعين : أحد ملوك اليمن الأولى وهو من ولد الحارث بن عمر بن حمير بن سبأ ، وهمدان بن مالك : أبو القبيلة العربية المنسوبة إليه ، وكانت همدان شيعة على ، وذو يزن ملك من ملوك حمير وابنه سيف بن ذى يزن صاحب الحبشة . الأغانى ج ١٦ ص ٧٥ ـ بولاق ـ .

(٣) لحج : مخلاف باليمن .

ثم الولاء — الذى أرجـو النجاة به
من كبة النـار — للهادى أبى حسن

قالت : قد عرفناك ، ولا شيء أعجب من هذا ، يمـان وتميمية ، ورافضى وإباضية ، فكيف يجتمعان ؟ فقال : بحسن رأيك فِيَّ تسخو نفسك ولا يذكر أحدنا سلفاً ولا مذهباً . قالت : أفليس التزويج إذا علم انكشف معه المستور وظهرت خفيات الأمور ! قال : فأنا أعرض عليك أخرى . قالت : ما هى ؟ قال : « المتعة[1] » التى لا يعلم بها أحد . قالت : تلك أخت الزنى . فقال : أعيذك بالله أن تكفرى بالقرآن بعد الإيمـان . قالت : فكيف ؟ قال : قال الله تعالى : « فما استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن فريضة ، ولا جناح عليكم فيما تراضيتم به من بعد الفريضة » . فقالت : أستخير الله ، وأقلدك إن كنت صاحب قياس . ففعلت ، فانصرفت معه ، وبات معرساً بها ، وبلغ أهلها من الخوارج أمرها ، فتوعدوها بالقتل ، وقالوا : تزوجت بكافر ! ؟ فجحدت ذلك ، ولم يعلموا بالمتعة فكانت مدة تختلف إليه على هذه السبيل من المتعة ، وتواصله حتى افترقا .

وهكذا يفتخر السيد بنسبه اليمنى ، وعقيدته الشيعية ، ويحدثنا عن ناحية من الفقه الشيعى ، عن زواج المتعة ، وبه افترق الشيعة عن أهل السنة ، ولهم فيه تآليف[2] ، وحديث طويل ليس من سبيلنا استقصاؤه .

---

(١) أن تتزوج امرأة تتمتع بها أياما ثم تخلى سبيلها ـ وكانت مباحة أول الإسلام ، ثم حرمت ، وهى جائزة عند الشيعة .

(٢) كتاب المتعة وما جاء فى تحليلها : للجلودى ، وكتاب المتعة وتحليلها والرد على من حرمها : للصفوانى .

خصائصه الشعرية :

فإذا أنت أردت أن تعرف الجمال الفنى فى شعر هذا الرجل ـ بعد أن استعرضت جمهرة صالحة من شعره فى أغراضه المختلفة ، فأنت واجده فى هذا النمط الرفيع من القول ، وتلك السهولة السيالة ، والقصص الرائع ، والاستقصاء العميق لمعانيه .

فهو شاعر مقدم مطبوع على قول الشعر ، يقوله بلا كلفة ، ويناديه ، فيستجيب لنـــدائه ، لا يعرف التعقيد فى الأداء ، ولا الغرابة فى اللفظ ، والمعاظلة فى الأسلوب ، وقد كان ذلك أوفق ما يكون لعصره أولا ، ولشاعر سياسى مثله يدافع عن حزب مضطهد كحزب الشيعة ، فهو لا ينظم شعره للخاصة وحدهم ، وإنما ينظمه للعامة ، للذين يريد أن يتخذ منهم أنصاراً .

وقد سئل السيد : مالك لا تستعمل فى شعرك من الغريب ما تسأل عنه كما يفعل الشعراء ، فقال : لأن أقول شعراً قريباً من القلوب يلذ من يسمعه ، خير من أن أقول شيئاً متعقداً ، تضل فيه الأفهام .

أقوال العلماء فيه :

من أجل ذلك شهد له شيوخ الأدب ، كالأصمعى ، وأبى عبيدة ، واعترف له بشار بالتقدم[١] ، وشـكر للقدر شغله بمذهبه ، وقال فيه أبو الفرج : وله طراز من الشعر ، ومذهب ، قلما يلحق فيه أو يقارب .

ويقول الزبير بن بكار : سمعت عمى يقول : لو أن قصيدة السيد التى يقول فيها :

---

(١) الأغانى ج ٧ ص ٢٣٧ .

إن يوم التطهير يوم عظيم خُصَّ بالفضل فيه أهل الكساء[١]

قرئت على منبر ما كان فيها بأس ، ولو أن شعره كله كان مثله لرويناه وما عبناه .

ويقول العتبي : ليس فى عصرنا هذا أحسن مذهباً فى شعره ولا أنقى ألفاظاً من السيد ، ثم قال لبعض من حضر : أنشدنا قصيدته اللامية ، التى أنشدتنا إياها اليوم ؛ فأنشده :

هل عند مَنْ أحببت تَنْوِيل أو لا ، فإن اللوم تضليل ؟[٢]
أم فى الحشا منك جوًى بَاطِنٌ ليسَ تداويه الأباطيل ؟
عُلّقت ـ يا مغرور ـ خدّاعة بالوعد منها لك تخييل
ريّا رداح النّوم خمصانة كأنها أدماء عطبول[٣]
يشفيك منها حين تخلو بها ضَمٌّ إلى النحر وتقبيل
وذوق ريق طيب طعمه كأنه بالمسكِ مَعلول
فى نسوة مثلَ الْمَهَا خُرّدٍ تضيق عنهن الخلاخيل

---

(١) فى الزرقانى على المواهب اللدنية جـ ٧ ص ٤ طبع بولاق : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء ومعه على وحسن وحسين ، آخذا كل واحد منهما بيده حتى دخل فأدنى عليا وفاطمة ، وأجلسهما بين يديه ، وأجلس حسنا وحسينا كل واحد منهما على فخذه ثم لف عليهما كساءه ، ثم تلا « إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا » وقال : « اللهم هؤلاء أهل بيتى » . وانظر روح المعانى جـ ٧ ص ٤٤ .

(٢) رواية الأغانى « أم لا » والصواب ما أثبتناه [جـ ٧ ص ٢٤٧] :

(٣) الرداح : الثقيلة العجيزة ، والجمل المثقل حملا الذى لا انبعاث له ، ومن هنا أخذ السيد معناه . . يريد أنها نؤوم قليلة الابتعاث من النوم ، ومن عبارات المدح للمرأة قديما : نؤوم الضحى .

يقول فيها :

أقسم بالله وآلائه والمرء عما قال مسئول
إن علىّ بن أبى طالب على التقى والبر مجبول

فقال العتبى : أحسن والله ما شاء ، هذا والله الشعر الذى يهجم على القلب بلا حجاب .

ويقول أبو عبيدة : أشعر المحدثين السيد الحميرى ، وبشار .

وفى الأغانى عن لبطة بن الفرزدق : تذاكرنا الشعراء عند أبى ، فقال : إن ها هنا لرجلين ، لو أخذا فى معنى الناس لما كنا معهما فى شىء ، فسألناه ، من هما ؟ فقال : السيد الحميرى ، وعمران بن حطان السدوسى ، ولكن الله عز وجل قد شغل كل واحد منهما بالقول فى مذهبه[1] .

وهذا خطأ من الأغانى بالنسبة للسيد على الأقل ، فالفرزدق توفى سنة عشر ومائة من الهجرة ، والسيد غلام فى الخامسة من عمره ، فمن غير المعقول أن يشهد له ، ولكنه أبو الفرج ، وحرصه على الجمع .

نسبه :

وبعد ، فهذا هو إسماعيل بن محمد بن زيد بن ربيعة بن مفرغ الحميرى الملقب بالسيد ، والمكنى بأبى هاشم . . . ورث الشعر عن جده يزيد بن مفرغ ، وقد كان شاعراً أموياً مقدماً من شعراء الأغانى[2] هجا زياداً وآل زياد ، وعرف سجن عبيد الله بن زياد ، وهو القائل — لما استلحق معاوية زياداً ونسبه إلى أبيه — :

---

(١) الأغانى ج ٧ ص ٢٣١ .
(٢) ج ١٧ ص ٥١ ، ٧٣ طبع بولاق .

ألا أبلغ معــــاوية بن حرب   مُغَلْغَـلَةً من الرجل اليمـانى
أتغضبُ أن يقال : أبوك عفّ   وترضى أن يقال : أبوك زانى ؟
فأشهد أن رِحْمـك من زيادٍ   كَرِحْم الفيل من ولد الأتانِ
وأشهد أنهـــا ولدت زياداً   وصخرٌ من سُمَيَّةَ غيرُ دانى

وكان أبو السيد وأمه من الخوارج الإباضية ، فكانا يكرهان الأمويين ، كما كانا يكرهان بنى هاشم ، وكانا يشتمان معاوية ، كما كانا يشتمان عليًّا ، ومع هذا كان السيد الحميرى شيعة لعلى ، ولم يكن يعرف من أين أتاه التشيع ، وقد تربى تحت سقف طالما سب فيه أمير المؤمنين على – كما قال[1] – .

وقد سئل : من أين جاءه التشيع ؟ فأجاب : غاصت علىّ الرحمة غوصاً ، ولما علم أبواه بمذهبه همّا بقتله ، فأجاره منهما عقبة بن سلم ، وبوأه منزلا أقام فيه حتى ماتا فورثهما .

بيئة السيد وأثرها :

والسيد عربى يمنى لأبيه وأمه ، أبوه من حمير ، وأمه من الأزد ، وأعتقد أن لهذه البيئة اليمنية أثراً واضحاً فى أخلاق السيد ، فمنها – وعن جده يزيد – ورث التشيع كما ورث بغض الأمويين ، ولعل هذه البيئة كانت كفيلة بأن تخرج للناس من أمثال السيد كثيراً .

وإذا علمنا أن كثيراً يمنى قحطانى ، وهو شاعر كيسانى محمق يغنى فى هذه العقائد المسرفة فى الغرابة ، وأن النجاشى (قيس بن عمرو) الشاعر الشيعى اليمنى قحطانى كذلك ، وكان شاعراً رقيق الدين مستهتراً ، مسرفاً فى الشراب واللهو ، رغم معاشرته لجلة الصحابة ، وأن دعبل بن على الخزاعى يمنى قحطانى وهو شاعر شيعى إمامى ، قوى عندنا هذا الاعتقاد فى البيئة اليمنية .

---

(١) الأغانى ج ٧ ص ٢٣٠ .

نشـــأته :

والرواة لم يحدثونا عن شيء من حياة السيد ونشأته ، فذهبت أخبار صباه مع الزمن ، وقد وصفه أبو جعفر الأعرج : بأنه كان أسمر ، تام القامة ، أشنب ، ذا وفرة ، حسن الألفاظ جميل الخطاب ، إذا تحدث فى مجلس قوم أعطى كل رجل نصيبه من حديثه .

ولهذه الخلال الخُلُقية والخَلْقية أثرها فى حياة صاحبها ، وإلف الناس له وبخاصة إذا أخذ حظه من الاستمتاع واللهو ، مع ظرف وخفة روح . . وكذلك كان السيد .

وفاته :

ولد شاعرنا سنة خمس ومائة من الهجرة ، وتوفى فى خلافة الرشيد سنة ثلاث وسبعين ومائة ـ على أصح الروايات ـ بعد أن مدحه بقصيدتين ، أعطاه عليهما بدرتين ، ففرقهما ، فبلغ ذلك الرشيد ، فقال : أحسب أن أبا هاشم قد تورع عن جوائزنا .

فالسيد إذن قد شاهد زوال الدولة الأموية ، وقيام الدولة العباسية ، وهى فترة لها أثرها فى حياة الأديب السياسى ، ومدح من خلفائها : السفاح ، والمنصور ، والمهدى ، والهادى ، والرشيد . فكان أثيراً مقدما عند هؤلاء الخلفاء وحسبك أنه كان شفيعاً فى تولية سليمان بن حبيب « الأهواز » ، وتلك مكانة السادة والأشراف ، وأبى لبعد همته أن يمدح غير خليفة أو أمير .

وقد عاش السيد ومات على مذهبه الكيسانى محبوبا من الشيعة مكرماً عندهم ، يقول بشير بن عمار : حضرت وفاة السيد فى الرميلة[1] ببغداد ، فوجه رسولا إلى

(١) كانت بغداد مقسمة إلى أحياء شأن ـ القاهرة اليوم ـ كل حي يتعصب =

صف « الجزارين الكوفيين » يعلمهم بحاله ووفاته ، فغلط الرسول ، فذهب إلى صف « السموسين » فشتموه ولعنوه ، فعلم أنه قد غلط ، فعاد إلى الكوفيين يعلمهم بحاله ووفاته فوافاه سبعون كفناً ، قال : وحضرناه جميعاً ، وإنه ليتحسر تحسراً شديداً ، وإن وجهه لأسود كالقار ، وما يتكلم ، إلى أن أفاق إفاقة وفتح عينيه ، فنظر إلى ناحية القبلة ثم قال : يا أمير المؤمنين ، أتفعل هذا بوليك ؟ ! قالها ثلاثاً ، فتجلى — والله — فى جبينه عرق بياض ، فما زال يتسع ويلبس وجهه حتى صار كله كالبدر ، وتوفى فأخذنا فى جهازه ودفناه فى « الجنينة » — ببغداد — وذلك فى خلافة الرشيد

وقد أبى — صنع الله له — إلا أن يموت على قبح رأيه فى الخلفاء قبل علىّ فكان آخر ما نطق :

برئتُ إلى الإلهِ من ابن أَرْوَى ومن دين الخوارج أجمعينا
ومن فُعَلٍ برئتُ ومن فُعَيْلٍ غداة دعى أمير المؤمنينا[1]

ثم كأن نفسه كانت حصاة فسقطت .

نقول : وإلى الله نكل جزاءه الحق على ما اختار لنفسه

= لفكرة — والرميلة : لعلها محرفة عن الرملة أو الرملية انظر : أحسن التقاسيم ، والأعلاق النفيسة .

(١) يعنى بابن أروى عثمان بن عفان — رضى الله عنه — وأروى بنت كريز بن ربيعة من عبد شمس — أم عثمان — وأمها البيضاء بنت عبد المطلب بن هاشم .

وفعل وفعيل يريد بهما أبا بكر وعمر رضى الله عنهما ، وقد رويت هذه الأبيات « لكثير عزة » كذلك وهو شاعر كيسانى .

الفصل السادس

أثر التشيع فى الأدب العربى

التشيع أدب العقائد ـ التشيع أدب العاطفة والسياسة ـ التنازع بين الشيعة وخصومهم ـ أثره فى الأدب العربى .

فى الحق أن حركة التشيع أغنت الأدب العربى إلى حد كبير، وأسهم أدباؤه فى بناء النهضة الأدبية إسهاماً مشكوراً ، بما أنتجوا من أدب ، وأثاروا من خصومة .

وقد رأينا كيف كان الأدب الشيعى جزل اللفظ ، محكم النسج ، رصين العبارة العبارة ، صادق الأداء . . صورة ناطقة لنفسيات قومه ، وعواطفهم ، وسجلا خالداً لحياتهم وعقائدهم ، وتصويراً رائعاً لما أصابهم من محن ، وحل بساحتهم من نكبات .

التشيع أدب العقائد :

وعلمنا مصادر الإلهام لهذا الأدب الكريم ، فهو نتاج عاطفتين : عاطفة الحزن ، وعاطفة الغضب . وخلاصة ثقافات مختلفة ، عربية وأعجمية ، مزجها الإسلام روحا ومعنى ، ونقل أصحابها ذاتاً ووطناً ، وأخضعهم لسلطانه إخضاعا تداخلت به اللغات والأفكار والعقائد . . .

ثم كان الأدب الشيعى أصدق ما تمثلت فيه هذه الثقافات ، إذ كان الحزب الشيعى ـ لأسباب سياسية ودينية ـ أكبر حزب جمع هذه العناصر ، فغنى بذلك النتاج الشيعى ، وكان الأدب الناتج عنهم أدباً غزيراً قوياً ، تصدره عاطفة ، وقلب وعقل . . . وتنضح عليه ثقافات العراق المعرقة فى الرقى ، المتعددة المشارب ،

فاستفاد الأدب العربى من هذه الناحية ، وغزرت مادته ، كما اتسعت معانيه وتنوعت أغراضه .

ترى ذلك واضحاً فى هذه العقائد الشيعية التى شرحناها قبل ، ورأينا أثرها فى الأدب ، وأدركنا إلى أى حد كان التشيع مجازاً لنقل هذه العقائد المختلفة إلى الحياة العربية ، والعقلية العربية ، والأدب العربى . . . وتلك من غير شك مساهمة المجهود الأدبى ، لم تكن لولا التشيع .

التشيع أدب العاطفة والسياسة :

وأخرى من ناحية التأثير أن الموقف الذى وقفته الدولة من الشيعة من شأنه أن يلهب العاطفة ، ويثير الوجدان ، ويخلق فناً جديداً من القول ، ومسرحاً جديداً للخيال . . وقد تمثل ذلك فى الأدب السياسى والعاطفى ، وظهر ـ أول ما ظهر ، وأقوى ما ظهر ـ فى الأدب الشيعى ، أدب النفس الثائرة ، والعاطفة الصادقة ، والحب المتأجج ، أدب العقيدة ـ كما قلنا ـ فبنى الشيعة بذلك ركنا من الحضارة الأدبية باذخا وشديداً ، وكان لهم أكبر الفضل فى النهوض بهذه الناحية العاطفية والسياسية ، فى وقت كان الأدب الرسمى فيه تطغى عليه الرغبات المادية والمعنوية ، وتصرفه عوامل الرجاء والخوف ، وتلهب نفوس أصحابه سَنِيَّات العطايا ، وإنك لتلمس ذلك فيما صور الشيعة من آلام ، وشرحوا من حجج ، وكشفوا عن مظالم ، وأثاروا من أحقاد ، دفاعاً عن عقيدتهم ، وجهاداً فى سبيل قضيتهم .

النزاع بين الشيعة وخصومهم :

وناحية ثالثة من نواحى التأثير فى الأدب العربى . . . وهو أن النزاع بين الهاشميين والأمويين كون أحزاباً مختلفة ، لم تقف الخصومة بينها عند ذلك الجانب المظلم ـ جانب السيف والدم ـ بل تعدتها إلى الاحتجاج واللسن ، إلى هذا الجانب الأدبى الظريف ، فكان هذا التحزب نعمة على الأدب وميداناً فسيحاً للقول ،

يظهر فيه قوته وجماله ، كما كان هذا التحزب سبيلا من سبل النهضة الأدبية بما حرك من عواطف ، وأثار من أفكار .

وأحب أن نلم بهذه الناحية فهى أخصب أنواع التأثير فى الأدب العربى ، وأخطرها ، بل هى أحوج ما تكون إلى بحث شامل ، يظهر لنا أثر الخلاف السياسى فى الأدب لولا ما تتطلبه الرسالة من إجمال . نقول : نتج النزاع على الخلافة أحزاباً سياسية ، ففى العصر الأموى : هاشميون، وأمويون ، وزبيريون، وخوارج ، وفى العصر العباسى :علويون وعباسيون ، وقد أدركت هذه الأحزاب ما للأدب من وقع فى النفوس وتأثير ساحر فى العقلية العربية ، فاتخذه كل فريق أداة لنشر دعوته ، وتأليف القلوب حوله ، فكان لكل حزب شعراء وخطباء يقومون بالدعاية له ـ شأن الصحف اليوم ـ وابتدأ ذلك من أول يوم اختلفت فيه آراء المسلمين حول الخلافة والخليفة ، لكن نتاجها لم يظهر إلى الوجود أدبا يستحق الخلود إلا بعد قتل عثمان بن عفان ـ رضى الله عنه ـ واستقلال الجماعات العربية أحزابا منتظمة ، فرأينا فى جانب علىّ ـ رضى الله عنه ـ شعراء وخطباء ، وفى جانب معاوية كذلك .

فى جانب علىّ : أبو الأسود الدؤلى ، والنجاشى — وقيس بن عمرو — ، وأبو الطفيل — وعامر بن واثلة — ، والفضل بن عباس بن عتبة[1] ، وغيرهم .

---

(١) ابن أبى لهب بن عبد المطلب بن هاشم ، شاعر الهاشميين ، ولسانهم ، الممثل لآرائهم فى كل طور من أطوار الخلافة ، وهو القائل يخاطب بنى أمية :

مهلا بنى عمنا مهلا موالينا ... لا تنبشوا بيننا ما كان مدفونا
لا تطمعوا أن تهينونا ونكرمكم ... وأن نكف الأذى عنكم وتؤذونا
مهلا بنى عمنا عن نحت أثلتنا ... سيروا رويدا كما كنتم تسيرونا
الله يعلم أنا لا نحبكم ... ولا نلومكم ألا تحبونا
كل له نية فى بغض صاحبه ... بنعمة الله نقليكم وتقلونا

ترجم له فى الأغانى ج ١٥ .

وفى جانب معاوية : كعب بن جعيل[1] ، ومسكين الدارمى[2] ، وأبو العباس الأعمى[3] وأضرابهم ، كل ينافح عن صاحبه ، ويحتج لقضيته ، ويساف من أجله فإذا قال الوليد بن عقبة[4] بن أبى معيط ــ أخو عثمان لأمه ــ يرثى عثمان ، فيتهم بنى هاشم وعلياً ويتوعدهم :

ألا من لليل لا تَغُورُ كواكبه
إذا لاح نجم ، لاح نجم يراقبه

بنى هاشم ردوا سلاح ابن أختكم ولا تنهبوه ؛ لا تحل مناهبه

بنى هاشم لا تعجلوا بإقادة سواء علينا قاتلوه ، وسالبه

فقد يُجبر العظم الكسير وينبرى لذى الحق يوماً حقه فيطالبه

وإنا وإياكم ، وما كان منكم ،
كصدع الصفا ، لا يرأب الصدع شاعبه

بنى هاشم : كيف التعاقد بيننا ؟ وعند على سيفه وحَرائبه

---

(١) كعب بن جعيل . من بنى تغلب بن وائل ، كان شاعر تغلب ، ثم شاعر الشام كلها أيام معاوية .

(٢) ربيعة بن عامر من تميم ، شاعر شريف من سادات قومه ، ترجم له فى الأغانى (ج ٨ ص ٦٨) والشعر والشعراء لابن قتيبة.

(٣) السائب بن فروخ مولى بنى الديل ، شاعر أموى معدود . مقدم عند بنى أمية ، (الأغانى ج ١٥ ص ٢٥٩)

(٤) الوليد بن عقبة من فتيان قريش وشعرائهم وشجعانهم وأجوادهم ، وكان فاسقا ماجنا ، ولى الكوفة لعثمان ــ رضى الله عنه ــ ، فشرب ، وصلى بالناس الصبح أربع ركعات ، فقرأ فيها :

علق القلب الربابا بعد ما تابت وتابا

ثم شهد عليه ، فحد . . . وتولى حده على بن أبى طالب .

لعمرك ! لا أنسى ابن أروى وقتله
وهل ينسين الماء — ما عاش — شاربه
هُمُ قتلوه كى يكونوا مكانه   كما غدرت يوماً بكسرى مَرَازبه
وإنى لمجتاحٌ إليكم بجحفل   يُصِمُّ السميع جَرْسُه وجلائبه

انتدب له الفضل بن عباس بن عتبة يرد عليه ، وينافح عن علىّ وبنى هاشم فيقول :

فلا تسألونا بالسلاح فإنه   أُضيع ، وألقاه لدى الروع صاحِبه
سلوا أهل مصر عن سلاح ابن أختنا
فهم سَلبوهُ سيفه ، وحَرَائبه
وكان ولىّ العهد بعد محمد   « علىٌّ » وفى كل المواطن صاحِبُه
« علىٌّ » ولىُّ الله ، أظهر دينه   وأنتَ مع الأشقَيْنِ فيمن تحاربه
وقد أنزل الرحمن أنك فاسق   فمالك فى الإسلام سهم تطالبه[١]
وشبهته كسرى ، وقد كان مثله
شبيهاً بكسرى ، هديه وعصائبه[٢]

---

(١) فى الوليد نزل قول الله تعالى : (إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا) وذلك أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أرسله مصدقا إلى بنى المصطلق ، فخرجوا للقائه فهابهم ، فعاد إلى رسول الله وأخبره أنهم ارتدوا عن الإسلام ، فغضب الرسول — صلى الله عليه وسلم — وأمر بالسلاح فنزلت الآية (المعارف ص ١٣٩ . والأغانى ج ٥ ص ١٢٠) وانظر كتب التفاسير .

(٢) الأغانى ج ٥ ص ١٢٠ ، والاستيعاب ص ٣٢٣ ، ومجمع الامثال للميدانى ج ١ ص ٣٠٧ .

وهكذا يمضى الشاعران كل فى سبيله ، فالوليد يرثى عثمان ، ويتهم بنى هاشم ويحرض معاوية على الأخذ بثأر أخيه ، والفضل ينقض قوله، ويسفه رأيه وينافح عن صحابته[1] . . . . . . والأدب العربى ينعم بهذا كله ، فتغزر معانيه ، ويسمو خياله .

ويجب أن نذكر تلك الكتب المتبادلة بين على ومعاوية ـ رضى الله عنهما ـ فلها حظ قوى جداً من جمال الأدب ، وللأدب العربى منها حظ قوى من الغنى والثروة .

وكم كانت هذه الكتب تختم بشعر الشاعر من هذه الأحزاب . . . وفى هذا دلالة على تقدير الزعماء للشعر ، وأثره فى العقلية العربية .

فى الكامل : وكتب معاوية ـ رضى الله عنه ـ « بسم الله الرحمن الرحيم من معاوية بن صخر إلى على بن أبى طالب ، أما بعد : فلعمرى ، لو بايعك القوم الذين بايعوك ، وأنت برىء من دم عثمان . كنت كأبى بكر وعمر وعثمان رضى الله عنهم أجمعين ، ولكنك أغريت بعثمان المهاجرين وخذلت عنه الأنصار فأطاعك الجاهل ، وقوى بك الضعيف ، وقد أبى أهل الشام إلا قتالك حتى تدفع إليهم قتلة عثمان ، فإن فعلت كانت شورى بين المسلمين .

ولَعَمْرى ما حُجَّتُك عَلَىّ كحُجَّتك على طلحة والزبير ، لأنهما بايعاك ولم أبايعك ، وما حُجَّتُك على أهل الشام كحجتك على أهل البصرة لأن أهل البصرة أطاعوك ، ولم يطعك أهل الشام.

وأما شرفك فى الإسلام ، وقرابتك من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وموضعك من قريش ، فلست أدفعه ».

---

(١) العقد ج ٣ ص ١٠٩ ، وابن الاثير ج ٣ ص ١٨٠ ، والطبرى ج ٥ ص ١٥١ ، والأغانى ج ٧ ص ٢٢ ، وشرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد .

ثم كتب إليه فى آخر الكتاب بشعر كعب بن جعل وهو :

أرى الشامَ تكره مُلكَ العراق ... وأهل العراق لهم كارهينا

وكلا لصاحبه مُبْغِضاً ... يرى كل ما كان من ذاك دينا

إذا ما رمَوْنا رميناهم ... ودِنَّاهم مثل ما يُقرِضونا

فقالوا : علىٌّ إمامٌ لنا ... فقلنا : رضينا ابن هند ، رضينا

وقالوا : نرى أن تدينوا له ... فقلنا : ألا ، لا نرى أن ندينا

ومن دون ذلك خَرْط القتاد ... وطعنٌ وضربٌ يَفُضُّ الشئونا[١]

[وكُلٌّ يُسَرُّ بما عنده ... يرى غَثَّ ما فى يديه سمينا

وما فى عَلِىٍّ لِمُسْتَعْتِبٍ ... مقالٌ سوى ضَمِّه المُحْدَثينا

وإيثاره اليومَ أَهْلَ الذُّنوب ... ورفع القصاص عن القاتلينا

إذا سِيلَ عنه حذا شُبْهَةً ... وعَمَّى الجوابَ على السائلينا

فليسَ براضٍ ولا ساخِطٍ ... ولا فى النهاة ولا الآمرينا

ولا هو ساء ولا هو سرّ ... ولابُدّ من بعض ذا أن يكونا][٢]

فهذه الأبيات من كعب تمثل نظرة الشاميين إلى على وصحبه فى مسألة عثمان ومن أجل ذلك جعلها معاوية جزء رسالته .

فكتب إليه أمير المؤمنين على بن أبى طالب ــ رضى الله عنه ــ جواب هذه الرسالة « بسم الله الرحمن الرحيم : من على بن أبى طالب إلى معاوية بن صخر ،

---

(١) الشئون : جمع شأن ، وهى موصل قبائل الرأس ، ويفض ، يفرق .

(٢) رغبة الآمل من كتاب الكامل ج ٣ ص ٢١١ ، وما بين القوسين عن شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ج ١ ص ١٨٥ ، والعقدالفريد ج ٣ ص ٨٥ تركها المبرد محرجا ، ولكن كما يقول أستاذنا المرصفى : إن الهجاء لا يكسف ضوء الشمس ، ولا يخسف نور القمر ــ أقول ، بل لقد كانوا يأخذون بضبعه إلى السماء .

أما بعد ، فإنه أتانى منك كتاب امرىء ليس له بصر يهديه ، ولا قائد يرشده ، دعاه الهوى فأجابه ، وقاده فاتبعه . زعمت أنك إنما أفسد عليك بيعتى خطيئتى فى عثمان ، ولعمرى ما كنت إلا رجلا من المهاجرين ، أوردت كما أوردوا ، وأصدرت كما أصدروا ، وما كان الله ليجمعهم على ضلال ، ولا يضربهم بالعمى .

وبعد : فما أنت وعثمان ! ! إنما أنت رجل من بنى أمية ، وبنو عثمان أولى بمطالبة دمه . فإن زعمت أنك أقوى على ذلك فادخل فيما دخل فيه المسلمون ، ثم حاكم القوم إلى . وأما تمييزك بينك و بين طلحة والزبير . وأهل الشام وأهل البصرة فلعمرى ما الأمر هناك إلا سواء . لأنها بيعة شاملة . لا يستثنى فيها الخيار . ولا يستأنف فيها النظر . وأما شرفى فى الإسلام وقرابتى من رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وموضعى من قريش فلعمرى لو استطعت دفعه لدفعته .

ثم دعا النجاشى — أحد بنى الحارث بن كعب — فقال له : إن ابن جعيل شاعر أهل الشام . وأنت شاعر أهل العراق . فأجب الرجل . فقال : يا أمير المؤمنين أسمعنى قوله . قال : إذاً أسمعك شعر شاعر فقال النجاشى :

دعا يا معاوى ما لن يكونا ... فقد حقق الله ما تحذرونا
أتاكم على بأهل العراق ... وأهل الحجاز فما تصنعونا
(على كل جرداء خَيفانةٍ ... وأجرد نهد يَسُر العيونا[1]
عليها فوارس مخشـــية ... كأسد العرين حمين العرينا
يرون الطعان خلال العجاج ... وضرب الفوارس فى النقع دينا
هم هزموا الجمع — جمع الزبير ... وطلحة — والمعشر الناكثينا

---

(١) فرس أجرد : قصير الشعر رقيقه ، والخيف محركة — فى الفرس وغيره — زرقة إحدى العينين ، وسواد الأخرى .

وآلوا يميناً على حلفة لنهدى إلى الشام حرباً زَبُونا
تشيب النواهد قبل المشيب وتُلقى الحواملُ منها الجنينا
فإن تكرهوا الملك – ملك العراق –
فقد رضى القوم ما تكرهونا
فقل للمُضَلّل من وائل ومن جعل الغث يوماً سمينا
جعلتم علياً وأشياعه نظير ابن هند؟ أماتستحونا!؟
إلى أفضل الناس بعد الرسول وصنو الرسول من العالمينا
وصهر الرسول ، ومن مثله إذا كان يوم يشيب القرونا[1]

فحملها على ختام رسالته .

يقول ابن أبى الحديد : وأبيات كعب خير من هذه الأبيات ، وأخبث مقصداً ، وأدهى ، وأحسن .

نعم هى شعر شاعر كما يقول على .

ومهما يكن . فقد أبلى الشاعران فى سبيل مذهبيهما بلاء حسنا ، وأضافا إلى التراث الأدبى ثروة ، نستطيع – على ما فيها – أن نعدها من الأدب الرفيع .

قالوا : لما قامت الحرب بين على ومعاوية بصفين بعث النجاشى إلى معاوية يقول[2] :

يأيها الرجل المبدى عداوته انظر لنفسك أى الأمر تأتمر
فإن نفست على الأقوام مجدهم فابط يديك فإن الخير مبتدر
واعلم بأن علىّ الخير من نفر شم العرانين لا يعلوهم بشر

---

(١) ابن أبى الحديد جـ ١ ص ٢٥٢ – وقد ترك المبرد مابين القوسين تحرجا .
(٢) ابن أبى الحديد جـ ٨ ص ٢٨٢ ، والشعر والشعراء ص ٨٩ .

نعم الفتى هو إلا أن بينكما كما تفاضل ضوء الشمس والقمر
وما إخالك إلا لست منتهيا حتى ينالك من أظفارنا ظفر

وفى الأغانى ، لما استقام لمعاوية الأمر ، لم يكن شىء أحب إليه من لقاء أبى الطفيل – عامر بن والملة – فلم يزل يكاتبه ، ويلطف له ، حتى أتاه ، فلما قدم عليه جعل يسائله عن أمر الجاهلية ، ودخل عليه عمرو بن العاص ونفر معه ، فقال لهم معاوية : أما تعرفون هذا ؟ هذا خليل أبى الحسن ، ثم قال : يا أبا الطفيل : ما بلغ حبك لعلى ؟ قال : حب أم موسى موسى ، قال : فما بلغ من بكائك عليه ؟ قال : بكاء العجوز الثكلى ، والشيخ الرقوب ، وإلى الله أشكو التقصير ، قال معاوية : إن أصحابى هؤلاء لو كانوا سئلوا عنى ما قالوا فى ما قلت فى صاحبك ، قالوا : إذاً والله لا تقول الباطل ، قال معاوية : لا والله ، ولا الحق تقولون ، ثم قال : هذا الذى يقول :

إلى رجب السبعين تعترفوننى مع السيف فى حَوّاء جَمٍّ عديدها[1]
رجوف ، كمتن الطود ، فيها معاشر
كغلب السباع ، نمرها ، وأسودها
كهول وشبان وسادات معشر على الخيل فرسان قليل صدودها
كأن شعاع الشمس تحت لوائها إذا طلعت أعشى العيون حديدها
شعارهم سيما النبى ، وراية بها انتقم الرحمن ممن يكيدها
تخطّفهم آباءكم عند ذكرهم
كخطف ضوارى الطير صيدا تصيدها

---

(١) رجب اسم الشهر المعروف . ويكنى به عن السنة (مجمع الأمثال جـ ١ ص ٤٢٣) وفى رواية إلى رجب الستين ، ولعله أضاف شهرا إلى رجب ، ثم أطلق عليهما « رجبا » تغليبا ، أو لعله يريد إلى أن أبلغ هذه السن تجدوننى فتيالا أزال وقد عمر أبو الطفيل ، فكان آخر من مات من الصحابة [توفى سنة ١٠٠] .

فقال معاوية لجلسائه : أعرفتموه ؟ قالوا : نعم ، هذا أفحش شاعر ، وألأم جليس ، فقال معاوية : يا أبا الطفيل ، أتعرفهم ؟ فقال : ما أعرفهم لخير وما أبعدهم من شر .

قال : وقام خزيمة الأسدى فأجابه :

إلى رجب ، أو غرة الشهر بعده تصبحكم حمر المنايا وسودها
ثمانون ألفاً دين عثمان دينهم كتائب فيها جبرئيل يقودها
فمن عاش منكم عاش عبداً ، ومن يمت ففى النار سقياه هناك صديدها

وهكذا كانت حادثة عثمان ـ رضى الله عنه ـ مدداً فياضاً لأدباء السياسة تتجادل فيها الطوائف الهاشمية والأموية والخارجية ، حتى كان لأبى الطفيل وأبى العباس الأعمى فيها مناقضات كثيرة . جعلت أبا العباس يقول :

لعمرك إننى وأبو طفيل لمختلفان والله الشهيد
أرى عثمان مهتدياً ، ويأبى متابعتى وآبى ما يريد[1]

ولقد كان للمرأة العربية صوت فى هذا النزاع السياسى ـ كما قلنا ـ فعائشة أم المؤمنين تقود الجيش إلى البصرة ، وتحارب علياً فى وقعة الجمل ، وتخطب الناس فى شأن على وعثمان وتحتج انظريتها[2] ، وطبيعى أن يقف بجانبها شعراء وخطباء ، وطبيعى أن يبعث هذا علياً وأنصاره على القول دفاعاً عن أنفسهم وذوداً عن حياضهم ، وكل ذلك أثر من آثار التحزب ، ولعلنا على ذكر من هذه الأبيات الأدبية التى تمثل المرأة الشيعية ، وقد نقلنا طرفا منها فى فصل سابق ، ومَن مِن الأدباء لا يعرف نهج البلاغة وما جمع من خطب الإمام على . تصور هذا الإمام الكريم أوضح تصوير وأتمه ؟ .

---

(١) الأغانى ج ١٥ ص ٦٠ .

(٢) العقد ج ٣ ص ٩٦ ، وانظر مع هذا كتب التاريخ وابن أبى الحديد فى وقعة الجمل.

فإذا سرنا تباعاً مع هذا النزاع السياسى ، أدهشتنا تلك الثروة الـكلامية التى كانت نتيجة طبيعية لهذه الحياة المستعرة ، وليس من سبيل إلى نقلها فى هذه العجالة . . ولـكننا نحيلك على كتب الأدب والتاريخ . . ففى كل ذلك صفحات مشرقة ، ونفحات عطرية من هذا النتاج القيم .

المجالس الأدبية :

على أنه يلفتنا بنوع خاص هذه المجالس الأدبية التى كانت تعقد فى المساجد والأندية ، وقصور الخلفاء والولاة ، فيتبارى فيها أدباء هذه الأحزاب السياسية ورجالها ، وفى هـذه المجالس يتجلى الذهن العربى فى أبهى حلله الأدبيـة ، وفى هذه المجالس ترى إلى أى حد حصفت هذه العقول ، فملـكت طرائق البيان الارتجالى .

يقول عثمان بن طلحة : شهدت من ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ مشهداً ما سمعته من رجل من قريش . . كان يوضع إلى جانب سرير مروان بن الحـكم ـ وهو يومئذ أمير المدينة ـ سرير أصغر منه ، فيجلس عليه ابن عباس إذا دخل ، وتوضع الوسائد فيما سوى ذلك ، فأذن مروان يوماً للناس ، وإذا سرير آخر قد أحدث تجاه سرير مروان ، فأقبل ابن عباس فجلس على سريره ، وجاء عبد الله بن الزبير فجلس على السرير المحدث ، وسكت مروان والقوم ، فإذا يد ابن الزبير تتحرك ، فعلم أنه يريد أن ينطق ، ثم نطق ، فقال : إن ناساً يزعمون أن بيعة أبى بكر كانت غلطة ، وفلتة ، ومغالبة ، ألا إن شأن أبى بكر أعظم من أن يقال فيه هذا ، ويزعمون أنه لولا ما وقع لـكان الأمر لهم وفيهم ، والله ما كان من أصحاب محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ أحد أثبت إيماناً ولا أعظم سابقة من أبى بكر ، فمن قال غير هذا فعليه لعنة الله ، فأين هم حين عقد أبو بكر لعمر ، فلم يكن إلا ما قال ؟ ثم ألقى عمر حظهم فى حظوظ ، وجدهم فى جدود ،

فقسمت تلك الحظوظ ، فأخر الله سهمهم وأدحض جدهم ، وولى الأمر عليهم من كان أحق به منهم[١] ، فخرجوا خروج اللصوص على التاجر ، خارجاً من القرية ، فأصابوا منه غرة فقتلوه ، ثم قتلهم الله به كل قتلة ، وصاروا مطرودين تحت بطون الكواكب[٢]. فقال ابن عباس : على رسلك أيها القائل فى أبى بكر وعمر والخلافة . . . أما والله ما نالا ، ولا نال أحد منها شيئاً إلا وصاحبنا خير مما نالا ، وما أنكرنا تقدم من تقدم لعيب عبناه عليه ، ولو تقدم صاحبنا لكان أهلا ، وفوق الأهل ، ولولا أنك إنما تذكر حظ غيرك ، وشرف امرىء سواك لكامتك ، ولكن ما أنت وما لا حظ لك فيه ؟ اقتصر على حظك ، ودع تيما لتيم ، وعديا لعدى ، وأمية لأمية ، ولو كلمنى تيمى أو عدوى أو أموى لكلمته وأخبرته خبر حاضر عن حاضر ، لا خبر غائب عن غائب ، ولكن ما أنت وما ليس عليك ؟ فإن يكن فى أسد بن عبد العزى شىء فهو لك ، أما والله لنحن أقرب بك عهداً ، وأبيض بك يداً ، وأوفر عندك نعمة ممن أمسيت تظن أنك تصول به علينا ، وما أخلق ثوب صفية[٣] بعد ، والله المستعان على ما تصفون .

ويقول ابن عبد ربه فى العقد : اجتمعت قريش الشام والحجاز عند معاوية ، وفيهم عبد الله بن عباس ، وكان جريئاً على معاوية ، حقاراً له ، فبلغه عنه بعض

---

(١) يشير إلى اختيار عمر ـ رضى الله عنه ـ أصحاب الشورى الستة . وفيهم على وعثمان ، وما كان من مبايعة عثمان بالخلافة .

(٢) هذا رأى عبد الله بن الزبير ، وإذا صح فليس الزبير أبوه بأقل من على خروجا على عثمان وحظاً من قتله .

(٣) صفية بنت عبد المطلب بن هاشم عمة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأم الزبير بن العوام والد عبد الله . . . ولعل ابن عباس يريد أن يذكر ابن الزبير بهذه القرابة .

ما غمه . . فقال معاوية : رحم الله أبا سفيان والعباس ، كان صفيين دون الناس ، فحفظت الميت فى الحى والحى فى الميت . . استعملك على – يا ابن عباس – على البصرة ، واستعمل عبد الله أخاك على اليمن ، واستعمل أخاك [تمّاماً][1] على المدينة ، فلما كان من الأمر ما كان ، هنأتكم ما فى أيديكم، ولم أكشف عما وعت غرائركم وقلت : آخذ اليوم وأعطى غداً مثله ، وعلمت أن بدء اللؤم يضر بعاقبة الكرم ، ولو شئت لأخذت بحلاقيمكم وقيّأتكم ما أكلتم ، لا يزال يبلغنى عنكم ما تبرك له الإبل ، وذنوبكم إلينا أكثر من ذنوبنا إليكم : خذلتم عثمان بالمدينة ، وقتلتم أنصاره يوم الجمل ، وحاربتمونى بصفين ، ولعمرى لبنى تيم وعدى ، أعظم ذنوباً منا إليكم إذ صرفوا عنكم هذا الأمر ، وسنوا فيكم هذه السنة ، فحتى متى أغضى العيون على القذى ، وأسحب الذيول على الأذى ، وأقول : لعل وعسى . . ما تقول يا ابن عباس ؟

فتكلم ابن عباس ، فقال : رحم الله أبانا وأباك ، كانا صفيين متفاوضين ، لم يكن لأبى من مال إلا ما فضل لأبيك ، وكان أبوك كذلك لأبى ، ولكن من هنأ أباك بإخاء أبى ، أكثر ممن هنأ أبى بإخاء أبيك ، نصر أبى أباك فى الجاهلية ، وحقن دمه فى الإسلام[2] .

وأما استعمال علىّ إيانا فلنفسه دون هواه ، وقد استعملت أنت رجالا لهواك لا لنفسك ، منهم : ابن الحضرمى على البصرة فقتل ، وبُسْر بن أرطاة على اليمن فخان ، وحبيب بن مرة على الحجاز فرد ، والضحاك بن قيس الفهرى على الكوفة

---

(١) لما خرج على لحرب الجمل أمر على المدينة تمام بن عباس وما بين المعقوفين عن طبع الاستقامة .

(٢) يشير إلى ما كان من العباس ، إذ شفع لأبى سفيان عند النبى – صلى الله عليه وسلم – يوم فتح مكة ، فشفعه الرسول فيه .

لخصب ، ولو طلبت ما عندنا وقينا أعراضنا ، وليس الذى يبلغك عنا بأعظم من الذى يبلغنا عنك ، ولو وضع أصغر ذنوبكم إلينا على مائة حسنة لمحقها ، ولو وضع أدنى عذرنا إليكم على مائة سيئة لحسنها . وأما خذلنا لعثمان فلو لزمنا نصره لنصرناه . وأما قتلنا أنصاره يوم الجمل فعلى خروجهم مما دخلوا فيه . وأما حربنا إياك بصفين ، فعلى تركك الحق ، وادعائك الباطل . وأما إغراؤك إيانا بتيم وعدى ، فلو أردناها ما غلبونا عليها . وسكت .

فقال فى ذلك ابن أبى لهب :

كان ابنُ حرب عظيم القدرِ فى الناس   حتى رماه بما فيـه ابن عباس
ما زال يهبطه طوراً ويصعده   حتى استقاد وما بالحق من باس
لم يتركن خطـة مما يذلّلُه   إلا كواه بها فى فروة الراس[1]

ولابن عباس فى هذه المواقف الحزبية نتاج وافر من الأدب الجدلى يدافع فيه عن نظرية الهاشميين ، وحقوقهم فى الخلافة ، فتراه مرة مع ابن الزبير ، وأخرى مع بنى أمية ، وطوراً مع الخوارج ، يحاج هؤلاء وأولئك ، بعقل ثاقب ، وبصر نافذ ، وعلم واسع بالدين والأنساب والأدب .

وكذلك كان الحسن بن على ، وابن الحنفية — محمد بن على — وأنصار بنى هاشم فى حسن الجدال والتحاور ، وفى كل ذلك نفع للأدب ، تغزر به مادته ، ويسمو خياله[2] .

* * *

(١) العقد جـ ٢ ص ٣١٦ .

(٢) انظر فى هذا العقد الفريد ، وشرح النهج لابن أبى الحديد . ومروج الذهب . وأمالى المرتضى والإمامة السياسية ، وإعجاز القرآن .

وهذه قطعة من الأدب الخارجى ، أحب أن أنقلها إليك ، فهى أثر من آثار هذا الشجار الحزبى ، لتدرك معى ، إلى أى حد ، كان النزاع بين الشيعة وخصومهم ، سبيلا قويا من سبل النهضة الأدبية ، وباعثاً من بواعث الإشراق البيانى .

على أنى سأنقل منها ما يهمنا فى هذا الفصل ، تاركا ما ذكره الخطيب من سفه وتكشيف .

عاب أهل المدينة أصحاب أبى حمزة الخارجى ، بخفة أحلامهم ، وحداثة أسنانهم فاعتلى المنبر ، متوكئاً على قوس عربية ، فحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على نبيه — صلى الله عليه وسلم — ثم اقتص الخلفاء واحداً واحداً ، إلى مروان بن محمد — الخليفة الأموى فى عصره — وكان فى نظره إلى الخلفاء يمثل النظر الخارجى إلى سياسة الحكم والحكام ، فلم يسلم من لسانه ، إلا أبو بكر وعمر ، ثم أخذ يوازن بين هذه الفرق الثلاث : الأمويين ، والشيعة ، والخوارج، موازنة جريئة .

فبنو أمية « أصابوا إمرة ضائعة ، وقوماً طغاما جهالا ، لا يقومون لله بحق ، ولا يفرقون بين الضلالة والهدى ، ويرون أن بنى أمية أرباب لهم ، فملكوا الأمر وتسلطوا فيه تسلط ربوبية ، بطشهم بطش الجبابرة ، يحكمون بالهوى ويقتلون على الغضب ، ويأخذون بالظنة ، ويعطلون الحدود بالشفاعات ، ويؤمِّنون الخونة ، ويقصون ذوى الأمانة ، ويأخذون الفريضة من غير موضعها ، ويضعونها فى غير أهلها ، وقد بين الله أهلها فجعلهم ثمانية أصناف فقال : (إنما الصدقات للفقراء والمساكين ، والعاملين عليها ، والمؤلفة قلوبهم ، وفى الرقاب ، والغارمين ، وفى سبيل الله ، وابن السبيل) فأقبل صنف تاسع ليس منها فأخذها كلها . . . تلكم الفرقة الحاكمة بغير ما أنزل الله ، فالعنوهم لعنهم الله .

وأما إخواننا من الشيعة — وليسوا بإخواننا فى الدين — ولكنى سمعت الله عز

وجل قال : (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا) فإنهـا فرقة تظاهرت بكتاب الله ، وأعلنت الفرية على الله ، لا يرجعون إلى نظر نافذ فى القرآن ، ولا عقل بالغ فى الفقه ، ولا تفتيش عن حقيقة الصواب ، قد قلدوا أمورهم أهواءهم ، وجعلوا دينهم العصبية لحزب لزموه وأطاعوه فى جميع ما يقوله لهم ، غياً كان أو رشداً ، ضلالة أو هدى ، ينتظرون الدول فى رجعة الموتى ، ويؤمنون بالبعث قبل الساعة ، ويدعون علم الغيب لمخلوق ، لا يعلم أحدهم ما فى بيته ، بل لا يعلم ما ينطوى عليه ثوبه أو يحويه جسمه ، ينقمون المعاصى على أهلها ، ويعملون إذا ولوا بها ، يصرون على الفتنة ، ولا يعرفون المخرج عنها ، جفاة فى دينهم ، قليلة عقولهم ، قد قلدوا أهل بيت من العرب دينهم ، وزعموا أن موالاتهم لهم تغنيهم عن الأعمال الصالحة ، وتنجيهم من عقاب الأعمال السيئة ، قاتلهم الله أنى يؤفكون .

فأى هؤلاء الفرق يا أهل المدينة تتبعون ؟ أم بأى مذهبهم تقتدون ؟

وقد بلغنى أنكم تنتقصون أصحابى ، قلتم : هم شباب أحداث وأعراب جفاة ، ويحكم يا أهل المدينة ! وهل كان أصحاب رسول الله — صلى الله عليه وسلم — المذكورون فى الخير إلا شبابا أحداثاً ؟ ! أما — والله — إنى لعالم بتتابعكم فيما يضركم فى معادكم ، ولولا اشتغالى بغيركم عنكم ما تركت الأخذ فوق أيديكم .

شباب والله مكتهلون فى شبابهم ، غضيضة عن الشر أعينهم ، ثقيلة عن الباطل أرجلهم ، أنضاء عبادة ، وأطلاح سهر[1] ، باعوا أنفساً تموت غداً بأنفس لا تموت أبداً ، قد نظر الله إليهم فى جوف الليل ، منحنية أصلابهم على أجزاء القرآن ، كلما مر أحدهم بآية من ذكر الجنة بكى شوقاً إليها ، وإذا مر بآية من ذكر النار شهق شهقة كأن زفير جهنم بين أذنيه ، قد أكلت الأرض ركبهم ، وأيديهم ،

---

(١) أنضاء جمع نضو ، وأطلاح جمع طلح ، وكلاهما بمعنى المهزول .

وأنوفهم ، وجباههم ، ووصلوا كلال الليل بكلال النهار ، مصفرة ألوانهم ، ناحلة أجسامهم من طول القيام ، وكثرة الصيام ، مستقلون لذلك فى جنب الله ، موفون بعهد الله ، منجزون لوعد الله ، حتى إذا رأوا سهام العدو قد فوقت ، ورماحهم قد أشرعت ، وسيوفهم قد انتضيت ، وبرقت الكتيبة ورعدت بصواعق الموت ، استخفوا بوعيد الكتيبة لوعيد الله ، ولم يستخفوا بوعيد الله لوعيد الكتيبة ، ولقوا شبا الأسنة وشائك السهام ، وظباة السيوف بنحورهم ووجوههم وصدورهم ، فمضى الشاب منهم قدماً ، حتى اختلفت رجلاه على عنق فرسه ، واختضبت محاسن وجهه بالدماء ، وعفر جبينه بالثرى ، وانحطت عليه طير السماء ، وتمزقته سباع الأرض ، فطوبى لهم وحسن مآب .

فكم من عين فى منقار طير ، طالما بكى بها صاحبها فى جوف الليل من خوف الله ، وكم من يد قد أبينت عن ساعدها طالما اعتمد عليها صاحبها راكعاً وساجداً ، وكم من وجه رقيق ، وجبين عتيق ، قد فلق بعمد الحديد .

ثم بكى ، وقال : آه !! آه !! على فراق الإخوان ، رحمة الله على تلك الأبدان ، وأدخل أرواحهم الجنان[1] .

بين المنصور والنفس الزكية :

فإذا كان العصر العباسى ، واستعرت الحياة السياسية بين العلويين والعباسيين وضح هذا الأثر وضوحا بيناً ، وكانت الخصومة الشيعية مصدر خير عميم للأدب العربى .

أليست هذه الكتب الأدبية التى تبودلت بين المنصور والنفس الزكية — محمد ابن عبد الله بن حسن العلوى — أثراً من آثار هذا التحزب ؟

---

(١) الأغانى ج ٢٠ ص ١٠٥ ، والبيان والتبيين ج ٢ ص ١٠٠ ، وابن أبى الحديد ج ٥ ص ٤٥٨ ، والعقد الفريد ج ٢ ص ٣٩٣ .

أوليس هذا النتاج الجدلى الذى خلفه أبان بن عبد الحميد اللاحق ، ومروان بن أبى حفصة ، والسيد الحميرى ، ومنصور النمرى، ودعبل بن على الخزاعى،والعكوك، وديك الجن وغيرهم نتيجة أدبية لهذا النزاع الشيعى .

لقد كان للشيعة أدباء — كما علمنا — وكان أدبهم فى العصر العباسى أعمق أثراً ، وأكثر نتاجا ، وأحر عاطفة ، وأشد تغلغلا فى الحياة الشيعية ، والقضية الشيعية منه فى العصر الأموى ، إذ كان ظلم العباسيين للعلويين أبلغ فى النفس ، وأوقع على القلب من ظلم الأمويين للعلويين :

وظلم ذوى القربى أشد مضاضة   على المرء من وقع الحسام المهند

فما بالك بظلم يقول فيه الشاعر الشيعى :

يا ليت جَوْر بنى مروان عاد لنا   يا ليت ظلم بنى العباس فى النار ؟

فكان من الحتم أن يظهر أثر هذا فى الأدب الشيعى ، وكان من الحتم كذلك أن يبعث قول الشيعة خصومهم على القول يحفزهم على المنافحة ، وفى كل ذلك غنى للأدب وتوسعة لموضوعاته ، وفى كل ذلك صقل للذهن العربى، والخيال العربى؛ للشيعة فيه فضل كبير ، إذ لولا هذا الخلاف السياسى بينهم وبين العباسيين ، ولولا أدباء الشيعة ، وما سلكوا من فنون عاطفية ، لظل الأدب العربى على ما ورثه من أغراض مادية ، ولما رأينا هذا النوع الذى يقال للعاطفة والرأى ، وتصوير الميول .

وأنا أروى لك مثلا من الكتب المتبادلة بين المنصور والنفس الزكية ، أنقله على طوله ، لأنه — بإجماع شيوخ الأدب — مثل قوى رائع الأدب الرفيع ، والنتاج الجدلى الباهر ، ولأنه فوق ذلك يشرح هذا العداء الشديد ، الذى كان يقسم بنى هاشم ، بل العالم الإسلامى ، قسمين - علويين وعباسيين — ، ولأنه يبين شيئاً آخر — أشرت إليه فيما مضى — وهو النظرية السياسية التى كان

يعتمد عليها العباسيون فى إقامة ملكهم ، والعلويون فى المطالبة بحقهم ، ولأنه أساس للأدب السياسى فى هذا الصدر ، ومنبع فياض اغترف منه أدباء الطائفتين جميعاً .

لما بلغ أبا جعفر المنصور ظهور « محمد بن عبد الله » كتب إليه يرغبه ويرهبه ويخوفه عاقبة الخروج والبغى ، ويبذل له الأمان إن تاب وعاد إلى رأى الجماعة ، فكتب إليه محمد[1] :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله المهدى محمد بن عبد الله إلى عبد الله ابن محمد :

(طسم . تلك آيات الكتاب المبين . نتلو عليك من نبإ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون . إن فرعون علا فى الأرض وجعل أهلها شيعاً ، يستضعف طائفة منهم ، يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم ، إنه كان من المفسدين. ونريد أن نمنّ على الذين استضعِفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ، ونجعلهم الوارثين . ونمكن لهم فى الأرض ، ونرى فرعون هامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون) .

وأنا أعرض عليك من الأمان مثل الذى عرضت علىّ ، فإن الحق حقنا ، وإنما ادعيتم هذا الأمر بنا ، وخرجتم له بشيعتنا ، وحظيتم بفضلنا ، فإن أبانا « علياً » كان الوصى ، وكان الإمام ، فكيف ورثتم ولايته وولده أحياء . . ؟!

ثم قد علمت أنه لم يطلب هذا الأمر أحد له مثل نسبنا ، وشرفنا ، وحالنا ،

---

(١) الطبرى جـ ٩ ص ٢١٠ ، ورغبة الآمل جـ ٨ ص ٢٧٩ ، والعقد جـ ٧ ص ٢٧٥ ، وصبح الأعشى جـ ١ ص ٢٥٤ .

وشرف آبائنا . لسنا من أبناء اللعناء ، ولا الطرداء ، ولا الطلقاء[١] ، وليس يمت أحد من بنى هاشم بمثل الذى نمت به من القرابة ، والسابقة والفضل ، وإنا بنو أم رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فاطمة[٢] بنت عمرو فى الجاهلية ، وبنو ابنته فاطمة فى الإسلام دونكم . . .

إن الله اختارنا ، واختار لنا . . . فوالدنا من النبيين محمد — صلى الله عليه وسلم — ، ومن السلف أولهم إسلاماً علىّ ، ومن الأزواج أفضلهن خديجة الطاهرة ، وأول من صلى إلى القبلة ، ومن البنات خيرهن فاطمة ، سيدة نساء أهل الجنة ، ومن المولودين فى الإسلام حسن وحسين ، سيدا شباب أهل الجنة . . . وإن هاشماً ولد علياً[٣] مرتين ، وإن عبد المطلب ولدَ

---

(١) يريد باللعناء بنى سفيان ، فقد رووا أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ رأى أبا سفيان راكبا جملا يقوده معاوية ، ويسوقه يزيد أخوه ، فقال الرسول « لعن الله الجمل وراكبه ، وقائده ، وسائقه » ويريد بالطرداء ، بنى مروان ، وذلك أن الحكم بن أبى العاص كان يسترق أخبار رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويعيب عليه ، فطرده الرسول ، فاختار الطائف ، وأقام بها ، حتى ولى عثمان ـ رضى الله عنه ـ فرده إلى المدينة ، فكان رده إحدى المآخذ على الخليفة الثالث ، ويريد من الطلقاء ، بنى العباس ، فقد كان العباس مع المشركين فى بدر فأسر ، فافتدى نفسه ، وعقيل ابن أبى طالب ، بمال كبير . فذلك حيث يتهمهم محمد بهذا اللقب .

على ان التاريخ يعرف الطليق كذلك لقبا لمن كان فى مكة مشركا ساعة الفتح ، وساعة أن قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (اذهبوا فأنتم الطلقاء) ولم يكن العباس من هؤلاء .

(٢) فاطمة بنت عمرو من كعب بن لؤى ، زوج عبد المطلب ، وهى أم عبد الله والد الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ والزبير ، وأبو طالب والد على .

(٣) من قبل أبيه أبى طالب . وأمه فاطمة بنت أسد بن هاشم .

حسناً مرتين[1] ، وإن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم عليه وسلم ـ ولدنى مرتين : من قبل حسن وحسين ، وإنى أوسط بنى هاشم نسباً ، وأصرحهم أباً ، لم يعرق فىَّ العجم ، ولم تنازع[2] فىَّ أمهات الأولاد ، فما زال الله يختار لى الآباء والأمهات فى الجاهلية والإسلام ، حتى اختار لى فى النار ، فأنا أرفع الناس درجة فى الجنة ، وأهونهم عذاباً فى النار ، وأنا ابن خير الأخيار ، وابن خير الأشرار ، وابن خير أهل الجنة ، وابن خير أهل النار ، ولك الله على ـ إن دخلت فى طاعتى وأجبت دعوتى ـ أن أؤمنك على نفسك وعلى مالك ، وعلى كل أمر أحدثته إلا حداً من حدود الله ، أو حقاً لمسلم أو معاهد ، فقد علمت ما يلزمك فى ذلك .

وأنا أولى بالأمر منك ، وأوفى بالعهد ، لأنك أعطيتنى من العهد والأمان ما أعطيته رجالا قبلى ، فأى الأمانات تعطينى ؟ أمان ابن هبيرة ؟ أم أمان عمك عبد الله بن على ؟ أم أمان أبى مسلم ؟

وبهذا استطاع محمد بن عبد الله أن يعرض نظرية العلويين السياسية والدينية ، وهى أنهم ورثوا الخلافة عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأن أباهم كان وصى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولأن أمهم فاطمة بنت النبى صلى الله عليه وسلم ـ ووارثته ، فما كان لأحد غيرهم أن يلى الخلافة وهم أحياء .

ثم انظر كيف افتخر بمكانه من الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى الإسلام والجاهلية ، ثم بهذه الكرامة التى اختص بها أبناء فاطمة وعلى ، فهو ابن خير الأخيار ، وابن خير الأشرار ـ يريد أبا طالب الذى مات ولم يسلم ، فيروى أنه أقل الناس عذاباً يوم القيامة ، بما دافع به عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم .

ثم ختم كتابه بشرح سياسة المنصور ، وموقفه من العهود التى بذلها

---

(١) من قبل أبيه على ، وأمه فاطمة بنت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ابن عبد الله بن عبد المطلب .

(٢) يعرض بالمنصور ، فقد كانت أمه (سلامة) أمة بربرية ـ .

ليزيد بن عمرو بن هبيرة عامل العراق ، ولمروان بن محمد ، آخر خلفاء بنى أمية ، ثم بالأمان ، الذى بذله لعمه عبد الله بن على ، ثم لأبى مسلم الخراسانى ـ مؤسس دولة العباس ـ فقد نقض المنصور كل هذه العهود وقتلهم شر قتلة .

ولقد كان وقع هذا الكتاب شديداً فى قصر المنصور ، فانتدب كتابه للرد عليه ، وأبى الخليفة إلا أن يرد عليه بنفسه ، فكتب :

بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله أمير المؤمنين إلى محمد بن عبد الله . أما بعد . فقد بلغنى كلامك ، وقرأت كتابك ، فإذا جل فخرك بقرابة النساء ، لتضل به الجفاة والغوغاء ، ولم يجعل الله النساء كالعمومة والآباء ، ولا كالعصبة والأولياء ، لأن الله جعل العم أباً ، وبدأ به فى كتابه على الوالدة الدنيا ، ولو كان اختيار الله لهن على قدر قرابتهن ، كانت آمنة أقربهن رحما ، وأعظمهن حقاً ، وأول من يدخل الجنة غداً ، ولكن اختيار الله لخلقه على علمه بما مضى منهم ، واصطفائه لهم .

وأما ما ذكرت من فاطمة أم أبى طالب وولادتها ، فإن الله لم يرزق أحداً من ولدها الإسلام ، لا بنتا ، ولا أبناء ، ولو أن أحداً رزق الإسلام بالقرابة . رزقه عبد الله ، أولاهم بكل خير فى الدنيا والآخرة ، ولكن الأمر لله يختار لدينه من يشاء ، قال الله عز وجل : (إنك لا تهدى من أحببت ، ولكن الله يهدى من يشاء وهو أعلم بالمهتدين) ولقد بعث الله محمداً عليه الصلاة والسلام ، وله عمومة أربعة ، فأنزل الله عز وجل (وأنذر عشيرتك الأقربين) فأنذرهم ودعاهم ، فأجاب اثنان ، أحدهما أبى ، وأبى اثنان ، أحدهما أبوك ، فقطع الله ولايتهما منه ، ولم يجعل بينه وبينهم إلاًّ ، ولا ذمة ، ولا ميراثا .

وزعمت أنك ابن أخف أهل النار عذابا وابن خير الأشرار ، وليس فى الكفر بالله صغير . ولا فى عذاب الله خفيف ولا يسير ، وليس فى الشر خيار ،

ولا ينبغى لمؤمن ، يؤمن بالله ، أن يفخر بالنار ، وسترد فتعلم ، وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون .

وأما ما فخرت به من فاطمة أم على ، وأن هاشما ولده مرتين ، ومن فاطمة أم حسن ، وأن عبد المطلب ولده مرتين ، وأن النبى - صلى الله عليه وسلم - ولدك مرتين ، فخير الأولين والآخرين رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لم يلده هاشم إلا مرة ، ولا عبد المطلب إلا مرة .

وزعمت أنك أوسط بنى هاشم نسباً ، وأصرحهم أما وأبا ، وأنه لم تلدك العجم ، ولم تعرق فيك أمهات الأولاد ، فقد رأيتك فخرت على بنى هاشم طراً . فانظر - ويحك ! ! - أين أنت من الله غداً ، فإنك قد تعديت طورك ، وفخرت على من هو خير منك نفسا وأبا ، وأولا ، وآخرا ، إبراهيم بن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وعلى والد ولده ، وما خيار بنى أبيك خاصة ، وأهل الفضل منهم إلا بنو أمهات أولاد ، وما ولد فيكم بعد وفاة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أفضل من على بن حسين ، وهو لأم ولد . ولهو خير من جدك حسن بن حسن ، وما كان فيكم بعده ، مثل ابنه محمد بن على ، وجدته أم ولد ، ولهو خير منك .

وأما قولك : إنكم بنو رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فإن الله تعالى يقول فى كتابه : « ما كان محمد أبا أحد من رجالكم » ولكنكم بنو ابنته ، وإنها لقرابة قريبة ، ولكنها لا تحوز الميراث ، ولا ترث الولاية ، ولا تجوز لها الإمامة ، فكيف تورث بها ؟ ولقد طلب بها أبوك بكل وجه ، فأخرجها تخاصم ، ومرضها سراً ، ودفنها ليلا ، فأبى الناس إلا الشيخين وتفضيلهما . ولقد جاءت السنة التى لا اختلاف فيها بين المسلمين . أن الجد أبا الأم ، والخال ، والخالة . لا يورثون . وأما ما فخرت به من على وسابقته ؛ فقد حضرت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الوفاة . فأمر غيره بالصلاة . ثم أخذ الناس رجلا بعد رجل

فلم يأخذوه . وكان فى الستة فتركوه كلهم . دفعاً له عنها ، ولم يروا له حقاً فيها :
أما عبد الرحمن فقدم عليه عثمان وقتل عثمان . وهو له متهم ، وقاتله طلحة والزبير ،
وأبى سعد بيعته وأغلق دونه بابه ، ثم بايع معاوية بعده ، ثم طلبها بكل وجه ،
وقاتل عليها ، وتفرق عنه أصحابه ، وشك فيه شيعته قبل الحكومة ، ثم حكم
حكمين رضى بهما وأعطاهما عهده وميثاقه ، فاجتمعا على خلعه ، ثم كان حسن فباعها
من معاوية بخرق ودراهم ، ولحق بالحجاز ، وأسلم شيعته بيد معاوية ، ودفع الأمر إلى
غير أهله ، وأخذ مالا من غير ولائه ، ولا حله ، فإن كان لكم فيها شىء فقد
بعتموه ، وأخذتم ثمنه ، ثم خرج حسين بن على على ابن مرجانة ، فكان الناس
معه عليه حتى قتلوه ، وأتوا برأسه إليه ، ثم خرجتم على بنى أمية فقتلوكم ، وصلبوكم
على جذوع النخل ، وأحرقوكم بالنيران ، ونفوكم من البلدان ، حتى قتل يحيى بن
زيد بخراسان ، وقتلوا رجالكم ، وأسروا الصبية والنساء ، وحملوهم بلا وطاء فى
المحامل ، كالسبى المجلوب إلى الشام ، حتى خرجنا عليهم ، فطلبنا بثأركم ، وأدركنا
بدمائكم ، وأورثناكم أرضهم وديارهم ، وسنينا سلفكم ، وفضلناه فاتخذت ذلك
علينا حجة ، وظننت أنا إنما ذكرنا أباك ، المتقدمة له منا على حمزة والعباس
وجعفر .

وليس ذلك كما قلت ، ولكن خرج هؤلاء من الدنيا سالمين ، متسلماً منهم ،
مجتمعاً عليهم بالفضل ، وابتلى أبوك بالقتال والحرب ، وكانت بنو أمية تلعنه
كما تلعن الكفرة فى الصلاة المكتوبة ، فاحتججنا له ، وذكرناهم فضله وعنفناهم
وظلمناهم بما نالوا منه ، ولقد علمت أن مكرمتنا فى الجاهلية سقاية الحجيج الأعظم ،
وولاية زمزم ، فصارت للعباس من بين إخوته ، فنازعنا فيها أبوك ، فقضى لنا عليه
عمر ، فلم نزل نليها فى الجاهلية والإسلام ، ولقد قحط أهل المدينة ، فلم يتوسل عمر
إلى ربه ، ولا يتقرب إليه إلا بأبينا ، حتى نعشهم الله وسقاهم الغيث ، وأبوك

حاضر لم يتوسل به ، ولقد علمت أنه لم يبق أحد من بنى عبد المطلب بعد النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ غيره ، فكان وارثه من عمومته .

ثم طلب هذا الأمر غير واحد من بنى هاشم ، فلم ينله إلا ولده ، فالسقاية سقايته ، وميراث النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ له ، والخلافة فى ولده ، فلم يبق شرف ولا فضل فى جاهلية ولا إسلام ، فى دنيا ولا آخرة إلا والعباس وارثه ومورثه .

وأما ما ذكرت من بدر ، فإن الإسلام جاء والعباس يمون أبا طالب وعياله ، وينفق عليه للأزمة التى أصابته ، ولولا أن العباس أخرج إلى بدر كرهاً لمات طالب وعقيل جوعاً ، أو يلحسا جفان عتبة وشيبة[1] ، ولكنه كان من المطعمين فأذهب عنكم العار والسبة ، وكفاكم النفقة والمؤونة ، ثم فدى عقيلا يوم بدر . . فكيف تفخر علينا ، وقد علناكم فى الكفر ، وفديناكم من الأسر ، وحزنا عليكم مكارم الآباء ، وورثنا دونكم خاتم الأنبياء ، وطلبنا بثأركم فأدركنا منه ما عجزتم عنه ولم تدركوا لأنفسكم » والسلام .

وبهذا استطاع المنصور أن يهدم مفاخر ابن عمه فى شرف المناظرة ، وبراءة الحجاج ، وأن يقيم على أنقاضها مفاخر العباسيين ، ويبسط قضيتهم فى الخلافة ، تلك التى تقوم على أن العم أولى بالوراثة من البنت ، وعلى أن العباس قد ورث النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ دون أحد من بنى عبد المطلب ، فأبناؤه يرثونه ، وعلى أن بنى علىّ قد نزلوا عن حقهم فى الخلافة حين باعها الحسن من معاوية بخرق ودراهم ـ كما يقول ـ ثم أخذ يسرد مفاخره فى الجاهلية والإسلام ، ويعير العلويين نكرانهم الجميل ، وكفرهم للنعمة . . . فقد نهض بنو العباس بثأرهم ، وطلبوا بدمائهم حتى أدركوا الثأر ومسحوا العار ، وأذلوا بنى أمية ، فلم يروا من أبناء عمهم إلا عقوقاً وجهلا .

---

(١) عتبة وشيبة: ابنا ربيعة بن عبد شمس وكانا من المطعمين لقريش يوم بدر .

وضع المنصور أسس الحجاج السياسى العباسى :

نعم ، وبهذه الرسائل ، وكثير من خطب المنصور ، استطاع هذا الخليفة العباسى أن يشرح قضية الدولة ، ويحتج لها بالكتاب والسنة ، وبصر الشعراء بسبل الحجاج السياسى المنيف فسبحوا فيها ، وافتنوا فى صياغتها ، فكان الأدب العربى من ذلك كله ثروة خالدة وآيات من البيان مشرقة ، جمعت جودة اللفظ ، وغزارة المعنى ، وصفاء الأسلوب ، وجمال العبارة .

فى الطبرى : لما ظهر محمد ، قال ابن هرمة [1] لأبى جعفر :

غلبت على الخلافة من تمنى ... وَمَنَّاهُ الْمُضِلُّ بها الضَّلُول
فأهلك نفسه سفهاً وَجُبْناً ... ولم يقسم له منها فتيل
ووازره ذووا طمع فكانوا ... غثاء السيل يجمعه السيول
دعوا إبليس إذ كذبوا وجاروا ... فلم يصرخهم المغوى الخذول
وكانوا أهل طاعته فولّى ... وصار وراءه منهم قبيل
وهم لم يقصروا فيها بحق ... على أثر الْمُضِلّ ولم يطيلوا
وما الناس احتبوك بها ولكن ... حباك بذلك الملك الجليل
تراث محمد لكم وكنتم ... أصول الحق إذ نفى الأصول

وفى نظرية النبوة يقول الشاعر :

ألا لِلّهِ درّ بنى علِيّ ... ودرّ من مقالتهم كثير

---

(١) إبراهيم بن على ، نشأ بالمدينة ، وتثقف على الرواة والمتأدبين ، ثم قال الشعر فأجاد فى المديح وكان متلافا عاكفا على الشراب واللهو ، وكان علوى الرأى وهو القائل :ـ

ومهما ألام على حبكم ... فإنى أحب بنى فاطمه
بنى بنت من جاء بالمحكما ... ت والدين والسنن القائمه

ولكن حبه للمال لزه بقصر الخلافة توفى سنة ١٥٠ .

يُسَمُّون النبي أبا ويأبى من الأحزاب سطرٌ بل سطور[1]

ويفد مروان بن أبى حفصة ليهنىء الرشيد برمضان سنة إحدى وثمانين ومائة ، فيقول :

إذا فقد الناس الغمام تتابعت عليهم بكَفَّيْك الغيوث المواطر
على ثقةٍ ألقت إليك أمورها قريش ، كما ألقى عصاه المسافر
أمور بميراث النبي وليتها فأنت لها بالحزم طاوٍ وناشر
إليكم تناهت فاستقرت ، وإنما إلى أهله صارت بهن المصائر
وأبناء عباس نجوم مضيئة إذا غاب نجم لاح آخر زاهر
ليهنكم الملك الذى أصبحت بكم أسِرّته مختالة والمنابر
أبوك ولىُّ المصطفى دون هاشم وإن رغمت من حاسديك المناخِرُ[2]

ومروان هذا ، كان من أكبر دعاة العباسيين فى عهد المهدى والرشيد ، فأجزلا عطاءه ، ورسم المهدى له عن كل بيت يقوله فيهم ألف درهم . . . دخل عليه مع الشعراء ، فلما مثل بين يديه أنشده :

طرقتك زائرة فحىّ خيالها بيضاء تخلط بالجمال دلالها
قادت فؤادك فاستقاد ومثلها قاد القلوب إلى الصِّبا فأمالها

فأنصت الناس حتى بلغ إلى قوله :

هل تطمسون من السماء نجومها بأكفكم ، أم تحجبون هلالها ؟
أم تجحدون مقالة من ربكم جبريل بلغها النبىّ ، فقالها ؟

---

(١) ضحى الإسلام جـ ٣ ص ٣١٢ والعقد جـ ٣ ص ١٦٨ .

(٢) الطبرى ج ١١ ص ١١٤ ، وكان مروان من موالى بنى أمية ، ومن هنا ورث بغضه للشيعة ، ثم رأى فى العداء بين أبناء البيت الهاشمى شفاء لما فى صدره توفى سنة ١٨١ .

شهدت من الأنفال آخر آية بتراثهـم ، فأردتم إبطالها[1]

زحف المهدى من صدر مصلاه ، حتى صار على البساط إعجاباً بما سمع ثم قال : كم هى ؟ قالوا : مائة بيت ، فأمر له بمائة ألف درهم ، فكانت أول مائة ألف درهم أعطيها شاعر فى أيام بنى العباس ، كما كان ذلك رسم مروان عند العباسيين ، حتى مات بسبب قوله فى الوراثة :

أنى يكون ـ وليس ذاك بكائن ـ لبنى البنات وراثة الأعمام

فقد لزمه صالح بن عطية حتى أنس به ، ثم أصاب منه غرة فى يوم مرض فيه مروان من حُمَّى أصابته ، وخلا البيت عليهما ، فأخذ صالح بحلقه ، حتى مات ، وخرج ولم يفطن أحد بما فعل[2] .

سخاء العباسيين على شعراء السياسة :

على أن هذا البذخ من العباسيين على الشعر السياسى خاصة ، وما ناله مروان كان سبباً فى تطلع كثير من الشعراء ، إلى هذه الصلات الضخمة ، والجوائز السنية ، فاندفعوا فى هذا النوع من الشعر ، وافتنوا فى إثبات حق بنى العباس فى وراثة الخلافة دون بنى على ، حتى شعراء الشيعة أنسى بعضهم المـال عقيدته ورأيه ، فهذا أبان[3] بن عبد الحميد اللاحق ـ شاعر البرامكة ـ

---

(١) العقد ج ١ ص ١٥٩ ، والأغانى ج ١٠ ص ٨٧ ، ومروان يشير إلى قول الله تعالى « وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله » .

(٢) الأغانى ج ١ ص ٩٠ .

(٣) أبان ابن عبد الحميد بن لاحق ، مولى بنى رقاش ، فارسى نشأ بالبصرة ، ثم ارتحل إلى بغداد ، فاتصل بالبرامكة ، فاتخذوه معلما لأبنائهم ، ومستشاراً لهم ، فنظم لهم كثيرا من العلوم ، وتركوا إليه امتحان من يفد عليهم من الشعراء وتقدير جوائزهم ، فاتلت الخصومة بينه وبين شعراء عصره ، توفى سنة ٢٠٠ (الأغانى ج ٢٠ ص ٧٣) .

ملكت لبه هذه المائة الألف ، فأراد أن يصيب من أموال الرشيد ، ما أصاب مروان ، قالوا : فعاتب البرامكة فى ذلك ، وأنكر عليهم تقصيرهم فى الإنهاء به إلى الرشيد . . . ولكن الرشيد له مذهب فى الشعر ، هو نفى الإمامة عن آل على وذمهم ، وأبان شيعى لفارسيته ، فكيف يستحل ذلك ! ؟ فنازعته نفسه ونازعها ، حتى تغلبت المائة الألف ، فقال قصيدته :

نشدت بحق الله من كان مسلماً   أعَمَّ بما قد قلته العجم والعربْ
أعم رسول الله أقرب زُلْفَة   لديه ، أم ابن العم فى رتبة النسبْ ؟
وأيهما أولى به وبعهـده   وَمَنْ ذا له حق التراث بما وجبْ ؟
فإن كان عباس أحَقّ بتلكم   وكان علىٌّ بعد ذاك على سببْ
فأبناء عباس هُم يرثونه   كما العم لابن العم فى الإرث قد حجبْ[1]

وهى طويلة ذهب فيها أبان مذهب الفقهاء ، وأصحاب المناظرة ـ شأنه فى شعره التعليمى ـ نخلت من كل جمال أدبى ، وجاءت على هذا النمط المفكك لصدورها عن غير عاطفة وعقيدة .

ومع هذا أجازها الرشيد ، فأحسن الجائزة ، لأنه لم يجز الأدب ، وإنما أجاز السياسة . . . . . . ثم اتصل مدحه بالرشيد ، وخص به .

ومَنْصُور النَّمَرِىّ القائل :

شاه من الناس رائع هامل   يعللون النفوس بالباطل[2]

منصور هذا رأى منزلة مروان ، فملكته جائزته ، فاتصل بالفضل بن يحيى حتى حظى عنده ، ثم سلك مذهب الرشيد فى الشعر ، لينال ما ناله مروان ، ولكنه ـ لتشيعه ـ حام ولم يقع ، وأومأ ولم يحقق ، فلم يصرح بالهجاء والسب ، كما كان يفعل مروان ، ولكنه قال[3] :

---

(١) الأغانى والأوراق للصولى.   (٢) انظرها فيما سلف من هذا الكتاب .
(٣) أمالى الشريف المرتضى ج ٤ ص ١٤٤ ، والأغانى ج ١٢ ص ١٧ – ١٩ المقدح ج ٣ ص ١٦٩ .

أمير المؤمنين إليك خضنا غمار الهول من بلد شطير
بخُوصٍ كالأهلة خافقاتٍ تلين على السّرَى وعلى الهجير
حملن إليك أحمالا ثقالا ومثل الصخر والدر النثير
فقد وقف المديح بمنتهاه وغايته وصار إلى المصير
إلى مَنْ لا تشير إلى رسول إذا ذكر الندى كف المشير

ثم ذكر يحيى بن عبد الله ، أخا النفس الزكية ، فقال :

يُذَلِّل مِنْ رقاب بنى علِيّ وَمَنٍّ ، ليسَ بالمَنِّ الصغير
مَنَنْتَ عَلَى ابن عبد الله يحيى وكان من الحتوف على شفير

ثم تخلص إلى قضية الوراثة فى حيطة الذكى الحذر ، فقال :

فإن شكروا ، فقد أنعمت فيهم وإلا فالندامة للكفور
إن قالوا : بنو بنت فحق وردوا ما يناسب للذكور
وما لبنى بنات من تراث مع الأعمام فى ورق الزبور

ثم خاطب العلويين ، فقال :

بنى حسن ، ورهط بنى حسين عليكم بالسّداد من الأمُور
فقد ذقتم قراع بنى أبيكم غداة الروع بالبيض الذكور
أحين شفوكم من كل وتر وضموكم إلى كنف وثير
وجادوكم على ظمأ شديد سقيتم من نوالهم الغزير
فما كان العقوق لهم جزاء بفعلهم وأوى للشؤور
وإنك حين تُبلغهم أذاةً وإن ظلموا لمحزون الضمير

فقال له الرشيد : صدقت ، وأمر له بجائزة دون جائزة مروان ، وهو يقول : أنت مريد فى بنى علىّ .

ولك أن تسأل النمرى : فى أيهما كان صادقاً ؟ فى هذه الأبيات ، وقد اتهم بنى علىّ بالعقوق والجحود ، ونكران الجميل ، أم فى قوله :

آل النبىّ وَمَنْ يحبهم يتطامنون مخافة القتل
أَمِنَ النصارى واليهود وهم مِنْ أُمّةِ التوحيد فى أزل ؟

ولكنه المال ، الذى يقول فيه أمير الشعراء ، أحمد شوقى : « يا مال الدنيا أنت ، والحياة حيث كنت » ، وقديماً قيل : « الأُهما نفتح الّآها » .

فمن شاء مال الرشيد ، فليسلك مذهبه ، وليقل كما قال الشاعر :

يا بن الأئمة من بعد النبى ويا بن الأوصياء ، أقر الناس أو دفعوا
إن الخلافَة كانت إرث والدكم من دون تيم ، وعفو الله مُتّسِع
لولا عدىٌّ وتيمٌ لم تكن وصلت إلى أُميَّة تمريها وترتضع
وما لآل علىّ فى إمارتكم وما لهم أبداً فى إرثكم طمع
يأيها الناس لا تعزُب حلومكم ولا تضعكم إلى أكنافها البدع
العَمّ أولى من ابن العم فاستمعوا قول النصيحة ، إن الحق مستمع

* * *

ويطول بنا القول ، لو ذهبنا نذكر هذا النوع من الأدب السياسى ، الذى خلقته الخصومة الحادة بين الشيعة والعباسيين .

فنجتزىء بهذا القدر ، وهو يكفينا للدلالة على ما كان للشيعة ، من أثر كبير فى الأدب العربى ، أموية وعباسية ، لنفرغ لدراسة عصر آخر من عصور هذا الأدب .

والحمد لله على ما أنعم ، وله الشكر بما ألهم ،
وصلى الله على سيدنا محمد النبى الأمى
وعلى آله وصحبه وسلم

مصادر البحث

الأدب :

الأغانى : لأبى الفرج على بن الحسين بن محمد القرشى الأموى الأصفهانى المتوفى سنة ٣٥٦ طبع بولاق فى عشرين جزءا .

العقد الفريد : لأبى عمر شهاب الدين أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسى المتوفى سنة ٣٢٧ طبع المطبعة الأزهرية فى أربعة أجزاء .

البيان والتبيين : لأبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥ طبع المطبعة التجارية فى ثلاثة أجزاء .

شرح نهج البلاغة : لابن أبى الحديد أبى حامد عز الدين بن عبد الحميد المدائنى طبع دار الكتب العربية فى عشرين جزءا

نهج البلاغة : جمعه شاعر الطالبيين الشريف الرضى (+ ٤٠٦) من كلام أمير المؤمنين على بن أبى طالب ، شرح الإمام الشيخ محمد عبده . وتحقيق الأستاذ الكبير الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد ـ مطبعة الاستقامة .

ديوان المعانى : لأبى هلال العسكرى : الحسن بن عبد الله بن سعد من علماء القرن الرابع ـ مكتبة القدس فى جزأين .

زهر الآداب : لأبى الحسن على بن عبد الغنى الحصرى القيروانى (م ٤٥٣ هـ) المطبعة الرحمانية ثم مطبعة السعادة فى أربعة أجزاء ـ تحقيق الأستاذ الكبير الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد .

خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب : لعبد القادر عمر البغدادى (+ ١٠٩٣) مطبعة المصور بالقاهرة فى جزأين .

الكامل : للمبرد أبى العباس محمد بن يزيد الثمالى الأزدى (+ ٢٨٥) شرح المرحوم الشيخ سيد المرصفى « رغبة الآمل فى كتاب الكامل » ـ طبع النهضة ـ فى ثمانية أجزاء .

العمدة : لأبى على الحسن بن رشيق الأزدى القيروانى (+ ٤٥٦) ـ مطبعة حجازى ثم مطبعة السعادة فى جزأين تحقيق الأستاذ الكبير الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد .

الشعر والشعراء : لأبى محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينورى (+ ٢٧٦ هـ) مطبعة الخانجى .

طبقات الشعراء : لمحمد بن سلام الجمحى (+ ٢٣٢ هـ) .

صبح الأعشى فى كتابة الإنشا : لأبى العباس أحمد القلقشندى (+ ٨٢١ هـ) — طبع دار الكتب فى أربعة عشر جزءا .

نهاية الأرب فى فنون الأدب : لشهاب الدين أحمد بن عبدالوهاب النويرى (+ ٧٣٢ هـ) — طبع دار الكتب فى عشرة أجزاء .

بلاغات النساء : لأبى الفضل أحمد بن أبى طاهر طيفور (+ ٢٨٠) — مطبعة والدة عباس الأول

الأمالى : لأبى على إسماعيل بن القاسم البغدادى القالى (+ ٣٥٦ هـ) — طبع دار الكتب فى ثلاثة أجزاء

أمالى الشريف المرتضى : للسيد الشريف أبى القاسم على بن الطاهر أبى أحمد الحسين (+ ٤٣٦ هـ) — طبع الخانجى فى أربعة أجزاء

معاهد التنصيص شرح شواهد التلخيص لعبد الرحيم بن عبد الرحمن بن أحمد العباس المطبعة البهية ثم السعادة فى أربعة أجزاء — تحقيق الأستاذ الكبير الشيخ محمد محيى الدين عبد الحميد .

فتح القريب شرح شواهد مغنى اللبيب : لجلال الدين عبد الرحمن السيوطى (+ ٩١١ هـ) المطبعة البهية .

المؤتلف والمختلف : لأبى القاسم الحسن بن بشر الآمدى (+ ٣٧٠ هـ) — مطبعة القدس

معجم الشعراء : للامام أبى عبيد الله محمد بن عمران المرزبانى (+ ٣٨٤ هـ)

معجم الأدباء : لشهاب الدين أبى عبد الله ياقوت الحموى الرومى (+ ٦٢٦ هـ) مطبعة هندية بمصر فى سبعة أجزاء ، ثم فى دار المأمون — عشرين جزءا .

العثمانية : للجاحظ تحقيق الأستاذ عبد السلام هارون مطبعة الخانجى

ديوان الحماسة : لأبى تمام

دواوين الشعراء :

تاريخ أدب اللغة العربية : للمرحوم الأستاذ محمود مصطفى

الأدب العربى وتاريخه : للأستاذ محمد هاشم عطية (+ ١٩٥٣)

حديث الأربعاء : للدكتور طه حسين
المدائح النبوية : للمرحوم الدكتور زكى مبارك
جمهرة خطب العرب : للأستاذ أحمد زكى صفوت
تاريخ أدب اللغة العربية : « أحمد حسن الزيات

* * *

التاريخ :

تاريخ الأمم والملوك : لأبى جعفر محمد بن جرير الطبرى (+ ٣١٠ هـ) - طبع الحسينية فى ثلاثة عشر جزءا .
تاريخ الكامل : لابن الأثير على بن محمد الشيبانى (+ ٦٣٠ هـ) طبع بولاق فى اثنى عشر جزءا .
معجم البلدان : لياقوت الحموى مطبعة السعادة فى اثنى عشر جزءا
مقدمة ابن خلدون : لعبد الرحمن بن محمد (+ ٨٠٨ هـ) - التقدم - بولاق .
تاريخ ابن خلدون : لعبد الرحمن بن محمد (+ ٨٠٨ هـ) - التقدم - بولاق . فى سبعة أجزاء
وفيات الأعيان : لابن خلكان شمس الدين أحمد بن إبراهيم (+ ٦٨١ هـ) - طبع مطبعة السعادة فى ستة أجزاء تحقيق الأستاذ الكبير الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد
فوات الوفيات : لمحمد بن شاكر الكتبي (+ ٧٦٤ هـ) - طبع السعادة فى جزأين
مقاتل الطالبين : لأبى الفرج الأصفهانى طبع النجف
مروج الذهب ومعادن الجوهر للمسعودى أبى الحسن على بن الحسين بن على (+ ٣٤٩ هـ) بولاق فى جزأين
تاريخ بغداد : للحافظ أبى بكر أحمد بن على الخطيب البغدادى (+ ٤٦٣ هـ) مطبعة السعادة فى أربعة عشر جزءا
المختصر فى أخبار البشر : لأبى الفداء إسماعيل بن على صاحب حماه (+ ٧٣٢ هـ) فى أربعة مجلدات
الفخرى فى الآداب السلطانية : لابن طباطبا محمد بن على طبع القاهرة سنة ١٣١٩ هـ
الأخبار الطوال : لأبى حنيفة أحمد بن داود بن دنند الدينورى (+ ٢٨٢ هـ) السعادة

البدء والتاريخ : منسوب إلى أبى زيد أحمد بن سهل البلخى ، طبع باريس سنة ١٩١٩

التاريخ الكبير لابن عساكر : للحافظ الكبير : هبة الله بن عبد الله ابن عساكر — روضة الشام فى سبعة أجزاء .

المعارف
الإمامة والسياسة } لابن قتيبة
عيون الاخبار

خطط المقريزى : لتقى الدين أبى محمد أحمد بن على المقريزى (+ ٨٤٥ ﻫ) طبع بولاق فى جزأين

النزاع والتخاصم بين بنى أمية وبنى هاشم : المقريزى

استحقاق الإمامة : للجاحظ

مختصر نهضة الحسين : لهبة الله الحسينى ، طبع دار السلام ، ١٣٤٥ ﻫ

مصرع الحسين : للأستاذ حسين محمد قاسم

مصائب المعصومين : لعبد الخالق بن عبد الرحيم البازى ، مخطوط بدار الكتب

إبصار العين فى أنصار الحسين : لمحمد بن طاهر السماوى ، طبع النجف

إقناع اللائم على إقامة المآتم : فى الحسين : لعبد الكريم العاملى ، طبع العرفان

الحسين عليه السلام : لعلى جلال الحسينى ، طبع السلفية سنة ١٣٤٩ ﻫ

نور العين فى مشهد الحسين : لأبى إسحاق إبراهيم الاسفراينى (+٤٠٨) طبع السلفية

تاريخ الأئمة الاثنا عشرية : لأحمد بن الحسين العاملى ، مخطوط بدار الكتب

مناقب أئمة الزيدية : لأبى عبد الله حميد بن أحمد المحلى

اللهوف على قتلى الصفوف : لرضى الدين على بن موسى بن جعفر

أعيان الشيعة للعاملى : طبع دمشق ١٩٣٥ م

عمدة الطالب فى مناقب آل أبى طالب : لرشيد الدين شهر آشوب ، طبع فارسى

روضات الجنات : لمحمد باقر الموسوس الخوانسارى طبع فارسى

بحار الأنوار : لمحمد بن باقر المجلسى » »

كشف الغمة فى معرفة الأئمة : لمحمد على بن عيسى الأربلى (+ ٦٤٦ ﻫ) بدار الكتب

دائرة المعارف الإسلامية : فى مادة شيعة وخوارج وغيرهما

دائرة معارف الأستاذ محمد فريد وجدى

تاريخ الإسلام السياسى : للدكتور حسن إبراهيم
الفاطميون فى مصر : » » »
تاريخ عمرو بن العاص : » » »
الشيعة فى التاريخ : للأستاذ حسين الزين
الجمعيات السرية : للأستاذ محمد عبد الله عنان
إعجام الأعلام : للأستاذ محمود مصطفى

* * *

العقائد :

الملل والنحل : للشهرستانى أبى الفتح محمد بن عبد الكريم (+ ٥٤٨ هـ) طبع القاهرة ، ثم مطبعة الأزهر فى جزأين
الفصل فى الملل والنحل : لابن حزم أبى محمد على بن أحمد (+ ٤٥٦ هـ)
الفرق بين الفرق : لأبى منصور عبد القاهر بن طاهر البغدادى (+ ٤٢٩) طبع المعارف
فرق الشيعة : للحسن بن موسى النوبختى
الشيعة : لمحمد صادق بن محمد حسين الصدر ، طبع بغداد
أصل الشيعة وأصولها : لمحمد الحسين آل كاشف الغطاء ، طبع صيدا
الشيعة وفنون الإسلام : لمحمد صدر الدين الحسينى طبع صيدا
الدفاع عن الشيعة : لعز الدين آل يس ، طبع بغداد
مقالات فرق المسلمين : للرازى وتحقيق فضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ مصطفى عبد الرازق
السيادة العربية والإسرائيليات : لفان فلوتن ترجمة الدكتور حسن إبراهيم ، والأستاذ محمد زكى إبراهيم ، طبع السعادة
فجر الإسلام } للمرحوم الأستاذ أحمد أمين فى أربعة أجزاء
ضحى الإسلام }

* * *

التشريع :

تفسير الألوسى للعلامة أبى الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسى ، طبع القاهرة — فى تسعة أجزاء

الفخر الرازى : للامام محمد فخر الدين بن العلامة ضياء الدين عمر طبع العامرية فى ثمانية أجزاء

تفسير الطبرى : لابن جرير الطبرى ، طبع بولاق فى ثلاثين جزءا

صحيح البخارى : للعلامة المحدث محمد بن إسماعيل بن إبراهيم (+ ٢٥٦ هـ)

شرح العينى على البخارى : لبدر الدين أبى محمد محمود بن أحمد العينى فى أربعة عشر جزءا

شرح النووى على مسلم . للعلامة محي الدين بن شرف النووى فى خمسة أجزاء

الزرقانى على المذاهب اللدنية : للعلامة محمد بن عبد الباقى الزرقانى المالكى ـ فى أربعة أجزاء

أسد الغابة فى معرفة الصحابة : لابن الأثير عز الدين أبى الحسن (+ ٦٣١) فى خمسة أجزاء طبع مطبعة القاهرة

الإصابة فى تمييز الصحابة : لابن حجر شهاب الدين بن على العسقلانى فى ثمانية أجزاء

الاستيعاب فى معرفة الأصحاب : لابن عبد البر أبى عمر يوسف فى مجلدين ـ حيدر أباد

الطبقات الكبرى : لمحمد بن سعد الكاتب فى ثمانية أجزاء ـ ليدن

الفواكه الدوانى على رسالة أبى زيد القيروانى : للعلامة أحمد بن غنيم النفراوى فى فقه المالكية

الكافى : لمحمد بن يعقوب الكلينى (+ ٣٢٨ هـ) فى ثلاثة أجزاء .

فهرس الموضوعات